



د. أحمد عزراوي

اللهم نج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطلح و أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

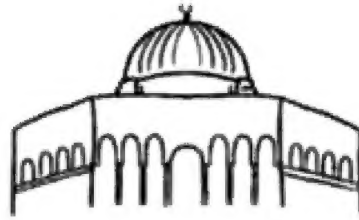
عصر الطوائف في الأندلس من خلال رسائل ديوانية

(القرن الخامس الهجري/11م)

دراسة وتحقيق



الطبعة الأولى
2013 /1434



اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها



اللهم تج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بـ أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفسح كربها

عصر الطوائف في الأندلس من خلال رسائل ديوانية

(القرن الخامس الهجري/11م)

دراسة وتحقيق

د. أحمد عزاي



الطبعة الأولى

2012 /1434



اللهم نج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطلح : أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..."
(الحجرات ، الآية 9)

رقم الإيداع القانوني:

2012 MO 3240

رسمك:

978 - 9954 - 31 - 731 - 0



صورتنا الغلاف:

الواجهة الأمامية صورة خيالية للمعتمد بن عباد أحد أشهر ملوك الطوائف

الواجهة الخلفية ؛ خريطة للأندلس في مطلع عصر الطوائف

حقوق الطبع

محفوظة للمؤلف

العنوان : كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة
ابن طفيل، القنيطرة- المملكة المغربية (ص.ب 190)
البريد الإلكتروني azzaouiamed@yahoo.fr

الطبعة الأولى

2013 / 1434

تقديم

ما يزال فضيلة الأستاذ أحمد عزاي، في مجهوده العلمي، يستقصي المظلة ليغني، في صمت بين الفينة والأخرى، خزانة الغرب الإسلامي بالمصادر التي تقدّم، ولا شك، عوناً كبيراً للمؤرخين ولطلاب المعرفة من الطلبة. وتتميز النصوص- التي قدّمها فضيلته سواء في رسائل موحّدية أو في رسائل الغرب الإسلامي أو في رسائل ديوانية أو في غيرها من الأعمال التي أضحت لا غنى عنها في كتابة تاريخ بلاد المغرب والأندلس- بتعدد مواردها التاريخية وتنوّع موادّها الإخبارية.

يضم هذا الكتاب، الذي يوجد بين أيدينا، بين دفتيه نصوصاً أندلسية مهمّة، وهي بالمناسبة لا تقل أهمية عن سابقتها، وتكمن جدواها في كونها صادرة عن أولى الأمر في الجزيرة، وتكشف رغم قدمها عن حقائق ما تزال غير موظفة بالشكل المطلوب؛ وقد عمد الأستاذ أحمد عزاي إلى تقريب الاستفادة منها بوضع مقدّمة ودراسة ممهّدة بيّن من خلالها الحثثات السياسية التي مثّلت عاملاً من عوامل ضعف الخلافة في عهد هشام المؤيد (366-399هـ) وطمع حاجبه عبد الرحمن شنجول في خلافته، وما تبع ذلك من فتنة خلال القرن الخامس عرف عصرها بعصر الطوائف.

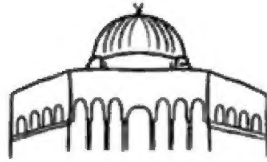
عمد الأستاذ أحمد عزاي - على عادته في كل أعماله العلمية - إلى تقريب الفائدة من طالبيها بإنجاز تحليل موسوعي لكل مملكة من ممالك الطوائف، وأعطى كلا منها حيزاً سهّل به أمر التعرف عليها، ابتداءً بجمودبي مالقة وسبتة وانهاء ببني زيري الغرناطيين ومرورا ببني جهور وبني عباد وبني الأفطس وبني ذي النون وبني المنذر وبني هود والعامريين وبني رزين وبني صمادح. وتتميز هذه الفترة من تاريخ الأندلس بالصعوبة في الدراسة لغناها بالأحداث وتشعب مسالكها السياسية التي خطتها العلاقات الأندلسية - الأندلسية والعلاقات الأندلسية - النصرانية. ورغم أن هذه الرسائل المتوقّرة هي غالباً مبتورة الأول والآخر وأحياناً الوسط، باعتبار أن الغرض الأساسي من تسجيلها أصلاً هو التعريف بإنتاج الأدباء وإبراز مكانتهم الأدبية وليس حفظاً لتاريخ المرحلة،- حتّى إنّ ما يعرف عنها أدبياً ربما هو أكثر ممّا يعرف عنها سياسياً-، فإنها بفضل ما قدّمه صاحب الرسائل من مجهود بجعلها في إطارها الزمني وإكمال اختصاراتها تعطي انطباعاً بقوة الالتزام العلمي، لهذا الرجل، الذي يعكسه عمله الجديد.

ساهم الأستاذ أحمد عزاي - بلمّة شتات هذه المجموعة الجديدة من الرسائل - في إضافة لبنة جديدة داخل صرح موسوعته الرسانلية، التي لم يأمل منها منذ البداية

إلا توفير المادة الكافية لبناء أبحاث جادة. وفي الواقع فإن دراسة التاريخ اعتماداً على النصوص الرسمية - كانت رسائل أو ظواهر أو تقارير - هي من أفضل الوسائل للوصول إلى نتائج طيبة، رغم ما يمكن أن يحيط بهذه الرسائل والظواهر من شكوك؛ ولذلك، لا يتمتع هذا النوع من الأدوات بالمصداقية إلا إذا تعهّده أيدي تكون على قدر عال من المعرفة بخصوصية هذا النوع من الوثائق الذي يتميز في الغالب بغرابة اللفظ فيخفي في طياته أشياء قلما توجد مصادر أخرى بمثلها.

إن الجهود التي بذلها الأستاذ أحمد عزايي والتي لا يزال يبذلها في تحقيق هذا النوع من المصادر الرسمية تجعله حجة من الدرجة الأولى في ميدانه ومرجعاً لا يمكن تجاوزه في كتابة تاريخ الأمبراطورية الموحدية أو الدولة المرينية أو تاريخ علاقات الغرب الإسلامي بالغرب المسيحي. ويقتضي الواجب العلمي التنويه بمثل هذه المنجزات والاعتراف لأصحابها بالفضل.

سلا في 10 محرم 1434 / 25 نونبر 2012
ذ. محمد الغرايب



اللهم فحّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بـ أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

مقدمة المؤلف

عرفت الأندلس الإسلامية عصور طوائف كان أشهرها ما حدث في القرن الخامس الهجري بعد نهاية دولة الخلافة الأموية، فقد نشأت هذه الدولة سنة 138 هـ على يد عبد الرحمن الأول (الداخل) الذي قديم إلى الأندلس فاراً من العباسيين بعد استيلائهم على منصب الخلافة الأموية في المشرق وتتبعهم أبناء الأسرة الحاكمة بالتنكيل والقتل. استمر حكم عبد الرحمن الداخل وذريته في الأندلس إلى أوائل القرن الخامس، وقد احتفظوا بلقب الإمارة حتى سنة 316 مراعاة لرأي المجتمع الذي كان يرفض وجود أكثر من خليفة للمسلمين، وأن الأحق بلقب الخلافة هو من يشرف على الحرمين الشريفين. لكن في نهاية القرن الثالث خرق العبيديون الفاطميون الذين ظهروا في إفريقية هذه القاعدة باعتبار زعمانهم الأحق بالإشراف على العالم الإسلامي فتسموا بالخلفاء، فرأى عبد الرحمن الثالث الأموي (300-350) أنه أجدر بذلك وإحياء لخلافة أجداده في دمشق، فتسمّى بالخليفة وأمير المومنين واتخذ لقب الناصر لدين الله.

تسلسلت الخلافة بعد الناصر في ابنه الحكم المستنصر بالله (350-366) ثم حفيده المؤيد هشام بن الحكم (366-399)، الذي طغا عليه نفوذ حاجبه المنصور ابن أبي عامر، حتى إن عبد الرحمن (المدعو شنجول) ابن هذا الحاجب عندما تولى الحجابة للخليفة هشام سنة 399 فرض عليه تنصيبه ولياً للعهد (انظر الرسالة الأولى)، وهذا يعني إمكانية نقل الخلافة من البيت الأموي القرشي إلى بيت يمانى، وهو أمر لم يكن مقبولاً لدى المجتمع آنذاك، فكان سبباً في مقتله وضعف مركز الخلافة الأموية حتى تم إلغاؤها سنة 422، ليبدأ بشكل رسمي ما سمى بعصر الطوائف أي حكام المدن والجهات المستقلة عن بعضها البعض، والمتنازعين فيما بينهم لتوسيع نفوذهم مع الاستعانة بالنصارى في ذلك¹، مما أضعف قوتهم وسهل على الإسبان الاستيلاء على كثير من مدن وحصون الثغور إلى أن احتلوا طليطلة عاصمة مملكة بني ذي النون سنة 478، مما دفع إلى الاستجداد بالمرابطين وإنقاذ البلاد من التهديد النصراني.

حاولنا في هذا البحث المتواضع عن عصر الطوائف أن نوثق الرسائل الديوانية الصادرة عن ملوك الفترة لفهم جوانب من الأوضاع السياسية والعسكرية لها، مع

¹ - بدأ عصر الطوائف من الناحية العملية مع مطلع القرن الخامس، لكن مع الاحتفاظ بتبعية رمزية لخليفة مرواني أو حمودي حتى سنة 422.

العلم أنّ الرسائل المتوقّرة هي غالباً مبتورة الأول والآخر وأحياناً الوسط، باعتبار أنّ الغرض الأساسي من تسجيلها هو التعريف بإنتاج الأدباء وإبراز مكانتهم الأدبية وليس حفظاً لتاريخ المرحلة، ولذا فإنّ ما يعرف عنها أدبياً ربما هو أكثر ممّا يعرف عنها سياسياً خصوصاً وأنّ هذا الجانب كان مليئاً بالسلبيات، وعلى هذا فإنّ الرسائل لا تحمل تواريخ محدّدة، فحاولنا وضعها في الإطار الزمني المناسب أو في فترة قريبة محصورة بين تاريخين، كما حاولنا تنميط الاختصارات التي وضعها جامعو الرسائل عند تقديمهم لكل رسالة حرصاً على إفادة القراء، فإذا حدث منا خطأ في هذا الشأن فإننا نرجو المعذرة والتصويب ممّن له دراية في الموضوع. أمّا المصادر التي استخرجنا منها هذه الرسائل فهي بالدرجة الأولى كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسّام الشنتريني¹، و"قلاند العقيان ومحاسن الأعيان"² للفتح بن خاقان، تليها مصادر أخرى توزعت خلالها جملة من الرسائل، وقد سجلنا في الهامش بالنسبة لكل رسالة المصدر المأخوذة منه.

وضعنا في البداية تقديمًا عامًا للفترة، ثمّ قدمنا لرسائل الجهات الرئيسية نقاديين مناسبة حتّى يمكن فهم موضوعها، وألحقنا بالرسائل الديوانية الصادرة عن الملوك والأمراء مجموعة من الرسائل الموجّهة إلى بعض الأمراء لما رأينا فيها من إضافة مفيدة، وتجنّبنا الخوض في الرسائل المرابطية لأنها خارجة عن موضوعنا³، واكتفينا بالرسائل الصادرة عن ملوك الطوائف إلى السلطة المرابطية حتّى نهاية عصر الطوائف بضمّ سرقسطة إلى الحكم المرابطي سنة 503⁴. نرجو من الله السداد والتوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

القنيطرة في فاتح محرم 1434 / 16 نونبر 2012

¹ - المؤلف هو أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني المتوفى سنة 542، الشهير بابن بسّام، وكتابه "الذخيرة" من تحقيق د. إحسان عباس، طبع في أربعة أقسام كل قسم في مجلدين، المجموع ثمان قطع، وذلك بدار الثقافة ببيروت سنة 1997.

² - المؤلف هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي المشهور بابن خاقان، المتوفى سنة 529، مؤلف كتاب "القلاند"، حققه د. حسين يوسف خربوس، ونشرته جامعة اليرموك في مجلد واحد يضم جزءين، وطبعته طبعة أولى مكتبة المنار بالزرقاء- الأردن. سنة 1989.

³ - نستثنى من هذا رسالتين عن يوسف بن تاشفين حول معركة الزلاقة أتينا بهما للمقارنة مع بعض رسائل المعتمد بن عباد حول نفس الموضوع.

⁴ - هذا بالنسبة لرسائل المتن التي بلغ عددها 106 رسائل، وألحقنا بها 26 رسالة موجّهة إلى ملوك الطوائف، فيكون المجموع 132 رسالة، وتتخلل البحث أربع خرائط، وثلاث جداول نسب، ولانحة مفصلة لممالك وملوك الطوائف.



اللهم نج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بأمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

القسم الأول

نهاية فترة الخلافة المروانية في
قرطبة وتجربة الخلافة الحمودية

(399 - 422)

قراءة تاريخية مختصرة للقرن الخامس

أولاً ؛ مرحلة احتضار الخلافة في قرطبة (399-422)¹

1- خضع عصر الخليفة هشام الأموي (366-399) لحجابه المنصور ابن أبي عامر، فحاول هذا أن يركز نفوذه ونفوذه أسرته على حساب الأطراف الأخرى المحيطة بالخليفة معتمداً على قوة جيشه المكوّن من الصقالبة والبربر (المغاربة)، وعند وفاته خلفه ابنه **عبد الملك المظفر** (393-399) في الحجابه التي مارسها ست سنوات ونصف، محاولاً السير على نهج أبيه. وعندما تولى هذه المهمة أخوه **عبد الرحمن المدعو شنجول** طمع في منصب الخلافة نفسه، حيث لم يُبق للخليفة هشام أية سلطة، وعزم على تحويلها إليه، ففرض عليه القبول بجعله ولياً للعهد، وهذا يعني انتقال الخلافة من البيت الأموي القرشي إلى بيت قحطاني يماني، وهو أمر لم يكن مقبولاً في عرف المجتمع، فكان عمله هذا بداية "الفتنة" التي عرفتها الأندلس، حيث قُتل الحاجب عبد الرحمن في نفس السنة 399 خلال عودته من غزوته الوحيدة، فافترق الأمر بين من يدعمه جيش الصقالبة (المعروفين بالعامريين نسبة إلى الحاجب ابن أبي عامر) ، ومن يدعمه العنصر العربي، ومن يدعمه العنصر البربري؛ فقد حاول الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر – بعد خلع الخليفة هشام- أن ينقل إليه الخلافة وتسمّى بالمهدي في 16 جمادى الثانية 399 لكنه لم ينجح في المحاولة، لكونه أراد الانتقام من الجند البربري²، حيث بايع هؤلاء الأمير سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي استعان بفرقة من النصارى فدخل قرطبة في أواسط سنة 400 وتسمّى بالمستعين بالله. ثم تمكن المهدي بن عبد الجبار ثانية من اقتحام قرطبة بدعم أحد قادة الفتيان العامريين (واضح حاكم طليطلة) وفرقة من الإشبانية مستفيداً من الدعم المعنوي للخليفة هشام الفاقد لأية سلطة مادية، لكن عزم المهدي على مقاتلة البربر حيثما وجدهم أدّى إلى هزيمته ثانية وعودة المستعين مرة أخرى إلى خلافة قرطبة، إذ دخلها في 27 شوال 403، وفرّ العامريون إلى الشرق الأندلسي، بعد فشلهم في إقناع الخليفة هشام للحركة معهم قبل اختفائه عن الأنظار، فلجأ بعضهم إلى مساعدة بني حمود ضد المستعين، فوصل هؤلاء إلى الخلافة بقرطبة كما سنرى.

خلال خلافة المستعين الأولى القصيرة (سنة 400) عين ابنه محمداً ولياً للعهد، وفي ولايته الثانية وزّع القبائل البربرية في البلاد إرضاء لرغبتها من جهة، وإرضاء لأهل قرطبة في إبعاد العنصر البربري عنهم، وحتى لا يكون هو تحت رحمة هذا العنصر من جهة أخرى، ومن هذه القبائل بنو زيري الصنهاجيون في البيرة (منطقة غرناطة)، وبنو

¹ - ملاحظة: التقديم الوارد قبل نصوص الرسائل لا يمثل تاريخاً مكتملاً ولكنه تقديم لفهم مضامين هذه الرسائل.

² - كان المرابطون ومن حولهم ينقمون على البربر كونهم السبب في قوة الحاجب المنصور وتسلطه على منصب الخلافة فكروهوهم، فحرموا من الخدمة العسكرية، وتعرضت دورهم للنهب بقرطبة، فاجتمع جند البربر على المستعين وبايعوه، ودعمته فرقة من النصارى فدخل قرطبة، وأخذ الخلافة بها.

برزال اليفرنيون في منطقة جيان، وبنو حمود في الجزيرة الخضراء وسبتة وطنجة وأصيلا، وبنو دمر وأزداجة في شذونة ومورور¹....

2 - سبق ذكر دعم العناصر المضادة لسليمان بن الحكم المستعين بالله بأن شجعوا بني حمود الأدارسة على الوصول إلى الحكم في قرطبة، كان منهم علي بن حمود في جنوب المضيق (سبتة، طنجة، أصيلا) وأخوه القاسم في شماله²، فتحرّك عليّ من سبتة إلى مالقة، مدعماً من خيران العامري أمير ألمرية، ومن جيرانه الصنهاجيين أصحاب غرناطة وما حولها. وجرت في جهات مالقة حرب مع المستعين قتل خلالها، وانتقل علي بن حمود إلى قرطبة معلناً الخلافة بها لنفسه، حيث بويغ يوم الاثنين 23 محرم 407. وكان دعم خيران له من أجل إظهار الخليفة هشام من جديد وبيعته، فلما لم يُعثر له على أثر وأعلن علي بن حمود الخلافة لنفسه انحرف عنه خيران³، وقد ذكر أنّ الخليفة هشام الأموي كان كتب ولاية عهده لابن حمود وأوصاه بالتأثر له⁴، فأصبحت هذه الولاية ميرراً لسعيه إلى منصب الخلافة⁵.

بعد استقرار علي ابن حمود في منصب الخلافة بقرطبة قصد خيران الجهة الشرقية ودعا كافة العامريين لبيعة أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر ولقب بالمرتضى، مما شجّع بعض الفتيان الصقالبة (العامريين) في قصر قرطبة على تدبير قتل ابن حمود في ثاني ذي القعدة 408⁶. فاستدعى جند زناتة بها أخاه أبا محمد القاسم بن حمود من ولايته بإشبيلية، وبايعوه بالخلافة فتلقب بالمامون⁷. غير أنه أصبح مهتداً من طرف المرتضى خليفة الشرق وبميل القرطبيين نحوه، إضافة إلى انحراف منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة وكذا صاحب طليطلة الذين اتفقوا جميعاً على إعادة الخلافة الأموية، فبايعوا عبد الرحمن المرتضى المذكور⁸، وعزموا على إنهاء القوة السياسية البربرية من الأندلس بدءاً بغرناطة (حيث قوة جند صنهاجة) ثم قرطبة (حيث قوة جند زناتة)، لكن المرتضى قتل في المواجهة مع جيش أمير غرناطة زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، فكانت هذه الهزيمة سبباً في رسوخ قدم بني حمود في قرطبة فترة أخرى.

¹ - راجع تفاصيل هذه الأحداث عند ابن عذاري: البيان 91/3 وما بعدها، 113-119 نج. بروفصال؛ ابن الخطيب في: أعمال الأعلام 109/2 وما بعدها (نج. بروفصال. بيروت 1956)؛ ابن خلدون: العبر 4، ط. بيروت 1968، ص 323 وما بعدها

² - قال ابن حيان: "وكان هشام عندما رآه من اضطراب أمره ونيقته من انصرام دولته، بما مُني به قديماً وحديثاً من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه، وفيامهم واحداً بعد واحد في خلعه- صير إلى علي بن حمود ولاية عهده، وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله بذلك إلى سبتة ... وولاه طلب دخله [دمه] واستكنمه السرفيه إلى أوانه" (ابن حيان: منصوص كتاب المتن، تحقيق عبد الله محمد جمال الدين، طبعه مدريد 1997، ص 28)

³ - ذكر ابن سعيد أن خيران فر من قرطبة بعدما استشعر العذر به، فبايع المرتضى، وخيران هو الذي دبر من قتله خلال الحملة على عرابطة (المغرب في حلي المغرب 194/2، ط. القاهرة 1980).

⁴ - المتن ص 28

⁵ - انظر ترجمة علي بن حمود في الذخيرة ق1/م1/96-102؛ البيان 3/119-124؛ حذوة المقتبس 21 (القاهرة 1372هـ)؛ أعمال الأعلام 2/128-129؛ العبر 4/330-336 (عن بني حمود).

⁶ - خلال نفس السنة 407 بويغ بشرق الأندلس المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الحليفة الباصر

دعماً من خيران العامري وبقية العامريين بالشرق، بدعوى منع تحول الخلافة عن البيت الأموي الذي هم

مواليه، ودعمهم المنذر صاحب سرقسطة وكذا صاحب طليطلة (راجع البيان 3/121-122).

⁷ - البيان 119 وما بعدها، المتن 79-80

⁸ - اسمه كذلك في البيان 3/121؛ وهو عند ابن الخطيب: عبد الرحمن بن محمد (بن عبد الملك) بن عبد الرحمن الناصر (أعمال الأعلام 2/130).

استمرّ القاسم (المأمون) في الإمارة نحو ثلاث سنين إلى أن تخلى عنه الجند البربري لصالح ابن أخيه أمير سبتة يحيى بن علي (الملقب بالمعتلي بالله)¹ فلجأ القاسم إلى إشبيلية مقرّ ولايته السابق في ثامن ربيع الثاني 412، فاجتمع الأندلسيون من أهل قرطبة وأعمالها مع البربر حول الأمير يحيى، وكانت ببعته يوم فاتح جمادى الأولى من سنة 412، واستوزر له الكاتب أبا جعفر أحمد بن برد الكبير، (هو منشئ جملة من رسائل هذا البحث)، فحسنت سيرته أولاً، وهادن عمّه القاسم صاحب إشبيلية، ثمّ ساءت أحواله بتغيّر موقف أهل قرطبة منه، وهم المعروفون بتقلب مزاجهم السياسي، فساءت معاملته لهم، وعندما لم يطمئن إليهم خرج إلى مالقة فاستدعى أهل قرطبة عمه القاسم ثانية في ذي القعدة 413، فضمّ إشبيلية إلى قرطبة، ولم يلبث أن خلعه أهلها في جمادى الآخرة 414، فخرج منها إلى ولايته السابقة مدينة إشبيلية، لكن أهلها رفضوا استقباله بتدبير قاضيها محمد بن إسماعيل بن عبّاد ليهيئ أمر إشبيلية لنفسه²، فلجأ القاسم إلى شريش للاستقرار بها، وكانت تابعة ليحيى ابن أخيه (صاحب مالقة) فتغلب عليه وأسرّه. لم تستقرّ أحوال أهل قرطبة بعد خروج القاسم الحمّودي منها، حيث قتموا عليهم في رمضان سنة 414 خليفة من الأمويين هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار (أخو المهدي) ولقبوه بالمستظهر، وبعد شهرين بايعوا المستكفي³ محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الخليفة الناصر، ثمّ خلعه سنة 416، عندما زحف إليهم يحيى المعتلي الحمّودي من مالقة، واقتحم قرطبة في رمضان من السنة فبايعه أهلها⁴. وفي مطلع السنة اللاحقة (417) ذهب المعتلي إلى زيارة مالقة وترك قرطبة بيد وزيره وكاتبه أبي جعفر أحمد بن برد، وبينما كان في مدينة قرمونة مطمئناً إلى ابن عبّاد قاضيه على إشبيلية، دبر هذا في الهجوم عليه بها فقتل المعتلي في المعركة بين الطرفين (سنة 417)⁵، وتمكن محمد بن عبد الله البرزالي (من قادة جند المعتلي) من الاستيلاء على قرمونة. وانتهى أمر بني حمود ثانية وبصفة نهائية من قرطبة، واضطربت أحوالها، ثمّ انتقل أمرها إلى آخر المروانيين وهو هشام بن محمد بن عبد الله بن الناصر الملّقب بالمعتد بالله، وهو أخو المرتضى المذكور⁶. واستمرّ حكم بني حمّود في مالقة والجزيرة وجنوب المضيق إلى أواسط القرن في إطار ملوك الطوائف، واستقلّ القاضي ابن عباد بإشبيلية، متظاهراً بالبيعة للخليفة هشام لدعم سلطانه في وجه بني حمّود، ثمّ انتهت دعوة هشام المرواني هذا بخلعه سنة 422، فانقرض أمر الخلافة المروانية⁷.

¹ - بينما انتقل هو إلى مالقة طالباً الخلافة انتقل أخوه إدريس منها إلى سبتة.

² - انظر ترجمته وترجمة ابنه المعتضد وحميده المعتمد في الدخيرة 2/ م 1/ ص 13 وما بعدها.

³ - هو والد الأدبية ولأدّة، وكان عبد الرحمن أبوه قتله المنصور ابن أبي عامر لسعيه في الخلاف (نفج 4/ 437).

⁴ - أعمال الأعلام 2/ 136-137.

⁵ - قام الوزير أبو محمد بن جهور ببيعة هشام بن محمد أخى المرتضى في ربيع الأول سنة 418 وكان عبد الله هود في لاردة أو في البوت، وتلقب بالمعتد بالله، وبقي ينتقل في النحر ولم يدخل قرطبة إلا في آخر سنة 420، ثم خلعه الجند سنة 422 وفر إلى لاردة وبقي بها إلى وفاته سنة 428 (العمر 4/ 329-320).

⁶ - وصلته ببعات شكلية من بعض الأمراء مثل عبد العزيز صاحب بننسية وسليمان بن هود صاحب لاردة وغيرهما... انظر التفاصيل عن فترة خلافة هشام في الدخيرة 3/ م 515/1 وما بعدها: حدود المقتبس 26-27.

أعمال الأعلام 2/ 138-140.

⁷ - العتب 60-61، 80-83، 152: الباب 3/ 188 وما بعدها.

ثانياً؛ عصر ملوك الطوائف

من إمارات الطوائف إمارات أكبر مساحة، وأخرى متوسطة، وثالثة أصغر تشمل مدينة وناحيتها، وسنعالج ما تبقى من عصر الخلافة بقرطبة وعصر ملوك الطوائف من خلال تتبع الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن الخلفاء والأمراء خاصة بالنسبة للإمارات الكبرى التي سمي زعمائها بالملوك، وعرف آخرون باسم الرؤساء، واتخذ الجميع الألقاب الملوكية، كما حمل ولاية العهد أحياناً لقب الحجاب، ومن هؤلاء الملوك والأمراء بعد عصر الخلافة¹:

1 - بنو حمود في مالقة وسبتة

بعد خروج الخليفة يحيى المعتلي الحمودي من قرطبة سنة 417 لجأ إلى مالقة محتفظاً بلقب الخليفة، فوجد الدعم من جاريه أمير غرناطة حيوس بن ماكسن الزيري وأمير ألمرية. وكانت مدينة قرمونة شرق إشبيلية تحت سلطة الخليفة الحمودي، ووقعت خارجها سنة 427 معركة مع ابن عباد قتل فيها هذا "الخليفة" الحمودي، وتحرك أتباعه وحلفاؤه إلى أحواز إشبيلية يعيشون فيها بعد أن بايعوا بالخلافة أخاه إدريس المتأيد. ووصلت الدعوة إلى أهل قرطبة لبيعة هذا الخليفة الحمودي باعتباره معروفاً بشخصه ونسبه عوض خليفة مشكوك في أمره في إشبيلية نصبه ابن عباد، ومن ذلك رسالة من زهير العامري أمير ألمرية إلى أهل هذه المدينة. ولهذا اعتبر ابن عباد الحموديين الذ أعدائه الذين يعرقلون مساعيه في توسيع مملكته ومحاولة إسباغ الشرعية على أعماله العسكرية؛ فقد نصب بإشبيلية سنة 426 للخلافة شخصاً على أنه هشام المؤيد الأموي، مدعياً أنه أفلت من يد المستعين واختفى لسنوات طويلة. كما وطد ابن عباد علاقاته مع أمراء سرقسطة للتخفيف من منافسة جاريه الشماليين ملكي طليطلة وبطليوس رغم تظاهرهما بالبيعة للخليفة المزعوم.

ورد في البيان المغرب نقلاً عن ابن حبان الوضع بالأندلس في الثلاثينيات، فميز بين اتجاهين مختلفين: بنو الألفس في بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، والعامريون في الشرق يبايعون للمزعم هشام بإشبيلية (426 - 451)؛ أما ابن صمادح بالمرية وأمراء البربر في غرناطة وأقصى الجنوب فيبايعون للخليفة إدريس الحمودي.

ظل بنو حمود محتفظين بلقب الخلافة في أقصى الجنوب، فبعد وفاة إدريس المتأيد سنة 431 بويغ بالخلافة حسن المستنصر ابن أخيه يحيى المعتلي (431-434)². وأشهر أمراء مالقة وسبتة بعده أخوه إدريس العالي بالله (434-438)، ثم القائم عليه محمد المهدي ابن عمه إدريس المتأيد (438 - 444). وبنهايته انقسم الحموديون إلى أكثر من

¹ - راجع عن الموضوع بشكل مختصر ما كتبه ابن خلدون في العبر 4/ 321-356

² - هذا حسب رواية الحميدي المعاصر للحدث في كتابه جدوة المقنيس ص 30-31، وكانت هناك محاولة لتقديم يحيى بن إدريس الهالك فعشلت. قارن مع أعمال الأعلام 2/ 140-141؛ البيان 3/ 289-292

أمير: ففي مائة محمد المستعلي بن إدريس العالي، إلى أن أخرجه باديس بن حبّوس من مائة واستولى عليها في آخر ربيع الثاني سنة 448¹، وفي الجزيرة الخضراء بويج بالإمارة ثم بالخلافة بنو القاسم (خليفة قرطبة السابق) أولهم محمد المعتصم بن القاسم ثم ابنه القاسم (الواثق) بن محمد الذي أخرجه ابن عبّاد من مدينته وضمّها إلى مملكته سنة 450 على الأرجح²، وسارت سبّة نحو الانفصال تحت قيادة الحاجب سكوت البرغواطي إلى أن قضى المرابطون على هذه الإمارة بعد موته في السبعينيات.

2 - بنو جهور في قرطبة

تناوب على حكم قرطبة الخلفاء الحموديون والمروانيون إلى أن خلع المعتد هشام المرواني بتدبير من بعض قرابته سنة 422، فتخلّت العامّة عن فكرة الخلافة المروانية، وأسندوا أمرهم إلى "شيخ جماعتهم" أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور من بني أبي عبدة، فانتعشت قرطبة بحسن تدبيره إلى وفاته في 6 محرم 435، فخلفه ابنه أبو الوليد محمد، لكنه جعل الولاية إمارة متوارثة بتتصيب ابنه الأصغر عبد الملك ولياً للعهد، وكانت علاقة أبي الوليد سينة مع جاره الشمالي ابن ذي النون ملك طليطلة، فتحالف مع ملك إشبيلية، وكلاهما كان يطمع في الاستيلاء على قرطبة، غير أنّ المعتمد ملك إشبيلية الجديد (461 - 484) الذي دُعيّ لإنقاذ قرطبة من ابن ذي النون بسط عليها نفوذه بتأمر مع بعض قادتها، فانتهى بذلك حكم بني جهور منها (463)، فجعل عليها المعتمد ابنه سراج الدولة المظفر عبّاد³. غير أنّ أحد قادة الثغور الجنوبية في مملكة المأمون ابن ذي النون وهو حكّم بن عكاشة استطاع دخول قرطبة وقتل واليها ابن المعتمد وتحويل بيعتها إلى ملك طليطلة، الذي زارها في أواخر جمادى الثانية سنة 467، فلمّا توفّي في أواخر ذي القعدة من نفس العام مسموماً بتدبير المعتمد، أعاد هذا بسط نفوذه على قرطبة، وولّى عليها ولده المأمون، فبقي بها إلى أن دخلها عليه المرابطون سنة 484⁴.

3 - بنو عباد (ملكة إشبيلية)

عند اندلاع الفتنة الطائفية كانت إشبيلية ولاية تابعة لبقية الخلفاء في قرطبة من المروانيين والحمّوديين، ولمّا ثار أهلها على يحيى المعتلي الحمّودي سنة 417 استقلّ

¹ - النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أو يريح فضاء الأندلس (بيروت 1983) ، ص 91

² - توقفت رواية الحميدي حوالي سنة 445، وورد في العبر أنّ سقوط الحريرة في يد ابن عباد كان سنة 450، بعد سقوط مائة سنة 448 في يد صاحب غرناطة حسب النباهي الذي حدد شهر ربيع الأول وهو الراجح، أو 449 حسب ابن خلدون (المرقبة العليا 91: العبر 335/4)، وهذا ما يتفق مع مقارنات أخرى على خلاف ما يظهر من أعمال الأعلام 2/ 142؛ والبيان 3/ 188-192، 216 وما بعدها: 230-231، 242-243.

³ - كان هذا الفتح من حظّ المعتمد وفي أول حكمه (أعمال الأعلام 2/ 138 ، 145-152: البيان المغرب 2/ 232-234 ؛ كتاب المتن 89-92 وفيه نبذة عن بني جهور). كان ابن عباد استولى في منتصف الأربعينيات على إمارات البكرين والبربر في أقصى الجنوب العربي: (لبلة، شنتمرية الغرب، شلب...)

⁴ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام 2/ 156-159

القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد بإشبيلية. وتأكيداً لاستقلاله عن خلافة الحموديين في مالقة لجأ إلى البحث عمّن يدعم شرعية حكمه في وجههم، فنصب شخصاً للخلافة سنة 426 ادّعى أنه هشام المؤيد المرواني كما ذكرنا¹. واستمرّ على هذه السياسة ابنه المعتضد عباد (433 - 461) فازدادت مكانته لاحتضانه هذا الخليفة المزعوم، ممّا شجّعه على المزيد من توسيع مملكته وخاصة على حساب طرفين: الإمارات الصغيرة في جنوب غرب الأندلس فجعلها جزءاً من مملكته في أواسط الأربعينيات، بعد الهدنة التي وقعت بينه وبين منافسه وجاره المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس سنة 443²، ثم انشغل بالإمارات الصغيرة المرتبطة بعضها رمزياً بالبيعة للحموديين أو المتحالفة معهم مثل قرمونة ومورور وأركش³، كما وضع المعتضد حدّاً للخليفة الحمودي من بني القاسم في الجزيرة الخضراء في منتصف القرن⁴، بعد أن كان أمير غرناطة باديس بن حبوس استولى على مالقة المركز الأساسي لبني حمود، بحيث امتد نفوذه إلى المضيق ودخل في نزاع مع سكوت البرغواطي صاحب سبتة، فطالبه بتسليمها له لكونها من ممتلكات بني القاسم أصحاب الجزيرة، بينما طالبه سكوت بإرجاع الجزيرة لكونها كانت ملكاً لمواليه من بني القاسم بن علي بن حمّود.

في مطلع الخمسينيات وبعد توسيع مملكة إشبيلية رأى المعتضد أنه في غير حاجة إلى التمويه بخلافة المزعوم هشام، فألغى الدعاء له آخر سنة 451 مدّعياً أنه سبق أن توفي ولم تكن الظروف مناسبة لإعلان وفاته. وكما سبق أن خطّط للعمل ضد بني حمود حتى سنة 450 فأصبحت حدود مملكته تطلّ مباشرة على المضيق، فإنّه أصبح مهتماً بتوسيع نفوذه في جهات أخرى بدءاً بقرطبة التي كان ينافسها عليها المأمون ابن ذي النون ملك طليطلة، مما جعل بني جهور أمراء قرطبة (422 - 463) يميلون تارة إلى بني ذي النون لإيقاف أطماع ابن عباد، وتارة أخرى إلى ابن عباد لردّ بني ذي النون عن قرطبة، فنشبت حروب بين المتنافسين، إلى أن تمكن المعتضد بن عباد - بالتحايل على عبد الملك بن جهور - من الاستيلاء على قرطبة ويتعاون بعض رجالها معه، ثم استولى عليها المأمون ابن ذي النون واستقرّ بها إلى

¹ - كان هذا الوضع مناسباً له لمواجهة بني حمود، كما ناسب في البداية ابن جهور لمواجهة طمعهم في قرطبة (ابن سبّام نقلاً عن ابن حيان: *الذخيرة* 2/ م 1/ ص 18).

² - كان ذلك في ربيع الأول بعد حروب بينهما (ابن حيان: *نصوص من كتاب المتن* ص 117).
³ - جعل صاحب كتاب *المتن* بهاية الحموديين سنة 449 أو 450 (*المتن* 118-119). وأخراً ابن عذاري إلى سنة 465 (*البيان* 3/ 218)، وورد عند الناهي سقوط مالقة في آخر ربيع الأول سنة 448 نقلاً عن ابن عسّكر في تراجمه لعلماء مالقة (*المرقية العليا* 91).

⁴ - *الذخيرة* 2/ م 1/ ص 38-40.

وفاته سنة 467¹، ثم عادت وبصورة نهائية ومنذئذ إلى سلطة المعتمد بن عباد (461-484)، فعين عليها أحد أبنائه، إلى أن دخلها المرابطون في نفس السنة التي دخلوا فيها إشبيلية وهي سنة 484.

كانت أطماع بني عباد في التوسع على حساب الإمارات الغربية وعلى ثغور ابن الأفطس (ملك بطليوس) الجنوبية الغربية عاملاً في النزاع شبه المستمر بين الطرفين؛ كان النزاع بينهما أولاً حول مدينة باجة، وتمكن ابن عباد من طرد قوات ابن الأفطس منها حوالي سنة 420، ثم انتقم ابن الأفطس لهزيمته من ابن عباد سنة 425 حيث كانت هزيمة ابنه إسماعيل شرّ هزيمة غرست عداوة بين الطرفين طال زمانها².

استمرت العداوة بين بني عباد وابن ذي النون ملك طليطلة خاصة في عهد ملكها المامون بن ذي النون، ولما كان القشتاليون يمهّدون لحصار طليطلة في عهد القادر توسّع المعتمد ابن عباد في القسم الجنوبي الشرقي من مملكته إلى أن ورثه المرابطون. وامتد نفوذه شرقاً إلى جيان سنة 466 وذلك على حساب مملكة غرناطة. ثم أوصل نفوذه إلى البحر شرقاً على حساب بني طاهر أمراء مرسية سنة 471³، واستمر الأمر كذلك إلى سقوط مملكة إشبيلية في يد المرابطين سنة 484.

وقفت مملكة غرناطة شوكة في حلق بني عباد ضدّ مشروع توسّعهم في الجنوب الشرقي خاصة بتحالفها مع أمير المرية، ومساعدة الظروف الطبيعية وصمود الجند البربر والسوداني. وكان المعتضد بسط نفوذه على الجزيرة الخضراء الحمودية سنة 450 وعلى رندة بعد ذلك، فانفتحت له الطريق من أجل بسط نفوذه على إمارة مالقة الحمودية التي كان استولى عليها باديس ملك غرناطة. وشجعت خيانة أهلها - بحكم الميل للعصية الأندلسية - على محاولة اقتحام مدينة مالقة، فوقعت هزيمة شنيعة على الجيش العبادي خارج قصبة مالقة واضطرّ للتراجع بعدما ترك القتلى والأسرى والغنائم في ميدان المعركة، وقد ذكر عبد الله بن بلكين أمير غرناطة أنّ عامل التوتّر بين ابن عباد وغيره من الأمراء كان سببه وزيره ابن عمّار، ثم حسّنت العلاقة بعد مقتله بين ابن عباد وعبد الله أمير غرناطة⁴. لكنّ هذا المبرّر غير كاف لتعليل سوء العلاقات، فقد كان بنو عباد منذ عهد جدّهم يعملون على توسيع إمارتهم على حساب الإمارات الأخرى كما رأينا، مما أدّى إلى ظهور حالات من التحالف مع البعض والتوتّر مع البعض

¹ - **الحلة السبيرة** 2/ 176-177؛ وفي **العبر** 4/ 344 أنه دخل قرطبة سنة تسع وستين؛ ولا يحفى ما يقع من خلط بين رقمي سبعة وتسعة كتابة بالحروف.

² - **الذخيرة** ق2/ 19/ 22.

³ - حاول قائده ابن عمّار الاستقلال بها لكنه تمكّن من القبض عليه وقتله.

⁴ - عبد الله بن بلكين الزيري: **البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة**، المنشور تحت عنوان: **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بقرطبة**، ن، بروفصال. القاهرة 1955 (80-82، 96).

الأخر، وربما كان تخوف ابن عباد من طامع آخر أكبر منه وهو الفونسو السادس دافعاً لمحاولة تلطيف الأجواء مع جيرانه في نهاية الأمر أي عند بداية حصار طليطلة أو بعد سقوطها. وبالنسبة للعلاقة مع القشتاليين كان المعتمد - وقبله أبوه المعتضد - يدفع لهم جزية سنوية، ويظهر أنه عقد مع الفونسو حلفاً يجدد بمقتضاه الالتزام بدفع الجزية له، وبعدم التدخل لمنع تحرك قوات قشتالة في الأراضي الشمالية لمملكة طليطلة، مقابل عدم اعتراض الفونسو على عمل ابن عباد في الأراضي الجنوبية الشرقية لهذه المملكة، مما فتح للقشتاليين الطريق لاقتطاع الأراضي الشمالية منها قطعة بعد أخرى دون أي تحرك من ابن عباد من أجل دعم ملك طليطلة¹. غير أن الخطر أخذ يتجاوز مملكة بني ذي النون إلى مملكة إشبيلية نفسها، وقد بدأ هذا يظهر قبيل سقوط طليطلة، بتصاعد مطالب ملك قشتالة بالانتقال من عدم قبول الجزية إلا من عيار ذهبي جيد، إلى طلب سفن المملكة جزية، ثم طلب تسليم جملة من المدن والحصون بعد سقوط طليطلة²، وأخيراً اقتحام مملكة إشبيلية حتى المضيق، وإبلاغ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من هناك رسالة استفزازية بعدما علم بطلب الأندلسيين منه تقديم الدعم لهم. فكانت هذه الأعمال مؤدية إلى اصطدام المعسكرين الإسلامي والنصراني في معركة الزلاقة سنة 479 التي استنشق الأندلسيون بفضلها نسيم الحياة بعد أن كانوا قد فقدوا الأمل في البقاء بالأندلس.

4 - بنو الأفطس (مملكة بطليوس)

ينتسب بنو الأفطس ملوك بطليوس إلى قبائل مكناسة البربرية ممن نزلوا أولاً بفحص البلوط شمال قرطبة، ولما تفرق أمر الخلافة كان جدّهم عبد الله بن مسلمة أحد خدام فتى من العبيد الصقالبة العامريين من قواد الثغور الشمالية الغربية للأندلس، ولما مات الفتى ترك ولدين لم يكونا في مستوى حزمه، فاستبد ابن مسلمة بالأمر عليهما، وتلقب بالمنصور، إلى أن توفي سنة 437³، فخلفه ابنه المظفر محمد بن عبد الله (437 - 461)، فأصبح يعاني من عدوين: المعتضد ابن عباد جنوباً والنصارى القشتاليون شمالاً، ومن نتائج هذا الضغط عليه عجزه عن دعم الإمارات الصغيرة في أقصى الجنوب الغربي لعرقلة امتداد نفوذ المعتضد جنوب مملكته، حيث وقعت عليه أكبر هزيمة عند يابرة سنة 442 اضطر بعدها المظفر إلى مهادنة المعتضد⁴، وكانت الهدنة في صالح ابن عباد لينشغل بالإمارات الصغيرة المذكورة

¹ - في الرسالة رقم 95 لاحقاً اعتراف ابن عباد بتهاونه في دعم صمود طليطلة في وجه حصار الفونسو القشتالي حفاظاً على ما بينهما من عهود، انظر أيضاً الدخيرة ق/4/ 1/ 164 - 166: دول الطوائف 71 وما بعدها.

² - الرسالة رقم 95 لاحقاً: السباب عن الحادثة.. (ص 101 - 102)

³ - انظر الدخيرة ق/2/ 640 - 641

⁴ - ابن بسام: الدخيرة في محاسن أهل الجربة، ط بيروت 1997، ق/1/ 386 - 388 : دول الطوائف 83 - 84.

ليبدأ في ضمها إليه، وفي صالح ابن الأفطس لينشغل بالحرب مع جاره الشرقي المأمون بن ذي النون ملك طليطلة، ومواجهة الحملات النصرانية على ثغوره الشمالية الغربية. كانت سنة 449 بداية تراجع المظفر ابن الأفطس أمام القشتاليين حيث سقطت مدن الثغر الشمالي الغربي، ومنها خاصة المدينة الكبرى قلمرية¹ (سنة 456) التي كانت من فتوحات المنصور ابن أبي عامر في القرن السابق، وكان من حسن حظ ملك بطليوس أن توفي الملك القشتالي فرناندو بعد أخذه قلمرية بسنتين فقط. لكن المظفر توفي بعده أيضاً (سنة 461) وتنازع ولده فيما بينهما على العرش وبتحريض من ملك قشتالة، فمال عمر أمير يابرة والقسم الغربي من المملكة إلى المعتمد بن عباد، ومال يحيى أمير بطليوس إلى المأمون ابن ذي النون ملك طليطلة²، ثم مات يحيى وتوحدت المملكة في يد عمر المتوكل (464 - 488)، فحاول الحفاظ على علاقة مهادنة مع المعتمد، خصوصاً وأنّ النصارى أخذوا يتهيأون لحروب "استرداد" جديدة بعد فترة من الحرب الأهلية داخل قشتالة دامت حوالي سبع سنوات، استقرت بعدها الأحوال للملك ألفونسو السادس، وكان العمل الذي نشن به ألفونسو المرحلة الجديدة لتوسعه هو احتلاله مدينة قورية (سنة 471)³ الواقعة شمال نهر التاجه في أقصى الثغور الشمالية لمملكة بطليوس كخط دفاع أمامي؛ وأخذ يخطط بعد هذا للعمل ضد مملكة طليطلة التي سبق أن احتضنته لاجئاً أيام حكم أخيه سانشو، إلى أن تمكن من دخول عاصمتها سنة 478، دون أن يجدي جيش بطليوس نفعاً لمنعها من السقوط. وشعر المتوكل ابن الأفطس بتزايد الخطر عليه، فسارع مع ابن عباد إلى الاستجداء بالمرابطين، وربما استنجد المتوكل بهم قبل سقوط طليطلة أي بعد سقوط قورية⁴. وكان من جملة الرؤساء الأندلسيين الذين تراجعوا أمام صدمة الجيش القشتالي الأولى التي صمد لها المعتمد في معركة الزلاقة سنة 479. عندما أحسن المتوكل باشتداد ضغط المرابطين عليه سنة 487 بعد سقوط مملكة ابن عباد في يدهم، استنجد بملك قشتالة وتنازل له عن شنترين وأطمعه في مدينة بطليوس، فأتصل أهلها بالقادة المرابطين القريبين من المنطقة وفتحوا لهم أبواب المدينة فقبض على المتوكل وقتل مع ولديه وذلك في السنة اللاحقة 488⁵.

5- بنو ذي النون (مملكة طليطلة)

ذكر أنّ بني ذي النون (أو بني زنون) ملوك طليطلة برابرة من جملة الجند الذين كانوا في خدمة المنصور ابن أبي عامر بالثغور، وكان مستقرهم آنذاك بمنطقة السهلة (شنتمرية

¹ - هناك من ذكر موت المظفر سنة 456 (ابن الآبار: كتاب الحلة السبراء، ط القاهرة 1985 / 2 - 97 - الهامش) ؛ وإذا صح هذا نكوب وفاته وتنازع ولديه بعده على خلافه أهم مساعد للنصارى على اكتساح الشمال الغربي من المملكة. انظر عن سقوط قلمرية أعمال الأعلام 2 / 184؛ دول الطوائف 85.

² - من نصوص كتاب المنبى ص 123

³ - حسب دول الطوائف 110

⁴ - انظر رسالته إلى ابن تاشفين رقم 91 لاحقاً

⁵ - راجع النبأ 172 - 174؛ أعمال الأعلام 2 / 182 وما بعدها ؛ وقارب مع الحلة السبراء 96/2

الشرق)، وكان على طليطلة خلال الفتنة أحد العامريين لم يرض أهلها عن سيرته فاستدعوا عبد الرحمن بن ذي النون¹، فأرسل إليهم ولده إسماعيل الذي لقب بالظافر (427 - 435)؛ وكان اعتماده في تسيير البلد على أحد أشياخها وهو أبو بكر بن الحديدي². وعندما توفي الظافر خلفه ابنه يحيى الملقب بالمأمون (435 - 467)، فسألت علاقته مع جاره الشرقي المقتدر ابن هود خاصة بسبب النزاع على مناطق الثغور³، فاستعان كل منهما بفريق من الإسبان لنهب وتخريب بلد الآخر خصوصاً فيما بين سنتي 435 و438، وحاول المأمون خلال ذلك تحسين علاقته مع ابن عباد بالارتباط بدعوة المدعو هشام المنصوب للخلافة في إشبيلية (426 - 451)⁴. ثم دخل في نزاع مع جاره الغربي المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس. ومذ نفوذه شرقاً إلى بلنسية بعد وفاة أميرها عبد الملك بن عبد العزيز سنة 456⁵، فأصبح أبو بكر بن عبد العزيز نائباً عنه فيها؛ ثم أخذ المأمون يهتد بدخول قرطبة على بني جهور، وقد كان ابن عباد يطمع فيها أيضاً كما سبق الذكر، فلما استنجد بنو جهور به ضد المأمون استولى عليها لصالحه وأنهى حكم الجمهوريين سنة 463؛ ثم سقطت المدينة سنة 467 / 1075م في يد ابن ذي النون بواسطة قائده ابن عكاشة أحد قادة الحصون القريبة من قرطبة، حيث تمكن من دخولها بتأمر مع بعض حراسها، وقتل واليها سراج الدولة عبّاداً ابن أمير إشبيلية، واستقر بها المأمون صاحب طليطلة إلى وفاته في أواخر السنة⁶، فأعاد المعتمد بن المعتض بسط النفوذ عليها بصورة نهائية إلى أن دخلها المرابطون سنة 484⁷.

بعد وفاة المأمون خلفه حفيده القادر يحيى بن إسماعيل (467 - 478)، وقد عرفت المملكة في عهده ارتقاءً في أحضان القشتاليين، خصوصاً بعد مقتل وزيره ابن الحديدي سنة 468، الذي كان ذا وزن لدى أهل طليطلة، فتصاعد التوتر في العلاقة بينه وبين المقتدر صاحب سرقسطة ممّا زاد في اعتماده على الجيش القشتالي لمواجهة أعدائه، وهذا ما أثار ضده أهل طليطلة، ففرّ منها إلى بعض حصون شرق المملكة (كونكة)، واستدعى أهل المدينة ابن الأفطس ملك بطليوس لتسيير أمورها، فوصل إليها آخر سنة 472⁸، وكان أمير

¹ - ذكر ابن بسّام قيام ابن يعيش بطليلة وقت الفتنة، وسمّاه المحقق: يعيش بن محمد بن يعيش، وأن أهل المدينة أخرجوه واستدعوا إسماعيل بن ذي النون (الذخيرة 2/م/16 وهـ 3)

² - ذكره ابن سعيد في المغرب في حلى المغرب، ط القاهرة 1978: 2/ ص13

³ - إضافة إلى كون ابن هود حلّ في مملكة قريب ابن ذي النون التي كان يطمع في ضمّها إليه

⁴ - أظهره ابن عباد بإشبيلية سنة 426 وبايعه، ثم وصلته ببيعة العامريين أصحاب بلنسية ودانية وطرطوشة إضافة إلى ابن جهور في قرطبة، ثم وصلته ببيعة المأمون بن ذي النون سنة 436 (اليان 188، 190، 220)

⁵ - وصل خبر وفاته إلى إشبيلية في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة 456 (كتاب المئين 133)

⁶ - جعل ابن الأبار سقوطها في يد ابن عكاشة سنة 467، ثم استقر بها ابن ذي النون حوالي ستة أشهر قادماً من بلنسية إلى أن مات في ذي القعدة فحمل إلى طليطلة، وسمى ابن عكاشة: حريز بن حكم بن عكاشة (الحلة السيرة 2/ 176 - 177)

⁷ - ابن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط بيروت 1997، ق 2/م/268 - 272: أعمال الأعلام 2/ 158 - 159: دول الطوائف 61، 101، 103

⁸ - الذخيرة 4/م/159. يظهر أنّ تأخره في الوصول إليهم راجع إلى ضغط القشتاليين على ثغوره في منطقة قورية التي سقطت سنة 471؛ وحلال مقامه في طليطلة الذي دام عشرة أشهر طاف بتعور مملكتها "يدعو أهلها للدخول في طاعته، فأجابته حاشا وادى الحجارة... وكان زعيمها يومئذ والغائم

مرسية أبو بكر بن عبد العزيز أيضاً أعلن خلع طاعة القادر، فأصبح هذا محصوراً في ثغور مملكته الشرقية، فطلب الدّعم من ألفونسو ملك قشتالة ليعود إلى طليطلة، مقابل الالتزام بدفع الجزية التي تزايدت قيمتها، والتنازل له عن جملة من الحصون، بل وعده إذا دخل طليطلة "أن يخلي بينه وبينها"¹. فوصل إليها القادر مع الجند القشتالي وشدّد عليها الحصار إلى أن دخلها سنة 474، بعد تغلبه على مقاومة سكانها "وشروط للنصارى لا يطاق حملها"²، وعندما فشل أهل طليطلة في الثورة على القادر ثانية في عيد الأضحى من نفس السنة 474، انتقم منهم شرّاً انتقام، ولم تنفعهم استعانتهم بألفونسو الذي بدأ خطته لأخذ المدينة بإفقار ما حولها حتى يضطرّ الجوع أهلها للاستسلام. ومما أورده ابن بسّام أنّ أهل طليطلة طلبوا الميرة من ملوك الطوائف فلم يتوصلوا بشيء، وفي الشتاء عندما انقطعت الميرة عن جيش قشتالة المحاصير للمدينة توصل بما يحتاجه من المذكورين³، فلمّا اشتدّ الحصار وعدمت المرافق في طليطلة تمكن ألفونسو من دخولها وذلك أوائل سنة 478. وحاول تعويض ابن ذي النون عن مملكته فساعده على امتلاك بلنسية (478-485)، أملاً في أن يتمهّد له الاستيلاء عليها. لكنّ طمع ألفونسو بعد ذلك في بقية الممالك حركها للخروج من التردّد في مسألة الاستجداد بالمرابطين، فوقع الاتفاق على استدعائهم⁴.

6 - بنو المنذر ثم بنو هود (ملوك سرقسطة)

شهد مطلع القرن الخامس اندلاع الفتنة في الأندلس فاستقلّ كل وال أو قائد بجهته، وقد استقلّ بسرقسطة منذر بن يحيى التجيبي الملقب بالمنصور (408 - 414)، ثم ابنه يحيى المظفر (414 - 420)، وكان آخرهم منذر بن يحيى الملقب بمعز الدولة (420 - 430) الذي خذل الخليفة هشام المخلوع (سنة 422)⁵، وهادن الممالك الإسبانية دفْعاً لضررها، لكنه اغتيل في أواخر سنة 430 من طرف أحد أقربائه هو عبد الله بن حكيم، الذي استولى على سرقسطة، فأساء السيرة فيها، فقام عليه أهلها واستدعوا صاحب مدينة لاردة سليمان بن هود⁶ وقتموه عليهم في مطلع سنة 431 فتلقّب بالمستعين بالله⁷.

استمر حكم أسرة بني هود من سنة 431 إلى سنة 503، وأول أمرائها جدّهم سليمان المستعين بالله المذكور، وكان له خمسة أولاد كلف كلّ واحد منهم بحجة من جهات الثغر استبَدَّ

بأمرها من أهلها حامد بن مسرة الفقيه"، ويظهر أنّ هذه الحركة حدثت أواخر سنة 473 قبل أن يعود ابن الألفونسو إلى بطليوس عندما سمع بنحرك ابن ذي النون وحليفه ملك قشتالة نحو طليطلة، انظر الذخيرة ق/3/2/776؛ ق/4/1/159.

¹ - الذخيرة ق/4/1/162: أعمال الأعلام 2/181

² - أعمال الأعلام 2/181

³ - الذخيرة ق/4/1/165-167.

⁴ - عبد الله بن بلكين: النيبان عن الحادثة، ص 102-103: أعمال الأعلام 2/176-182

⁵ - انظر عنه البيان 3/197 وما بعدها؛ القلقشندي: صبح الأعشى 5/246 (بيروت 1987)

⁶ - ورد ذكره أميراً في لاردة حوالي سنة 420 حيث بعث ببعثته إلى هشام المعتدّ آخر المرwanيين بقرطبة (الذخيرة ق/3/1/516-517). وجعله القلقشندي صاحب لارده وتطيلة (صبح الأعشى 5/246)

⁷ - العتقين ص 52-53: الباب 3/175-180، 192.

بها بعد وفاة أبيه، فكان أحمد (المقتدر) على سرقسطة العاصمة، ويوسف على مدينة لاردة، ومحمد على قلعة أيوب، ولَبَّ على مدينة وشقة، والمنذر على مدينة نُطيلة. وكانت علاقة ابن هود مع جاره ملك طليطلة سينة، فكان كلٌّ منهما يجزّ النصارى للغارة على بلد الآخر، ومن عواقب هذا على مملكة سرقسطة سقوط قلعة قلهرّة¹ الحصينة في الثغور بيد النصارى سنة 437²، ولم ينته النزاع بين الجانبين إلا بسقوط طليطلة في يد القشتاليين سنة 478.

عندما توفي المستعين سنة 438 تحاليل أحمد (المقتدر) أمير سرقسطة على إخوته بالغدر والقتل حتى استولى على ولاياتهم ما عدا يوسف صاحب لاردة، وكان أكبرهم سناً وهو الملقب بحسام الدولة ثم المظفر، بحيث تمكن من الدفاع عن جهته³، ولما رأى أهل الثغر غدر أحمد بإخوته كرهوه وبايعوا أخاه يوسف صاحب لاردة، فلم يبق لأحمد المقتدر غير سرقسطة، ممّا جعله يربط علاقات مع جيرانه النصارى الأرونيين ضد أخيه إلى أن تمكن من استعادة سلطته على بقية الجهات ما عدا لاردة⁴، واستولى بعد هذا على طرطوشة التي كانت في أولها بيد لبيب العامري حتى وفاته ثم بيد مقاتل العامري (سيف الملة) إلى وفاته أيضاً، فتمكن أحمد (المقتدر) ابن هود من أخذها من يد نبيل العامري سنة 452⁵.

حدثت في عهد المقتدر محاولتان للأرونيين ضد مملكته؛ الأولى محاولة لاحتلال مدينة وشقة كانت فاشلة، ثم وقع الانتقال إلى مدينة برشتر وحصارها من طرف النورماند والفرنسيين والإيطاليين القادمين من وراء البرنيس مع من انضاف إليهم من الإسبان، إلى أن تمكنوا من احتلال المدينة سنة 456 وقتل آلاف من أهلها وأسر آلاف آخر، فاستجد أهلها بالمسلمين من رعايا ملوك الطوائف⁶، ووقع الاستنفار في مملكتي المقتدر وابن عباد، فتمكن قواتهما من استعادة المدينة في أواسط السنة اللاحقة (457)⁷. وتعرضت مدن أخرى بالمملكة إلى الحصار من طرف الجيش القشتالي المرتفع المعنوية بعد احتلاله قورية في أقصى الغرب، فوصل إلى بلنسية وحاصرها، ولم يتراجع الملك فرناندو القشتالي عنها إلا عندما بدأه المرض الذي مات منه سنة 458.

وفي علاقات المقتدر ابن هود مع جيرانه المسلمين، فقد تميّزت بالتوتر مع أمير دانية إقبال الدولة علي بن مجاهد الذي دخل معه في الحرب حتى استولى على إمارته سنة 468. كما تميّز عهده بالنزاع الدائم مع ملوك طليطلة من بني ذي النون وتحالف كل منهما مع النصارى

¹ - قلهرّة Calahorra قلعة حصينة قرب الضفة الجنوبية لأعالي نهر سرقسطة (إبرو) وهي إلى الشمال الغربي منها وشمال مدينة سريّة. انظر نرهة المشناق 2/ ص 554.

² - أعمال الأعلام 2/ 178.

³ - ورد في صبح الأعشى أنّ يوسف المظفر صاحب لاردة هو ابن المقتدر وأنّ هذا ولاه على لاردة (246/5).

⁴ - البيان 3/ 222 وما بعدها؛ راجع الذخيرة 3/ 423 عن محاولة أخرى للغدر بأخيه صاحب لاردة سنة 450، والرسالة رقم 48 لاحقاً.

⁵ - البيان 3/ 250، 302؛ العبر 4/ 352 (جعل ذلك سنة 453).

⁶ - توجد لاحقاً رسائل تتعلق بالموضوع.

⁷ - الذخيرة 3/ 179 وما بعدها؛ البيان 3/ 225-228.

لتخريب بلاد الطرف الآخر حتى ضعفا معا ويسرا على النصارى الطمع في بلادهما، هذا إضافة إلى التزامهما بدفع جزية لهم مقابل ذلك. قال ابن عذاري: "ثم إن الروم دمرهم الله استطالت أيديهم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين بالثغر الأعلى، فأخذ معهم ابن هود في إعطاء الجزية ... ولم يزل المقتدر بالله ابن هود يضعف والروم يتقوون عليه إلى أن رماه الله بعلّة في جسده... فتوفي سنة 475¹، بحيث يمكن اعتبار المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة والمأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة وخاصة ابنه القادر أقوى العوامل التي جرأت النصارى على الاندفاع في حرب "الاسترداد" بشكل عنيف خاصة بعد انتهاء الفتنة بين أبناء الملك فرناندو التي قامت إثر موته سنة 458/1065م، وقد استمرت هذه الفتنة حوالي سبع سنوات، فلما استقر الوضع لصالح الفونسو السادس استأنف حرب "الاسترداد". وكانت أولاهما على حساب مملكة سرقسطة باحتلال مدينة سرية في أقصى الثغر الغربي سنة 671. ترك المقتدر ابن هود لابنه يوسف المومتز (475 - 478) بلاداً ضعيفة تزايدت أطماع القشتاليين فيها، غير أنهم انشغلوا مؤقتاً بحادث الزلافة وامتداد النفوذ المرابطي إلى الأندلس، وأصبح أكبر همهم محاولة إيقاف تقدّم المرابطين شمالاً. وحدث اندفاع القشتاليين بواسطة قائدهم الكمبيطور نحو بلنسية والاستيلاء عليها، وهو ما دعا المرابطين إلى الاقتناع بالإبقاء على إمارة بني هود شرط حماية جهتهم وإيقاف تقدّم النصارى منها²، وقد تمكن أحمد المستعين الثاني (478 - 501) من إحداث نوع من التوازن خلال فترة قوة المرابطين، فلما خلفه ابنه عماد الدولة وتبين عجزه سنة 503 عن حماية سرقسطة فأصبحت مهددة بالسقوط، استدعى أهلها المرابطين وأدخلوهم المدينة³، فانتهى بهذا حكم بني هود بصفتهم آخر أمراء الطوائف بالأندلس⁴، على أن المدينة لم تبقى في يد المرابطين إلا سنوات قليلة، حيث سقطت سنة 512 في يد الأركونيين، في الوقت الذي أخذ المرابطون يدخلون مرحلة الضعف منذ حوالي سنة 510.

7 - العامريون في شرق الأندلس

عند استيلاء المهدي (ابن عبد الجبار) على الخلافة سنة 399 وقتله للجاحب عبد الرحمن ابن المنصور كما رأينا، ثم سيطرة البربر على قرطبة دعماً للخليفة سليمان المستعين، لجأ معظم الصقالبة العامريين (نسبة إلى مولاها المنصور ابن أبي عامر) إلى الشرق خوفاً من الانتقام منهم، فافقتسموا المنطقة: فمنهم مجاهد صاجب دانية والجزر

¹ - البيان 3/ 229

² - انظر لاحقاً رسالتي بهذا الشأن عن بني هود.

³ - انظر رسالة عن عماد الدولة إلى الأمير علي المرابطي لمحاولة منع جيشه من الوصول إلى سرقسطة.

⁴ - هذا في البر، أما البحر الشرقي فقد عاملها المرابطون كما عاملوا بني هود إلى أن عجز حكامها عن حمايتها من السقوط في يد حملة صليبية فجعلها المرابطون تحت حكمهم المباشر سنة 509.

الشرقية، وليبيب الذي استقل بطرطوشة، ومظفر ومبارك اللذان استقلا ببلنسية، ونبيال الذي استبدّ بأمر شاطبة، وخيران الذي غلب على المرية ومرسية وأريولة¹.

كان أبو الجيش مجاهد - وهو من أشهر القادة العامريين- والياً سابقاً للحاجب المنصور ابن أبي عامر على دانية، فبسط نفوذه عليها سنة 400، ثم استولى على الجزر الشرقية (405) وتسمى بالموفق بالله، بعد أن قتم للخلافة في جمادى الآخرة من هذه السنة أحد الفقهاء من المروانيين وهو الفقيه عبد الله المعيطي، فحمله معه لفتح دانية، ثم لفتح سر دانية، ولم يلبث أن تخلى عنه بدعوى استبداده فأخرجه إلى إفريقية²، وكان الغرض من مبايعته معاكسة المستعين خليفة قرطبة المتعمد على العنصر البربري³. وعندما بايع العامريون في بلنسية سنة 411 أحد أحفاد المنصور ابن أبي عامر وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن، عاكسه مجاهد في دانية ببيعة ابن عم له ليعرقل به توسيع نفوذه، ولم يدم الأمر طويلاً لدى الطرفين. وكان مجاهد أميراً يجمع بين الشجاعة والعلم والتقوى والمجون، وقد تمكن من حماية إمارته، بل كان يغزو جزيرة سردينية من حين لآخر⁴، مما حرك ضده البابوية والقوى النصرانية المتأثرة بغزواته (بروفانص، جنوة، بيزا...).

وبعد موته خلفه ابنه علي الملقب بإقبال الدولة (436 - 468)، وقد نجا من محاولة اغتيال من طرف أحد إخوته، نافسه على العرش باعتباره ولياً للعهد قبل أخيه علي، وكانت المؤامرة مدبرة مع أمير إشبيلية ابن عباد، لكنها انتهت بالفشل. وتجاوزت علاقات إقبال الدولة بلاد الأندلس إلى إفريقية الزيرية⁵، وكذا مصر الفاطمية عند حلول سنوات الجفاف الطويل والمجاعة بها في أواسط القرن، حيث وجّه إلى مصر مركباً كبيراً محملاً بالموونة، فرجع إليه هذا المركب خلال سنة 447 بالياقوت والجوهر والذهب والفضة وذخائر أخرى⁶، وفتحت هذه الهدايا باب المراسلات الوثية بين الطرفين⁷.

استمر إقبال الدولة في الإمارة إلى أن هاجمه المقتدر ابن هود واستولى على دانية سنة 468 ونقل ذخائره إلى سرقسطة⁸، مما مكّنه من القوة المادية التي استعملها لدفع الجزية للنصارى ولقاء دعمهم له ضد أعدائه من المسلمين. ويبدو أن امتداد نفوذ المأمون ابن ذي النون

¹ - راجع عنان: دول الطوائف 156.

² - البيان 116 : دول الطوائف 185، راجع حديثاً عن مجاهد في الذخيرة ق/3/1م/227-228

³ - راجع الذخيرة ق/1/1م/41 : البيان 116/3

⁴ - البيان 155/3-156 : كانت أولى غزواته لها بعد استقاله بالجزر سنة 406 حيث ممّن أنذاك من الاستيلاء عليها في أواسط 406/1015م، وشرع في بناء مدينة يستقر بها (المغرب 2/401-402: عنان: دول الطوائف 186-189).

⁵ - كثرت حملات أبيه على سر دانية، فوقع علي هذا في في يد النصارى في إحدى الغزوات. إلى أن افتكّه من الأسر أحد ملوك بني حماد (الذخيرة ق/4/1م/265)، ولديها رسالة واحدة تخص علاقته بإفريقية البربرية.

⁶ - البيان 3/228

⁷ - استمر هذا الفتح خلال فترتين الأولى بين سنتي 446 و 454، والثانية بين سنتي 459 وبين 464: انظر لاحقاً بعض المراسلات من دانية إلى مصر: وعن المجاعة حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي 4/180-181 (القاهرة 1967).

⁸ - الذخيرة ق/4/1م/265-268: البيان 3/155 : أعمال الأعلام 2/217-222

ملك طليطلة على إمارة بلنسية في الخمسينيات كان دافعاً قوياً لابن هود لبسط نفوذه على إمارة دانية. أما ميورقة التي كان يشرف عليها نيابة عن إقبال الدولة واليها عبد الله المرتضى فقد أعلن هذا استقلاله بها بعد سقوط دانية في يد ابن هود، ولكنها أصبحت هدفاً للحملات تاسليبية، فقد تعرضت إحدى جزرها للتخريب خلال حملة ملك النرويج ضد سواحل الأندلس الغربية والجزر الشرقية، كما كانت تتعرض لحملات القراصنة النصارى من بخارة برشلونة غرباً حتى بيزا شرقاً وبدعم من البابوية، حدث هذا بعد الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام. وكانت الحملة الصليبية الكبرى على ميورقة سنة 508، بدعوى وقف القرصنة الإسلامية ضد الشواطئ النصرانية، ومات أمير ميورقة المرتضى خلال الحصار، ولم ينقذها غير تقدم الأسطول المراتبي نحوها، في الوقت الذي حاصر الجيش المراتبي البري مدينة برشلونة للضغط على قواتها لتتسحب من ميورقة. وقبل وصول الأسطول المراتبي إليها سنة 509 / 1116م انسحب منها الصليبيون، فكانت آخر إمارة طائفية ترتبط بالمرابطين، ويظهر أن هؤلاء لم يحاولوا فتحها باكراً كما فعلوا مع بني هود إلى أن عجز الطرفان أمام الضغط النصراني¹.

ومن الإمارات العامرية الأخرى إمارة بلنسية، وقد استولى على الحكم فيها الفتيان العامريان مظفر ومبارك، وقد عقدا سنة 408 تجمعاً للعامريين انتهى ببيعة المرتضى المرواني أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر وذلك رفضاً لبيعة علي بن حمود في قرطبة، واجتمعت على المرتضى كل الإمارات العامرية من بلنسية إلى المرية (مضافاً إليها منذر التجيبي صاحب سرقسطة). وقد انتهى الحال بتنظيم حملة ضد البربر موجهة أولاً نحو غرناطة (حيث القوة الصنهاجية) ثم قرطبة (حيث الجند الزناتيين)، لكن الهزيمة حلت بجيش العامريين خارج غرناطة وقتل المرتضى 409. وبنهاية الفتيين مظفر ومبارك اشترك في تسيير شؤون بلنسية كل من مجاهد وليب العامريين إلى غاية سنة 411، حيث طرد أهل بلنسية لبيب لسوء سيرته وخضوعه للنصارى الأركونيين، وتوتر علاقته مع مجاهد، ثم بايعوا أحد أحفاد الحاجب المنصور هو عبد العزيز بن عبد الرحمن المستقرّ بسرقسطة، فتخلى مجاهد عن بلنسية، ولقب عبد العزيز بالمنصور، واستمرت إمارته 40 سنة (411 - 452)².

لم تكن علاقة عبد العزيز المنصور مع جاره مجاهد صاحب دانية حسنة، خصوصاً وأن نفوذ المنصور كان يصل قبل الثلاثينيات إلى مرسية والمرية، أي في حالة تطويق لإمارة دانية برّاً، فاستغل مجاهد حوالي سنة 430 غياب المنصور في المرية للقيام بمحاولات فاشلة لتوسيع نفوذه شمالاً نحو شاطبة وجنوباً نحو لورقة. وقد استعان المنصور بقوات من ملك قشتالة فرناندو الأول لمواجهة جيش صاحب دانية في معركة فاصلة سنة 433³.

¹ - راجع المغرب 467/2

² - راجع دول الطوائف 191 - 192

³ - الباب 3/ 302؛ عنان: عصر الطوائف 193، 209 - 213

ارتبط عبد العزيز المنصور في أول أمره بالبيعة لخليفة قرطبة القاسم بن حمّود، فسماه هذا بالمؤمن¹ فتوطدت سلطته، وطال حكمه إلى وفاته آخر سنة 452. ثم خلفه ابنه عبد الملك (452 - 456) باجتماع أصحاب أبيه على تقديمه، "واستقرّ أمره، على ضعف ركنه لعدم المال، وقلة الرجال، وفساد أكثر الأعمال"²، وكان يجد السند من صهره المأمون يحيى بن ذي النون ملك طليطلة، فالقوات التي أرسلها إلى بلنسية هي التي ساعدت (المظفر) عبد الملك بن عبد العزيز (452 - 456) على إخماد تحرك أهل المدينة ضده، وهناك حدث خطير وقع في أواخر عهد هو الكارثة التي حلت بأهل بلنسية عند هجوم النصاري عليهم سنة 455 لعدم استعدادهم للمواجهة³، ويظهر أنّ هذه الحملة تدخل في إطار تحرك النورمان بتوجيه الكنيسة لاكتساح بلاد المسلمين في الأندلس، حيث انتهى الأمر بسقوط بربشتر في يدهم في العام اللاحق (456)، وسنرى رسائل في هذا الشأن.

يظهر أنّ دعم المأمون ابن ذي النون المشار إليه لصهره كان ظاهرياً، فبعد موت عبد الملك أصبح ابنه أبو بكر (456 - 478) مجرد نائب في بلنسية عن المأمون، ربما حدث هذا بعد تزايد أهمية هذا الأخير إثر تحرير بربشتر من يد النصاري بدعم من ابن عباد سنة 457، فلمّا توفي المأمون ثار أبو بكر - ربّما بتحريض من ابن ذي هود حسب القلقشندي⁴ - على القادر سنة 467 قبل ثورة أهل طليطلة عليه أيضاً، خصوصاً وأنه ازداد ارتواءً في أحضان النصاري. وبعد أن أخرجه القشتاليون من طليطلة سنة 478 ساعده على العودة إلى بلنسية برفقة القائد القشتالي المعروف بالكبيطور. ولما اقترب هؤلاء من بلنسية سنة 485 قام أهلها بزعامة القاضي ابن جحّاف على النصاري وابن ذي النون مستعينين بفرقة مرابطية، لكنّ الكبيطور تحايل على القاضي الذي كان يأمل في إبعاد الفرقة المرابطية ودعم استقلاله، فتمّ للكبيطور الاستيلاء على بلنسية والانتقام من القاضي وعائلته وجعله من أهل المدينة فأصبحوا بين قتيل وسجين (أواسط 487)، واستمرّ بها إلى أن دخلها المرابطون سنة 495.⁵ كما دخلوا الإماراتين الجبليتين البوننت والسهلة (شنتمرية الشرق) بين 495 و 497، ثم سرقسطة عاصمة بني هود سنة 503، فانتهى بذلك عصر الطوائف بالأندلس⁶.

ومن الإمارات العامرية الأخرى إمارة مرسية والمرية اللتين استبدّ بأمرهما الفتى الكبير خيران العامري قائد الصقالبة في العهد المنقرض، وكان قد فرّ عند قيام الفتنة من قرطبة إلى الشرق الأندلسي، وتلاحق به كثير من بني جنسه، فاستولى على مرسية (سنة 403)، ثم على

¹ - المغرب 300/2 (لم يذكر له لقباً)؛ وعند عنان أن الذي سمي بالمؤمن ثم بالمعتمد هو ابن عمه محمد بن عبد الملك بن المنصور الذي بايعه حيران في مرسية (دول الطوائف 159).

² - البيان 3/ 165.

³ - الدخيرة ق/3 م/2 854 - 857

⁴ - صبح الأعشى 5/ 245، فمن شأن امتداد نفوذ ابن ذي النون في إمارة بلنسية أن يعرقل مساعي إمارة سرقسطة للامتداد جنوباً، وسنقوم فعلاً ببسط نفوذها على إمارة دابة سنة 468.

⁵ - أعمال الأعلام 2/ 203 - 205

⁶ - راجع عن أحداث بلنسية الغلانند 170 - 172 : الحلة السيرة 2/ 116 : البيان 3/ 155 وما بعدها؛ 164 - 166 : : أعمال الأعلام 2/ 203 - 205 (عن ابن حجاج)

المرية (405) من يد أحد قادة الفتيان (أفلح الصقلبي)، واقتصر من الألقاب على لقب الفتى الكبير الذي كان معروفاً به. وأصبحت إمارته تشمل من المدن الكبرى المرية ومرسية وأريولة وبسطة وجبان، وأصلح قسبة المرية الشهيرة للدفاع عنها، وكان مهاب الجانب من جيرانه فلم يطمع أحد في إمارته¹. غير أن علاقته ببقية العامريين لم تكن على ما يرام، فبعدما بايع أهل بلنسية عبد العزيز حفيد المنصور سيد الموالى العامريين خشي خيران من تقلص نفوذه فبايع ابن عم المذكور هو محمد بن الحاجب المظفر بن المنصور ولقبه بالمؤتمن ثم المعتصم وجعل مقره مرسية². وبعدما ثارت شاطبة على المنصور عبد العزيز ولجأ إلى بلنسية، توتر الجو بين خيران وأميره محمد المعتصم فضيق عليه حتى أخرجه من إمارته سنة 413³.

وعندما توفي خيران في جمادى الأولى سنة 419 قَدِمَ أهل الحل والعقد الفتى زهير وكان نائباً عنه بمرسية، فامتدت ولايته عشر سنين (419 - 429)، ومن منشأته بالمرية مسجدها الجامع. واتسع نفوذه إلى بياضة وجبان وما حولهما وإلى "الفتح من أول طليطلة". وخضعت له قرطبة مدة 15 شهراً ونصف شهر. ثم فسد ما بينه وبين حليفه أمير غرناطة بتدبير وزيره الكاتب أحمد بن عباس، حين دفعه إلى غزو غرناطة طمعاً في الاستيلاء عليها، فكانت الهزيمة عليه وقتلاً معاً⁴، فاستولى بنو طاهر على إمارة مرسية، واستولى بنو صمادح التجيبون على إمارة المرية.

عند ظهور علي بن حمود وقف خيران العامري إلى جانبه مدعماً لوصوله إلى قرطبة ضد المستعين لأجل إظهار الخليفة هشام المرواني، فلما لم يُعثر له على أثر وأعلن ابن حمود الخلافة لنفسه تراجع عنه خيران إلى بيعة المرتضى الذي قدّمه مجاهد العامري خليفة في الشرق. ولما انقضت الخلافة المروانية في قرطبة وقف زهير العامري إلى جانب إدريس المتأيد الحمودي مع الأمراء الزناتيين جنوب قرطبة وإشبيلية وخاصة أمير غرناطة الصنهاجي، وتواجهوا مع جيش إشبيلية سنة 428. ثم دخل زهير في صراع مع جاره أمير غرناطة باديس بن حبّوس، فقتل في المعركة سنة 429 كما ذكرنا، فاستدعى فتيان المرية عبد العزيز بن أبي عامر أمير بلنسية إليهم، فوصلها وأقام الدعوة لهشام المزعوم الذي نصبه ابن عباد خليفة في إشبيلية⁵. ثم ترك عبد العزيز المرية في يد ابنه عبيد الله الناصر، فلم يلبث أن مات

¹ - عنان: دول الطوائف (159- 160)

² - العبر 4/ 349

³ - حاول عبد العزيز اكتساب الشرعية بالبيعة للخليفة الحمودي في قرطبة فمنحه لقب المؤتمن، ربما حدث هذا بعد إبعاده من شاطبة إلى بلنسية، ويظهر أن خيران مال بدوره إلى الخليفة الحمودي لاكتساب الشرعية، وهو النهج الذي سار عليه خلعه زهير العامري. راجع الأحداث في: البيان 164- 165؛ أعمال الأعلام 2/ 195؛ العبر 4/ 348- 349؛ دول الطوائف 210 - 211.

⁴ - أعمال الأعلام 2/ 216، البيان 3/ 191

⁵ - قال الحميدي: إن أهل إشبيلية ومن كان علي رابعهم. لَمَّا صَيَّق عليهم يحيى بن عليّ الحسني وخافوا أمره، أظهروا أن هشام ابن الحكم المؤيد حي، وأنهم ظفروا به فبايعوه وأظهروا دعوته، وتابعهم أكثر أهل الأندلس (جذوة المعقبين 28)

بها ووضع عبد العزيز مكانه صهره **معن بن صمادح التجيبي**¹، فمهد الوضع بها للانفصال عنه سنة 433، وأصبحت الإمارة وراثية في سلالة إلى أن أسقطها المرابطون سنة 484.

أما مرسية، فإنها انتقلت بمقتل أميرها زهير العامري إلى حكم **بني طاهر**، وهم "بيت أعلام، وحملة سيوف وأقلام"، أولهم **أبو بكر بن طاهر** صاحب خطة المظالم (429 - 455)، وقد حكم مرسية باسم الأمير عبد العزيز صاحب بلنسية رمزياً، ثم ورث عنه ابنه الأديب الشهير **أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر** رئاسة المظالم وكذا إمارة مرسية (455 - 471)، وحافظ على تبعية شكلية لصاحب بلنسية. غير أن علاقة ابن طاهر مع جيرانه ساءت، فذبّروا أمرهم مع المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوجّه إليه جيشاً مع وزيره **ابن عمار**، وكذا القائد عبد الرحمن ابن رشيق صاحب حصن بلج روبيو الذي حرّك سكان مرسية للثورة على ابن طاهر، فتمكن جيش إشبيلية من دخول مرسية سنة 471، واعتقل في حصن أقوط إلى أن فكّ أسره فلجأ إلى صاحب بلنسية وعاش في كنفه². فأصبحت مرسية تابعة لابن عباد، حيث وصل نفوذه إلى البحر شرقاً بعد أن بسط نفوذه على منطقتي جيان وقرطبة (466 - 467). غير أن ابن عمار استبدّ بمرسية لنفسه إلى أن تحاليل عليه ابن عباد مع صاحب شقورة فقبض عليه وقتل، لكن القائد ابن رشيق استبدّ أيضاً بمرسية إلى أن قبض عليه سنة 483 خلال حصار الجيش المرابطي لحصن أليط قبيل انتقال المنطقة إلى النفوذ المرابطي³.

8 - بنو رزين (إمارة السهلة أو شنتمرية الشرق)

عُرف بنو رزين ببني الأصل، وكان جدّهم **هذيل بن عبد الملك** ابن رزين من أكابر برابر الثغور، أصلهم من بربر هواره، وقد استقل بمنطقة السهلة سنة 403 واستمرّ بها إلى سنة 436، وكان الموقع الجبلي الحصين وشجاعة البرابرة مساعداً على استمرار استقلال الإمارة إلى نهاية القرن، فهي تحدّ من الشمال بمملكة سرقسطة، ومن الغرب بمملكة طليطلة، ومن الجنوب بإمارة البونت الجبلية، ومن الشرق بإمارة بلنسية، وكانت عاصمتها هي شنتمرية الشرق التي عُرفت

¹ - كان أبوه يحيى بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وشقة وأعمالها، ظهرت مكانه في عهد هشام المؤيد، وحُدّد له سليمان الولاية عليها، ثم وقع تنافس وحرب بينه وبين ابن عمه منذر التجيبي صاحب سرقسطة بعد عصر الحليفة سليمان، وعجز ابن صمادح أمام المنذر فلم يبق له مكان بالفر (البيان 173)، ذكر صاحب الأعشى أن صمادح وأمه معن كانا يتوليان حروب المنصور مع مجاهد العامري؛ وحضر معن مع عبد العزيز في حركته إلى المرية، وفي عيابه تحرك مجاهد نحو بلنسية عبرة منه لاستدعاء فتیان المرية لعبد العزيز، فعجل الرحيل وبرك معن نائباً عنه بالمرية فاستقل بها (انظر البيان 3/ 173 : 192)؛ واشتهر ابنه **محمد المعتصم** وطال حكمه بالمرية إلى وفاته في ربيع 484/2 (انظر ترجمة له في الدجيرة 1/ 729 وما بعدها؛ **الغلاند** 146 وما بعدها : **النكملة** 1/ 324 - 325؛ بح الهراس)؛ **الرحلة السيرة** 2/ 78 - 88 ، **البيان** 3/ 173 - 175؛ **المغرب** 2/ 195 - 198؛ **أعمال الأعلام** 2/ 190 - 192؛ صبح الأعشى 5/ 244.

² - **الغلاند** 170 وما بعدها ؛ **الرحلة السيرة** 2/ 116 وما بعدها ؛ **المغرب** 2/ 247 - 248؛ **أعمال الأعلام** 2/ 201 - 202 (وفيه أن الذي استولى على مرسية هو أبو عبد الرحمن نفسه وليس أباه)؛ **دول الطوائف** 64 - 66.

³ - انظر ترجمة لابن طاهر في الدجيرة 3/ 24 م/ 1 وما بعدها؛ ص 91 وما بعدها.

لاحقاً بشنتمرية بني رزين¹. ورغم حصانة الإمارة فقد حافظ هنذيل على طاعة الخليفة هشام المؤيد المرواني، وعندما بويع المستعين بقرطبة أقرّه على إمارته لعجزه عن عزله، وطمع صاحب سرقسطة منذر بين يحيى (408-414) في ضمّ الإمارة إلى نفوذه، لكنه عجز عن ذلك مما دفع هنذيل إلى التحالف مع العامريين أعداء منذر². وُصف هنذيل بكونه من رجال الأدب والسياسة على عكس ابنه الذي خلفه في الإمارة وهو أبو مروان عبد الملك حسام الدولة (636 - 496)، الذي كان أطول حكماً، وكلما شعر بقوة أحد من أمراء الطوائف اتقاه بالدعاء له، وقد وصفه ابن حيان بالجهل والإعجاب بالنفس³، وربما كان هذا من العوامل التي جعلت ابن طاهر بعد خروجه من الأسر الثاني- إثر سقوط بلنسية في يد الكمبيطور- لا يلتقي دعوة ابن رزين عندما استدعاه للكون عنده⁴. وقد سقطت إمارة ابن رزين في يد المرابطين في عهد ابنه يحيى (496 - 497) الذي عُرف بالمجون وضعف العقل وسوء التسيير⁵.

9 - بنو صمادح التجيبون (ملكة ألمرية)

سبق أن رأينا مقتل زهير العامري في حربه مع أمير غرناطة سنة 429، واستدعى فتيان ألمرية المنصور عبد العزيز بن أبي عامر أمير بلنسية إليهم، فقدم عليهم للنيابة عنه صهره **معن بن صمادح التجيب**⁶، فمهدّ الوضع بها للانفصال عن صاحب بلنسية سنة 433. كان محمد بن صمادح والد معن أميراً على وشقة وأعمالها، وكان جاره القوي وابن عمّه المنذر صاحب سرقسطة يضايقه في مدينته حتى تغلب عليها، وانحاز ابن صمادح إلى صاحب بلنسية. وتولى ابنه **معن** الوزارة له وتصاهر معه، فوثق بإسناد النيابة إليه في ألمرية بعد مقتل زهير. لكنه استفاد من بُعد المسافة بين ألمرية وبلنسية، ووجود إمارة مجاهد عدوّ أمير بلنسية فاصلة بينهما، فأعلن استقلاله سنة 433، وأيده في هذا جاره صاحب غرناطة⁷.

¹ - لا زال اسمها إلى اليوم يحمل اسم بني رزين (Albarracin)، انظر عن صاحبها **الدخيرة** 109 / 1/3 وما بعدها ؛ **الحلة السبيرة** 115-108/2 ؛ **المعرب** 428 / 2 ؛ **البيان** 181-184 ؛ 309-310 ؛ **أعمال الأعلام** 201 / 2 ؛ 202-205.

² - انظر **كتاب المتن** ص 139-140 ؛ **الدخيرة** 110 / 1 / 3 (هذا على عكس اتجاه منذر بن يحيى المماليك للخليفة هشام).

³ - ابن حيان: **كتاب المتن** 140-141 (ذكره تحت لقب: دي الرناستين)، ونقل عنه **صاحب الدخيرة** 112 / 1/3-113 ؛ **قارب مع القلائد** ص 157.

⁴ - قدم صاحب القلائد لرسالة ابن رزين في استدعاء ابن طاهر بما يلي: "وخطب ابن طاهر مستدعياً إلى الكون لديه برسالة يدلّ على إيفائه في الفجر، دلالة التسميم على الرهر، والشياطين على التهر، ونشهد له بالعلاء والمجد، شهادة النار بطيب التند، وكرم الزند، فإنه استدعاه والأداب قد صمت عن دعائه، وحكمه في ملكه والكل قد ضى عليه بما في وعائه"، وسيأتي نص الرسالة مرتبة مع بقية الرسائل.

⁵ - **البيان** 2 / 307-311

⁶ - كان أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينته وشقة وأعمالها، ظهرت مكانته في عهد هشام المؤيد، وجدّد له سليمان الولاية عليها، ثم وقع تنافس وحرب بينه وبين ابن عمّه منذر التجيب بعد عهد الخليفة سليمان، وعجز ابن صمادح أمام المنذر فلم يبق له مكان بالتمر، وأصبح ابنه معن من قواد عبد العزيز وكان معه في حركته إلى ألمرية، وفي عيانه تحرك مجاهد نحو بلنسية غير أنه لاستدعاء فتيان ألمرية لعبد العزيز، فعجل الرحيل وترك ابنه عبد الله الناصر سنة 430 ودعا لهشام المنصوب للخلافة في إشبيلية، ولم يلبث أن مات فقدم المنصور صهره معن نائباً عنه بألمرية (انظر: **نصوص من كتاب المتن** 101 - 102 ؛ **البيان** 173 / 3 ؛ 192).

⁷ - **كتاب المتن** 102 ؛ **البيان** 172 / 3 ؛ **أعمال الأعلام** 217 / 2 .

فاستمرت بينهما علاقات المودة إلى وفاته سنة 443، وخلفه وليّ عهده ابنه محمد، وتلقب بالمعتصم بالله، وكان عمره آنذاك ثمان عشرة سنة.

استمرت في بداية عهد المعتصم بالله علاقات المودة بينه وبين جاره باديس أمير غرناطة، بينما كانت علاقاته سيئة مع خاله عبد العزيز صاحب بلنسية الذي ربّما كان وراء ثورة ضده قادها ابن شبيب في لورقة سنة 443، فوجد المعتصم الدّعم من باديس لإخماد الثورة وإعادة المدينة وحصونها إلى نفوذه¹. ثم تمكن هذا الثائر من الانفصال بلورقة، وأعلن طاعته لابن عبّاد هو ومن خلفه من الأخوة الذين تعاقبوا على حكمها² ليتقوى به في وجه أمير ألمرية. ومن المحتمل أنّ انفصال لورقة تمّ خلال بعض النزاعات التي كانت تنشأ أحياناً بين غرناطة وألمرية، فلم تجد هذه دعماً لها. ذلك أنّ وزراء السوء كانوا وراء تغيّر العلاقات بين الجهتين، فقد كان وزير غرناطة اليهودي ابن نغزالة يحثّ المعتصم على أخذ غرناطة، فتحرّك إليها بجيوشه سنة 459، وباءت العملية بالفشل³، وفقد المعتصم نتيجة هذه المغامرة حصن وادي أش ومدينة جيان وما حولهما من الحصون حيث استولى عليها باديس أمير غرناطة، إلا أن ابن صمادح استرجعها بعد ذلك مؤقتاً، ثم سقطت جيان في يد المعتمد ابن عباد. وبعد وفاة باديس أمير غرناطة سنة 465 وتوليّ حفيده عبد الله بن بلكين ظهر نزاع حدودي بين الطرفين كان وراءه الوزير السابق في غرناطة سماجة اللاجئ إلى ألمرية حيث أخذ يثير المعتصم على أميره عبد الله صاحب غرناطة⁴، ولم تهدأ الأحوال بينهما إلا بتحطيم عبد الله الحصون على الحدود بينهما تأكيداً على حسن نواياه من جهته؛ وتحدّث ابن بسّام عن طبيعة المعتصم الوادعة وأنه إنمّا استدرج إلى الحروب وأكره عليها إكراهاً⁵.

عندما استدعى أمراء الطوائف المرابطين إلى الأندلس كان المعتصم أقلّ حماسة لذلك، لتخوفه من سوء المصير بيد المرابطين، ولكون الضغط القشتالي كان بعيداً عن مملكته، ولكنه شارك بقواته في الزلافة بواسطة أحد أولاده، ثم شارك بفعالية في حصار حصن ألبط (Aledo) لقربه من حدوده وتأثر أطراف مملكته بهجوم نصاراه عليها، وكان القشتاليون استولوا عليه بعد سقوط طليطلة تمهيداً لما سيأتي من توسّعات خاصة في الجهة الجنوبية الشرقية. وتحدّث الروايات عن موت المعتصم في ربيع الآخر 484 قبل تحرّك المرابطين ضده أي بعد سقوط غرناطة في يدهم، وخلفه ابنه أحمد الملقب بعز (أو

¹ - دول الطوائف 164

² - دول الطوائف 164

³ - وهذا حسب البيان 3/ 266؛ أمّا ابن الخطيب فقد جعل ذلك "سنة 469 وقيل 465" (أعمال الأعلام 2/ 233)؛ انظر أيضاً النبيان 53؛ والتاريخ الأول لا يستقيم لأن باديس الذي وقعت في عهده الحادثة توفي سنة 465 وليس بعدها، والراجح أن يكون ما في البيان أصح، فقد أكد هذا في الصفحتين 275- 276 ضمن حولياته.

⁴ - النبيان 88

⁵ - الذخيرة 1/ 239 م/ 239؛ الفلاند 47. كذلك كان ابن عمار سبياً في نوّثر العلاقة مع حاره العرناطي كما يذكر عبد الله بن بلكين في مذكراته (النبيان 80- 82، 96)

معز الدولة بضعة أشهر، ثم فرّ - بعد سقوط إشبيلية وبوصية من أبيه- إلى مملكة بجاية قبل وصول الجيش المرابطي إلى ألمرية في نفس السنة¹.

10 - بنو زيري (مملكة غرناطة)

وفدّ على الحكم المستنصر ثم على الحاجب المنصور في القرن الرابع مجموعات من القبائل المغربية كان منها جماعة من صنهاجة إفريقية مع زعيمهم زاوي بن زيري (دخل الأندلس سنة 491)، واهتمّ الحاجب المنصور بعنصر القبائل البربرية في جيشه. ولما وقعت الفتنة في مطلع القرن الخامس واستبد كل زعيم وقائد بجهته، وخاف البربر من نقمة ابن عبد الجبار الملقب بالمهدي، اجتمعوا على دعم سليمان المستعين وأدخلوه قرطبة، وعندما قسم الولاة على البلاد جعل زاوي بن زيري على كورة البيرة (غرناطة) وجيان، وعندما تقدّم علي بن حمّود من سبتة نحو قرطبة وجد الدّعم من صنهاجة، ولما تحرّك المرتضى خليفة العامريين في الشرق لحرب البربر بادناً بغرناطة لقي حتفه في المعركة أمامهم سنة 409. ورغم انتصار زاوي في هذه المعركة فقد فضّل العودة إلى إفريقية في السنة اللاحقة²، فخلفه على إمارة غرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن (411 - 428)، وظلّ مرتبطاً بالدعوة للحمّوديين باعتبار العصبية البربرية التي تجمعهم رغم الأصل الإدريسي لهؤلاء، وقاد جيشه في الحملة إلى جهات إشبيلية سنة 428 انتقاماً لمقتل الخليفة يحيى المعتلي الحمودي ودعمًا لخلفه وأخيه إدريس المتأيد. وكان يدعمه في الحملة زهير الفتى صاحب ألمرية وعبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ولدينا رسالة عن حبوس في الدعوة للالتفاف حول المتأيد الحمودي وأخرى عن زهير صاحب ألمرية في دعوة أهل قرطبة لـ "لزوم الجماعة" أي طاعة الخليفة الحمودي؛ وإن كانت النتيجة هي تفهقر إدريس الحمودي إلى مالقة والاستقرار بها حيث بدأت كفة ابن عبّاد وخليفته المموّه به في التزايد.

بعد موت حبوس تولى ابنه باديس الملقب بالمظفر والناصر (428-465)، واتسع ملكه في إقليم مالقة، وانتصر على زهير العامري صاحب ألمرية بعدما ساءت علاقتهما بسبب إيوانه لأحد المنافسين له³، فقتل زهير في المعركة بأحواز غرناطة سنة 429 كما ذكرنا، ونتيجة لهذه الهزيمة توسّع باديس في أراضي زهير المتاخمة لمملكته وهي مدينة جيان

¹ - أعمال الأعلام 2/ 193؛ راجع أيضاً دول الطوائف 156-170

² - ذكر الأمير بلكين في مذكراته أن قومه من صنهاجة كانوا عزموا على الرحيل عن الأندلس بسبب الفتنة، غير أن أهل البيرة خافوا على أنفسهم ولم يكن لهم من يدافع عنهم فرغبوا من زاوي وقومه في البقاء بأرضهم ومشاركتهم في حيراتهم والدفاع عنهم، فبوا غرناطة لتكون حصناً منيعاً، فنراجعت أهمية البيرة (البيان عن الحادثة 469 - 483؛ كتاب المنين 71 وما بعدها؛ دول الطوائف 121).

³ - البيان 3/ 169 وما بعدها، راجع على التوالي ترجمتي زهير العامري ووزيره أبي جعفر أحمد بن عباس في الإحاطة، ط القاهرة 1973، 1/ 517-520؛ 259-262.

وأعمالها (أو أنه استرجعها)، وفي جزء من ولاية قرطبة الجنوبية¹، وكان العدو الحقيقي للإمارات البربرية هو ابن عباد، الذي تمكن من الاستيلاء على قرمونة من عبد الله البرزالي سنة 428، إلى أن قدم باديس بن حنوس وحلفاؤه الحموديون فأنقذوها من يد ابن عباد حيث قتل ابنه قائد الحملة في المعركة في المحرم سنة 431².

وعلى الحدود الغربية من مملكة باديس كانت إمارة بني حمود في مالقة، فبدأ في الأربعينيات يتدخل في شؤونها لإضعافها والاستيلاء عليها ليكون زعيم البربر الوحيد في جنوب الأندلس، وقد ازداد طمعه بعد موت محمد المهدي الحمودي سنة 444، حيث خلفه أمراء ضعاف، فأمكنه الاستيلاء على مالقة سنة 448 وطرده أميرها المستعلي منها³، وجعل واليه عليها ابنه بلقين ولي عهده إلى أن مات مسموماً سنة 456⁴.

طمع ابن عباد في احتلال مالقة بتدبير مع جملة من سكانها. لكرهتهم لحكم البربر فيما قيل، وأرسل إليها جيشه بقيادة ولديه، فصمدت حاميتها من البربر والسود المتحصنين في القسبة، ووصل الدعم من غرناطة، فانهزم العباديون وذلك سنة 458. وانتقل الصراع بين الطرفين إلى مدينة أركش حينما قرر صاحبها البربري تسليمها لباديس بعد عجزه عن مقاومة حصار جيش ابن عباد، فتمكن هذا الجيش من اقتحام المدينة وضمتها مع إقليمها إلى مملكة إشبيلية سنة 461⁵، وكان ابن عباد قد استولى في السنة الفارطة على آخر مركز للحموديين وهو الجزيرة الخضراء.

كان الوزير اليهودي ابن نغالة في غرناطة عنصر تؤثر بين باديس وجاره الشرقي أمير ألمرية، خاصة وأنه كان وراء مقتل ولي عهده أمير مالقة، وتيسير أمر احتلاله لوادي آش، فلما أحس بتغير ملكه عليه لفعله مع ولي عهده، ولاستبداده بأمور البلاد واستعائنه ببني ملته خاصة في الأمور المالية وكره الرعية لهم، حرّض أمير ألمرية سراً على أخذ غرناطة، وكادت المؤامرة تنجح لولا يقظة بعض مشايخ صنهاجة، فهاج الناس، وقتلوا اليهودي وأعاوناه ومعهم أكثر من 3000 يهودي، وتراجع جيش ابن صمادح نحو ألمرية⁶، كان ذلك سنة 459⁷. وأمكن لباديس استرجاع وادي آش بدعم من قوات أرسلها المأمون بن ذي النون، لكنه أخذ مقابل هذا الدعم مدينة بسطة، ثم عاد الوفاق بين صاحبي ألمرية وغرناطة.

¹ - ابن عذاري: البيان 3/ 128؛ ربما كان توسّعه في جهة جنان باعتبار أنها تدخل في إطار الجهة التي أدن لهم المستعنيين بالاستقرار فيها عندما قسم البربر على الجهات.

² - ورد ذكره في البيان 199، 316 (نقلاً عن ابن القطان) على أنه إسماعيل؛ وما ورد في رسائل لاحقة أن إسماعيل قتل سنة 450 بأمر من أبيه بعد فشل مؤامراته ضده.

³ - ذكر ابن عذاري أن آخر أمراء بني حمود في مالقة غلام اسمه يحيى بن إدريس بن علي، خطب له على المنابر باسم أمير المومنين (البيان 266/3)، ويظهر أن في هذا خلطاً مع من سمي يحيى القائم بن إدريس بن علي الذي ولي الإمارة في محرم 431 ثم أخذ منه الإمارة عمه حسن المستنصر (قارن مع البيان ص 192، وأعمال الأعلام 2/ 140-142).

⁴ - البيان 265-266

⁵ - البيان 294

⁶ - التبيان 54؛ أعمال الأعلام 2/ 233؛ البيان 3/ 266، 275، 276؛ دول الطوائف 130-135
⁷ - هذا حسب البيان 3/ 266؛ أما ابن الخطيب فقد جعل ذلك "سنة 469 وقيل 465" (أعمال الأعلام 2/ 233)؛ والتاريخ الأول لا يستقيم لأن باديس الذي وقع في عهده الحادثة توفي سنة 465 وليس بعدها، والراجح أن يكون ما في البيان أصح، فقد أكد هذا مرة أخرى في الصفحتين 275-276 ضمن حويلاته.

وتمكن باديس من استرجاع جيان من يد أحد القرابة المتمرد فيها، وتجاوزها بإضافة مدينة بياسة إلى نفوذه بعد معارك¹، فشملت مملكته قبيل موته سنة 465 ما بين بسطة شرقاً حتى أستجة وحدود رندة غرباً ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً.

عندما توفي باديس سنة 465 قدّم أشياخ صنهجة حفيده عبد الله بن بلكين للإمارة ولقبوه بالمظفر بالله والناصر لدين الله (465 - 483)، بدلاً من عمّه صاحب جيان لـ "سوء سلوكه"، أو ربّما لصعوبة التحكم في أموره، فقد كان عبد الله عند ولايته لم يبلغ الحلم، وكان مربيّه الوزير سماجة يقوم بأمره بحزم إلى أن بلغ رشده فتوجّه إلى المرية عندما أحسّ بتضايقه منه، وهناك أخذ يحرّض أمير المرية ضدّ غرناطة، فوقعت مناوشات على الحدود، ثم تمّت المصالحة بين الطرفين². أمّا أخوه تميم والي مالقة فقد استبدّ بها لنفسه معتمداً على تحالفه مع ابن عباد. وفشل منافسه حاكم جيان عمّه ماكسن في الاستقلال بها. وكان ابن عباد طمع في مملكة الأمير عبد الله لصغر سنّه، فاستولى على مدينة جيان سنة 466، ثم تقدّم جيشه لحصار غرناطة دون طائل لقيام الوزير سماجة آنذاك بدوره الدفاعي ضد جيش إشبيلية، ولم يستطع عبد الله استرجاع جيان وإثما استرجع حصن قبرة من جملة حصونها بعد قيامه بغارة في أراضي إشبيلية ومعه جملة من المرتزقة القشتاليين³. وتناوب الطرفان المتعاديان (ابن بلكين وابن عباد) على التحالف مع ملك قشتالة مقابل الجزية، والاستعانة بفرقة من جيشه، ولما لم يتمكن أحدهما من غلبة الآخر، اضطرّا في النهاية إلى المهادنة في أواخر سنة 477 بعد مقتل ابن عمّار المتهم بإساءة العلاقة بين الطرفين⁴، وظهور أطماع الك قشتالة، ومكنت المهادنة من ضبط ثغور غرناطة الشمالية الغربية حول أنتفيرة الواقعة على حدود مملكة إشبيلية بتفاهم مع المعتمد⁵.

وكان سقوط طليطلة في السنة اللاحقة (478) كالصاعقة التي أفادت ملوك الطوائف من غفلتهم، فقرّروا الاستنجاد بالمرابطين لإيقاف أطماع الفونسو⁶. لكنّ انتصار الزلاقة أصبح مهدداً بالضياع الذي بدأت معالمه بمناسبة حصار المرابطين لحصن أليط (Aledo) سنة 481 حيث أدّى خوف ملوك الطوائف من المرابطين إلى عقد تحالفات سرّية مع ملك قشتالة لمنع

¹ - وسقوط بياسة لاحقاً في يد المعتمد سيعتج له الطريق نحو البحر شرقاً بأخذ مرسية من يد بني طاهر.

² - التنبأ 88-89

³ - دول الطوائف 141. ربّما كان تحالفه مع المأمون بن ذي النون عدو بني عباد مساعداً على هذا التحرك، خاصة وأنّ نفوذه كان يشمل منطقة قرطبة، فلما مات المأمون سنة 467 وسيطت قرطبة في يد ابن عباد، فقد سبداً قوياً، ولم تهدأ الأحوال بين غرناطة وإشبيلية إلا بظهور تحرك الفونسو في مملكة طليطلة وتهديد باقي الملوك.

⁴ - التنبأ 80-82: 96 (ينحدر عن صلته بملك قشتالة وإشغال العتنة أينما حلّ).

⁵ - التنبأ 95-96

⁶ - كان أول من طلب الدعم من المرابطين هو أمير مالقة ولكن ضدّ أخيه ملك غرناطة ليستردّ منه بعض الممتلكات دون أن يستجيب له ابن تاشفين (التنبأ 102). راجع عن مملكة غرناطة: التنبأ 3/ 262 وما بعدها، 316: أعمال الأعلام 230-236: دول الطوائف 118-144

⁷ - انضج خلال الحصار التراعات القائمة بين الملوك ومنها ما كان بين المعتمد وأمير المرية وبينه وبين ابن رشيق المتهم باقتطاع مرسية من ممتلكات ابن عباد بصورة غير شرعية، فجمعت التهم ضده لتقديمه إلى عدوه، مما أغضب القادة المرسيين من أتباعه وانسحابهم وقطع المؤونه عن الجيش المحاصر للحصن.

إمكانية تقدم الجيش المرابطي القادم من المغرب، كما أهملوا تقديم المؤونة للحاميات المرابطية التي بقيت في الثغور لمواجهة احتمالات عدوان النصارى، فأخذ رعايا الملوك وعلى رأسهم فقهاؤهم بحرّضون يوسف بن تاشفين على إنهاء وجودهم، وكان أول من بدئ بإزاحته عن عرشه هو عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وأخوه تميم أمير مالقة وذلك في أواسط سنة 483²، فكانت هذه بداية إنقاذ الأندلس بقوم جيش المرابطين إليها.

سمّي عصر الطوائف في زمنه بعصر الفتنة، وقد أبرز بعض الكتاب والعلماء مساوئه وعواقبه الوخيمة على المسلمين في بلاد منقطعة عن بقية البلدان الإسلامية يصعب الدفاع عنها. وممن ذكر هذه الفتنة الكاتب المعاصر أبو حفص أحمد بن محمد ابن بُرد المعروف بالأصغر حفيد ابن برد الأكبر، وقد وزر لصاحب المرية معن بن صمادح (433-443)³، فقال بعد التذكير بقول الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله﴾⁴... إن الحرب مثقلة للنفوس، متلفة للأموال، مجلبة للندامة في العواقب، تلذّ مبادئها للأشرار، وتُحكي كلال عاقبتها على الأخيار... فأصحّ الناس لباً وأبعدهم نظراً.. من حضّ على الصلح... ولم يألُ إرشاداً وتبصيراً، ومن سوء العواقب تخويفاً وتحذيراً، وبادر نار الفتنة بالإطفاء... وشوكة الحرب بالخضد، فحقن الدم، وحسّ الحرم... فقد أن توقظوا سواهي العقول.. وتغمدوا الصّوارم، وتعيدوا السهام في كنانها... وتعلموا أنّ الله القادر عليكم والأخذ بنواصيكم له غضبات أفلها استئصال آثار النعم عليكم، وسطوات ابرزها تحكمت أيدي البلاء فيكم... فكم صالٍ بناركم لم يُشرككم في قذحها، وشقيّ بفتنتكم ولم يغمس معكم يداً فيها... أما والله لتُجرعن الخطبان، ولتقرعن الأسنان، ولتحاولن الأوبة ولا مآب لكم، والثوبة ولا قبول منكم⁵.. وسواء كان كلام ابن بُرد تعبيراً عن رأي أحد رجال السياسة الحاكمين ممن كتب عنهم (مثل ابن صمادح)، أو كان تعبيراً عن رأيه وما يراه من احتمالات قادمة سيئة، فإنّ الذي حدث هو ما حذر منه من زحف النصارى على كثير من الأراضي الإسلامية في الأندلس وخضوع الحكام لهم بدفع الجزية والاستعانة بهم ضد بعضهم البعض حتّى أصبح سقوط طليطلة نذيراً بسقوط الأندلس كلها.

¹ - وصل الخبر من حاشيته إلى يوسف بن تاشفين بما عقده مع النصارى؛ واعترف هو في مدكراته بأنه التزم لملك فشتالة بدفع الجزية، وظهر أن هذه مغاليل الحمابة من أعدائه (التيبان 75-76؛ دول الطوائف 326-327).

² - أعمال الأعلام 2/ 227 - 236؛ دول الطوائف 118 وما بعدها
³ - الذخيرة ق/1/ 499؛ وذكر الحميدي معاصره (ب488) أنه رآه بالمرية بعد سنة 440؛ وهذا يتفق مع ما ذكره ابن بسام من وزارته لمعن بن صمادح؛ أمّا ابن سعيد فقد ذكر وزارته للمعتصم بن صمادح ثم خدمته لمجاهد العامري صاحب دانية؛ ويظهر أنه خلط بين معن بن صمادح وابنه المعتصم، وخلط بين مجاهد المتوفى سنة 436 وابنه عليّ إقبال الدولة (436-468). انظر: جذوة المقتبس ص 107؛ المغرب 1/ 86-91

⁴ - من الآية 9 من سورة الحجرات

⁵ - الذخيرة ق/1/ 497-498 (لم يرد فيها تاريخ وفاته)

ووصف العالم ابن حزم (ت 456) استهتار ملوك الطوائف وتضييعهم لأمر البلاد والعباد، وتعاونهم مع النصارى خصوصاً ملوك الثغور، قبل أن يستفحل الوضع في الربع الثالث من القرن الخامس، فقال عن ملوك الطوائف: "والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمتون النصارى، فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم أمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالتواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه"¹

ومع تجدد نشاط حركة "الاسترداد" في أواسط القرن الخامس وما انتهت إليه من فقدان أقصى الثغر الشمالي الغربي مع عاصمته قلمرية سنة 456، وسقوط بربشتر في أقصى الشمال الشرقي في نفس العام، والهجمات النصرانية على مدن أخرى تحدث أحد رجال العصر وهو المؤرخ ابن حيان (ت 469) عن موقف كبار القوم من أمراء وفقهاء وعدم إعظامهم بما حدث لبربشتر على سبيل المثال، فقال: "خص الله سبحانه هذا القرن [الخامس] الذي نحن فيه من اعوجاج هاذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه؛ فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زياداً عن الجماعة وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أنتمهم صُموت عنهم، صُذِفَ عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين أكل من حلوانهم، وخابط في أهوانهم، وبين مستشعر مخافتهم أخذ بالتقية في صدقهم... ولقد طمَّ العجب لهؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء في بربشتر إلا الفرع إلى حفر الخنادق، وتعلية الأسوار، وسدَّ الأركان، وتوثيق البنيان"²، كاشفين لعدوهم عن السوء السوء، من إقائهم يومئذ إليهم أمور³ قبيحات الصور، موزونات الصدور بأعجاز حُلَّ الغيَر... فدهرنا هذا قد غرِبَ أهلُه أشدَّ غربة، وسفسف أخلاقهم، وخبَّتْ أعراقهم، وسفَّ أحلامهم، واحتوى عليهم الجهل، فلبثوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل، وذلك من أدلِّ الدلائل على فرط جهلهم، واعتراهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سدِّ ثغورهم، حتَّى ظلَّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجَّح عراض دورهم، ويستقري بسانط بقاعهم، يقطع كلَّ يوم منهم طرفاً ويبيد أمة، ومنَّ لدينا وحوالينا صُموت عن ذكرهم، لهاة عن بئهم؛ ما أن يُسمَع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكَّر لهم أو دأع لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم حتَّى كأنهم ليسوا منا، أو كأنَّ فتقهم ليس بمفض إلينا..."³

¹ - دول الطوائف ص 406 (نقلا عن مقال ل بلانيوس في: مجلة الأندلس

(Al-andalus . ano 1934. p.37)

² - في رسالة عن ابن عباد يذكر ضعف العرائم لدى ملوك الطوائف في مواجهة البصاري (الرسالة الجوابية على رسالة الهوريي الجامعة رقم 51)، ربما حدث انتقاده لغيره من الملوك قبل أن يدخل بدوره في زمرة من يدفع الحزبة للعشائليين.

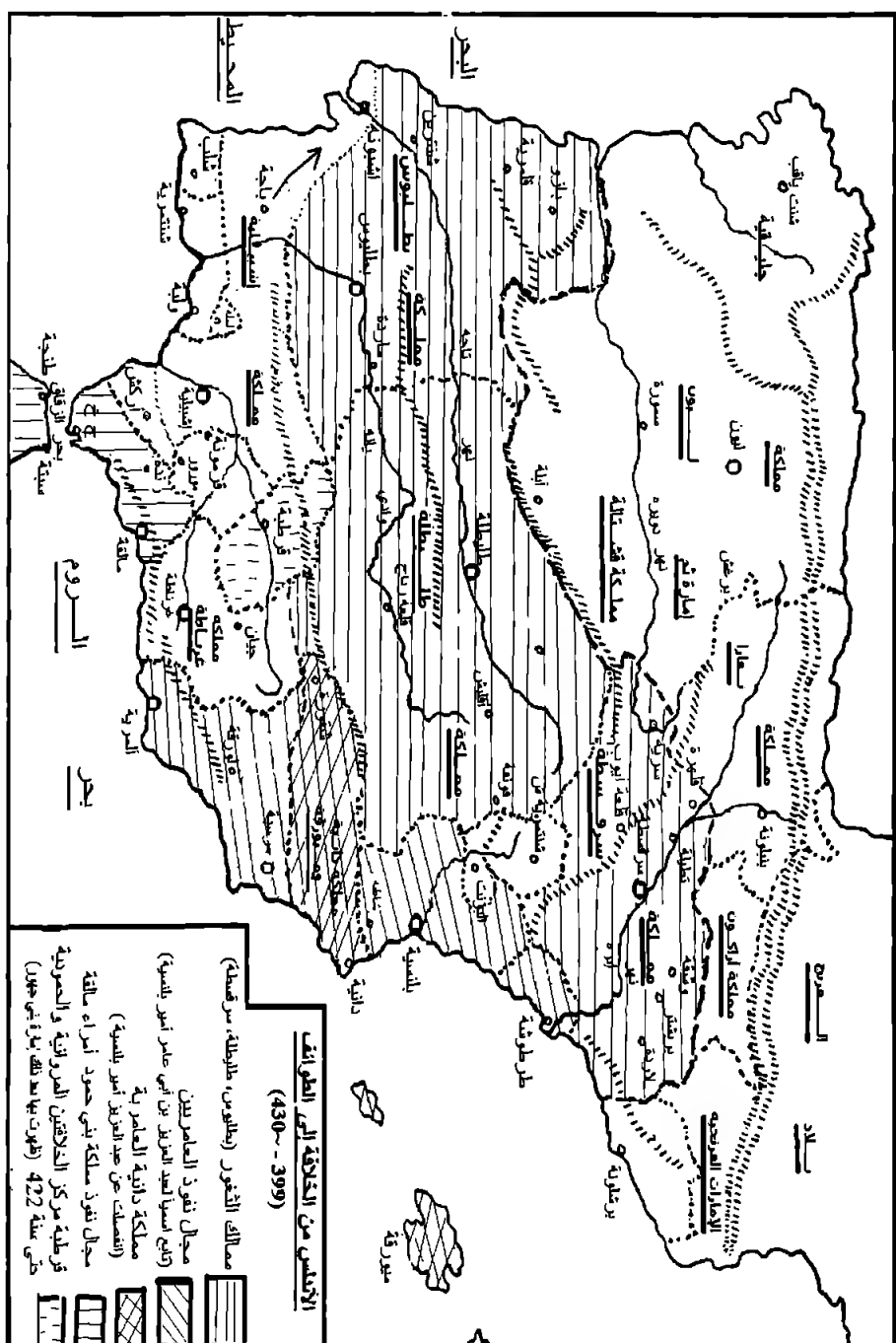
³ - البيان المعرب 3/ 254

وبعد اشتداد الخطب بسقوط طليطلة مركز البلاد الأندلسية سنة 478 بدأ الناس يفقدون الأمل في البقاء في الأندلس حتى قال أحد رجالهم:
يا أهل أندلس حثوا مطيكم == فما المقام بها إلا من الغلط
فالثوب ينسل من أطرافه وأرى == ثوب الجزيرة منسولا من الوسط¹

إذا حاولنا إجمال الحديث عن عصر الطوائف يمكن القول إن بداية الكوارث على البلاد أخذت معالمها تظهر على الخصوص منذ أواسط القرن الخامس، فمن جهة استمرّ التنّازع بين ملوك الطوائف خاصة بسعي بني عبّاد في توسيع مملكتهم على حساب الإمارات الأخرى وخاصة الصغيرة والمجاورة، ومن جهة أخرى بدأت مرحلة جديدة من حروب "الاسترداد" تدعمها الكنيسة لإنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس استغلالاً لما حدث فيها من انقسامات وتنّازع فيما بين أمرائها كما حدث في الحملة النصرانية على بربشتر وما حولها وعلى الثغور الشمالية الغربية. ومن الصعب أن نحمل كافة المسؤولية لممالك الثغور، فهي لم تجد من يدعمها للوقوف في وجه النصاري المحليين أو القاميين من وراء البرنيس، وكانت طليطلة في عصر آخر ملوكها (الملقب بالقادر) الضعيف المحتمي بملك قشتالة هي نقطة الضعف الأساسية، فإضافة إلى سعي ملك قشتالة لاقتطاع حصون ومدن من هذه المملكة، لم يتورّع ملك إشبيلية في أخذ نصيب من مملكة طليطلة أيضاً، ومن غير المستبعد أن يكون ملك بطليوس أيضاً استغلّ الوضع لتوسيع إمارته على حسابها، خاصة بعد أن تبين أن طليطلة في طريق السقوط بيد النصاري، اللهم إلا في المرحلة الأخيرة خلال حصار القشتاليين لها، حيث أرسل جملة من قواته للدفاع عنها لم تُجد نفعاً، لكونه أحسّ - متأخراً - بالخطر المباشر عليه في حالة سقوط طليطلة. وربما أمكن أن نحمل المسؤولية الكبرى لابن عباد لكونه أهم وأقوى ملوك الطوائف، فهو إلى جانب توسيع مملكته حتى ربطت بين البحرين غرباً وشرقاً والمضيق جنوباً، وأضاف إليها ما اقتطعه من أراضي مملكة طليطلة، فإنه أخذ مع غيره من الملوك يُمير جيش قشتالة المحاصر لها خلال فصل الشتاء عندما انقطعت الميرة عن هذا الجيش، بينما امتنعوا عن تقديمها لأهل طليطلة تقريباً إلى ملك قشتالة. ولم يشعر ابن عباد بالندم إلا بعد أن استولى ألفونسو القشتالي عليها، وأصبح يطالبه هو وغيره بتسليم المدن والحصون إلى رجال دولته، إلى أن حدث التدخّل المرابطي لإنقاذ البلاد من الوقوع في يد الإسبان، وإخلائها من الملوك والأمراء العابثين بمصالح الإسلام والمسلمين.

وفيما يلي نصوص الرسائل المتعلقة بأواخر الخلفاء المروانيين تليها رسائل ملوك الطوائف مرتبة ترتيباً زمنياً حسب الجهات الرئيسية.

¹ - صاحب هذا التّداء هو أبو محمد العسّال أحد زهاد طليطلة (المغرب 2/ 21)





اللهم تج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بـ أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربتها

القسم الثاني

نصوص الرسائل

(الصادرة عن الخلفاء في مطلع القرن الخامس، وعن ملوك
الطوائف ، وهي مرتبة ترتيباً زمنياً في إطار الجهات الرئيسية)



اللهم تج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بـ أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

أولاً؛ رسائل عن خلفاء قرطبة
المروانيين والحموديين
(422 - 399)

1 - محاولة نقل الخلافة من البيت الأموي

(عقد ولاية العهد للحاجب ابن أبي عامر)¹ (ربيع/1/399)

² "هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة (عامة) تامة³ بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله له من إمامة المسلمين، [وعصب به من إمرة المؤمنين]⁴، واتقى حلول الأجل⁵ بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأري إليه، [ولم يوجرها⁶ ملجأ تتعطف عليه]، أن يكون بقاء الله [تعالى] مفرطاً فيها ساهياً عن أداء الحق إليها؛ ونظر⁷ عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يُسند الأمر إليه، ويُعوّل في القيام به عليه [ممن يستوجه بدينه وأمانته وهديه ورغبه]، بعد اطراح الهوادة، والتبرؤ من الهوى، والتحزّي للحق، والتزلّف إلى الله جلّ جلاله⁸ بما يرضيه وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب، عالماً أن لا شفاعاً عنده أعلى من العمل الصالح، وموقناً أن لا وسيلة إليه أزكى من الدين الخالص؛ فلم يجد أحداً هو أجدر أن [يقّده عهده، ويفوض أمر الخلافة إليه بعده]⁹، في فضل نفسه وكرم خيمه، وشرف مرتبته¹⁰، وعلو منصبه مع تقواه وعفافه، ومعرفته وإشرافه، وحزمه وثقافته، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، التّازح عن¹¹ كلّ عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وقته الله، (إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً إلى الخيرات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمائزات، وارثاً للمكرّمات، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل

¹ افتتحنا عصر الطوائف بهذه الرسالة لكونها فاتحة عهد الفتنة المسمى عصر الطوائف، بمحاولة نقل الخلافة من المروانيين القرشيين إلى الحاجب عبد الرحمن بن المنصور ابن أبي عامر وهو من غير القرشيين وقد لقب نفسه بالناصر، وهو المعروف بشحول.

² - ورد نص الرسالة في الذخيرة في محاسن أهل الجريرة ق/1/ 104-105 (ط بيروت 1997)؛ وفي البيان المغرب 3/ 44-46، وقد اعتمدا عليهما في المقارنة؛ كما وردت في العصر 4/ 321-323 (مع اختلاف وبتن)، وكذا في نفع الطيب 1/ 424-425. والرسالة من إنشاء أبي حفص أحمد بن برد الأكبر (توفي سنة 418)، كان صاحب ديوان الإنشاء في دولة المنصور ابن أبي عامر سنة 394، وكتب عن خلفاء وأمراء عصر الفتنة وخاصة عن سليمان المستعين بالله، ترجمته في الذخيرة قبل نص الرسالة؛ وعند الحميدي: جذوة المقتبس (الخانجي، القاهرة) ص111؛ والصبي: بغية الملتمس رقم 387، ص 148 (بيروت 1997).

³ - ما بين هلالين (....) ناقص في الذخيرة

⁴ - ما بين معقبين [....] ناقص في البيان مصاف من الذخيرة؛ وعند المقرئ: وعصب به من أمر المؤمنين

⁵ - في الذخيرة: حلول القدر

⁶ - في أعمال الأعلام: لم يوردها

⁷ - في الذخيرة: وتقصى

⁸ - في الذخيرة: إلى الله تعالى

⁹ - في البيان: أجدر أن يقّده الخلافة في فضل...

¹⁰ - كذا في بعض نسخ البيان؛ وفي ط بيروت والذخيرة: مركبه

¹¹ - في الذخيرة: على

الطاعة، ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النصيحة، {أب منقطع القرين، وصنوّ معدوم الغريم} ¹ ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه ²، فلا غرو أن يبلغ من سُبُل البرّ مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه ³، مع أنّ أمير المؤمنين- أبقاه الله- لكثرة ⁴ ما طالعه من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، أمّل أن يكون وليّ عهده القحطاني الذي [حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة إلى] النبي ⁵ ﷺ "لا تقوم الساعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس ⁶ بعصاه". فلمّا استوت له به الأخبار ⁷، وتقابلت [عنده] فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً ⁸، خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته، وفوّض إليه النظر في أمور ⁹ الخلافة بعد وفاته ¹⁰، (طائعاً، راضياً، مجتهداً، {غير مُحابٍ له ولا مانئٍ بهواه إليه، ولا شركٍ ¹¹ نصّح الإسلام وأهله فيه، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى ذلك في بقاء أمير المؤمنين - أعزه الله- وبعده} ¹¹، وأمضى أمير المؤمنين - أعزه الله- عهده هذا وأنفذه وأجازته وبثله ¹²، لم يشترط فيه مثوية ¹³ ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك في سرّه وجهره، وقوله وفعله، عهدَ الله وميثاقه، وذمة نبيّه ﷺ ونعم الخلفاء الراشدين من آله وأبائه وذمة نفسه، بأن لا يبذل، ولا يغيّر ولا يحول، ولا يتأول ¹⁴؛ وأشهد الله على ذلك وملانكته وكفى بالله شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا الكتاب، وهو أبقاه الله جائز الأمر، ماضي القول والفعل، بمحض من وليّ عهده المأمون ناصر الدّولة أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور وقفه الله وقبوله لما قلده والتزامه لما التزمه ¹⁵، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ¹⁶."

¹ - نياض في البيان ، والتعديل من أعمال الأعلام.

² - تولى المطمّر الحجابة - بعد أبيه- للخليفة هشام، ولم يحز على فعل ما فعل أخوه عبد الرحمن بعده من محاولة تحويل الخلافة إليه.

³ - العبارة بين هلالين عوّضت في الذخيرة بعبارة "وفي فصل منه: مع أنّ أمير المؤمنين..."

⁴ - في الذخيرة: أيده الله بما طالعه.

⁵ - احتصر هذا في البيان هكذا: القحطاني الذي جاء فيه الأثر عن النبي...

⁶ - كذا في الذخيرة: وفي البيان: "رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه" (45/3).

⁷ - ورد في البيان: فلما استولى عبده الاختيار، وتقابلت فيه الآثار.

⁸ - في البيان: معرجاً

⁹ - في الذخيرة: خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته، وفوّض إليه النظر في أمر الخلافة

¹⁰ - هنا أسهى ما ورد في الذخيرة

¹¹ - ما بين قوسين {...} ناقص في العبر

¹² - بتل الشئ: قطعه أو ميره عن غيره (القاموس المحيط)

¹³ - في العبر: نثياً

¹⁴ - في العبر: ولا يروى

¹⁵ - في العبر: الله تعالى، وفيد له ما قلده وألزمه نفسه ما في الذمة

¹⁶ - في العبر: سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ؛ وكذلك في نهج الطيب وكان التعليق فيه على العقد بما يلي: "وهذا الكتاب نسختان أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن دكوان ووليّه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً منهم يليهم أسماء مائة وثمانين رجلاً (في البيان 186 رجلاً) من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكّام والقضاة والفقهاء المشاوير وغيرهم"، واحتصر ابن خلدون هذا بعبارة "وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم، وتسمى بعدها بولي العهد.

2 - تنصيب المستعين بالله

ابنه محمداً ولياً للعهد¹

(15 جمادى 2/ 400)

أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين- لما جبله الله عليه، وحبّبه إليه، من الاجتهاد للمسلمين، والنظر لهم، والفكر في عواقبهم، والحرص على مصالحهم، والإشفاق من اختلافهم، واقتراق كلمتهم-، رأى أن يجتهد لهم لمماته كما اجتهد لهم في حياته، بأن يرفع لهم علماً يهتدون به، وينصب لهم وزراً يلجأون إليه، ومونلاً يتعطفون عليه، يؤلف شملهم، ويجمع كلمتهم، ويلمّ شعبتهم، ويسكن نفرتهم، ويؤمن روعتهم، مقتدياً في ذلك بالأئمة المهتدين، والخلفاء الراشدين الذين نظروا للأمة من بعدهم، واشفقوا من اختلاف كلمتهم، وتفرّق مذاهبهم، عندما يفجأهم ما لا محيد لهم عنه، ولا بدّ منه من بغتات الأقدار، ونفاد الأعمار، الليل والنهار؛ فأطال استخارة الله - عزّ وجهه- والرغبة إليه في إمداده بتوقيفه، ومعاضدته بتسديده، وحمله على ما فيه الخير له ولجميع المسلمين وجميل العاقبة في الدنيا والآخرة؛ فالتقى الله في روعه، وثبت في خلده، وقرّر في نفسه، أن محمداً بن أمير المؤمنين أوّل أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين غير مُحابٍ له ولا أخذ بهوادة فيه، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له، واجتماع أدوات الفضل فيه، وما هو عليه في دينه وهديه، وورعه وفضله، وطهارته وأثوابه، وعفاف مذهبه، وصلب نفسه، واكتمال حلمه، وسعة علمه، وكمال أدبه، واضطراره بأعباء الخلافة، ومعرفته بمعاني السياسة، ونفاده في التدبير والإدارة، فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه وعزم عليه، وجعل ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين، وهو يعتقد أنه قد خرج لجماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم وتبراً إلى الله مما كلفه من أمرهم، وأدى الأمانة التي حمّله الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم، وفضله الجسيم، ونظراً لأمة محمد ﷺ وتحسيناً عليها، واحتياطاً لها، وهروباً من التقصير من حقها؛ والله يُريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة، والسعادة والغبطة، فيما وفق أمير المؤمنين له وألهمه إليه، فاعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده، وما أنفذه من فعله، وتقدّم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عمالك بالدعاء له في خطب الجمع بما أدرجناه طيّ كتابنا هذا. والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير والخيرة لهم، وجميل العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارضه بجميل نيّته لهم، وكريم مذهبه فيهم، إنّه وليّ المجازاة بالإحسان عن الإحسان، والممتنّ بالفضل والامتنان، إن شاء الله.

وكتب في النصف من جمادى الآخرة سنة أربع مائة².

¹ - هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، تلقّب بالمستعين بالله. قام على المهدي ابن عبد الجبار وتولّى الخلافة سنة 400، فسارع إلى تنصيب ابنه محمد ولياً للعهد، ثم لم يلبث في نفس العام أن علب عليه المهدي المذكور واستولى على الخلافة حتى سنة 403 حين تمكّن المستعين من استرجاع منصب الخلافة إليه (أعمال الأعلام 114/2 وما بعدها). وردت رسالة تعيين ولي العهد في أعمال الأعلام 2/ 126-127؛ قد تكون من إنشاء أبي حفص بن برد الأكبر.

² - كُتبت السنة في الأصل المعتمد بالأرقام المشرفية

3 - محاولة خليفة قرطبة المستعين بالله¹

استمالة الجند من الموالي (الصفالبة)² [400-407]

"إن الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أمية من السلطان الموصول لهم بخلافة النبوة ما حازه لهم دون سائر قریش، وسرأه رجالها وافر، وبيوت شرفها عامرة؛ فكان أول من أجمع عليه خيار الصحابة بالشورى والاختيار عثمان بن عفان أمير المؤمنين ذو النورين، وصهره عليه السلام مرتين، فلم يُنكر فضله هاشمي، ولا دافع إمامته قرشي، ولا نازعه الخلافة عربي ولا عجمي³؛ ثم غلب الشقاء على أقوام فنالوا منه ما انفتح عليه باب الفتنة إلى يوم القيامة، فبأهلها مصيبة صدعت شمل المسلمين، وأوهنت أركان الدين، وافترق أهل الإسلام بعده فرقتين؛ ثم لم تجتمعا إلا على رجل منا لرضاء الله عن سيرتنا، وأنس المسلمين إلى حسن مأخذنا وفضل سياستنا؛ فكانت الجماعة على معاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي وصهره عليه السلام ورديفه، فبلغ من ضبط الأمور ولين الولاية وجهاد العدو وجباية الفيء وبث العدل وإدراج العطايا ما لا يجهله ملي ولا نمي، وورثه ابنه وابن ابنه؛ ثم صير الله تعالى خلافته إلى مروان بن الحكم جدنا الأعلى أمير المؤمنين، دوسر قریش المفتى بتوفيقه، والحاكم في الأمة بتسديده، فألقت إليه بالمقاليد الكافة، وتداولها بنوه أبانوا الخلفاء الراشدون بالمشرق والأندلس إلى يومنا هذا، والله متم نعمته علينا كما أتمها على آبائنا من قبل، إن ربنا حكيم عليم.....⁴

ولم تزل الأنمة منا مقبلة على موالينا، مختصة لعبيدها، تقدمهم في الثقة، وتقربهم بالمودة، وتعدهم لحوادث الأمور، وتقف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهدهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة الخالصة، حتى شرف القوم وتبلوا، وسما ذكركم ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوثاتهم، فهم الذين تسمعون عنهم وتعرفون رناستهم كأل خالد وبني أبي عبدة، وبني شهيد، وبني بسيل، وبني خدير، وغيرهم من أشراف موالينا. وقد أفضى الأمر إليكم، معشر الموالين، فهذا اسمكم إذ قد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم من رق الملكة، وصيركم منا، وخلصكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحمة، فمولى القوم منهم، وملعون من انتمى إلى غير أبيه، وأدعى إلى غير مواليه، هذا حكم الديانة على لسانه عليه السلام؛ وأما حكم الدنيا وسير أهل السداد والصلاح فيها فلا يخرج

¹ - صدرت الرسالة عن المستعين بالله من إنشاء كاتبه أبي حمص ابن برد الأكبر كما وردت في الذخيرة ق/1/م/109-112، توجد ترجمة الكاتب في ص 103؛ وترجمة المستعين في ص 35-48 من نفس المصدر.

² - سموها في الذخيرة بالعبيد (قسم 1/م/109-112، 112-114)، والمقصودون هم العامريون أي الصفالين الذين لجأوا إلى شرق الأندلس معاكسين لسلطة المستعين الذي استعان بالبربر في خلافته، ولم نؤكد ما إن كانت الرسالة كتبت في خلافة المستعين الأولى سنة 400 أو الثانية بين 403 - 407.

³ - يشير بهذا إلى شرعية حكم عثمان وعائلته من بني أمية دون سائر القبائل والأجناس قديماً وكذا في عهد المستعين، لا بنافسه ببر ولا صفالته ولا عرب من غير الأسرة الأموية.

⁴ - بتر عوض بعبارة (وفي فصل منها)

أيضاً أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا، وتعصّبكم لنا، فنحن أحقّ الناس بكم وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم، من مواليتهم الذين أجرينا ذكرهم، فإن نعمتم حالاً مزّقت الشمل، ونعيتم أمراً صدّع الجمع، فتلك الفتنة التي يعقّ فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه، أجارنا الله وإياكم منها، وكشف لنا ظلمتها....¹

ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوباً، وأشدّ غموماً، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا فيكم، وعرفكم إشفاقنا عليكم؛ وكيف لا يكون ذلك كذلك وما زلتم الشعار والدثار، لا نوثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فإن يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين ابني آدم فمن بعدهما من ذريته، فقد أن أن تثوب الحلوم فتعود السيوف في أغمادها، والنبال في كنانها، ونحن نعاهد الله ألا نؤاخذ أحداً بذنب، ولا نناله بعقوب له ولا بأذى، ولا ننطوي له على إحنة، بل نغفر ونصفح، ونزيد في العطاء ونترككم بمواضعكم التي ارتضيتموها، تُدبر عليكم جباياتها²، وتخصّم منافعها، ولا ننسى في أموركم إذا سمعتم وأطعتم...."

4 - ردّ الخليفة المستعين على امتنان الموالي

(العامريين) بفضلهم على الدولة الأموية³ [407-400]

"زعم كاتب صحيفتكم أنه ما دامت خلافة سلفنا إلا بطبقتمكم، ولا عزّت إلا بدعوتكم؛ وهذا قول من لا علم له، فلم تظهر طبقتمكم إلا حديثاً، ولا كثر عددكم إلا قريباً، ولم تزل الخلافة عزيزة، والسلطان قائماً بأولياء الحق وأنصار الدين، العارفين بفضل الطاعة وموقعها من رضا تعالى، وبنقص المعصية وموقعها من سُخطه؛ والمئة عليكم لمن عرفكم - معشر العبدي- بالله وأدخلكم في دينه، واستنقذك من الضلالة، وأخرجكم من الكفر⁴، ثم اصطنعكم ونوّه بكم بالتصرّف في الخدمة، فبَلّغتم بذلك البغية؛ وهيهات أن تقضوا الحقّ كله، فأقصروا عن شأوكم، فذلك أولى بكم....⁵

وأقسمت على أن من حسبناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فألّى لهم ذلك وما أنتم منه! وإلّا أنتم مدبرون مسوسون، أتباع مربوبون، وسرّ التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم؛ ومتى بلغكم قط عن عبد ثرّب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبره فأنجح، والحقّ لا يضرّه قلة أهله، والباطل لا ينفعه كثرة جمعه، فإنّ العقاب للمثّقين،

¹ - بتر عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

² - هذا نوع من الإقطاع العسكري حيث يستفيد الجيد من جبايات المنطقة التي يوجدون بها مقابل حفظ الأمن بها، وكانت منطقة الشرق التي استقر بها العامريون (الصقالبة موالى الأمويين) ذات خيرات زراعية وتجارية مهمّة.

³ - الرسالة في الذخيرة ق1 م1/ ص112-114 ومن إنشاء ابن برد المذكور سابقاً؛ ويظهر أنّ المستعين ينس من استماله الموالي "العبيد".

⁴ - يشير إلى الأصل المجوسى أو المسيحي للصقالبة.

⁵ - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)

وحزب الله هم الغالبون؛ مع أنّ سفهاء كلّ طبقة أكثر من حلمانها، وقد رأيتُم قديماً نتيجة آراء السفهاء، وكيف أختى على أهله بموت ذلك التّدير؛ وطالما جاهدنا في الصّلاح، وحاولنا قطع الشّغب، ودفع الفتنة، فأبى الله إلا ما أراد على أيدي رؤسائكم الذين أتيتُم على عهدهم¹؛ وأمّا من طلبنا من أصحابكم فإنهم قوم خدموا العمالات، وتصرّفوا في الولايات، وعابوا على الجباة، وخلدت عليهم في الذّيون الحسابات، فهم الذين طولبوا في سبيل الحقّ، ورُمي منهم دون الكلّ بالبعوض²، وأخذ فيهم وفي أسبابهم بالرفق دون العنف فاعتدّوه ظلماً، وإلى صلاح مألّ أمرهم إذا قوربوا، والجميع على ذلك في خير من العافية، وبحظّ من الكافية، وأمّدت من النظرة إلى أن يأذن الله ببلوغ ما يشاء من المدى؛ وليس كلّ ما يبلّغكم من التّشنيع ويوصل بكم من الإرجاف يَلْتَفِتُ إليه ذوو العقول، ولا يُصْغِي إليه أهل التّحصيل....³

وأما ما ألصق بكم كاتبُ صحيفتكم إذ قال: إن لم يُعْمَلْ بما أردتُم أجبتُم دعوة من يناديكم؛ فليت شعري من ذا المنادي الذي إليه تُلَوّى الأعناق عناً، أم إلى من تُفزعون إن فارقتم عصمتنا؟ أمّا إن غرّكم الشّيطان، وأسلمكم الخذلان لتُقرعن من التّدم الأسنان، بحيث لا ينفعكم أسف، ولا يُجدي عليكم لهف، والله تعالى ودينه وخلافته في غنى عمن عندّ عليه وحاذه، والحدّ في الإسلام عنه وشاقه، وخرج عن الجماعة، وشقّ عصا الأئمة، واستخفّ بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله، واعترض من الراي فيما ليس من شأنه على من صيرَه الله إليه، وأسلمه في يديه، واجتباَه واصطفاه على علم به؛ ولولا أنّ أمير المؤمنين⁴ عرف أنّ ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، ويتيقن أنّ أهل السّداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظرٌ يُقيم الأوَدَ ويعدل الميل، مع أنّ الحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه؛ فاقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلي عليكم الغيب، لعلمتُم أنّ أمير المؤمنين لا ينাম عن مصالحكم، ولا يني في منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يردُّ ألفتكم، ويجمع كلمتكم...."

5 - رسالة عن المستعين إلى هذيل ابن

رزين أمير السهلة يحثه على طاعته⁵ [403-407]⁶

"... أمّا بعدُ، - أتاكَ الله رشذك، وأجزل من توفيقه قسطك -، فإنّ الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم، وأنساهم بمهلّ غير مُهمل بل ليحصى آثارهم، وليبلو أخبارهم، وجعلهم

¹ - يظهر أنّه بقصد فادة الجهات من الموالي الذين استقلّوا بجهاتهم بعد اضطراب شؤون الخلافة.

² - إشارة إلى أنّ من أسباب اتجاه فادة الجهات للاستقلال ما استغلّوه من ميراثه بيت المال لحسابهم الخاصّ، حتى لا يتعرّضوا للمحاسبة.

³ - يترّفى الأصل المعتمد عوض بعبارة (وفي فصل منها).

⁴ - بقصد المستعين نفسه.

⁵ - وردت الرسالة في الدخيرة ق1. مر1/ ص108 من إثناء ابن برد الأكبر؛ وهي موجهة إلى ابن رزين الذي كان أمير منطقة السهلة التي مركزها شنتمرية الشرق، وقد رفض التحلي عن طاعه الخليفة هشام المؤيد والدخول مع مندر التجيبي صاحب سرقسطة وغيره في تأييد دعوة المستعين إلى أن توفي هشام أو اختفى، فبايع ابن هذيل المستعين فعقد له على ما بيده (انظر الميان 3/ 181)، وقد أورد صاحب الذخيرة الرسالة على أنها مكتوبة عن المطهر ابن أبي عامر، ولا يبدو ذلك.

⁶ - سنة 403 تاريخ بدء حكم هذيل بن رزين والفترة الثامنة لحكم المستعين، وسنة 407 نهاية حكم المستعين.

أخياراً متباينين، وأطواراً مختلفين، فمنهم المختص بالطاعة، ومنهم المبتلى بالمعصية، وبين الفريقين أقوام ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾¹، ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم²، والسعيد من خاف ربه، وعرف ذنبه، وبادر بالتوبة قبل فواتها، واستعطى الرحمة قبل منعها؛ وإن كنت تركت قصدك، وخالفت رشدك، ونكبت عن سبيل سلفك، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به، ولم يؤنسك ممن جنحت إليه أمل لم تطمع فيه إلا لديه، بل كنت آمناً من المخاوف، بعيداً من المكاره، قريب المكانة، رفيع الدرجة، مصدراً في أهل النصيحة والثقة، خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان مما لم يبلغ أن يخرج ذا الرأي الأصل عن طبقته، ولا يجاوز أن يزيد المُنق على المخك في خصومته، والله عليم أن أمير المؤمنين لم يبخسك في تلك الهبات حظاً، ولا أولاك إعراضاً؛ ولقد اعتنى بمصلحتك، وعزم على إزاحة علك، حتى يتهياً من ذلك ما يفي بأملك لو انتظرته، واستقام فيه ما يزيد على طلبتك، لو صبرت عليه، ولك في القدر المقدور فسحة، وفي القضاء المحتوم مندوحة؛ ولن تضيق بك السبيل عند أمير المؤمنين، وأنت بين طاعة سائلة واستقامة موروثية، وبين إنابة منتظرة وتوبة مستقبلة، فأحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة، وتغطي على العيوب الكثيرة.

فالآن - عصمك الله - واللَّبَّ رَخي، والمركب وطِي، وبابك إلى رضى أمير المؤمنين مفتوح، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل، ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة، إياك ومصارغ التاكثين، وحذار موارط الغادرين..."

6 - رسالة أخرى عن الخليفة المستعين إلى

[ابن رزين؟] ريمًا في موضوع سابقتها³ [403 - 407]

"... ويجب أن تزيد في ربتك، وتهتب جمال جهتك، وتسعى في توفير محاسنك، وتكثر مناقبك، وإن كنت بحمد الله ومنه كامل الأنوات، كثير الحسنات، ولكن الزيادة من فضل الله محبوبية من التجباء، مطلوبة من النبلاء، وأنت صدرهم السابق وهاديهم المبرز؛ وقد نبذنا إليك في كتابنا مع فلان نبذة لم نضعها دون غاية البيان، ولم يسعنا إلا إيضاح الدليل وإقامة البرهان..."

¹ - من الآية 103 من سورة السجدة

² - اقتباس من الآية 118 من سورة هود

³ - رسالة أخرى عن المستعين بالله إلى ابن رزين فيما يبدو وهي مبنية البداية والنهاية، قد يكون تاريخها غير بعيد عن تاريخ إعلان طاعة ابن رزين للمستعين. ورد هذا المقطع من الرسالة من إنشاء الكاتب أبي حفص بن برد الأكبر كما في الأخيرة ف. 1. م. 1/ ص 116 أوردها ابن بسام بعد الرسالة اللاحقة ورأينا تقديمها عليها لكون اللاحقة كست في فترة ندير الحرب بين المستعين وعلي بن حمود التي انتهت بمقتل المستعين.

7 - رسالة عن المستعين إلى ابن [رزين] حول

قيام مجاهد العامري وعلي بن حمود ضده¹ [407]

"إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَإِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلَا تَبْتَئِسْ فَإِنَّ الْحَقَّ دَامِعٌ الْبَاطِلِ، وَإِنْ لَاحَتْ لِلْكَذِبِ بَارِقَةٌ، وَهَبَتْ لَهُ نَافِثَةٌ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ لِأَهْلِهِ، وَإِمْلَاءٌ لِحِزْبِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ بِمَا اجْتَرَحُوا، وَيُوبِقُهُمْ بِمَا اكْتَسَبُوا؛ وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَانِئِينَ الْخَارِجِينَ عَلَيْنَا النَّاكِثِينَ بِيَعْتِنَا، مُوسِمَانِ بِإِحْسَانِنَا²؛ أَمَّا الطَّالِبِيُّ³ فَرَفَعْنَاهُ مِنْ أَوْضَعِ مَلَا حَقَّ الْجَنْدِ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ أَهْلِ الْخُطَطِ، وَنَوَّهْنَا بِذِكْرِهِ، وَأَشَدْنَا بِاسْمِهِ، وَأَشْرَكْنَاهُ فِي سُلْطَانِنَا، وَصَرَفْنَا إِلَيْهِ طَائِفَةً مِنْ جُنْدِنَا، وَوَقَّعْنَاهُ فِيهَا هَمَّ مِنْ أَعْمَالِنَا؛ وَأَمَّا الْمُعِيطِيُّ فَإِنَّ الْبِلَادَ نَبَتْ بِجَدِّهِ فَلَفْظَتْهُ إِلَى جَدِّنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ⁴، فَأَوَاهُ وَوَأَسَاهُ، وَامْتَثَلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ فِي هَذَا الضَّعِيفِ الْمُتَعَيِّرِ، فَوَهَبْنَا لَهُ خَطِيرَ مَا اسْتَوْهَبَ، وَبَسَّرْنَا عَلَيْهِ عَسِيرَ مَا طَلَبَ، وَالْحَقُّنَا بِثِقَاتِنَا. فَاسْتَبَقَا⁵ فِي مِيدَانِ الْغَدْرِ وَجَمَحَا إِلَى مَدَى الْغَمُطِ وَالْكِبَرِ، جَا حِدَيْنِ بِحَقْنَاهُ، مُنْتَحِلَيْنِ لِمَا لَمْ يَجْعَلْهُمَا اللَّهُ لَهُ أَهْلًا؛ وَامِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دَافِعَ لِهَمَّا بِحَقِّهِ عَلَيْهِمَا، وَمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ ثُمَّ بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمَا...⁶

وَأَمَّا مَا وَصَفْتَ بِهِ نَفْسَكَ، وَعَرَضْتَهُ عَلَيْنَا مِنْ مَجَاهِدَةِ الْمَارِقِينَ، وَمَنَاضِلَةِ النَّاكِثِينَ، وَضَمِينَتِهِ مِنْ حَشْدِ الْأَجْنَادِ قَبْلَكَ، وَاسْتَفْغَارِ أَهْلِ عَمَلِكَ، وَمَا سَمَحْتَ بِهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى جَمِيعِهِمْ مِنْ مَالِكَ، فَأَنْتَ أَهْلٌ لِكُلِّ ذَلِكَ، وَخَلِيقٌ بِالْوَفَاءِ بِهِ، وَقَدْ بَذَلْتَ جَهْدَكَ، وَقَضَيْتَ حَقَّ إِمَامِكَ، فَارْضَيْتَ رَبَّكَ، وَزَكَيْتَ نَفْسَكَ، وَرَفَعْتَ فِي الْغَابِرِينَ ذِكْرَكَ، وَصَدَّقْتَ ظَنَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَقَّقْتَ نَفْسَهُ فِيكَ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَجْتَزِيَ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَنْصَارِهِ، وَيَكْتَفِي بِمَنْ فِي حَضْرَتِهِ مِنَ الْأَجْنَادِ، فَهَمَّ عَلَى أَجْمَلِ بَصِيرَةٍ فِي نَصْرِهِ، وَعَلَى أَثْبَتِ نِيَّةٍ فِي الذَّبِّ عَنْ سُلْطَانِهِ، وَاللَّهُ يَعِينُهُ وَإِيَاهُمْ وَيُؤَيِّدُهُ مَعَهُمْ؛ وَإِنْ احتَاجَ إِلَيْكَ فَمَا أَطْيَبَ نَفْسَهُ عَلَيْكَ، وَأَوْثَقَهُ بِإِجَابَتِكَ أَوْ دَعَانِكَ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، وَمَتَّعَكَ بِكَ، فَأَنْتَ سَيْفُهُ الْفَاصِلُ، وَسَهْمُهُ النَّافِذُ..."

¹ - الرسالة من إنشاء ابن برد الأكبر كما في الدخيرة، ق/1م/1-114، 116، عبر أن اسم المكتوب إليه غير وارد بسبب طمس في الأصل.

² - يظهر أن أحدهما هو مجاهد العامري الذي قَدَّم للحلافة الفقيه المسمى المعيطي وهو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي الأموي، فدَّعاهُ مجاهد في جهنة الشرقية ودعا له بالخلافة سنة 405 (البيان 3/ 116: أعيان الأعلام 2/ 220) (سماه ابن الخطيب: أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي المدني) ولم يسمه "المرواني" بل جعله من الفقهاء المشاورين سابقاً في قرطبة، ولم يلبث مجاهد أن بغاه إلى إفريقية لمحاولته الاستبداد عليه (ذكر ابن بشكوال وفاته سنة 432 (الصلة 1/ 296، ط. القاهرة 1966)

³ - يقصد علي بن حمود والي سبته، وكان القائد الأعلى لجيش البربر التابع للمستعين، ثم ولَّاهُ على سبته وإقليمها (طنجة، أصبلا...) وولَّى أخاه القاسم ما شمال المصيق (الجزيرة وما جاورها)، وقيل إن الخليفة هشام كتب له بولاية عهده ليشرف أسرنه ولكون هشام لم يحلَّ وريثاً للعرش (البيان 3/ 120). فخرح على المستعين وحاربه في أحواز مالقة بمساحتهم حولهم من صنهاجة إضافة إلى خيران العامري صاحب مرسية والمرية أملاً في دعي الخليفة هشام، فانتصر ابن حمود على المستعين ودخل قرطبة وأعلن الخلافة الحمودية العلوية سنة 407: عبر أن خيران العامري فرغه إلى الشرق لما لم يجد هشام حياً. راجع عن علي ابن حمود الدخيرة 1/1 96 وما بعدها، وعن ابنه يحيى ص316، 436، وعن القاسم بن حمود ص481-486

⁴ - حد المعيطي اسمه الوليد، وحد المستعين (المقصود هنا) هو عبد الرحمن الناصر والد جدّه سليمان، فهو المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر.

⁵ - المقصودان هما علي بن حمود والمعيطي

⁶ - في الدخيرة: (وفي فصل منها)

8 - رسالة عن المستعين خليفة قرطبة إلى منذر بن يحيى

صاحب سرقسطة مشيراً إلى اختلاف أهواء الرعية¹ [407]²

"... وأما أمر علي بن حمود فعلى ما أعلمناك به من الضعف والوهن، وإنما يطمع في من عندنا³، والله يبطل طمعه. وقد أوحشنا بطء أخبارك عنا، وإن كنا لا نشك في أنك على جميع ما تصرّفت به، وفي كل ما تقلبت فيه، كما نحبه ونهواه، فذاك حظك منا، وموقعك من ثقتنا، وعلى ذلك فإنّ بواعث الإشفاق جمة، وعوارض التوقي كثيرة، وقد توالى المحن، وطالت الفتن، ونجم التفاق⁴، وشاع الخلاف بين أهواء أولياننا...."

9 - إقرار خليفة قرطبة (الناصر) علي ابن حمود للمنذر

بن يحيى على ما في يده من ثغور منطقة سرقسطة⁵ [408 - 407]

"... وما أنكرنا شيئاً ممّا ذهبت إليه من التآني والتثبت، ولا اعتقدنا إلا رأيك في نظر الاجتماع وترقب الالتئام، لترتفع الشبهة وينجلي الشك، وإن كان مذهبنا في هذه الأمة مشهوراً، واحتسابنا الأجر في صلاحها معروفاً، وقيامنا لنصرها، وسخاؤنا بأنفسنا وأموالنا لاستنقاذها، لا ننوي إلا وجهه تعالى، وإلا فقد علم من عرفنا، وأيقن من أنصفنا، أننا كنا في عيش هنيء، ولئبٍ رخي، وعمل واسع⁶، ومال وافر، وجند مطيع، وحصن منيع⁷؛ وفي دون ذلك ما أقنع من عرف الدنيا بحقيقتها، وأجزأ من أنزلها منزلتها، وما كفى من لا يعدل بالسلامة ولا يبيع بالغبين، ولا يركب الأهوال، ولا يقتحم المهالك، مغرراً بدمه، مخاطراً بنفسه لحطام تافه، وظل زائل، ومتاع قليل؛ وإنا لنترجو منه تعالى أنه لم ييسر ما يسر من آمالنا إلا عند اطلاعه على نيتنا فيها، فنحن بعين الله ونواصينا بيده، والملك والأمر له...."⁸

والشروط التي خططتها بيدك، وأردت معرفة رأينا بإمضائها، فإنها - لعمر الله - قليلة في استحقاقك، ولو اتسعت البلاد لأضعاف ما تليه لكنك لذلك عندنا أهلاً في كفايتك وضلاعتك

¹ - الرسالة من إنشاء ابن برد المذكور كما وردت في الذخيرة ق1/م1/ص116، وكان منذر من قادة البربر، وقد استقر في حكم سرقسطة، وعامل رعاء التصاري معاملته ودية لإبعاد أطماعهم في مملكته إلى حين قتله آخر سنة 430 (البيان 3/ 175- 178 : أعمال الأعلام 2/ 119).

² - افترضنا هذا التاريخ لأن الأول هو بداية حكم المنذر بن يحيى ونهاية فترة المستعين (403 - 407).

³ - أي أنه ينتظر ثورة أهل قرطبة ضد المستعين، وقد عرف أهل هذه المدينة بسرعة تقلب أهوائهم السياسية هذا ما يرجح كون تاريخ الرسالة بعد ساققتها أو في فترتها حيث الإشارة هنا إلى المحن التي أصبح يعاني منها المستعين من جراء العامريين شرقاً وابن حمود جنوباً وعدم الثقة في موقف أهل قرطبة نحوه.

⁴ - كان المنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة (408- 414) غدر بمحمد بن المستعين (ولي عهد أسه) عندما استنحار به فقتله وهو ضيفه (البيان 3/ 176)؛ ولا يظهر أن المنذر كان مؤيداً لابن حمود ولا لاس مجاهد وإنما كان يحاول الموازنة بين الطرفين رغم تظاهره في البداية بدعم خلافة المروانيين. وردت الرسالة في الذخيرة ق1/م1/ ص 117- 119، من إنشاء الكاتب أبي حمص أحمد بن برد.

⁵ - أي منطقة إمارته السابقة جنوب المصيف.

⁶ - سنة معروفة بحصانتها بالنسبة لأي عدو يأتيها من البر.

⁷ - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

وضبطك وحزمك؛ فأما الاعتماد عليك في الرأي، والقصد إليك بالمشورة، فهو الذي لا نعدوه بك ولا نُجاوزُه فيك، ونحن بذلك أحظي، والفائدة لنا فيه أعلى؛ وقد أنفدنا كل ما دعوت إليه من تنفيذ سجلاتك على ما في يديك من الأعمال، واعتقدنا لك ولجميع أهل الثُغور - حرسهم الله - الأيمان المنعقدة والأقسام المغلظة لا تدخل عليهم داخله يكرهونها، ولا يكلفون كلفة يستثقلونها، ولا يخالف بهم طريقة يرضونها ما سمعوا وأطاعوا...¹

ووصيتك بأهل قرطبة وغيرهم مقبولة، ونصيحتك فيهم متبوعة، ولن يروا منا ولن تسمع فيهم عنا إلا كما يعجبك ويسرك، ويُجذلك ويُبهجك²، وإثما هدى الله أولهم بأولنا، وأسبغ النعم على سلفهم بسلفنا؛ وهل يؤملون أحنى عليهم وأراف بهم منا؟ أم هل لمن آتاه الله رشده وشرح بالإيمان صدره رغبة عنا؟ وهل يُنكر فضلنا إلا جاهل مكابر، أو يدافع حقنا إلا معاند خاسر؟..."

10 - رسالة عن [علي بن حمّود]؟

في عتاب من تخلّى عن بيعته³

[408-407]

"... بلغنا جوابك ناكباً عن الحق، بعيداً من الإنصاف، خلوا من حسن المعاملة، بداية بالامتنان بما كان منك، بما لو اقتنعت فيه بما بذلنا من الشكر لركبت سنن المنصفين، وسلكت سبيل المحسنين، فقد قيل: إن الشكر وإن قلّ ثمن لكل نوال وإن جلّ، كما قيل: إن المنة تفسد الصنيعة⁴؛ ولو نظرت في أخبار الماضين، وكشفت عن سير الأولين، لوجدت ملوك الأمم على قديم الزمان قد تعاملت بالتعاون، وتواصت بالترافد، وإن شحطت ديارها، واختلفت أديانها، وجعلت ذلك بينها حقوقاً تُقضى، وفروضاً تؤدّى، فالذهر أطوار، والأيام دول؛ وقد علمت أن الذي سامحتنا فيه لم تُقدم إليه إلا على شروط اشتراطتها، وأطماع استدعيّتها، فقضيناك كل ما ملكناه، ولم نُمطلك بشيء أدركناه؛ وذكرنا أنك فعلت بنا ما فعلت دون معرفة تقمّت، ولا صحبة سلفت، ولو هربت عن هذا الجفاء دهرك، وأنفقت في السلامة من هذا الخطل عمرك، لكننت لنفسك ناظراً، وفي صفقتك تاجراً؛ فإن كنت أردت معرفة العي كفى بذلك عيّا من القول وزللاً من الرأي؛ وإن قلت إنك لم تعرف مكاننا من الخلافة ووراثتنا الإمامة عن أسلافنا الماضين وأجدادنا الأقربين، وجهلت أننا في نصابها وذروتها، وأقعد الناس بها وأقواهم عليها، فقد كابرّت العيان، ودافعت البرهان...."

¹ - بعد هذا نتر في الرسالة بالذخيرة عوض عبارة (وفي فصل منها)

² - سار ابن حمّود في أهل قرطبة سيرة محمودة في البداية إلى أن أحسّ منهم الاعوجاج عنه فغيّر سلوكه معهم.

³ - وردت الرسالة في الذخيرة ق1/1م/119-120، من إنشاء أبي حفص بن برد الأكبر التي قدّم لها ابن بسام عبارة "وله من أخرى" (والضمير يعود على ابن برد)، ويظهر أن المکتوب عنه هو علي بن حمود والمكتوب إليه هو حيران العامري صاحب المربة الذي حرّضه على الانتقال من سببة إلى قرطبة ودعمه في هذا الشأن مع الصنهاجيين أمراء غرناطة وما فاربها حتى تمكّن من دخول قرطبة فبيع بالخلافة (الميان 3/ 120)، ولم يلبث حيران ومجاهد صاحب دابة وباقي العامريين في الشرق أن انقلبوا على ابن حمود ببيعة المرزقي المرواني عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر.

⁴ - هذا يؤكّد أن المحاطب قد يكون هو حيران العامري باعتبار أصله من الموالي كباقي العامريين

11 - رسالة عن [ابن حمّود؟] إلى ابن

صمّادح حول ناكث خاب مسعاه¹ [407 - 408]؟

"... وإنّ للبغي مصارع لا تعدو أهله، وللتكث عواقب لا تخطي معتقده، وقد علمت الكافة ما أولاه أمير المؤمنين فلاناً من إحسانه، وأفاضه عليه من معروفه، فرفعه من الحضيض، وانتعشه عند الجريض، ونوّه به بعد الخمول، وكثره وهو قليل، فلم يشكر الله نعمة، ولا وقى له بذمة، وظلّ بيني الغدرة على غير أس فخر بناؤه، وانتضل في الرميات في غير هدف فصافت² سهامه، وأصحابه يتساقطون علينا في كلّ حين أفواجا، ويتتابعون إلينا نزعاً أرسالا، لما يبدو من ضعف آرائه، وخُبث مذاهبه، وقبح غدره، وتناكب أمره، حتّى اتسع عليه الخرق، وأعضله الفتق، واستنفر له وجه الخلائق، وأسلمه غرور الشيطان فأصبح نادماً سادماً، وأمسى حائراً بائراً، ونكّال الله تعالى نازلاً به، وسخطه منزلاً عليه، وبأسه منصرف إليه..."

12 - رسالة عن علي بن حمّود إلى والي جيان

في جمع الواجبات الزراعية نقداً لا عيناً³ [407 - 408]

"إن الله تعالى قلّدي من رعاية عباده، وحملني من سياسة خلقه، وعصب بي من تدبير أمورهم وإصلاح شؤونهم، والزمني من النظر لهم والعمل بما يصلحهم ما لا حول لي فيه ولا قوة عليه إلا بعونه وتأييده، ولا هداية إلا بتوفيقه وتسديده؛ وإنّ الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، صلاحهما وفسادهما متصلا، ونماؤهما ونقصانهما منتظمان، إذ كانت الرعية عنصر المال ومادة الجباية، بها قوام الملك وعزّ السلطان، ورزق الأجناد التي بها يُقاتل العدو، ويُصنر الدّين، وتُحمى الحرّم؛ ولما تأملت أحوال أهل عملك من كورة جيان وذواتها⁴، وحصلت ما يلزمهم أدائه هذا العام من الطّعام في العشور الواجبات، تكفّفهم من شفقتي وأحاط بهم من عواطفني ما أدّى إلى رفع مؤونة طعامهم، وإعفانهم ممّا يلحقهم فيه من العنت، ويرجع

¹ - الرسالة من إنشاء ابن برد المذكور كما وردت في الذخيرة ق/1/ م/116-117؛ قدّم لها ابن بسّام بقوله: "وله (أي ابن برد) من أخرى إلى ابن صمّادح..."؛ وكان ابن صمّادح الجدّ أبو يحيى محمد بن أحمد والياً على وشقة وأعمالها للخليفة هشام المؤيد، وجدّد له سليمان [المسعين] هذه الولاية. فهل يكون المكتوب إليه هو صاحب وشقة المذكور بعد موت المستعين فيمكن حصر تاريخ الرسالة بين 407 و 408 أي في بداية عهد علي بن حمّود؟ (راجع الذخيرة ق/1/ م/729-730: الباب ص 173؛ أعمال الأعلام 2/189).

² - صاف: انصرف

³ - حدث مقتل علي بن حمّود على يد بعض علمائه من الصقالبة بعد أن كان يستعدّ للحرب مع المرتضى القائم في الشرق بدعم الصقالبة العامريين، (البيان 3/122، 213؛ العبر 4/335-336؛ مقال: سكوت البرغواطيين ملك سبته، مجلة تطوان ع/11/1971، ص 95 (لصاحبه بيرميخو، حواكيس فالعي).

⁴ - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي حمص ابن برد عن علي بن حمّود كما وردت في الذخيرة ق/1/ م/120؛ يظهر أنّها موجّهة إلى صاحب جيان من بني بيزال الذي كان تابعاً لخليفة قرطبة علي بن حمّود.

عليهم من الذّرك، وكُلف الحمولة إلى الأهراء، وما يتبع ذلك من الانتقاص، ويتّصل بالكيل من التّطفيف، وتسقط الثّبعات ويخفّ الثّقل. فانظر عندما يرد كتابي في توزيع ما يجب على أهل عملك من النّاض عن كذا وكذا من القمح والشّعير حساب كلّ مدي من القمح سئة دنانير، ومن الشعير ثلاثة؛ واشمل بتوزيعها النّاس كافة غير محاش منهم أحدا؛ وليكن ذلك على العدل وتحريّ الحقّ واعتماد الصّدق، بمشاهدة قاضي الجهة، وموافقة شيوخ الرعيّة ووجوهها، وأهل المعرفة بمواقع وظائفها، إن شاء الله".

13 - رسالة عن أحد الخلفاء [الحموديين]؟

حول انحراف من كان موضع ثقة¹ [417 - ...]²

"... أنالك في فلتات تحجب حسن الظنّ بمن أسيغت عليه النعمة، ووجبت لربّه الحجة في أداء النصيحة؛ وقد اندرجت في أثناء هذه الفتنة خطوب استعمل فيها أمير المؤمنين الثقة بمن لم يثق الله في النصيحة له ولرسوله عليه السلام ولخليفته ولجماعة المسلمين، ولم تصدّق نيّته ولم يصحّ خبره؛ ولا رأي لمكذوب فأرطاه عشوة، وزخرف له كذبة على إثر كذبة، ومنى الأمانى، وقرب المواعيد، ونمق الزور، ولبس الأمور، وأمير المسلمين³ يوجس الخيفة، ويخشى الخديعة، ويرى أعلام الرّيبة، حتّى وضّح الفجر، وصرّح عن زبدته المخض؛ وليس هو بأول من أحسن فضاع إحسانه، واصطنع فسقطت صنائعه؛ وفي فضل الله عوض من كلّ فائت، وفي جزائه خلف من كلّ ضائع، وفي إقبال رحمته غنى عن كلّ مذبر، وللاّيام عقب تُدِيل الكره بالرّضى، وتنسخ الشّدة بالرّخا⁴..."

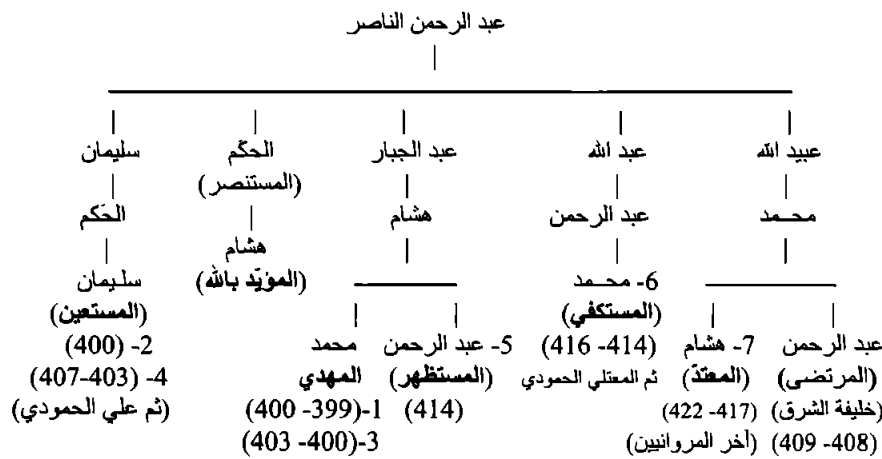
¹ - الرسالة من إنشاء ابن برد كما وردت في الدخيرة ق/1/ م/1 ص 117-119، لم يورد صاحبها اسم المكتوب عنه ولا اسم المكتوب إليه (أو إليهم)، قد يكون المكتوب عنه أحد الخلفاء الحموديين بقرطبة، هو : علي بن حمود (407 - 408)، أو أخوه القاسم (407 - 412)، ثم (413 - 414)؛ أو يحيى بن علي المعتلي (412 - 413 ثم 416 - 417).

² - سنة 417 هي نهاية خلافة الحموديين بقرطبة (نوفي ابن برد منشئ الرسالة سنة 418).

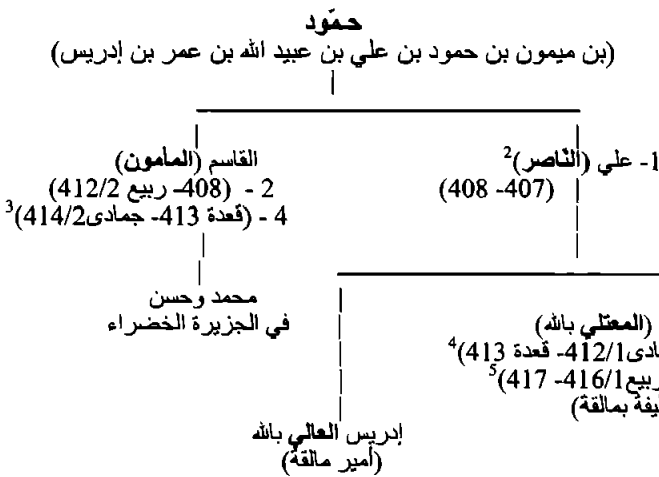
³ - كذا؛ ولعل الصواب هو أمير المؤمنين، حيث لم يتسم أحد آنذاك باسم أمير المسلمين.

⁴ - بعد خلع القاسم بن حمود سنة 414 أراد أهل قرطبة تقديم سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالمرتضى من بني أمية، فعاجاهم عبد الرحمن بن هشام أخو المهدي بن عبد الجبار، فأطاعوه عن رضى أو كره، وتلقب بالمستظهر بالله، ثم قتل في فعدة من السنة، وبابعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ولقب بالمستكفي (414-416)، وعاد يحيى الحمودي إلى خلافة قرطبة بعد بضعة أشهر ثم خلعه وباعوا آخر المروانيين هشام بن محمد المعتد بالله (417 - حجه 422)، وبخلعه أنهت الخلافة الأموية وانتقل الأمر إلى الوزراء من بني جهور (الدخيرة ق/1/ م/1 48 وما بعدها؛ جدوة المقتس 24-27 البيان 3/ 133 وما بعدها، 140-145)

أواخر الخلفاء من بني أمية في قرطبة



بنو حمود الأدارسة خلفاء قرطبة 1



1 - اعتمدنا أساساً في سلسلة النسب على البيان 3 / 119، وكتاب المنين 38

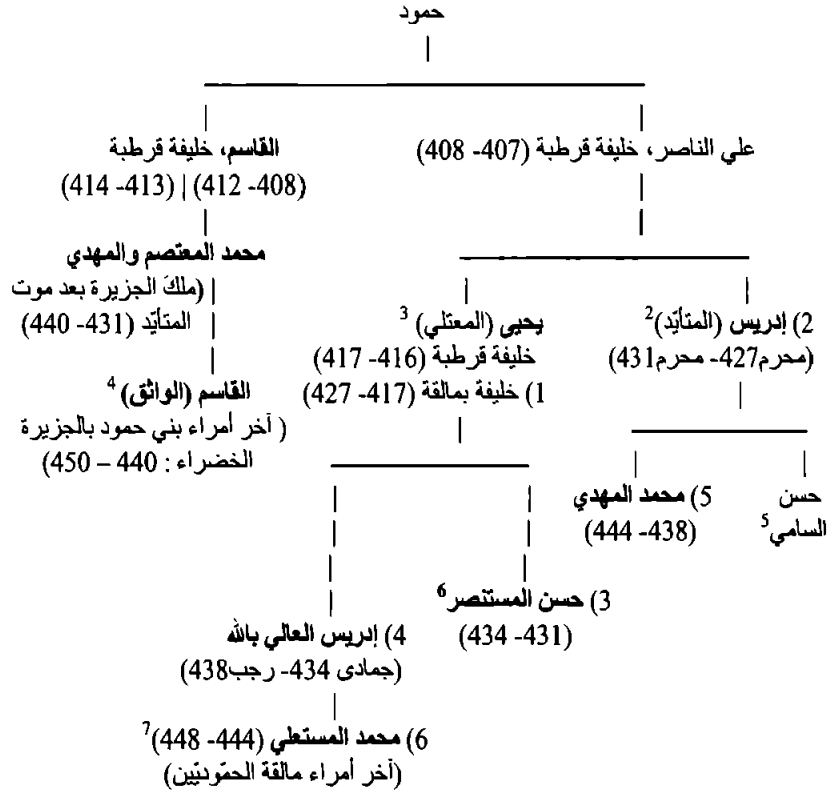
2 - عن بني حمود انظر البيان 3 / 122 وما بعدها

3 - بين الولائين الأولى والثانية بايع أهل قرطبة عبد الرحمن بن هشام المسبظهر بالله، ثم المستكفي (414 - 416)، ثم يحيى الحمودي، ثم المرواني هشام المعتد بالله (417 - حجة 422)، ثم تولى بنو حهور من أمراء الطوائف (انظر البيان 3 / 133 وما بعدها، 140 - 145)

4 - انتقل بعد خلعه إلى مالقة وحدث له البيعة بالخلافة وتسمى بالمعتلي بالله، وبايعه شريش وألمرية وسبنة إضافة إلى مالقة، ثم عاد يحيى إلى قرطبة في نفس السنة 417 وبقي حوالي أربعة أشهر (البيان 3 / 135 - 145)

5 - خرج يحيى إلى مالقة، ولما وصل العامريان مجاهد وحيران إلى قرطبة قتل أهلها من كان بالمدينة من البربر من جند يحيى الحمودي (البيان 3 / 143)

بنو حمود ملوك مالقة والجزيرة¹



¹ - تسمى أمراء بني حمود بالخلفاء سواء في قرطبة أو في مالقة؛ وقد اعتمدنا في هذا الجدول أساساً على الحميدي في **حدود المقييس** (28-34) وذلك لمعاصرته للأحداث، مع الإضافة أو التعديل من **البيان المغرب** 3/ 188، 190-192، 213، 217-218، 230، 266 والدليل على البيان ص 289-291) ؛ **وأعمال الأعلام** 2/ 142-143؛ **والعبر** 4/ 336-338؛ **وبفتح** 4/ 432.

² - في البيان: بعد وفاة إدريس المتأيد بويغ أخوه حسن بن علي بسببته وتسمى بالمستنصر، ودخلت في طاعته مالقة ورندة والجزيرة الخضراء (**البيان** 190-192، **بفتح** 4/ 432).

³ - كان خليفة بقرطبة مرتين كما في الجدول السابق؛ وأثناء خلافته بمالقة خضعت له فرمونة شمالاً، وبجارجها قتله جيش ابن عباد في المحرم 427 (**البيان** 3/ 188 - ...).

⁴ - اختلف في تاريخ نهاية الحموديين في الجزيرة الخضراء على يد بني عباد، وكذا سقوط مالقة في يد صاحب غرناطة، والراجح أن سقوط مالقة حدث سنة 448، وسقوط الجزيرة سنة 450.

⁵ - في بعض المصادر جعل السامي لقباً لإدريس بن يحيى الفائز بن إدريس المتأيد، وقد اعتمدنا رواية الحميدي المعاصرة للأحداث.

⁶ - بعض المصادر تجعله أخاً لإدريس المتأيد.

⁷ - هذا آخر أمراء مالقة الحموديين حيث سقطت مدينته في يد أمير غرناطة، فانتقل المستعلي إلى مليلة شمال المغرب وبابته بالإمارة (456-460).

لائحة بأسماء ممالك وملوك الطوائف¹

- في الشمال الأوسط : مملكة طليطلة،
استقل بها أحد الفتيان العامريين إلى وفاته، ثم أصبحت بيد بني ذي النون: الظافر إسماعيل (427-435)؛ ثم ابنه المأمون يحيى (435-467)، ثم أخوه يحيى القادر (467-478)
- في الشمال الغربي: مملكة بطليوس: مملكة بني الأفطس:
عبد الله بن محمد ابن مسلمة المنصور (413-437)؛ ابنه محمد المظفر (437-461)؛ ابنه المنصور يحيى (461-464)؛ أخوه المتوكل عمر بن محمد (464-488)
- في إشبيلية والغرب مملكة بني عباد: القاضي محمد بن إسماعيل
(414-433)؛ ابنه المعتضد عباد (433-461)؛ ابنه المعتمد محمد بن عباد (461-484)
- في الشمال الشرقي : مملكة سرقسطة :
منذر بن يحيى التجبي، المنصور (408-414) ؛ يحيى بن منذر، المظفر (414-420) ؛ منذر بن يحيى معز الدولة (420-430)². ثم بنو هود: سليمان بن محمد المستعين (محرم 431-438)³، ابنه أحمد المقتدر (438-475)، المؤتمن يوسف بن المقتدر (475-478) ابنه أحمد المستعين الثاني (478-501)، ابنه عبد الملك عماد الدولة (501-503).
- في الشرق : العامريون (الصفالية) من طرطوشة شمالاً حتى المرية جنوباً مع الجزر الشرقية
(حتى سنة 468 حيث استقلت بسقوط دانية في يد ابن هود)
* في بلنسية : الفتيان العامريون: مظفر ومبارك (400-408)، لبيب (408-411)
ثم المنصور عبد العزيز (411-452)، وهو ابن عبد الرحمن الناصرا بن الحاجب المنصور، قدّمه العامريون عليهم، ثم خلفه ابنه:
نظام الدولة عبد الملك بن عبد العزيز (452-457)، ثم ابنه أبو بكر بن عبد العزيز (نيابة عن المأمون بن ذي النون: 457-478)، (ثار على ابن ذي النون)،
ثم عثمان بن أبي بكر: 478)؛ ثم استولى على الإمارة :
القادر ابن ذي النون (478-485) مدعوماً من قشتالة، بعد إخراجه من طليطلة
ثم القاضي بن جحاف (485-487)؛ ثم الكمبيطور والقشتاليون (487-495)
- * في دانية والجزر: (الموفق) مجاهد العامري (400-436)؛
ابنه علي (إقبال الدولة) (436-468) في دانية والجزر، ثم أخذ منه دانية:
المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة (468-474)؛ ثم المنذر بن هود (474-484)
وبسقوط دانية في يد ابن هود استقلت الجزر سنة 468 إلى أن دخلها المرابطون سنة 509 بعد تعرضها لحملة صليبية فحرروها.

¹ - اقتبسنا هذه اللائحة أساساً من ابن عذاري في: البيان المغرب (ج3)، ومن ابن حيان في: بصوص من كتاب المتن: وأعمال الأعلام (ج2)، ومن عنان في: ملوك الطوائف (437)

² - اقتصر صاحب البيان على ذكر الأميرين الثاني والثالث.

³ - ورد في الدخيرة وجوده حاكماً في لاردة خلال سنة 420 (ق516-517)؛ أما في البيان المغرب فورد استنلاؤه على لاردة سنة 431 (3/222)، وأنه استولى على سرقسطة سنة 436 (البيان 4/54)، وهذا خلاف ما في المتن ص 53، فابن حيان أقرب إلى الحدث زمانياً ومكانياً.

* في مرسية: العامريان: خيران (403-419)؛ زهير العامري (419-429)
ثم أبو بكر بن طاهر (429-455)؛ ثم ابنه أبو عبد الرحمن بن طاهر (455-471)
(كلاهما باسم عبد العزيز صاحب بلنسية)، ثم استيلاء ابن عباد عليها (471)

* في المريّة: العامريان صاحباً مرسية: خيران (405-419)، ثم زهير (419-429)
ثم معن بن صمادح التجيبي (433-443)، ابنه محمد المعتصم (443-484)،
ثم ابنه أحمد معز الدولة (484).

- في غرناطة: مملكة بني زيري (403-483)؛
زاوي بن زيري (403-410)، ابن أخيه حبوس بن ماكسن (411-428)،
ابنه باديس المظفر (428-465)، حفيده عبد الله بن بلكين (465-483)

- في قرطبة (بعد نهاية الخلافة): مملكة بني جهور (422-461)
أبو الحزم جهور (422-435)، ابنه محمد (435-457)، عبد الملك بن محمد (457-463).
سقطت قرطبة بيد عباد المعتضد ملك إشبيلية، ثم المأمون ملك طليطلة، ثم المعتمد بن عباد.

- مملكة بني حمود: في مالقة وسبتة (المشاهير)
يحيى المعتلي (417-427)، إدريس المتأيد (427-431)، حسن المستنصر (431-434)، إدريس
العالى بالله (434-438)، محمد المهدي بن المتأيد (438-444)، محمد المستعلي بن العالى (444-
448) أخرجه باديس بن حبوس من مالقة، فانتقل المستعلي إلى مليلة فباعه أهلها (456)، بعد أن رفض
استقباله نائبه على سبتة الحاجب سكوت البرغواطي مستقلاً بها.
في الجزيرة الخضراء: القاسم بن حمود (413-414، خليفة قرطبة سابقاً)، ابنه محمد المهدي
(....-440)، ابنه القاسم الوائلي بالله (440-450)، تاريخ سقوط الجزيرة بيد ابن عباد).

إمارات صغيرة في الغرب استولى عليها المعتضد ابن عباد

- في قرمونة: إمارة بني برزال (404 - 459)
- في أركش: إمارة بني حزون (402-461)
- في رندة: إمارة بني بفرن (406-457)
- في مورور: إمارة بني دمر (403-458)
- في لبلة: إمارة بني يحيى أو بني يحصب (414-445)
- في ولبة (اونبة) وجزيرة شلطيخ: إمارة عبد العزيز البكري (403-443)¹
- في شنتمرية الغرب: إمارة بني هارون (417-443)
- في باجة وشلب: إمارة بني مزين (... - 455)

إمارتان في الشرق

- في البوننت: إمارة بني قاسم (400-495)
- في السهلة (شنتمرية الشرق): إمارة بني رزين (403-497)

¹ - انظر عنهم فصلاً في الدخيرة ق/2/ م/1 233-235



اللهم تج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بأمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

ثانياً

رسائل عن ملوك الطوائف

أ - إمارات الجنوب الشرقي والشرق

تقديم¹

مع اندلاع الفتنة في مطلع القرن الخامس استقلّ القادة من عنصر الصقالبة في جيش المنصور ابن أبي عامر سابقاً بالمناطق التي كانت تحت نفوذهم، وخاصة من حدود إمارة برشلونة النصرانية شمالاً حتى ألمرية جنوباً مع الجزر الشرقية، ونظراً للولاء الذي كان يربطهم بالحاجب المنصور ابن أبي عامر فقد عُرفوا بالعامريين. وفي أوائل عهدهم جمعتهم الحمية لمواجهة جيش البربر الملتقيين حول بني حمود حتى يتجنبوا التعرّض لانتقامهم، وخاصة عندما كانوا يجدون من يتبعونه رمزياً ومؤقتاً من بقايا المروانيين - حقيقة أو زيفاً - ضدّ أعدائهم، وفي هذا الإطار وجدوا من يتفق معهم في الهدف لمواجهة بني حمود وتكوين ملك خاص مثل القاضي ابن عباد في إشبيلية. لكنّ النزاع نشب أيضاً بين المجموعة العامرية خاصّة عندما انحاز عامريو منطقة بلنسية إلى مبايعة أحد أحفاد المنصور بن أبي عامر وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور، فاستقرّ أولاً بشاطبة، ثم انتقل إلى بلنسية².

فخيران العامري صاحب مرسية ولورقة وألمرية وهو كبير العامريين منذ عهد الحاجب المنصور كان من أتباع المنصور في البداية، ولكنه أصبح يتخوّف من إمكانية تقلص نفوذه تدريجياً، ممّا جعله يقدر أحد أحفاد الحاجب المنصور من أبناء عمومة عبد العزيز المذكور وهو محمد بن الحاجب المظفر، فلقيه بالمؤمن والمعتصم بالله. وبينما طرد أهل شاطبة عبد العزيز فلجاً إلى بلنسية، أخرج خيران أميره المعتصم من مرسية سنة 413³، وظهر له أن يكتسب الشرعية رمزياً بالارتباط بالخليفة الحمودي متحالفاً مع القوى البربرية الممثلة في بني حمود خلفاء قرطبة ثم أمراء مالقة وسبتة. وتجدد هذا التحالف بين أخيه أبي القاسم زهير خليفته بعده مع أمير غرناطة من بني زيري الصنهاجيين كما ظهر في عملياتهم ضد أمير إشبيلية حليف بقية العامريين.

غير أنّ مقتل زهير سنة 429 واستدعاء العامريين لعبد العزيز لتعيين من ينوب عنه في ألمرية أثار مخاوف أمير دانية مجاهد من تطويق إمارته، ممّا جعله يقوم

¹ - يوجد بعض التكرار في هذا التقديم لما سبق قوله، مع إضافات تناسب مع موضوع الرسائل اللاحقة عن المنطقة المشار إليها. أما الدراسة السابقة فهي تعريف مختصر بأحداث القرن الخامس في الأندلس قبل دخول المرابطين.

² - نمت بيعته بشاطبة ثم نار عليه أهلها فلجأ إلى بلنسية (العبر 4/ 348)

³ - أعمال الأعلام 193/2 - 194 : دول الطوائف 210 - 211.

بمحاولات توسيع مجاله البري بعد أن عجز عن توسيعه بحراً في سردانية، لكنه انهزم سنة 433 أمام قوات عبد العزيز. وكانت مرسية تابعة لزهير وينوب عنه أحد أعيانها من العلماء وهو أبو بكر بن طاهر، فتركه عبد العزيز في مهمته يعلن بتبعية شكلية ويمارس استقلالاً في الواقع، وهذا نفس الأسلوب الذي اتبعه ابنه الأديب أبو عبد الرحمن بعد وفاة أبيه سنة 455، إلى أن استولى المأمون بن ذي الثون على بلنسية سنة 457 فأعلن أبو عبد الرحمن استقلاله بإمارة مرسية ومن مدنها أريولة ومولة وكتندة. ومنذ وصول نفوذ ابن عباد إلى نهر شقورة ولورقة أصبحت مرسية مهددة بالسقوط في يده خاصة وأن لابن طاهر أعداء داخل المدينة، استدعوا ابن عباد لدخولها ونجح قائده ابن عمار في ذلك سنة 471، بحيث امتد نفوذ مملكة إشبيلية من المحيط غرباً إلى البحر المتوسط شرقاً. ومن الملاحظ أنه في أغلب المعارك في الشرق كان عنصر الجند الأجنبي حاضراً للاستعانة به على الطرف الآخر.

وفيما يلي جملة من الرسائل تعالج موضوع الجنوب الشرقي والشرق أي المنطقة التي كان يغلب عليها نفوذ غرناطة الزيرية والعامريين:

14 - رسالة عن حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله

أمير قرمونة في دعوة إلى لزوم أمر الجماعة¹ [428]²

بعدما أخرج الخليفة الحمودي يحيى المعتلي من قرطبة سنة 417، استقر في مالقة محتفظاً بلقب الخليفة، وكانت دعوته تشمل مدينة قرمونة (شرق إشبيلية)، وحدث أن قُتل يحيى المعتلي خارجها في معركة مع ابن عباد صاحب إشبيلية سنة 427، فتحرّك أتباعه وحليفاه حبوس بن ماكسن أمير غرناطة وزهير العامري أمير ألمرية وعاثوا في أحواز إشبيلية وبايعوا بالخلافة إدريس المتأيد الحمودي أخا الهالك، ودعوا الناس إلى بيعته، ومن ذلك رسالة عن حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله البرزالي - الذي كان استولى على قرمونة - للتمسك بطاعة الخليفة الحمودي بعد أن كان حليفاً لابن عباد في المعركة السابقة، ورسالة أخرى عن زهير أمير ألمرية إلى أهل قرطبة بدعوهم للتخلي عن دعوة هشام المزعوم - المنصوب من طرف ابن عباد بإشبيلية - إلى طاعة الخليفة الحمودي المعروف نسبه، وهذان نصا الرسالتين المذكورتين :

نص رسالة الأمير حبوس

"من النصح تقريع، ومن الحفاظ تضييع، ولكلّ مقام مقال، إذا عُدِّيَ به عنه استحال؛ ووصل [إليّ] منك كتاب طمست منحا، وعميت معناه، أو مات فيه إلى النصح، ودلت على سبيل النجح؛ فوقفت على فصوله ومعانيه، وأحطت علماً بـ[جميع] ما فيه، ولم يكن لمن أوحشت جهته، وتغيّرت مودته، أن يدخل مدخل الناصحين، وقد خرج من جملة المشفقين³؛ وكان بالجملة أوله سياب، وآخره إعجاب، والسبب لا ينطق به كريم، والإعجاب لا يرضى به حلیم، وقد نرّهنى الله عن المقارضة بهذا ومثله، وما أحسن قول القائل:
وتجهل أيدينا ويحلم رأينا == ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

¹ - **ملاحظة:** من الناحية الزمنية توجد رسائل يعترض تقديمها على هذه الرسالة والتي تليها، وقد فضّلنا تقديمهما لارتباطهما بموضوع خلافة بني حمود: وأمير قرمونة المشار إليه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي الزباني، بويع بها سنة 404، وخضع للخلفاء من بني حمود، وعندما غدر ابن عباد بيحيى بن حمود آخر سنة 427 استقل ابن برزال بقرمونة إلى أن توفي سنة 434 (البيان 3/ 189، 311 : عنان: دول الطوائف 434)؛ وردت الرسالة أعلاه في الذخيرة ق 1/ 2/ 625 - 626؛ ومقطع منها في المغرب 444/1-445؛ وهي من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أحمد البرزلياني المالقي، كان في خدمة الأمير حبوس بن ماكسن، ثم انتقل إلى خدمة بني عباد. وكانت مدة إمارة حبوس في غرناطة بين 411 و 428، وهو ناني أمراتها بعد راوي بن ربري (403-410)؛ ويظهر أنّ الموضوع هنا يخص الدعوة إلى الالتفاف حول العصية البربرية التي يمثلها الخليفة الحمودي المستقر في مالقة رغم أصله الإدريسي.

² - سنة 428 هي تاريخ وفاة الأمير حبوس الذي كان في طاعة الخليفة الحمودي بمالقة بيحيى المعتلي (417 - 427) وهو هنا يحرض محمداً بن عبد الله بن برزال (ت 434) على طاعة الخليفة الحمودي الجديد إدريس المتأيد أخي المعتلي، فاجتمعت العصية الصهاحية وأتباع زهير العامري صاحب ألمرية مع الحموديين، وقاموا بحملة في أحواز إشبيلية وبايعوا في حصن القصر بأحوازها الخليفة الحمودي الجديد إدريس المتأيد (427-431)، وهكذا يكون تاريخ الرسالة لا يتجاوز سنة 428 التي توفي فيها حبوس المكتوب عنه.

³ - هنا انتهى المقطع الوارد في المغرب نقلاً من الذخيرة، وقد جعلنا بين معقفي [...] ما هو ناقص فيه، وذكر ابن سعيد أن برليانة من حصون مالقة على بحر الرقاق.

فإن كنت أردت أن تستصلح مني بسبك فاسداً، وتستقرب من ودي باستطالك مباحداً، فما هذه شيم يقضي بها الفضل، ولا سياسة يحكم بها العقل، وإن كنت أردت التخويف والإبعاد، والإبراق والإرعاد، فقد كفاني بيت الكميث¹:

أبرق وأرعد يا يزيد == دفا وعيدك لي بضائر
وأنا أحد البرابرة، لا أخرج عن جماعتهم، ولا أبعد عن موافقتهم، ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم.

وما أنا إلا من غزية إن غوت == غويت وإن ترشد غزية أرشد
وفي لزوم الجماعة السداد والرشاد، والغى في الانفراد والاستبداد.

وأما قولك: "فمن كان متبوعاً قلما يستقيم أن يكون تابعاً، ومن عُرف في النادي مطاعاً لم ينقلب مطيعاً، إلا أن يصادف هذي العمرين، وأجدر بذلك أن يبعد!" فقد أزييت على كل خلافة، وبيئت أنك خارج عن كل فرقة، وأن غرضك المحاماة عن عزك، والمراماة دون جرزك، وليس هذا نظراً مشفق، ولا قولاً محقق، إذ لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها، وتجري السنن عليها، إلا في مذهب نافع بن الأزرق وعبد ربه² وأشباههما³...

... وما ذكرته من الذي بين الطائفتين من بني عمنا بالعدوة⁴ فكل أمر بقدر، ولكل نبا مستقر، والدنيا أحوال، والحرب سجال، وخيرهم وشرهم عنا بعيد، وكل من نصرك وأيدك فهو القريب الودود، وإن تفرقت الأبناء والجدود، ومن شد عن الجماعة وفارقها، ونايها وشاقها، فهو الجاني على نفسه وعليها، والجار سوء العاقبة إليه وإليها، وأكثر الوبال واقع على الظالم، ونازل بالجارم؛ والله ولي التوفيق، والهادي إلى سواء الطريق...

15 - دعوة صاحب المرية زهير الفتى [العامري] أهل قرطبة للتخلي

عن بيعة هشام [المزغوم] إلى طاعة المتأيد إدريس الحمودي⁵ [428-429]⁶

"... أنتم - معشر الأعلام، وأكابر الرجال -، غرر مصر، وبقياء هذا العصر، وموضع اقتباس النور والرأي، والملا المقتردين به والمشار إليه، من حاط هذه الملة،

¹ - هو الكميث بن زيد الأسدي من شعراء العصر الأموي، كان منشئاً لآل البيت، قتل سنة 126هـ). ويحمل هذا الاسم أكثر من شخص، واقتصر صاحب لسان العرب على القول: "الكميث بن معروف شاعر معروف".

² - نافع هو الإمام الأول للأزارقة الخوارج، وكان عبد ربه الكبير من روساء الأزارقة وقد قتله الحجاج بطبرستان، وعبد ربه الصغير وكان ممين قتلهم المهلب بن أبي صفرة؛ والإشارة هنا إلى اعتبار هؤلاء خوارج عن الجماعة الإسلامية، فسموا خوارج.

³ - بعد هذا نثر كتب مكانه عبارة (وفي فصل منها)

⁴ - يقصد الانقسام الحاصل بين إمارتي بني رير في إفريقية وبني حماد في المغرب الأوسط، وهما في الأصل إمارة واحدة، وكانت في الغالب في نزاع بينهما.

⁵ - رسالة من إنشاء البزلياني كما وردت في الذخيرة ق1/ 2م/ 650-652؛ عن بيعة إدريس بن علي بن حمود بحصن القصر من أحواز إشبيلية واستقراره بقرمونة، وكان زهير العامري صاحب المرية ممن دعم بيعته، وفي هذه الرسالة يدعو أهل قرطبة لبيعة إدريس الحمودي، والتخلي عن دعوة المدعو هشام المؤيد - زعماء - الذي أطهره ابن عباد ابتداء من سنة 426 ليعاين به الحموديين، وكان هشام المرواني المعتد بالله قد خلع بقرطبة سنة 422. (راجع الحدث في البيان 190-191).

⁶ - كانت خلافة الحموديين انتهت بقرطبة، أما خارجها فقد استمرت في مالقة خاصة، وأما زهير العامري فقد قتل سنة 429، انظر عن هذا كتاب الذخيرة 1/ 2 656 (بقلا عن ابن حبان).

وانتدب لصالح الأمة، ومَخَضَ الرأيَ وهَدَبَه، وألَقَحَ عَقِيمَه ونَتَجَه، ورفع عن هذا العالم أسبابَ الشَّبهة، وكشف لهم عن غطاء الهداية، فقد طالما خبطوا عشواء، وأخذوا بغتة، وكتب عليهم من بني زمانهم مَنْ انتدب لتجوير المحال؛ ولو أخذنا في عدّهم، وبسط أولهم وآخرهم، لخرجنا عن غرض الخطاب إلى التآليف، وجانبنا سير القصد في الأمور إلى التصنيف، وأشدّ هذه العصابة المشؤومة ابن عباد الذي سلّ سيف الفتنة والبغي من قِرابه، وأثار بغير الظلم من مبركه، وانتزى ببطنته أشراً، ومشى في الأرض مرحاً، وظنّ أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا، فغزا أهل الإسلام في عقر دارهم، وأسقط عن نفسه حرمة الله فيهم، وأذهب ذمته، وبني أمره على دعامة زيت، وأتى لشأنه من ظهر بيت، واستعار اسم الشهيد هشام المؤيد بالله لغير أهله، وعزاه إلى مَنْ ليس من شكله، فضاعف السيئة، وجاهر بالمعصية، واثبّع الرّسم الدّائر، وجعل حظّ الناس فيه التمثيل في اسم كاذب، واعترض على منكريه بكهانة شقّ وسطيح¹، وآيات طسم وجديس، واحتجّ بكتب الجفر، ودان بالتناسخ؛ وأضاف إلى هذه الغرائب قراع أسماع الأغمار بها يُريهم وجوه الاستبصار، فضلاً عمّن تدرّج في طبقات المعرفة، وجرى على وتيرة الدّراية، وسبقت له قدم الصّدق في الرّواية؛ ثم رفع السوط للسيف، فأوجع قلوب المسلمين باللسان واليد، يحكم كيف شاء في أبشارهم، وصارفهم صرف الدّينار بالدراهم في أموالهم، لا تتخلل الموعظة قلبه، ولا تقرّع التذكرة سمعه، فتارة يأخذ النصاري واليهود بذنوب التوراة والإنجيل، وأخرى يقول للمسلمين توبوا ممّا عسى أن يكون؛ (.....)² فإن كان كاذباً فيا لها حسرة، وإن كان صادقاً فما أحوَج الملوك إلى قطرة.

وكتابي هذا إليكم وقد اتفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على كاهله، ونصل الإمامة في نصابه، وأعدنا الحقّ إلى أهله، وأصفقنا على بيعة رضى وإتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين إدريس المتأيد بالله - أيده الله - وطهرنا المنابر من دنس تلك الدّعوة المستعارة، وهتفنا بها هتف التبشير، وقامت بها الخطباء على المنابر، وانجلت الغيابة عن فلق الصبح، وأقلعت الظلمة عن وضوح الشمس، وأزاح بفضلته تعالى غصّة الشكّ وشجى الإفك.

فاعتبروا بما ألقينا إليكم اعتبار من يحتاط لدينه وتقواه، ويرغب عن الهزيمة بنفسه في دنياه؛ والرّمز يكفيكم، والإيماء يغنيكم، ولم نجعل علمكم بحال الموصوف لمعرفة بمكانكم من التحصيل، إذ أنتم أهل النظر والتأويل؛ ولما استوثق الأمر على منهاجه، واستتمّ الرأي على أدرجه، هزّناكم هزة التّنكير، ورمينا إليكم بنبذ يسير ..."

¹ - سطيح بن ربيعة؛ هو كاهن بني ذنب في الجاهلية سمّي بذلك لأنه كان إذا غضب قعد مبسطاً... وقيل لأبه لم يكن له بين مفاصله قَصَبٌ نعيمه، فكان أبداً مبسطاً على الأرض، وقيل كان لا عظم فيه سوى رأسه. قيل إنه مات ليلة مولد الرسول (ص). وشقّ: اسم عرف به عرافان قبل الإسلام صورتهما غير طبيعية، وهو أيضاً جنس من أجناس الجنّ (لسان العرب، القاموس المحيط: المنحد في الآداب والعلوم).

² - في الذخيرة: وفي فصل منها؛ فإن كان كاذباً...

16 - رسالة وديّة عن حبوس أمير

غرناطة إلى صاحبي شاطبة¹

[411؟]

"... وقد عقد الله بيننا عقوداً قادماً للاختيار، وفي طول الأمد وتصرّم المَدَد وتباعِد الدّيار، وتقلب الليل والنّهار، ما يُحيل الأحوال، ويقطع الآمال، ويُشفق منه الضّنين، وتسوء منه الظّنون، لاسيّما إلى هذه الفتنة التي تبدّل الحليم، وتخلط الصّحيح بالسّقيم؛ وأنا لكما الصّفيّ الذي لا تقدح الأيّام في وُدّه، والوفّيّ الذي لا يخشاه الأنام على عهده؛ وإذ لا سبيل إلى أن أوذّي معتقدي في ذلك مشافهة، فأبّي أنبأته مكاتبة، مع من ينطق بلساني، ويشفق بجَنّاني، ألصق أسرتي نسباً، وأفضل خاصّتي حسباً، وأصدّقهم عني خبراً، وأحمدهم في السّفارة أثراً، الوزير أبي فلان²..."

17 - تنبيه من الأمير حبوس إلى يحيى ابن منذر التجيبي [صاحب

سرقسطة] لاستعانتة مع غيره بالنصارى ضد المسلمين³ [414 - 420؟]⁴

"... واتصل بي ما وقع بينك وبين المؤتمن⁵ وأبي المنذر والموفق⁶ وعضد الدّولة أبي الحسن⁷، وأنكم اضطررتم إلى إخراج كلّ فريق منكم النّصارى إلى بلاد المسلمين¹؛ فنظرتُ

¹ - الرسالة من إثناء البزلياني كما وردت في الدّخيرة ق/1/ م/2/ 630 ، وكان حبوس أميراً لغرناطة فيما بين سنتي 411 و 428 ؛ أما شاطبة فأول من استقلّ بها من العامريين خيرة الصّيفل، وبعد قتله مسموماً من طرف مبارك صاحب بلنسية، خلفه بانيه عبد العزيز بن أفلح السلطاني، فضبط قلعة شاطبة ولم يظهر العداء لصاحب بلنسية المذكور، إلى أن انتقلت المدينة إلى يد مجاهد العامري (أعمال الأعلام 2/ 225- 226)؛ فمظفر ومبارك المشهوران بصاحبي شاطبة وبلنسية انتهى سنة 408، وخلفهما عامريان آخران مشتركان في حكمهما وهما لييب صاحب طرطوشة ومجاهد صاحب دانية، ثم بايع العامريون المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن الحاجب المنصور سنة 411، فالظاهر أنّ الرسالة موجهة إلى هذين الأخيرين (لييب ومجاهد) في أول عهد الأمير حبوس.

² - هكذا ندخل النّسّاج لإهمال اسم الوزير المبعوث.

³ - الرسالة من إثناء البزلياني المذكور سابقاً وردت مبتورة في الدّخيرة ق/1/ م/2/ 627- 628؛ كتبها عن أمير غرناطة حبوس بن ماكسن (411- 428) إلى الأمير يحيى بن منذر التجيبي صاحب سرقسطة، ترجمة الكاتب في نفس المصدر في ص 624 وهامشها

⁴ - هذا التاريخ يمثل فترة حكم ابن منذر التجيبي المكتوب إليه؛ أما الكاتب البزلياني فكان حياً بعد سنة 443 التي استكتبه فيها محمد بن المعتضد النائب عن أبيه في ولية وشلبطيش (الدّخيرة 2/ 624- 624)؛ ويمكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 419 وهي سنة تولي أبي القاسم زهير العامري في ألمرية الوارد ذكره بصفة عميد الدّولة فيما يبدو - كما وصفه ابن جلدون في العبر 4/ 349 - وسنة 420 تاريخ وفاة ابن منذر . وربما جار اعتبار 419 بدلاً منها (راجع الهامش الثالث على الرسالة 18 لاحقاً على أساس الموضوع المشترك).

⁵ - المؤتمن؛ هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر (411- 452)، هذا اللقب منحه إياه علي بن حمّود بعدما دخل في بيعته، واتخذ لنفسه أيضاً لقب المنصور (المباي 165)؛ وعند عنان: أن المؤتمن هو ابن عمه محمد بن عبد الملك بن المنصور الذي نضه مجاهد العامري في مرسية ندّاً لعبد العزيز صاحب بلنسية، ولقب أيضاً بالمعتصم (دول الطوائف 159).

⁶ - الموفق؛ هو مجاهد العامري أمير دانية والحزب الشرقيّة ومؤسس إمارتها (400- 436) ، وهو من بقايا قادة جيش الصّقالية من عبيد المنصور ! بن أبي عامر، ففرقوا بالعامريين.

⁷ - هذه الرسالة والرسالتان اللاحقتان موجهة إلى أطراف النزاع في الشمال الشرقي الأندلسي وهم: صاحب سرقسطة، وصاحب طرطوشة، وصاحب شاطبة وبلنسية وصاحب دانية في الإنكار عليهم لاستعمال النصارى ضد بعضهم البعض. وإذا كان المؤتمن هو عبد العزيز حميد ابن أبي عامر أمير بلنسية، والموفق هو مجاهد

في الأمر بعين التحصيل، وتأولته بحقيقة التأويل، فعظم قلقي، وكثر على المسلمين شفتي، في أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويوتّموا أولادهم، ويتسع الخرق على الرّاقع، وينقطع طمع التّلاقي على الطامع؛ ولو لم تكن - يا سيدي - الفتنة إلا بين المسلمين والتّشاجر إلا بين المومنين، لكانت القارعة العظمى، والذّاهية الكبرى، فإذا تأيّدنا بالمشرّكين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأتّنا إلى الدّم مساعينا، كانت الدّائرة أمض، والحيرة أرمض، والفتنة أشد، والمحنة أهد، والأعمال أحبط والأحوال أسقط، والأوزار أثقل، والمضارّ أشمل؛ والله يعيننا من البوائق، ويسلك بنا أجمل الطرائق. ولما انتظرت أن يسفر لي ذلك التّيجور، وتستقرّ تلك الأمور، وأبطأ ذلك عليّ، ولم يعد من قبلك رسول إليّ، دخلت عميد الدولة² جاري في هذه الأنباء، وراوضته في علاج هذه الأنواء؛ وأنت ياسيدي للمسلمين الحصن الحصين، والسّبب المتين، والتّصيح المأمون؛ فاجر في جمع كلمتهم، والمراعاة دون حوزتهم..."

18 - رسالة [عن حبوس]؟ إلى [عبد العزيز] "ابن الناصر" منبهاً إلى

خطر استعانته مع الموفق صاحب دانية بالنصارى ضد المظفر⁴ [411 - 419]⁵

"سيدي وأعظم غُدي، بقيت لمجد تأسسه، وحمد تلبسه، كتبت - كتب الله لك، ما يفوت أملك -، عن نفس تعذّب أكرم نفانستها، فلا يساويك معظم في هاجسها، وضمير صفا لك منهلها، فلا أحد قبلك ينزلها، وودّ أحكمك لك عقده، ونظمت بك عقده، حقيقة أدني نظرها إليك، وخليفة وقف سرّها عليك، فطرف اهتبالي إليك شاخص، وضمير إدلالي عليك خالص، والعهد الذي أنت لحرماته لاحظ، ولأماناته حافظ يُنجد لساني في المقال، ويمدّ عناني في الاسترسال،

العامري أمير دانية، فهل يكون أبو المنذر هو صاحب لاردة التجيبي، وأبو الحسن عميد الدولة هو لبيب صاحب طرطوشة - أو العكس - لنكتمل المجموعة المتنازعة في المنطقة؟

¹ - ربما حدث هذا بعد الهزيمة التي حدثت على مندر بن يحيى (408-414) عندما تحرك بعوانته ضد لبيب صاحب طرطوشة للاستيلاء عليها فاحتّمى بمبارك صاحب بلسية، فخرج هذا بقوانته إلى مندر وهرمه هزيمة شنعاء (أعمال الأعلام 2/ 226). ولما مات مبارك حصعت بلسية للبيب ومجاهد، لكن أهلها رفضوا لبيب لارتمانه في أعضاء أمير برشلونة رامون برنجير، فقرر عامريو بلسية استدعاء عبد العزيز حفيد المنصور وبيعته (البيان 3/ 263 - 164؛ دول الطوائف 257؛ قارن مع المغرب 299/2 - 300).

² - ذكر ابن خلدون لقب "عميد الدولة" لأبي القاسم زهير العامري صاحب ألمرية، وكذا القلقشندي (العبر 4/ 349؛ صح الأعيان 244/5)، فهو ليس محمد بن عيسى أمير شلب كما ورد في هامش الرسالة في الذخيرة. وكان زهير صاحب ألمرية جاراّ للأمير حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة

³ - يظهر أنّ المقصود هنا أمير بلسية المنصور عبد العزيز ابن عبد الرحمن (الحاجب الملقب بالناصر) ابن الحاجب المنصور، نصبه الفتيان العامريون على بلسية إكراماً لحده سيدهم المنصور ابن أبي عامر، فاستمر حكمه لها من سنة 411 إلى وفاته في ذي الحجة 452؛ ورد لقب الناصر والمأمون لأبيه الحاجب عبد الرحمن [شنجول] في أعمال الأعلام 90/2.

⁴ - الرسالة من إنشاء البرلياني كما وردت في الذخيرة 1/ 2 م/ 639 - 641. ولقب المظفر إشارة إلى يحيى بن مندر التجيبي صاحب سرقسطة.

⁵ - عن هذا التاريخ راجع الهامش الثالث على الرسالة رقم 18 لاحقاً باعتبار الموضوع المشترك.

ويوفد إليك النصيح محضاً، ويورد عليك الصّدق فرضاً، موازرةً لا أرى التخلف عنها ديانةً، ومظاهرةً لا أعدّ الثبري منها أمانةً، وأخوك من صدّك، وعدوك من مدّك¹.

واتصل بي ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق أبي الجيش² ومن تبعكما من معانديكما لمفاتنة المظفر أبي محمد³ ومنازلته ومقارعتة، واستجاشة كلّ حزب منكم بالنصارى⁴، وطمعكم أن تمنعوا بهم ذماراً، وتقضوا بإخراجهم أوطاراً، وتُدركوا بأيديهم أوتاراً؛ ولم يخفَ عليك ما يُتسبّب بالفتن، من البلوى والمحن، وما يُكتسب فيها من الحوب، ويُحتقَب بها من الذنوب، وما ينوب الظالم والمنصف من معرفتها، ويصيب البريى والتطف⁵ من مضرّتها، وما يعمّ من بأسائها، ويطمّ من دهائها، باخترام الرّجال، وإيتام الأطفال، وإرمال النساء، وإحلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعتساف الأحوال، وإخلاء الأوطان، وجلاء السّكان، وانقطاع السّبل، واتساع الخلل، هذا إذا كانت الدّعوة واحدة، والشّريعة معاضدة؛ فأما إذا اتساق العدوّ إلينا، وتطرّق علينا، وضُرّي على أموال المسلمين ودمانهم، وجرؤ على قتل رجالهم وسبي نسايتهم، وبانت له العورات، وتحققت عندهم الاختلافات، وأحتوا رحاهم، واستمدّوا من وراهم، لم يكن للمسلمين بهم بعدُ يدٌ، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بُدٌ، والله يحميها من الغير، ويكفيها سوء القدر.

وإنّ أحقّ من لم شغّت المسلمين، وضَمّ منتكث الدّين، من آيد الله أولّهم بأولّيه، ورقع خللهم بمساعيهم ومساعيه؛ وكانت وقائع في المشرّكين مشهورة، وصنائع الكافرين مذكورة، ومن لا تُورّخ الأيّام إلا بغزواته، ولا تحلّي الأيّام إلا بفعالاته، وأنت قاضب من تلك القواضب، وثاقب من تلك الكواكب، وغرّة من تلك الأوضاع، وشعلة من ذلك المصباح، ومعلّى من تلك القداح، وعامل من تلك الرّماح؛ فحقيقّ عليك أن تجري إلى غايتهم، وتعلّي رايّاتهم، وتحمي ذكرهم، وتحيي مجدهم؛ وقد علمتُ ألاّ عُدّة أعدّ، ولا نجدة أنجد، من توازر القلوب وتناصر العيون، وتضامن الأيادي، وتظاهر المساعي، فحينئذٍ يخشّن الجانب، ويهّنُ المُجانب، ويصحب الأبي، ويطيع العصي؛ ومن خلا من مصالح الأعوان، وضيع الاستظهار بأحباء الإخوان، كان أجزم الرّماح، كيهام السلاح، مقصوص الجناح، خائب القداح، مفلول الحدّ، مُصلد الزّند؛ والمرء كثير بأخيه، والجناح

¹ - أي لم يخلص في ودّه

² - الموفق هو لقب مجاهد العامري مؤسس إمارة دانية والجزر الشرقية (400-436)، ومعاقوده يطهر أنهم العامريون أمراء الشرق من طرطوشة شمالاً حتى المربة جنوباً

³ - ورد عند ابن خلدون وصف يحيى بن منذر التجيبي (414-420) بالمظفر، ولقب أبيه منذر هو المنصور وقد استقلّ بسرقسطة عند اندلاع الفتنة الطائفية، بينما استقلّ سليمان ابن هود بتبيلة (العبر 4/351). وقد كان أمير سرقسطة في نزاع مع أمير بلنسية لمدّ النّفوذ على طرطوشة (العنين 130)، وكانت من ممتلكات العامريين مع بلنسية وشناطية ودانية... حدث هذا التحالف المشار إليه قبل أن تصح دانية في حالة عداء مع بلنسية. وقد افترجنا وضع تاريخ الرسالة خلال مدة إمارة المظفر يحيى بن منذر صاحب سرقسطة وابنداء من إمارة عبد العزيز صاحب بلنسية المكتوبة إليه.

⁴ - يظهر أنّ المقصود نصارى إمارة برشلونة المجاورة لإمارة بلنسية.

⁵ - التطف: الرجل المريب، أو المتهم بريئة وفجور.

بقوادمه وخوافيه، والانفراد في الوطن غربة، والانقياد للآخر كربة، مع أن الغلبة بالتغريب والإخطار، ليست من شيم أولي البصائر والأبصار.

ومن الذي دعاك ياسيدي إلى فتنة تخوض غمارها، وتحمل أوزارها، ولا تغتبط بعقبها غالباً ولا مغلوباً، ولا تنتشط من بوساها حارباً ولا محروباً؟ فإن كان وفاء لمن عاهدت، وغناء عن عاقدت، فأدنى المساعي إلى النجاح، وأولى المطالب بالكدح، وأبعد المذاهب من العيب والفدح، ما بُدئ بالمتاركة وختم بالصالح، فالله تعالى يقول ﴿وَالصَّالِحُ خَيْرٌ﴾¹، «والفتنة أشد من القتل»²؛ والاتفاق يا سيدي أضْمُ للشمل، وأوصل للحبل، وأحمدُ فاتحة وخاتمة، وأرضى بادنة وعاقبة، وأسلم دنيا وآخرة، ومعاذ الله أن تزل بك قدم، أو يجل بك ندم، أو تُزعجك إلى المجاهل لجاجة، وترهج لك في الباطل عجاجة..."

19- رسالة عن حبوس إلى صاحبي شاطبة³ في محاولة صلحهما مع [المظفر أمير سرقسطة التجيبي] منبهاً إلى خطر الاستعانة بالنصارى⁴ [419-411]⁵

"كتبت يا سيدي ومشاربُ الأمل قد تَكَثَّرَتْ، ووجوهُ المحاسن قد تَغَيَّرَتْ، وأيدي الثوار قد قَصُرَتْ، وسبيل التناصر قد تَوَعَّرَتْ، إلا أن يتلافى الله الخلل بتسديد نظركما، ويُعْشَ الأمل بحميد أثركما، فيَنْظُمَ الشَّمْلَ، ويَصِلَ الحبل، ويسدُّ الثَّلمَ، ويشدُّ الحزم، ويرفع المنخرق، ويجمع المفترق، ويضع الإصر، ويرفع الوزر، ويعيد الكلمة مثقفة، والأمة مُسَقَّة، والأيدي متأيّدة، والنفوس متوئدة، والأهواء متعاضدة، والأنحاء واحدة، والذماء محقونة، والعاقبة مأمونة؛ والله تعالى يعين كلاً على الصَّلاح، ويُفْضِي بنا إلى النِّجَاح، بعزِّته.

وأتصل بي ما وقع بينكما وبين المظفر أبي محمد⁶ من التنازع، الذي أخاف أن يُفْضِيَ بكم إلى التقاطع، وورد عليّ كتابكما الكريم في ذلك بما ترقبت انصرام أجله، وتظنرت انحسام

¹ - من الآية 127 من سورة النساء

² - من الآية 190 من سورة البقرة

³ - بعد نهاية مبارك ومظفر صاحبي شاطبة وبلنسية سنة 408 اشترك في حكمهما كل من لبيب العامري صاحب طرطوشة ومجاهد العامري صاحب دانية والجزر إلى أن ساءت العلاقة بينهما، فاستدعى العامريون بلنسية سنة 411 عبد العزيز بن "الناصر" عبد الرحمن وبايعوه تقديراً لمولاهم جده الحاجب المنصور. فانسحب مجاهد إلى دانية؛ ويبدو أنه كان له مع عبد العزيز سيادة مشتركة على شاطبة أو كان مجاهد بمثابة نائب عن عبد العزيز فيها بحكم ورثتها من إمارة دانية. راجع البيان 3/ 158 - 164 : دول الطوائف 207-210. والرسالة أعلاه إلى صاحبي شاطبة، وقد سبقتها رسالة إلى عبد العزيز صاحب بلنسية وأخرى إلى ابن منذر صاحب سرقسطة أي إلى الأطراف الرئيسية في النزاع في الثغر الشمالي الشرقي قصد إحداث صلح بينهم.

⁴ - وردت الرسالة في الدَّخِيرَةِ في 1/ 637/2 - 639 من إنشاء البزلياني عن أمير غرناطة حبوس بن ماكسن، وهي في نفس موضوع سابقتها الموجهة إلى الأمير عبد العزيز فيما يبدو.

⁵ - افترضنا هذا التاريخ على أساس أن سنة 411 هي التي تولى فيها عبد العزيز إمارة بلنسية، وسنة 419 هي التي توفي فيها حبران (العتى الكبير) صاحب المرية الوارد ذكره في أواخر الرسالة.

⁶ - المظفر: قد يكون هو يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة (414-420)، الوارد ذكره في الرسائلين السابقين وقد كان بطمع في ضم بلنسية، وكانت له علاقات "موّدة" مع أمير برشلونة وملكي نغارا وفشتالة بحيث يمكنه الاعتماد عليهم لتحقيق أهدافه، وهذا ما حذر منه الأمير حبوس (عنان: دول الطوائف ص256-257).

عَلَّه، حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يَتِمَادَى بِكُمْ اللِّجَاجُ، وَيَتَعَاصِي فِي أُمُورِكُمُ الْعِلَاجُ، وَأَشْفَقْتُ مِنْ إِدْلَالِ الشَّيْطَانِ بِمَخَاتِلِهِ، وَإِطْلَالِ الْخِذْلَانِ بِحَبَائِلِهِ، فَيَقْرَعَ الثُّكْلَانُ سِنَّهُ مِنَ الدَّمِ، وَيَنْطَوِي الْحَرَانُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْمِ؛ وَحَالِي يَا سَيِّدِي فِي الْأَخْذِ مِنْ أَحْوَالِكُمَا بِأَوْفَرِ نَصِييبٍ، وَالنَّزْعِ فِي أُمُورِكُمَا بِأَكْبَرِ ذَنْوِبٍ، حَالٌ مِنْ أَعْدَتِكُمَا لِحَوَادِثِ الزَّمَنِ، وَكَوَارِثِ الْمَحَنِ، وَاعْتَقِدْكُمَا الْعِدَّةَ الْكَافِيَةَ، وَالْعَصْمَةَ الْوَاقِيَةَ، فِيمَا اسْتَسْرَ وَعَلَنَ، وَظَهَرَ وَبَطَنَ، فَلَمْ أَرْ نَفْسِي فِي سَعَةِ مِنْ إِهْمَالِ التَّنْذِيرَةِ، وَإِغْفَالِ التَّبَصُّرَةِ، وَاللَّهُ يَعِزُّ الْكُلَّ مِنَ الشَّتَاتِ وَالشَّمَاتِ، وَيُعِيدُكُمْ إِلَى الْمَوَاسَةِ وَالْمَوَاتَةِ.

وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْكُمَا مَا فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيِّنِ، مِنَ الْفُوزِ بِخَيْرِ الذَّارِعِينَ، وَأَمْنِ الْعِبَادِ، وَخَصْبِ الْبِلَادِ، وَإِعْزَازِ الدِّينِ، وَإِدْلَالِ الْفَاسِطِينَ، وَتَوْهِينِ الْمَشْرُكِينَ، وَقُوَّةِ الْعِصْدِ، وَوُفُورِ الْعِدَدِ، وَدَعَةِ الْأَجْسَامِ، وَالرَّعَاةِ عَنِ الْآثَامِ، وَسِتْرِ الْعُورَاتِ، وَحِفْظِ الْحَرَمَاتِ، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْإِزْدِجَارِ بِزَجْرِهِ، وَالتَّائِبِ بِأَدْبِهِ، وَالْإِنْتِمَارِ بِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹، وَقَالَ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾²، وَقَالَ ﷺ "لَا تَقَاطِعُوا وَلَا تُحَاسِدُوا وَلَا تُدَابِّرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَعَلَى طَاعَتِهِ أَعْوَانًا"³؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ إِلَّا بِتَقَاطُعِهِمْ وَتَحَاسُدِهِمْ، وَتَدَابُّرِهِمْ وَتَخَاضُلِهِمْ، وَأَنَّ اللَّجَاجَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ، وَالْهَوَى أَفَّةُ الْعَقْلِ، وَالْحِمِيَّةُ مِنْ أَسْبَابِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْعَصِيْبِيَّةُ مِنَ الْعَنْجَبِيَّةِ، وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ³، مَعَ ظَنِّكَ الْمَتَغَلَّبِ وَكَأَنَّهُ الْمَنْغَلَبُ؛ تَوْتَمُّ الْأَطْفَالُ، وَتَلْتَهُمُ الرِّجَالُ، سَوْقٌ لَا يُنْفِقُ حَاضِرُهَا غَيْرَ النَّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ، وَشَرِبَ يَتَعَاطُونَ الْمَنَایَا بِظُلْمِ السَّيُوفِ وَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ، مَصْرُوعُهُمْ دَائِرٌ، وَصَارَ عَنْهُمْ خَاسِرٌ، وَمَاضِيَهُمْ نَادِمٌ، وَبَاقِيَهُمْ وَاجِمٌ.

وَالَّذِي يَحْمِلُونَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ وَأَوْزَارَ مَعَ أَوْزَارِهِمْ، وَيَحْتَقِبُونَ مِنْ أَصَارِهِمْ، تَسْلِيْطُ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَيْثُهُمْ فِي بِلَادِهِمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، فَالْأَمْوَالُ مُسْتَهْلَكَةٌ، وَالْحَرَمَاتُ مُنْتَهَكَةٌ، وَالذَّمَاءُ مُهْرَاقَةٌ، وَالنِّسَاءُ مُسْتَأَقَّةٌ، وَعَقْدُ الدِّينِ مَفْسُوخٌ، وَعَهْدُ الْإِسْلَامِ مَنْسُوخٌ، وَالْكَفَرُ عَالٍ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالسُّوءُ غَالِبٌ عَلَى الْإِحْسَانِ؛ فَقَدْ بَلَغْنِي أَنَّ مَذْهَبَكُمْ الْإِسْتِجَاشَةَ بِالنَّصَارَى إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، يَطَاوِنُ دِيَارَهُمْ، وَيَعْقُونَ أَثَارَهُمْ، وَيَجْتَاحُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَيَسْفِكُونَ دِمَاءَهُمْ، وَيَسْتَعْبِدُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَعْدِمُونَ نِسَاءَهُمْ؛ وَإِنْ نَفَذَ هَذَا - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ - فَهِيَ حَالٌ مُؤَنِّدَةٌ بِالذَّهَابِ، وَجَرِيرَةٌ تُوْذَنُ بِالْخَرَابِ، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ مِنَ الْخُلَلِ فِي بِلَادِنَا، وَالْقَلَّةِ فِي أَعْدَادِنَا، مَا يَجْرَتُهُمْ عَلَيْنَا، وَيَجْرَتُهُمْ إِلَيْنَا، بِمَا لَا نَقْدِرُ عَلَى مَكَاتِرَتِهِمْ فِيهِ، وَلَا نَقْوَى عَلَى مُصَابِرَتِهِمْ بِهِ، فَتِلْكَ الْوَقْعَةُ الَّتِي لَا يَنْتَعِشُ عَثُورُهَا، وَالْقَارِعَةُ الَّتِي لَا يَنْجِبُرُ كَسِيرُهَا.

¹ - مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

² - مِنَ الْآيَةِ 103 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

³ - الْحَرْبُ : الْهَلَاكُ

ولم أجد ياسيديّ وَعَدَّتِي دواءً أنجع، ولا سعيًا أنفع، من صلة يدي بيد الفتى الكبير فلان¹ في توسطه هذه الأحوال بينكم، والتأني لإصلاح ما فسد منها عليكم، ولم تُلف سبباً إلى كشف هذه الغايات، وفتح هذه المبهمات، أقوى في النجاح، وأهدى إلى الصلاح، من بعث أعلام بلدنا ووجوه رجالنا...²

20 - جواب من وزير بلنسية التاكرني إلى وزير ألمرية ابن عباس

[حول موضوع التعاون أو التهديد بالتعاون مع البرشلونيين]³ [411 - 419]⁴

"...⁵ ورد كتاب كريم لك قد ضُمن من الآداب عيوناً، واستودع من الإغراب فنوناً، فوقفتُ منه على ترجيم الظنون، وفي حيرة بين الشك واليقين، وقلت: هذه بدع المتطرفين، وتكت المتفلسفين، طوراً إيماءً وتلويح، وطوراً إفصاح وتصريح؛ وكلما نظرتُ فيه، وفكرت في معانيه، استتكر مع العرفان، واستعجم على نهاية البيان، فقلت: لا غرو قد ينكر الليث في قراره، ويُعرف الهلال في سياره، ولا بدّ مع البحث أن أصيب غرضاً، أو أكون دونه حرّضاً؛ فلما غصتُ في بحارك، وأمضيتُ فكرتي في مضمارك، وقع السهم في غرضه، ولا ح الحق في معرضه، وبدا لي أنّ ما خاطبتُك به لم يوافق قبولاً، ولا كان على الصدق محمولاً، وليس الكذب من شيمي، ولا المنق - بحمد الله - من كلمي، وبالله ما خاطبتُك إلا شخاً، ولا أسمعك إلا نصحاً، فمُنيتُ من قبولك بسوق كاسدة، ومن قبلك بـ"ربّ صلف تحت الرّاعدة"⁶؛ وكلا والله ما رعدت لنا سماء، ولا تكثر لنا ماء، ولا قصدتُ بخطابي مقصداً التهديد، فالصدق يُنبئ عنك لا الوعيد، بل خاطبتُك بقلب سليم، وثبتُ لك على عهد كريم...⁷

¹ - الفتى الكبير هو خيران العامري صاحب ألمرية ومرسية، الذي كان يعتبر منذ عهد المنصور الحاجب كبير الفتيان العامريين. قد يكون هذه الصلة هي السبب في المراسلتين اللاحقتين اللتين تكفل بهما وزيرا بلنسية وغرناطة نيابة عن أميريهما.

² - الرسالة في الذخيرة مبتورة الآخر وربما الأول أيضاً.

³ - الرسالة هي مراجعة ثانية من إنشاء الكاتب أبي عامر التاكرني وزير إمارة بلنسية إلى الكاتب أبي جعفر بن عباس وزير إمارة ألمرية ومرسية كما وردت في الذخيرة 1/3/236-239؛ وقد سبقتها رسالة من أبي عامر وجواب عليها من أبي جعفر، فيهما عتاب من الطرفين ونصائح بعدم تصديق المرجفين، يليها جواب آخر من أبي جعفر كما سيأتي في المتن (انظر المصدر المذكور بدءاً من ص 229)، وكان أمير بلنسية في هذا الوقت هو المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبي عامر (411-452)، وأمير ألمرية ومرسية هو خيران العامري (403-419)، وكان هذان يديان بولاء رمزي لأمر بلنسية. راجع ترجمة التاكرني أبي عامر محمد بن سعيد في: الذخيرة ص 226 - 227 قبل الرسالة: جذوة الأقباس ص 56: بغية الملتمس ص 69: المغرب 1/332؛ وأشار إليه ابن الخطيب في أعمال الأعلام 2/225

- جعلنا تاريخ الرسالة ابتداء من سنة 411 التي تولى المنصور فيها حكم بلنسية، ويظهر أنّ الرسالة أعلاه والتي تليها مرتبطتان بما أشار إليه جوس في الرسالة السابقة من سعيه مع خيران (الفتى الكبير) في إصلاح ما بين أمراء النغر الأعلى خاصة وأنه عامري مثلهم ومرنيط بولاء رمزي بالأمير عبد العزيز صاحب بلنسية، راجع الهامش الثالث على السالة السابقة.

⁵ - الرسالة مبتورة البداية حسب إشارة في بداية الجواب عليها الأنبي بعد هذه: التصدير - أعرك الله - ب: "كتابي" و "كنت..."

⁶ - مثل يضرب لمن يتوعد ثم لا يقوم به، أو للبحيل المتمول أو للمكتر مدح نفسه ولا خير عنده (القاموس المحيط، مادة: صلف)

⁷ - في الذخيرة (وفي فصل منها)

ومن العجب قولك: اقدح لي اضيئ لك" ولقد قدحنا لكم فأظلمتم، وحفظنا ذمامكم فضيغتم، ووصلنا فهجرتم، وقربنا منكم فبعدتم، ورُبَّ رسالة أنشأناها رغبة فرغيمت عنها، ورسولٍ ملطفٍ قصد جهنكم طار بجناح الخزي منها، بعد الترقيب عليه، وإظهار التناقل إليه، ونحن على ذلك نفتل في الغارب والذروة، ونزداد وصلاً على الجفوة، ونلین على القسوة، ونصبر للأذى، ونغمض على القذى، إن عاتبناكم لم نُقلعوا، وإن استعتبناكم لم نرجعوا، بل تركبون الهياج، وتلزمون اللجاج.

ومن أغرب ما به احتججتم، وأعجب ما به لهجتم، تكررُ فلان علينا، وتردُّه لدينا، كائنكم جهلتم القوم وأطاعهم، ولم تعلموا تطرُّقهم وانتجاعهم، وأنهم يتعللون باندی سبب في المراسلة، امتراء لأخلاف العطاء، وذريعة لاستجزال الحياء، وقد شهرَ هذا من فعلهم، في كلَّ جهة تكون من سلمهم¹؛ فما بالنا نخصَّ بهذه اللانمة وجنائها عليكم²؟ والإنصاف يقلب مدمتها عليكم، ألم تُسلموا من كان بكم مشتتاً بعد العهود المؤكدة، والمواثيق المشددة؟ فاحتلَّ العدو - قصمه الله - جهة لم تخطر بباله، واستنصرختم فلم تُصرخوا، واستنجدتم فلم تُنجدوا، والنعم تُتسَف، والسُتور تنكشف، والدماء تُسفك، والخرم تُنتهك، والإسلام يعزُ عزز³ المحتضر، وأهله للشرك كالهشيم المحتظر، فلا حرمة الإسلام رعيتم، ولا ذمام المشاركة قضيتم؛ فلم تعنوا ذلك من ذنوبنا، وتبثون بذلك رسلكم في البلاد، وتنادون: هلم إلى الجهاد، تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم⁴، والله يعلم ما تكتمون، بل تدبون الضراء، وتُسرون حسوا في ارتغاء⁵، كلَّ ذلك بمرأى ومسمع منا، وغيرُ غائب عنا، ولا نزداد مع حركتكم إلا سكونا، ومع تخشُّكم إلا ليناً، فأبوا على الود ما دام بوفائه، وصونوا جمال الحال ما بقي بمانه:

ولا توبسوا بيني وبينكم الثرى == فإن الذي بيني وبينكم مثرى

والعدو الذي حذرتم نحن أشدَّ حذراً منه، وأعظم نفاراً عنه، فقد صحَّ عندنا من أمره، ما يضيق الصدر بحمله، فيا للمسلمين، تعالوا إلى التعاون، واتفقوا ولا تتفرقوا، واتقوا عاقبة الخذلان.

وقد ناديتُ إن اسمعتُ، ونصحتُ بقدر ما استطعت، فإن وافقتُ قبولا، ولقيتُ تأويلاً جميلاً، فإن الخير عتيد، والتناول غيرُ بعيد، وإن كان للهوى سلطان، وللتعسف عدوان، فأخلق بلامّة العزم أن يتدرَّعها مُدرك لا يُضام، ومحرب لا ينام، يفتح النار، ولا يخشى العار، في يوم لا تطلع شمسُه، ولا يُذكر أمسُه:

تبدو كواكبه والشمس طالعة == لا النور نورٌ ولا الإظلام إظلامٌ

¹ - يقصد هنا إمارة برشلوة القريبة من بنسية (ربما قبل وصول نفوذ سرفسطة إلى البحر)
² - لعله يقصد تشجيع العامريين الحاكمين سابقاً في بنسية قبل الأمير عبد العزيز (أي مظفر ومبارك ولبيب) على التعامل مع البرشلونيين.
³ - يعز: أي تأخذه كربه الموت
⁴ - اقتباس من الآية 11 من سورة العنكب.
⁵ - مثل عربي يعني التظاهر بغير الحقيقة

وحينئذ تستغرب ما إليه أشرت، وتستسهل ما منه حذرت، من استعمال العقيير¹ البرشلوني على ما نهجت الحكماء عند إعضال الذاء²، من استعمال السموم في أثناء الدواء، ليتفق مزاجها، وينفذ علاجها، فإن كان ما يحاولونه من التدبير، سبباً لذلك العقيير، فهو قريب بعيد، وإن كنتم على ما عهدنا فهو من جهتنا نازح بعيد، وهذه جملة مفصلة، وحقيقة محصلة، فإما ألفة وانتظام، واتفاق يُحيي رمق الإسلام، وإما داعية تلف، وراعدة صلف، وهنالك تزلّ القدم، ولا ينفع الندم..."

21 - جواب ابن عباس وزير المرية على رسالة التاكرني

وزير بلنسية بشأن [موضوع الاستعانة بالنصارى]³ [411-419]⁴

"النصدير - أعزك الله - بـ"كتابي" و "كتبت" وتوشيهما بـ "كان" و "كنت" بشرّ يرفّ على صفحة التملق زيرجّه، وسراب يحسبه الظمان ماءً⁵ فيستدرجه؛

ولا يغررك ذو ملق وبشر == يقول وليس يعدو أن يُقالا

فتحت رغبة التصنع لبّ صريح، وعلى أديم التحقيق شعار سليم [صحيح]⁶، وبين أثناء المناقلة جدّ كالقدر ينزل بكرة وأصيلا، وفي تضاعيف المساجلة هزلّ كالنسيم الخصر⁷ يُهدي الشفاء قليلا قليلا؛ وفي استرسال الصديق سلوة بالغة، وجنات عتابه خلوة سائغة، وإن انحيت فيه على خشن مبرد، وأرجت شمائلك التي هي جامد البرد، ودبّ بشرّك منه بنفس متدارك، وأثرت عنه بعير الكلم وهو بارك، وساورثني ضئيلة بيانك، وأقيت السلم إلى سلطة لسانك، وبرنت إليك من عهدة قصري عن ساحة طولك وعرضك، وشهدت لك تطامن سمانني عن قرارة أرضك:

فما حسن أن يمدح المرء نفسه == ولكن أخلاقا نئم وتُمَدَح

وكلّ ذلك لأشوق كمامة صبري لك عن زهرة كلفي بك، وأتدرّع مفاضة الاحتمال منك جنة بيني وبين الشّماتة فيك؛ هذا - أعزك الله - حكم الصداقة التي وضعت يدك على رُمّتها، وخلعت نجاد هواك على قمتها، فإن أسمح قيادك، وأنس شراك، وأجريت في

¹ - العقيير، مبالغة للعقار: وهو ما يُداوى به، والمعنى هنا رمزي.

² - هذا جواب على ما في رسالة أبي عامر التكرني لقوله بعد إشارته إلى كثرة المرجعين بالأخبار: "وجملة الحال وتعميلها ذلك العقيير البرشلوني مستتراب، والنداوي به داء عيّا، ولو صرفت عنايتك إلى سد ذلك الثغر والبراءة منه لأحرست السنة المرجقين... وأتى لك تكذيب ما شاع، وتروير ما استذاع؟ ... وليس يخفى عليك نصحي... فافدح لي أضئ لك، وكن منلي أكن مثلك..." واتقوا فتنة لا نصيبين الذين ظلموا منكم خاصة..." (الدخيرة ص 235-236)، فراجعة أبو عامر بالرسالة أعلاه.

³ - ورد هذا الجواب في الدخيرة بعد نص الرسالة السابقة أي في ق/3 م/1 ص 239-244.

⁴ - يقترح بعض تاريخ الرسائل السابقة حول موضوع النزاع بين أمراء الثغر الأعلى والاستعانة بالنصارى ضدّ بعضهم البعض.

⁵ - اقتباس من الآية 38 من سورة السجدة

⁶ - أضفنا هذه الكلمة لتناسب السجع طبعاً مما أنها قد تكون مبتورة.

⁷ - الخصر (بالتحريك): الرد (القاموس المحيط).

روح الإخاء نفساً، وجررت على أديم الوفاء يداً ملساً، فبجميل ذكرك أبداً وأختم، وفي حيز رضاك أطيروا وأجتم.

وَأَمَّا قَعْقَعُكَ - أبا عامر - بشنان الشرك، واعتصامك بغير حبل الله، وإزعاجك بكتائب الروم¹، وإيرافك بالإجلاب على ملة التوحيد، وإيعادك بمدرک لا يُضام يَدْرَع لَأَمَّةِ الْعِزْمِ، ومحرب لا ينام يقتحم النار، ولا يجتنب العار، فاتق الله يحمك، أليس الله بالمرصاد، أم اتخذت على الغيب حميلاً، وأتيت على الحجيح ظهيراً، وكفأك بهذا البيان سحراً في باب الجدل، وحسبك به فخراً على من تقدّم وتأخّر؛ وأما التخويف من اقتراب الساعة بزلزلة الإفرنج نفعة، ونثق الجبل فوق رؤوسنا كأنه ظلّة، فنازلة تحرّك لها حوار الإيمان² فيحنّ، وطامة كبرى يعج لها الإسلام ويضيحّ، فبعضهم أولى ببعض، ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾³ بحكم النص؛ فدغ ضرب مثل السوء لنا، وعُد إلى ما هو اليق بكم وبنا، فعلى الإنصاف من نفسه أدلة واضحة، وعلى الحق بين المنصفين سبيل لائحة، واذكر شؤون أحوالنا الأول، ورفرف بخوافي الرّجاء وقوادمه على آيامنا القدم،

وَقُلْ لَخِيَالِ الْحَنْظَلِيَةِ يَنْصَرِفُ = إِلَيْهَا فَاثِي وَاصِلٌ حَبْلٌ مَنْ وَصَلْ

فلا أعرقني إن نشدتك نمتي = كداعي هديل لا يُجاب ولا يملّ

فأما - أبا عامر - وقد نحت أثلة الشكّ لتستيقن، وقرعت مروّة الحديث لتستثبت، فلأصنّفك سنّ بكري استنامة إلى صدقك، ولأطبعك على مثل ما أطلعت من غيبك، وأقول لك قول من زف إليك ودّه براحة ثقته، وأنباك ما عنده بلسان صداقته، وقد تُعدي الصّاح مَبَارِكُ الجُرب، ويغفر الله ظنوننا فبعضها إنهم، وفي هذين المثلين كيفية بدء الحال وعودها، وجماع ما يعبر به عن حورها وكورها، وتحت جملتها تفصيل طويل، وتفسير كثير، بعيد مرأه عليك قريب؛

فَنَجِيّ الْفَوَادِ يَعْلَمُهُ الْعَا = قُلْ قَبْلَ السَّمَاعِ بِالْإِيمَاءِ

ولهذا اكتفى البليغ من الإسهاب فيما يريد بالإيحاء

غير أنّ الكتائف ترفض عند المحفوظات⁴، والعجلة تُترك تتركاً بالأناسة، وإذا استكففت حاجب أفقنا بيد رفقك، وأومأت إلى جوتنا برجع طرفك، أدت دراري الوداد في مناطق أفلاكها، وتركت أعلام الوفاء ثابتة على أساسها، وجلوت أعراس الإخاء في أحسن معارضها؛ فما لنا لا نُقِرّ الطير على وكناتها، وننكب على الأفاعي العزم فلا نطوها في

¹ - هذه إشارة لم ترد فيما بقي من الرسالة المجاوب عنها، أي أنها وردت في الفقرات المتتالية منها.

² - الحوار: ولد الناقة؛ من المثل: حرك لها حوارها نحن.

³ - المائدة من الآية 53 من سورة السّماندة

⁴ - المعنى: تتحلل الأحقاد عند حلول الأمور التي تستدعي الفص

مراصدها، ونجانب عن بنت الطريق إلى أمها¹، ونسري سُرَى النجوم على سمتها، ونعود إلى التي هي أعدلُ سنناً، قبل أن يسبقَ السيفَ العذلَ سَفْهاً:

فإنَّ النَّارَ بالعودينِ تُذكى == وإنَّ الحربَ مبدأها الكلام

فلنحم نغراً البقيين بجهاد الشكِّ فيه، ونسدَّ ثنايا التفافٍ على منقفيه، حتى يباس أهل هذه البضاعة عن مساعي نمائمهم، ولا يجدوا مَحْزَراً لشفارهم، وكلَّ ذنبٍ دون الدَّمِ لَمَمٌ، والسَّهم لنا ما لم يُنبِضَ الوتر، وإن حلبنا لم نردَّ في الضرع اللين؛ ولولا هِنَاتُ سَلِّ العِتاب بيننا سخائمها، ولأنَّ تعاطينا النِّصفة شكايمها، لاخاتلت المنافرة ببهجتها وازينت، ودارت رحي الفتنة في قطبها على ما خيلت؛ وإني وإن تقلدت بك الخطاب عن نفسي، فتحئتُ كنايةً إليها أشير برمزي²، ومركزٌ حوالية أدير معاني لفظي، ولم أتيممَّ صعيد هذه الغيطان فتمسَّحتُ بترَّبه، ولا انخرطتُ في سلك الانطباع ففصلت بين دُرِّه بشذره، إلا وقد وُلِّيتُ فصلَّ الخطاب والحكومة بإجماع، ورضينا بما لنا وما علينا في القضية دون ثان، ووُضعتُ واسطة الفلادة لتعدَّل، ويكفي منها ما أحاط بالعنق، فاذا ذكر المثلَّ فهو لفظ يجمع بين معنيين، وجنس يشتمل على نوعين، أشير لك إليهما بقول الأول:

خليليَّ إنسانانِ ديني عليهما == مليان لو شاءا لقد قضيانِي

خليليَّ أما أمَّ عمرو علمتها == وأما عن الأخرى فلا تسلاني

وحقُّ هذه التكت الكامنة في ضمير القوة، أن تخرج إلى حدِّ الفعل بمرّة، ولا تُلوَّى فتتراخي كأول وهلة، فيُحتاج في المستأنف إلى عمل، ويعيد القضية جذعة من ذي قبل؛ والله تعالى يمسك رمق الإسلام في هذه البقعة، ويُقيل عثرته بإلهام أهله إلى ما هم عنه في غمرة..."

22 - تقديم عن إدريس العالي بالله الحمودي لأبي عبد

الله محمد بن الحسن الجذامي على قضاء مالقة³ (11ربيع/445)

[بسم الله الرحمن الرحيم]

هذا كتاب أمر به وأنفذه، وأمضاه من عهده وأحكمه، الإمام أمير المسلمين عبد الله العالي بالله، الظافر بحول الله، إدريس بن المعتلي بالله - أعلى الله أمره، وأعزَّ نصره - للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن - وفقه الله - قلَّده به القضاء بين المسلمين بمدينة مالقة - حرسها الله - وأعمالها.⁴

¹ - بنات الطريق أي الطرق الثانوية القليلة العبور عكس أمهات الطرق أي الرئيسة التي تعرف أيضاً بالحادة

² - هل في هذا تلميح إلى كون رايه هذا يتفق مع رأي أميره ؟

³ - جاء الطهير في المرقية (ص91) نقلاً عن أبي عسكر، وصمن ترجمة محمد بن الحسن الجذامي المذكور ، وابن الطهير يبدأ بالبسملة وعليه توقيع العالي بخط يده، نصّه: "يفذ هذا ويُعمل عليه والسسه الموقِّ وهو المستعاب"، (لم نجد هذه الترجمة فيما منشور من كتاب ابن عسكر وابن حميس)

⁴ - أكتفى صاحب المرقية بهذا معلقاً على كونه "كتاب كبير في رقى ، وتاريخه في إحدى عشر ليلة من ربيع الأول سنة 445 (كذا بالأرقام)

23- ظهير عن بلكين بن باديس (ولي العهد) حاكم مالقة وجيان
بتثبيت وزير أبيه وقاضيه أبي عبد الله الجذامي في منصبه¹ (1 رمضان 448)

[بسم الله الرحمن الرحيم]²

"هذا ما التزمه واعتقد العمل [والوفاء] به بلقين بن باديس للوزير القاضي أبي عبد الله [محمد] بن الحسن (الجدامي)³ سلمه الله، [و] اعتقد به إقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة [ريته]⁴، وأن يُجرى من الترفيع [به] والإكرام له إلى أقصى غاية، وأن يُحمل على الجراية⁵ في جميع أملاكه بكورة ريته المذكورة⁶ حاضرتها وباديته، الموروثة منها والمكتسبة، القديمة الاكتساب والحديثة، وما ابتاع منها من العالي⁷ رحمه الله وغيره، لا يلزمها وظيف بوجه، ولا يكلف عنها كلفة على (كل) حال، وأن يُجرى في قرابته وخوله وحاشيته وعامري ضياعه على المحافظة والبر والحرية، وأقسم على ذلك كله بلقين بن باديس بالله العظيم والقرآن الحكيم، وأشهد الله على نفسه وعلى التزامه له، وكفى بالله شهيداً.
وكتب بخط يده [في] مستهل شهر رمضان (العظيم) سنة ثمان وأربعين وأربعمائة⁸، والله المستعان"

24 - [عتاب] عن المنصور أمير بلنسية إلى

الموفق مجاهد العامري أمير دانية⁹ [411 - 436]¹⁰

"... إن أولى الناس بالإصلاح نفوسٌ جُبلت على صفو ودادها، وأحقّ الذنوب بالاطراح ذنوبٌ جُنيت¹ على غير اعتقادها؛ وإن رسولك الكريم وردني² فلم يتردد

¹ - ورد الظهير في الإحاطة 1/ 433 ؛ والمرقية العليا ص 91- 92: بخط بلقين بن باديس (الملقب بسييف الدولة). قال ابن عسك: كان الحاجب المطهر باديس... صاحب غرناطة يدعو للعلويين الذين بمالقة... فلما توفي إدريس بن يحيى العالي طمع في مالقة فمزله بحيشه وكانت بها فتنة، ثم دخلها يوم الثلاثاء منسلح ربيع الآخر سنة 448 فملكها وقدم القاضي ابن الحسن الجذامي... للقضاء والوزارة على ما كان أيام العالي" وعندما تخلى باديس عن مالقة لولي عهده أوصاه بالقاضي فكتب له : "هذا ما التزمه واعتقد العمل به...." وعند موت ولي العهد سنة 456 نقل باديس القاضي إلى قضاء غرناطة.

² - ما بين معقوفين [...] ناقص في الإحاطة

³ - ما بين هلالين (...) ناقص في المرقية والمذكور هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الجذامي، وقد ولاه قضاء مالقة الأمير الحمودي العالي بالله إدريس بن المعتلي بتاريخ 11 ربيع الأول 445 (الرسالة السابقة وهي في المرقية العليا ص 91)

⁴ - في الإحاطة : حطه الوزارة والمضاء في جميع كوره

⁵ - كذا في الإحاطة ؛ وفي المرقية: وأن يجري على الحرية

⁶ - في الإحاطة: بالكور المذكورة

⁷ - هو خليفة المناطق الجنوبية من بني حمود: إدريس بن يحيى وقد حكم غرناطة وقرمونة ولقب بالعالي، خلع سنة 438 بعد أربع سنين من حكمه.

⁸ - في المرقية العليا بالأرقام المشرقية 449 : كان هذا التقديم بعد أن أصبحت مالقة جزء من مملكة غرناطة

⁹ - الرسالة من إنشاء أبي عامر بن الناكري كما وردت في الذخيرة 3/ 1/ 227، وقدم لها ابن سنام بما يلي: "فصل له من رقة عن المصور إلى مجاهد الموفق وقد أظلم بينهما الأفق"، راجع التقديم المشترك للرسائل السابقة عن العامري. وورد المقطع أعلاه عند ابن سعيد: المغرب 1/ 332: انظر ترجمة لمجاهد في جذوة المفتنيس ص 331- 332.

¹⁰ - السنة الأولى هي بداية إمارة المصور (411- 452) والسنة الثانية هي نهاية عهد الموفق (400 - 436).

عندي إلا ريثما يقدح زند الوداد في نفسك النفيسة، ولم يُبد من إشارتك الرفيعة، سوى برق أسري به في ظلماء القطيعة³..."

25 - دعوة من [سليمان] ابن هود إلى الموفق صاحب

دانية لتجاوز النزاع بينه وبين المنصور أمير بلنسية⁴ [431 - 436]⁵

"... نحن وإن قصرنا بالمخاطبة، وأغبينا بالمكاتبة، محافظون على العهد القديم، معترفون بالحق الكريم، معتقدون للفضل العميم، شاكرون لله تعالى على الهبة السنية فيك، والنعمة بك؛ إلا أنه كثر نعمتنا، وصفو المعيشة عندنا، وأقلق دعة النفوس، وشرّد سنّ العيون، ما تردّ به الأنبياء من الوحشة الواقعة بينك وبين المنصور⁶ - أيكما الله - ممّا لو يستطيع الفداء له بكلّ علق غال، ومعالجة التّياث بكلّ نفيس عال، لما تأخر عن ذلك أحد، ولا قرّ على غيره خلّد، رغبة في الألفة بينكما، وحرصاً على تمام النعمة للمسلمين فيكما، فانتما فئة الإسلام، وعمدة الأنام، ومتى اضطرب لكما حبل، وانصرم منكما وصلّ، فشملّ الكلّ شتيت، ووصلّ الجميع مبتوت.

فالله الله في الذين أن يألّم بكما، والحرمة أن تذهب بينكما، فالعيون في الصّلاح إنما كان سموها إليكما، فما ظنكما بالمسلمين وقد أصيبوا في مستقرّ آمالهم، وجنت الاستحالة حيث كان الرّجاء في صلاح أحوالهم..."

26 - رسالة أخرى عن [سليمان] ابن هود إلى

الموفق [في نجاح مسعى الصّالح المذكور قبل]⁷ [431 - 436]⁸

"... من استضاء بسراج رأيك المسدّد، واستجج بيمك سعدك المؤيّد، واستظهر بنافذ عزمك، وتكثّر ببالح حزمك، واعتضد بخالص إخوانك، وأسند إلى صدق وفائك، كان قميناً

¹ - كذا في الذخيرة؛ وفي المغرب: نبت

² - في المغرب: ورد

³ - في الذخيرة: "... النفيسة، فيوري سراحاً من الصّلة أسري به في ظلماء القطيعة..." وقد استعملنا في المتن ما في المغرب لتناسق السجع.

⁴ - الرسالة من إنشاء أبي عمرو بن الفلاس كما وردت في الذخيرة 3/ م 1/ 419-420 كتبها عن المستعين سليمان ابن هود (431 - 438) إلى أبي الجيش الموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (400 - 436) في دعوة لتجاوز نزاع هذا الأخير مع صاحب بلنسية المنصور عبد العزيز حفيد المنصور ابن أبي عامر (411-452). راجع ترجمه ابن الفلاس في الذخيرة ص 418-419 (قبل نص الرسالة)، والمغرب 1/ 363؛ ونفح الطيب 1/ 186 (في فراءه اسمه خطأ حيث قلب حرف الفاء إلى فاء)، وجعله المقرئ من أهل بطلبوس.

⁵ - السنة الأولى هي بداية حكم المستعين ابن هود صاحب سرقسطة المكتوب عنه، والثانية تاريخ وفاة الموفق مجاهد العامري المشار إليه في الرسالة، وبهذا يتحصّر تاريخها بين السنين المذكورتين، وقدم لها ابن بسام بالعبارة الآتية: "فصل له من رفعة عن ابن هود إلى مجاهد أبي الجيش الموفق".

⁶ - سبقت الإشارة إلى الصراع بين الموفق والمنصور لأجل توسيع نفوذ كل منهما على حساب الآخر، وهو ما أدّى إلى المواجهة العسكرية بينهما حوالي سنة 430 حينما انشعل المنصور بمسألة موت زهير صاحب المرية، واسنمر التونر بين الطرفين بعد ذلك.

⁷ - الرسالة من إنشاء ابن الفلاس كما وردت في الذخيرة 3/ م 1/ 420-421

⁸ - السنة الأولى هي بداية حكم المستعين ابن هود مؤسس الإمارة، والسنة الثانية هي تاريخ وفاة الموفق أمير دانية.

أن تنجاب عنه ظلم المشكلات، وتتفرج له فحَم العضلات، وتستقل به مراكب النجاح، وتتطلع إليه عواقب الصلاح، ويذل له الصَّعب الجامح، ويسهل عليه الخطب الفادح؛ فإنك - والله بيقينك - الميمونُ النقيية، الكريم الضَّريبة، السَّعيد الجد، المحمود العهد، الذي إن اقتدح زنداً أورى، وإن اعتمد حدّاً فرى، وإن وَدَّ صدق وحقق....¹

وإني منذ استنجحت فيما كنتُ أحاوله من ذلك الأمر ببركة سفارتك، واستظهرتُ عليه بسعادة وساطتك، وضربت مستصعبه بحدّ مؤازرتك، واقتدْتُ ممتبَّعه بقوة مظاهرتك، لم أزل أشيُمُ تباشير النَّجح لائحة، وأتبيّن مَخايل الفلج² واضحة، وأجد شدة قيادة ثلّين، وعزّ إباية يهون، إلى أن تأتى بحول الله الأمل، وأنجح العمل، وأصحب ما كان أبيّاً، وقرب ما كان قصيّاً؛ وكان للوزير الكاتب أبي فلان في ذلك المناب الحميد، والسَّعي الوكيد، الذي سهل به الحزنَ وقربَ البعيد؛ وكذا يكون من ثقفه تاديبك، وأقام أودّه تهذيبك، إذا سَفَر أصلح، وإذا سعى أنجح، وهذه الحال لك أولها وآخرها، وباطنها وظاهرها، فبك اتضح منهاجها، وأضاء سراجها، وبسعيك انفسحت سبلها، وتأتى مؤملها، وارتفعت أعلامها، وتهيّا تمامها، وأنت المسدّي لها والمُلحم، والعاقِد لأسبابها المُبرم..."

27 - رسالة أخرى في نفس الموضوع؟ وذكر

عودة [سفير الصلح] بعد نجاح مسعاه³ [431 - 436؟]⁴

"... إن أحقّ الأخبار، بالتحدّث عنها والإخبار، وأولاها بأن تثيرها السنة التهادي والتناقل، وتنشرها أيدي الكتّاب والتراسل، خبرٌ أعرب عن نعمة تعمّ المسلمين، ومّة ينظم نفعها الدّنيا والدين، وأبان عن مسرة وقعت والآمال دون نيلها واقعة، وبشرى طلعت والأحوال عن مثلها دافعة؛ وكان له من ذاته شاهد يصدّقه، وبرهان يحقّقه، ووضوح يحميه عن أن تعترض عليه شبهة الظنون، وجمال يغنيه عن تكلف التحلية والتزيين، وتلك صفة ما أقصِدُ محادثتك بنعم الله علينا فيه، وأعتمد إهداءه إليك مشروحة جملته موقاةً معانيه....⁵

إن أولى النعم بأن يُحدّث عنها حديث اعتماد لشكرها، وينبّه عليها تنبيه إشادة بقدرها، نعمة خصّت الدين، وعمّت المسلمين، وأعلت للإسلام يداً، وفئت من الشّرك

¹ - في الذخيرة: (في فصل)

² - الفلج: من معانيها الصبح (لسان العرب)

³ - الرسالة من إسماعيل ابن الفلاس ربما عن ابن هود إلى الموفق، وردت في الذخيرة 3 / 1 / 421 - 422

⁴ - راجع الهامش الثاني على الرسالة السابقة

⁵ - في الذخيرة: (وفي فصل)

عضداً، وشَدَّتْ من الإيمان سَنَنًا، وأوْهَتْ من الكفار رُكْنًا¹، فإنَّها موقعَ العموم واقعة، والقريبَ والبعيدَ في نفعها جامعة....²

إنَّه لما كان من شرط من ابتدأ أن يتمَّ، وسُنَّة من سَدَى أن يلجِم، وحكم من نهجَ عملاً أن يُفْضِيَ به إلى غايته، وسبيل من أخذ في سعي أن لا يرجع دون نهايته، وجب على فلان - أبقاء الله - أن يتلَوَّم على الحال التي انفرد بفخر تأسيسها وتشبيدها، وفاز بحسن منابه في تقريرها وتمهيدها، حتَّى يستوفي فيها حقائق العمل، ويُبرِّئ منها جميع العلل، ويسدَّ من جوانبها دقائق الخلل؛ إذ كان هو الذي شرع مبادئها، وبه انتظم متناثرُها، وبلطفه سَكَن متنافرُها؛ وما زال يسعى أفضلَ سعي، ويصدِّع بأجمل رأي، حتَّى قرَّر الأمور على أثبت قواعدها، وشدَّ رباط مَعاقدها؛ فلمَّا صحَّحها تصحيحاً أمينَ التَّيَّاه، وأبرمها إبراماً لم يحذر انتكاثه، وجب عند ذلك أن يقع صدره، ويحينَ منصرفه، فصدر محتقبا إليك من حقيقة وُدِّي، وطيب ثنائي وحمدي، ما إذا جلاه في معرضه راقك مجتلاه، وإذا أجناه على حسبه عُدب عندك جناه، وبه اكتفيتُ عن مدِّ أطناب القول في الإخبار عن هذا وسواه، فهو بتفصيل جملته لديك جدير، وبه خير..."

28 - رسالة عن المنصور صاحب بلنسية إلى "الخليفة هشام"

[المزعوم] عن حدوث صلح بينه وبين الموفق صاحب دانية³ [431-436]⁴

أطال الله بقاء أمير المؤمنين، مولاي وسيدي وسيّد العالمين، وابن الأئمّة الراشدين، عزيزاً سلطانه، سامية أعلامه، ماضية أحكامه، ظاهراً على من ناواه، قاهراً لمن عاداه، كما يحبّ - أيّد الله أمير المؤمنين مولاي وسيدي - على أحسن ما يكون عليه العبد المخلص، والمولى المتخصّص، الذي حسنُ مُضمَره، واستوى سرّه وجهره، ولاح استبصاره وجده، وتناهى سعيه وجهده، في

¹ - في نسخة أخرى: وهذّت من الكفر رُكْنًا (الهامش)

² - في الدّخيرة: (وله)، وفي هامشها (وفي فصل منها)، وهذا ما جعلنا نعتبره تكملة للرسالة.

³ - وردت الرسالة في صبح الأعشى على أنها كتبت عن المنصور إلى هشام بن الحكم، وفسّر المحقق ذلك أنه الحاجب ابن أبي عامر (صبح الأعشى 6/ 523-525، ط بيروت 1987)؛ وتبين من ترجمة الكاتب أنه عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى المعروف بابن أصغ، وأنه كان مغرباً لدى صاحب بلنسية المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن الحاجب المنصور بن أبي عامر، أي لدى المنصور الحفيد الذي حكم بلنسية بس 411 و 452، وأنّ الكاتب المذكور عندما انفصل عنه التحق بالمأمون بن ذي النون فاستوره، وكانت وفاته في صفر سنة 458 (الذخيرة 1/3/ 409-418؛ ابن الأبار: النكملة 3/ ص 12).

⁴ - لم نستطع ضبط هشام المقصود، فهناك هشام المعتد الذي بويع خليفة سنة 418 وعزل سنة 422 ولكنه ليس ابن الحكم، فإذا صدّقنا تقديم الرسالة في صبح الأعشى على أنه هشام بن الحكم، فإنّ هذا في الواقع كان أمره انتهى قبل هشام المعتد ويكون المقصود هنا هو هشام المزعوم الذي نصّه ابن عباد في إشبيلية سنة 426 وتخلّى عن بيعته سنة 451 بدعوى وفاته، وكان يدّعي أنه هو هشام بن الحكم، فالراجع أن هذا المزعوم هو المقصود حيث وافق صاحب بلنسية ابن عباد في دعواه، وكان الاقتتال حدث بين الموفق صاحب دانية والمنصور حوالي سنة 430، والرسالة هنا تشير على حدوث صلح بينهما قد يكون ابتداءً من سنة 433 أي في السنوات الثلاثة الأخيرة من حياة المنصور. وعلى هذا يمكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 431 و 436 على الأبعد؛ وربما بين 433 و 436.

مضمار الجري إلى الطاعة، وبذل إذعانه وانقياده، واستعبد إمكانه وإجهاده، فيما يفى بتمكين الإمامة المهدية، والخلافة المرضية، ويشد مباني المملكة المصدقة لتبشير اليمن والبركة؛ والله سبحانه وليّ العون والتأييد، والمليّ بالتوفيق والتسديد، لا ربّ غيره.

وبعد؛ - أبقى الله أمير المؤمنين- فإنّ كتابي إليه سلف معرباً عن النزغة التي كانت بيني وبين الموفق مملوكة¹؛ وقديماً نزغ الشيطان بين المرء وصديقه، والأخ وشقيقه، وضرب ساعياً بالتشتيت والتشغيب، والتبديد والتقريب²، بين الأب الحاني الشقيق، والابن البرّ الرقيق؛ ثم يعود ذور البصائر والتهى، وأولو الأحلام والحجاء، إلى ما هو للشحناء أذهب، وبالتجامل أولى وأوجب؛ وكتابي هذا وقد نسخ الله بيننا آية الافتراق، بالاتصال والاتفاق، ومحاسنة الثباين والخلاف، وبُذِرَ التآلف والإنصاف، وعادت النفوس إلى صفائها، وانطوت على وفائها، وخبت نار الفتنة، وامتدّ رواق الهدنة، وثبتت الأسباب الراسخة، والأواصر العاطفة بأزمة قلوبنا إلى معاهد الخلة القديمة، ومواطن العشرة الكريمة، والمعروف من الامتزاج في كلّ الأحوال والتشابك، وجلاء الشكّ باليقين، وقرّت بالانتظام العيون، وصرنا في القيام بدعوة أمير المؤمنين مولانا وسيّدنا رضيي لبنان، وشريكيّ غنان، وأليفّي تناصّر، وحليفّي تطافر؛ فنحن عن قوس واحدة في نصرتها نرمي، ومن ورائها نذود جاهدين ونحمي، قد فتنا الجياد في السبق إلى الطاعة، وأحرزنا قصب السبق في المظاهرة والمشايعة، فما نفثنا نسعى في تمهيدها ونذهب، ولا ننفك نكدح لها وننصب، والله الكفيل بإنجادنا بعزّته وقدرته، وحوله وقوّته، لا إله إلا هو.

وإنّ الذي عقده الله تعالى لنا، وحسمه من دواعي القطيعة عناً، ما اطرّد وتألّى، وسنح وتهبّا، إلا بسعد طائر أمير المؤمنين سيّدنا ومولانا أعزّه الله، ويؤمن نقيبته، فمن تمسك بعروته، وعاذ بعصمته، فقد فاز قدحُه، وتبلج في ظلم الأمور صبحُه، واستدلّ بأوضح الدليل، وعرض بالرأي الأصيل، واستنار بأضواء سراج، وسلك على أقصد منهاج ولم يُزايِل الرّشاد آراءه، وصاحب السداد أنحاءه؛ والله - تقدّس اسمه - لا يزال يعرفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يصلح به أحوالنا، ويُفسح به آمالنا، بمثّه.

ولمّا أتاح الله من السّلم ما أتاحه، وأزاح من المكروه ما أزاحه، لم أجد فيّ فسحة، ولا غنى ولا سعة، من إطلاع أمير المؤمنين مولاي وسيّدي من ذلك على

¹ - لا نملك الرسالة المشار إليها والتي أحر فيها المصور المكتوب إليه بما حدث من نزاع سنه وسن الموفق

² - كذا : والكلمة المناسبة : والتغريب

الجلية، وإعلامه بالصورة [.....]¹، فأنهضت إلى حضرته العالية ذا الوزارتين عبد الرحمن بن مطروح رسولي وعيدي وخاصتي مملوكه لينهي إليه الحال على حقيقتها، ويوقئها بكليتها، وأقرن به رسول الموفق متحملاً مثل ما تحمله رسولي، ومتقلداً كالذي تقلده؛ ولأمير المومنين مولاي وسيدي الفضل العميم في الإصغاء إليهما، والوعي عنهما، والسماع منهما جميع ما يوردانه ويوضحانه، ويستوفيانه ويشرحانه، والطول بالمراجعة فيه بما يستوجبه ويقتضيه، واصلاً لعز مننه وأياديه، إن شاء الله تعالى".

29 - تهنئة عن الموفق مجاهد أمير دانية إلى

المعتضد ابن عباد بمناسبة دخوله شلب² [...] [436 - 3]³

"كتابي - أعزك الله - عن حال قد طال⁴ جناحها، وأمال قد أسفر صباحها، ويد قد أوزى زندها، ونفس قد انتجز بنجح كل محاول وعدّها، (بما وردني به كتابك الكريمان)⁵ - أعز بهما - من جميل⁶ صنع الله لك بحصول قاعدة شلب وذواتها في قبضتك، واستنراء⁷ ذلك الأفق بظل طاعتك، وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم ولا عهد لازم، قد كذبه⁸ ظنه في التماسك، وأخلفه أمله في التهالك، (ورغم أنف من بعد عنه⁹، وجدع به من لم يوضع الميسم¹⁰ عليه)؛ فأى نعمة (ياسيدي وأعلى عُددي)، ما أجّلها وأجزّلها! وأي مئة، ما أتمّها وأكملها¹¹! على حين تضاعف حسن موقعها، وبان لطف محلّها وموضعها، ولاحت عنواناً في صحيفة مساعينا، وبرهاناً (- بحول الله تعالى-) على تأني أراجينا؛ فالحمد لله

¹ - العبارة في حاجة إلى كلمة تناسب ما قبلها من سجع

² - الرسالة في القلائد 541-542؛ وفي الذخيرة، ق/3 م/1 129-130؛ كاتبها أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد البر (ت 458)، كان كاتباً للمعتضد بن عباد ثم نغم عليه. راجع ترجمه هذا الكاتب في القلائد 538؛ الذخيرة 125/1/3؛ بغية الملتبس 354؛ جذوة المقيس ص 249؛ الصلة 1/279؛ المغرب 2/402؛ كانت بين المعتضد ومجاهد مصاهرة، فبنت معاهد العامري كانت زوجة للمعتضد عباد، وكانت أختها زوجة لأمير بلنسية أيضاً.

³ - كانت وفاة الموفق مجاهد العامري سنة 436 أي أن شلب سقطت في يد المعتضد قبل أو خلال هذه السنة حيث هتاه أنداك صهره الموفق بالرسالة أعلاه، فهل حدث هذا خلال المرحلة الأولى لتوسّعات ابن عباد بعد هزيمة منافسه صاحب بطليوس على منطقة الغرب حوالي سنة 420؟ فربما فقد ابن عباد بعد هذا مدينه شلب، فالتفت أنه فتحها سنة 443 وفتح ليلة في نفس العام (البيان 3/240-241)؛ وقد جعل عباد سقوط شلب في يد المعتضد سنة 455 حيث ولّى عليها ابنه المعتضد (دول الطوائف 60). فهل تكررت حالات سقوطها واسترجاعها من طرف المعتضد؟

⁴ - في الذخيرة: قد أطل

⁵ - ما بين هلالين (....) ناقص في الذخيرة

⁶ - في الذخيرة: أعز به من صنع جميل..

⁷ - كذا في القلائد؛ وفي الذخيرة: والاستغلال

⁸ - في الذخيرة: قد حاب طنه

⁹ - يظهر أنه يفصد ابن الأفطس صاحب بطليوس عدو ابن عباد.

¹⁰ - الأداة التي يوسم بها: مكواة أو غيرها

¹¹ - في الذخيرة: وأجملها

(ثم الحمد لله) على ما من به وأحسن (فيه)، حمداً يؤذي¹ الحقَّ ويقضيه، ويحتوي² المزيدَ ويقضيه، وهو المسؤول (عزَّ اسمه) أن يُبَيِّعَ ذلك³ بأشكاله، وَيَشْفَعَهُ بأمثاله، (ويَهْتِئُ ذلك النَجَحَ [والفتح]⁴ سلماً وحرباً، وشرقاً وغرباً، والظهورُ بُعداً وقرباً؛) فظهوري منوط بظهورك، وسروري موصول بسرورك، واتصال حالي بأحوالك، وحيلي بحبالك؛ هناك الله وإيائي ما خولك، وقرن بالزيادة آلاءه قبلك، (بمنه)".

30- جواب عن تعزية في وفاة الموفق مجاهد أمير بلنسية

من ابنه علي إقبال الدولة إلى المظفر ابن الأفطس⁵ [437]⁶

"وما أشك في ما ذكرت من أخذك معي بالتصيب الأوفر، والقسط الأكبر، من المصاب بفقد الموفق مولاي ومعظمك، كان - لقاء الله رضوانه، وألحفه عفوه وغفرانه-، فقد كان إذا عُدَّ الأفاضلُ لا يثني خنصره إلا عليك، وإذا نُكرَ الرؤساء لم يُشر بتصحیح الوفاء إلا إليك، فنحن لا نستوحش بفقد فاضل وذاته موجودة، ولا نرتاع لموت جليل وحياته ممدودة، فأنت إذا قال قائل منّا: كسدت لوفاة الموفق سوقُ الأدب، وبارت بضاعة الطلب، وهوى نجم العلم، وكبا زندُ الفهم، وغفا رسمُ الحلم، وطفئ سراجُ الرأي، استثنى بك المجيب، وعزّي بمكانك المصيب، وأطبق الإجماع أنك جماع الفضائل ونظامها، وفي يدك لواؤها وزمامها...."

31 - رسالة وتية عن إقبال الدولة ابن مجاهد

إلى المنصور [عبد العزيز] ابن أبي عامر⁷ [436 - 452]⁸

"مَن اختار - أيدك الله - لخلته أركى المعادن، واعتمد لمقته أسنى المواطن، كان جديراً أن يغتبط بجناها، ويرتبط بفوز عقباها، ويعلم أنها على الأيام صقيلة الأرجاء لا يُصدنها الإهمال، صدقة المضارب لا يفلها الأعمال، وأنت الذي لا يُداني شرفه، ولا يُسامي سلفه⁹، ولا تُجارى أعرافه، ولا يُبارى إعرافه؛ فمن ظفر بصفتك عماداً،

¹ - في الذخيرة: يوافي

² - في الذخيرة: على المزيد

³ - في الذخيرة: أن يتبعه

⁴ - إضافة من نسخة أخرى حسب ما في هامش القلائد.

⁵ - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر موجهة إلى أمير بطليوس كما وردت في الذخيرة 3/م/171، والظاهر أنها متورة البداية والنهاية.

⁶ - كات وفاه الموفق مجاهد العامري سنة 436، ولا يبعد أن يكون الجواب عن التعزية في وفاته خلال السنة اللاحقة التي هي أول سنوات حكم المظفر ابن الأفطس (437 - 461)

⁷ - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كما وردت في الذخيرة 3/م/165-166؛ ومن المحتمل أنها كتبت في أوائل عهد الأمير علي إقبال الدولة لمحاولة محو آثار الجو المتعكر بين أبيه الموفق مجاهد والمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية.

⁸ - السنة الأولى هي بداية حكم ابن مجاهد، والسنة الثانية هي سنة موت المنصور.

⁹ - وهو حفيد الحاجب المنصور ابن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المشهور بغرواته، وهو من عرب اليمن أصلاً.

وبوفانك عتادا، فقد أصمى سهمه وقرطس¹، ونزل ساحة الفضل وعرّس، ووثق بأته ورد وردا لا تكثره الدلاء، واعتقد عقدا لا يغيره الإصباح والإمساء؛ وتلك حالي في ما مئحته من صفانك، ووئيته من ولانك، والله يحرس حظي من وفانك، ويرفع المضار عن حوبانك، بمته.

32 - رسالة عن إقبال الدولة ابن مجاهد إلى

المنصور ابن أبي عامر عن غدر أخيه له²

[436 - 452]³

"... وإن الموفق مولاي⁴ - رضي الله عنه - كان رمى إليّ بعهد، وقلدني الأمر من بعده، وبايعني بذلك من كان في قبضة سلطانه، واشتمال ديوانه؛ ولما اتفقت الآراء، وينس الأعداء، مذ أخي حسن ببيعتي يدا، وأظهر في طاعتي معتقدا، فما أن لمداد عهده أن يجف، ولا حان ليد عاقده أن تتحرف، حتى داخل صاحب إشبيلية⁵ في الغدر والخلاف، فأنفذ إليه رجلا يدعى سلمة من جنده، ليتصرف على إرادته؛ فاجمعوا أيديهم والقضاء أملك، وأزمعوا كيدهم والقدر يضحك، وتوخوا صدري من صلاة الجمعة، فوافوني قد انسربت في كلة الأمن، ونمت في حجر حسن الظن، فما استيقظت إلا لصفح صفانهم ثملت عليّ، ولا انتبهت إلا لضوء رماحهم تُشرع إليّ، إلا أن الله كان بإزاني ظهيرا، وتلقاني نصيرا، وبين يدي رفا، ومن ورائي مددا ورداء؛ فما كان إلا أن تساقط فراشهم في مصابيح الفرج، وأتعت شُبّههم في موارد الثلج، وفرت وقد انجلت الكره عليهم؛ فاما سلمة المذكور فإنه رمى عن قوسه إلى نفسه، وسطا بسهمه على جسمه، فانتنى في بطاحه، مقتولا بسلاحه؛ وأما حسن فمرّ مستمرا لما استمراه، مستمرا لما استحلاه، قد عارض النعمة بجحدها فسلبت عنه، وقارض الحسنة بضدها فانتثر عت منه؛ على أنه كان بين الجفن والناظر نازلا،

¹ - أي أصاب الهدف.

² - الرسالة من إنشاء ابن أرقم أبي الأصغ عبد العزيز بن محمد الوادي أشي كما وردت في الذخيرة ق/3 م/169 - 171: قدم لها ابن سبام بقوله: "وله من أخرى عن ابن مجاهد إلى ابن أبي عامر يعلمه بغدر أخيه حسن له، قال فيها بعد الصدر: وإن الموفق...". وكان حسن هذا أصغر من أخيه علي وقد رشحه أبوه لولاية العهد خلال أسر علي بسردابية إلى أن عاد فأرجع إليه أبوه ولاية العهد، وبعد موت أبيهما اسفل حسن إلى روح أخته المعتصم بن عباد فشجعه للقيام على أخيه، وفشلت عملية العدر بالأمير، فمر حسن إلى زوج أخته الثانية صاحب بالنسبة عبد الملك بن عبد العزيز فيقي بها إلى وفاته (البيان 157-158: دول الطوائف 195). انظر ترجمة ابن أرقم في الذخيرة ق/3 م/360؛ والقلائد 367 وما بعدها: النكملة 3/ 87-88 (نح. الهراس)؛ نهج الطيب 3/ 498-499. وبالنسبة لابن أرقم فقد كتب عن إقبال الدولة ثم المعتصم صاحب المرية وقد سفر عنه إلى المعتصم بن عباد، انظر ترجمة ابن أرقم في الذخيرة، ق/3 م/360؛ والقلائد 367 وما بعدها: النكملة 3/ 87-88 (نح. الهراس)؛ نهج الطيب 3/ 498-499.

³ - السنة الأولى هي بداية حكم ابن مجاهد، والسنة الثانية سنة موت المنصور المكتوب إليه.

⁴ - يقصد أباه مجاهد العامري (400 - 436)، ومن المرجح أن تكون الحادثة في أوائل عهد علي بن مجاهد الذي ابتداء سنة 436.

⁵ - كان من شأن استيلاء حسن على دانية والجزر أن يسهل على ابن عباد مدّ يده نحو هذه المنطقة، وهذا ما سنراه لاحقا باستيلاء ابنه المعتصم على مرسية من يد ابن طاهر.

وبين الضمير والخطر جانلاً، قد قاسمته العيش نصفين، والحياة شطرين، له النوم ولي السهر، وله الأمن ولي الحذر، وله الصفو ولي الكدر، أشقى لينعم، وأمتهن ليكرم، إلى أن واصلته الرفاهية فمل، ونامته النعمة فاعتل، ومسّه الخير فمنع، وغرته الأماني فأنخدع، حتى ذاق وبال أمره، «ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله»¹.

33 - رسالة ودية عن إقبال الدولة ابن

مجاهد إلى المظفر ابن الأفطس²

[437 - 461]³

"إذا تشاكنت - أيديك الله - الأحوال والضروب، تقاربت الأهواء والقلوب، وقد قيل: الشكول⁴ أقارب، والمذاهب مناسب.

ولن تنظم العقد الكعاب لزينة == كما تنظم الشمل الشتيت الشمائل وما تشئت لنا بحمد الله شمل، ولا انقطع بنا حبل، ولا غب بيننا وصل، بل نحن على تلج تواصل يقتضيه التشاكل⁵ والتألف، ونهج تداخل يستدعيه التعاقد والتحالف؛ وإني - علم الله - بمكانك لمبا، وبزمانك لمظاهر مضاء، أعتقد لك العقد الذي لا تجاذب أهدايه، ولا يناع جلابيه؛ وقد نظمنا من الأحوال المشاكلة والأسباب الواشجة ما كيلنا له مراع، وإلى قضاء الحق فيه وحفظ الحظ منه ساع، ورُبَّ حال جدت تألفاً ووداً، وأكبت وشدت على مر الأيام عهداً وعقداً، وبنت ما لا يهدمه الدهر ولو انتحاه من خطوبه بمعول، وأنحى عليه بجران وكلكل؛ والله يصل ما بيننا بالدوام والثبات، ويحرسه من الانصرام والانبتات..."

34 - رسالة عن أمير دانية إقبال الدولة ابن مجاهد إلى ابن رزين حول

نزاع الأخوين [ابني هود] والنية في هجوم أحدهما على إمارته (السهلة)⁶ [ما بعد 436]

"قد يكون - أعزك الله - الأجل في الأمل، وربما صحت الأجسام بالعلل؛ فكم من امرئ نُشر من كفته، وآخر أوتي من مأمته؛ ومن نعم الله على العبد أن يقاتل عنه من ناواه بحسامه، ويناضل دونه من عاداه بسهامه، حتى يكون قتيل سهم رماه بيده، ومصاب أمر أجراه على معتقده، والسعيد من نام والأقدار تحرسه، وأقام والأيام تخدمه، وأكل والله يكفله، فحق له ألا

¹ - من الآية 43 من سورة فاطر

² - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كما وردت في الذخيرة ق/3 م/1 166

³ - السنة الأولى تاريخ بداية عصر المظفر، والثانية تاريخ وفاته، أما إقبال الدولة فكانت ولايته بين 436 و 468

⁴ - الشكول: من معانيها النظائر

⁵ - الشكول: السمائل

⁶ - الرسالة من إنشاء ابن أرقم عن إقبال الدولة علي بن مجاهد (433- 445) إلى ابن رزين، والمعاصر لحكم إقبال الدولة هو عبد الملك بن هديل ابن رزين (436 - 496)، وردت الرسالة في الذخيرة ق/3 م/1 365- 367. ولعل الأمر يتعلق بنزاع الأخوين ابنني سليمان بن هود وهما أحمد (المقندر) أمير سرقسطة ويوسف المظفر أمير لاردة (انظر الهامش رقم 4 لاحقاً).

يَجْزَع إذا دهى خطبٌ فإنَّ الفرج معه، وألا يهلع إن عدا كُربٌ فإنَّ الله قد رآه وسمعه، ولا سيَّما إن قُصد بظلم واعتمد ببغي، ففي التنزيل: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾¹....² ولَمَّا دعاه إلى السَّلم، وناداه باسم الصِّلح الأتمّ، غرّه بأيمانه، واستدناه من مكانه، فقبض عليه، وخاس بما ألّاه من العهد إليه، ثمَّ أراد أن يُتبع الإساءة ضعفاً³، والإبالة ضعفاً، باعتزّامه الغدر بأخيه الأقرب، ومحلَّ أبيه الحبيب، فصرف الله كيده في نحره، وأذاقه وبال أمره، ووضح ما كان من سرّه وُضوح النّهار، وتطلّعت بنات صدره تعلو على الأستار، وهو لا يشعر أنّه شعِرَ به ولا بأنّه قد أبه له، بل خال عمائيه نهاراً الأديب فانكشف سرّه، وظنَّ غباوته غفلة الرقيب فانتهك ستره، وكان قد فكر وفكّر ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قُتِرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قُتِرَ﴾⁴، وليته قبل تدبيره لو نفح ما دبّر، وحين حفره لو وسّع إذ حفر، وسمع قول القائل: يا حافر الحفرة وسّع فقد = يسقط في الحفرة حَقارُها.

وقول آخر:

مَنْ يَرِ يوماً يَرِ به = والدّهر لا يُغْنِرُ به

وما كان إلا أن قبض الله ظلّه، وفضح غلّه، وفاز بحظ الحرمان، وحلّى بباطل الخسران، وقزّع فرع اللّهفان، لا يجد أمّا، وخبط خبط الخيران لا يهتدي أمّا، على حين ما كان مستحكماً الأمل داني الرّجاء، متمكّن الطمع في ختر أخيه⁵ والأخذ بكظمه، والاقتدار على ظلمه، فإذا به قد نُشر من قبره، وشقّي بضرّه، حين راماه بسهمه، وأخذه بحكمه، وأتاه بعلمه، : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾⁶، وجزأوه إذا جازى القلوب وهي أئمة، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾⁷، ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾⁸.

فالحمد لله الذي صيّر نهبا، وكفّاه منه حربا، فقد كان فيما بلغ ناهداً إليك، وعلى ما اتّصل وافداً عليك، ولعلّ الصنّع له كان من حيث لم يعلم، والعناية خُصّت به من أين لم يفهم، فربّما كانت وفادته برُجمية السائر، وسعايته مُشتمية الطائر، وبدايته مندمية⁹ الآخر...

35 - رسالة ودّية عن إقبال الدولة علي ابن مجاهد أمير

بلنسية إلى المعتصم [ابن صمادح أمير غرناطة]¹

[443 - 468]²

¹ - من الآية 58 من سورة الحج

² - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)

³ - قام سليمان بن هود بتقسيم المملكة بين أبنائه الخمسة، إحمد المقتدر بسرّسطة أشدّ إخوته طمعاً فيما بأيديهم، ويوسف المظفر حسام الدولة صاحب لاردة، ولب صاحب وشقة، والمصدر صاحب تطيلة، ومحمد صاحب قلعة أيّوب وهو الأقرب إلى إمارتي شنتمرية وبلسية. وتمكّن أحمد من التحايل على إخوانه والقبض عليهم إلّا أخاه صاحب لاردة، واشتعلت الحرب بينهما، إلى أن تمكن أحمد بدعم البصري من الاستقلال بالمملكة (البيان 3/ 221 وما بعدها؛ دول الطوائف 262)؛ ويظهر أنه هو المقصود بالطمع في إمارة ابن رزين.

⁴ - الأنيان 19، 20 من سورة الممتدّر

⁵ - لعله يقصد أخاه صاحب لاردة الذي لم يتمكن من حذاه.

⁶ - من الآية 102 من سورة هود

⁷ - من الآية 48 من سورة الكهف

⁸ - من الآية 27 من سورة الحج

⁹ - المشامة: من الشؤم؛ المدم والمندمة: ما يحمل على الندامة

"كنتبت - أدام الله إعزازك، وصان ارتياحك للمحامد واهتزازك-، بعد قفول مَنْ قفل عنك، وحلول من صدر بما شرح الصدور من لدنك، والحال شاملة الصلاح، فائزة القُداح، جارية على الاختيار والاقتراح؛ ومما ضرح القذاة من شيربي، واستنزع الأداة عن سربي، وزوى روعة روعي، وروى بماء الثقة عودي، حتى رسخت في أرضها أصولي، ورفقت فروعي، ما حلاك به من عميم الفضائل، وكريم الشمائل، فأقرّ صحة ما بلاء منك في فوادي، وأشربته ذاتي؛ فوحيايتك التي بها حياة الكرم، لقد أسمعوا من لطائف البرّ، وأودعوا من غرائب الثناء الحرّ، ونشروا من كرم الخلال، مع ركانة الوقار ومهابة الحال، وإعظام الجليس، والتزام التواضع والثأنيس، بعد توفية الرئاسة حقها، وتقضية السيادة أجلّ واجباتها وأدقها، جعل الله الآمال طاعتها والأيام رقتها، ثم استوصفتهم التذاذاً بطيب أنباتك، صورة مجلسك مع وزرائك وأحبائك، فأوردوا من ذلك ما هو أشهى من السعادة، وأحلى من الحياة المعادة، وأسبى للنفوس من مراض الحنق، وأجلى للشكوك من غرة الفلق؛ فطارت بي هزة الشوق كلّ مطير، وأصارتنى غرة الفرح بين روضة غناء ووادٍ مطير، وقلت الحمد لله قد وقفتُ أمري، وقام عند العوائل عذري، وسطع شهابُ حجّتي بأن خلعتُ عليه نفسي وأودعتُ يديه مهجتي...³ ومثلّك من كان الوسيط فؤاده == فكلمه عني ولم أتكلم

.....

والحقّ أبلج قد هديتُ == إلى الصراط المستقيم
ووثقتُ أني لم أبـوئ حرمتي إلا حريمي
ما ضاع حقُّ كريمة == هُديتُ إلى كفؤ كريم
ياكاسبُ الحمد الحديث == ووارثُ المجد القديم
قاسمتك النفس النفيسة واختصصتك بالصميم
أي برّ- أعزّك الله يُعارض به برّك، وقد عرض في المكارم برّك وبحرّك، أم أيُّ فعّالٍ توازي فعّالك، وقد وثت النيران أن تكون نعالك، أم أيُّ شكر يكون كفاء أياديك، وقد تمتّ الأيّام أن لها السنّا تُطريك، وأن لها أنفسا تُفاديك، أم أيُّ عرف يكون جزاء عرفك، وقد فغم⁴ الخافقين رياء عرفك، لهتك الخير الذي لا يضاها ولا يباهي، والحرّ الذي لا يبارى، والجواد الذي لا يجارى، والمصيب الذي لا يناضل، والحسيب الذي لا يُكارم ولا يفاضل، والملك الذي لا تُجائس صفاته، ولا تجاذب أواخي أسبابه، ولا تُحاذى أواذي عبابه:
ملكك إذا ألهى الملوك على اللّهي == خمار وخمر هاجر الدّلّ والدنا

¹ - الرسالة من إنشاء أبي عبد الله محمد ابن حلصة الشذوني الداني الضرير كما وردت في الدخيرة ف/3 م/322-325؛ ترجمته في الدخيرة قبل نص الرسالة مباشرة: جدوة المغتيس ص 51 (وذكر صاحبها أنه رآه بدانيه بعد الأربعين [وأربعمائة]. التكملة 1/ ص 319 (ذكر أنه مدح المقنن ابن هود باستيلائه على دانية سنة 468)

² - السنة الأولى هي بداية عهد المعنصم (443 - 484) والثانية نهاية عهد إقبال الدولة (436 - 468)

³ - في الدخيرة: (وفي فصل منها)

⁴ - فغم المكان: ملأه راحة

ولم تنسبه الأوتار أوتارُ قينة == إذا مادعاه السيف لم يثنيه المثني
وهوبٌ ولكن لا تُعدَّ هباته == بموحَّد إن عُذَّ الهبات ولا مثني
أشَمَّ إذا وازنت يوماً بحمله == شاماً ورضوى لم تجذَّ لهما وزنا
ولا للمنى إلا بساحته جنى == ولا للغنى إلا براحتَه معنى
ولوجداد بالذنيا وعاد بمثلها == لظنَّ من استصغارها أنه ضلنا
ولاعيب في إنعامه غير أنه == إذا من لم يتبع مواهبه منا
وأنى تساميه الملوك وإنما == وجدنا الورى لفظاً ومعناهم معنى
تقيل من أبائه الغر سادة == فَيولا فبذ البحر واحتقر السُمُزنا"

36 - رسالة عن إقبال الدولة علي بن مجاهد إلى مقاتل

العامري صاحب طرطوشة¹ يوصيه بخلفه من الأبناء² [445-436]

"ولمّا اعترفت السعادة بارتباط وُكِّك، والاعتباط بوثيق عَدِّك، رأيت أن أسلك بابني السبيل
المثلى، والمنهج الأهدى، ويعلم أني نظرت له بأحسن ما نظر والدٌ لولده، وحبا به أحد لفلذة
كبد، حتى يكون إن أدركتني قبلك وفاة، وكانت له بعدي إناة، قد ظفر بأمل ينعمه، وأوى إلى
جبل يعصمه، أو تهادت لي معك حياة، وتناولت لي ليلات، لم يضُرُّه أن يعلق بيدين،
ويعتمد على ركنين، ويُسيّد إلى أبوين، فأنت الوالد وهو الولد، والسّاعد وهو اليد، بل قد اتّصل
بك اتّصال الخلب بالكبد، وحلّ منك محلّ البنان من الكفّ والعضد؛ ومن حلّ في ذراك، ولاح
في يمنالك، فهو الشهاب الثاقب، والحسام القاضب، كما أن من عُدّ في نوبك، واعتدّ في بنيك،
فلن يقصّر إن شاء الله عن معادلة الكهول وإن صغرت سنّه، ولا يتأخّر عن مقارعة النّصول
وإن لان غصنّه، فإلّا يزاحم منك بعود³، ويطاول بطود، ويقاثل بجمع، وينازل بنبع، ويقضي
على الأيام بظهير، ويصول على الذّهر بأمر كبير.

ولمّا أذمّ إليك بهذه الحال، ودبّت به نشوة الإدلال، تمئى أن توطئه الريخ جناحاً،
وتعيّره من البرق التّياحاً، وترفع له نحو السّماء طمّاحاً، بما يرجوه من حملك إياه على
المهر المذهب، والورد الأغرّ المحبّب، الذي استعيرت سرعته من إسراعك إلى
المكارم، وأخذ سبقه من سبقك إلى ندى حاتم، وعلم لين قيادك للصّاحب، واستترقت
جودته من سماع جودك على الطّالب، وإن يكن لا تؤثر به غير جنابك، ولا تختاره إلا
لركابك، فمن لم يوق شُحّ نفسه فيه معذور، ومن ارتبطه بالضّئانة به جدير."

¹ - مقاتل العامري هو من الصقالبة (العامريين)، تولى على طرطوشة بعد موت أميرها لبيب العامري سنة 433،
وتلقب بسيف الملّك، واستمر في حكمها إلى وفاته سنة 445، وخلفه عليها على الفتى ولم نطل مذهبه، ثم
نبيل العامري ومنه أخذها المقنن ابن هود سنة 452 (البيان 3/ 219، 224، 250 : العبر 4/ 453 (دول
الطوائف 263)

² - الرسالة من إنشاء ابن أرفم عن إقبال الدولة إلى معانل العامري كما وردت في الذخيرة و 1/3 - 363 - 365
تاريخ الرسالة محصور بين سنة بولي إقبال الدولة حكم دانية (436)، وسنة وفاة مقاتل العامري (445).

³ - من المثل العربي: راجم يعود أو دغ؛ أي لا نستعص إلا بأهل السنّ والتجربة (حاشية الذخيرة)

37 - رسالة عن إقبال الدولة علي بن مجاهد أمير

دانية إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية¹ [436 - 454]²

تقديم

يظهر أن موقع إمارة دانية والجزر الشرقية كان يفرض عليها الارتباط مع السواحل الشمالية للبحر المتوسط تجارة أو قرصنة حسب تطوّر العلاقات مع هذه الأطراف وإن كان الغالب عليها ممارسة القرصنة من الطرفين، كما أن هذا الموقع كان يجعلها قريبة الصلة بإمارتي بني زيري وبني حمّاد في إفريقية وشرق المغرب الأوسط لممارسة التجارة، ولم نعثر لأمير دانية إلا على رسالة واحدة إلى أمير إفريقية المعز بن باديس، ولا ندري ما إذا كانت لهذا التوجّه علاقة بتحول أمير إفريقية سنة 440 عن الفاطميين بقطع الدّعاء لهم والعودة إلى المذهب السني، وقد يكون لهذا الأمر في الرسالة بعض التلميح مثل: "محيي كلمة التقوى"، "ناظم شمل المسلمين"... وإذا صحّ هذا الافتراض يكون تاريخ الرسالة حوالي سنة 440. وقد ترتّب عن هذا الاتجاه ضد التبعية الفاطمية إلى تشجيع القبائل العربية في صعيد مصر للحركة نحو إفريقية للراحة من شغبها من جهة، وللانتقام من الأمير الزيري من جهة أخرى، فكان ما حدث من خراب القيروان سنة 449 وتقلص نفوذ الأمير عن بوادي إمارته تدريجياً.

وفي نهاية سنة 451 ألغى المعتضد ابن عبّاد الدّعاء لمن زعم أنه هشام المرواني، وتوقف الدّعاء له في الإمارات التي كانت على رأي ابن عباد أو متحالفة معه، ومن غير المستبعد أن إقبال الدولة - بعدما رأى تراجع مكانة أمير إفريقية - فكر في الارتباط بصورة ما بالخلافة الفاطمية للحصول على معنوية قوية أو شرعية لتوسيع نفوذه على حساب جيرانه أو لدعمه في مواجهة الحملات الصليبية، وفي هذا الصدد نجد له مراسلات إلى الخليفة الفاطمي وبعض وزرائه، وكانت المناسبة هي حدوث أزمة مجاعة طويلة في مصر اضطرّت الخليفة إلى طلب إمدادات من القوات من الأندلس، فاستجاب إقبال الدولة بإرسال مركب كبير بالمؤونة عاد إليه محملاً بالأموال والهدايا، فوَقَّعت المراسلة بين الطرفين بهذه المناسبة. وفيما يلي الرسائل التي تعرّفنا عليها والمتعلقة بإفريقية ومصر.

¹ - الرسالة من إنشاء أبي الإصبع بن أرقم كما وردت في الذخيرة ق/1/3: 361-362؛ (وقد نسب في ص 245 من هذا المصدر إلى أبي عامر بن الناكزني، وعلق إحسان عباس على أن هذا وهم من ابن بسّام)؛ وقد قارنا هنا بين ما جاء في هذه الصفحة وتلك، فجعلنا بين معقّفين [...] ما هو ناقص في ص 361-362، وبين هلالين (...) ما هو ناقص في ص 245-246

² - التاريخ الأول يخص بداية حكم علي بن مجاهد، والتاريخ الثاني يخص وفاة المعز بن باديس، فتاريخ الرسائل محصور بينهما.

نص الرسالة إلى إفريقية

"أطال الله بقاء الملك¹ الأجل، [رافع أعلام الهدى، ومحبي كلمة التقوى، وقوام أمر الدين، ونظام شمل المسلمين، وشعار حزب المومنين، و] ناظر عين الزمان، وروح جسم الأوان، وحسام عاتق الإسلام، وحلي جيد الأنام، (ومهدي طوال الأمال، وماوى شارذ الإنعام والإفضال)، مخلد² (في الأنام) دولته، مؤيد³ مع الأيام مدته⁴....

(أنا - أيده الله - أمت إلى دولته - خلدها الله وأيدها، كما وطدها ومهدها-، بما أبأى به على الأقران، وأكافح كل زمان، وأفاح كل بستان، وأحرز كل ميدان، إلى أن ارتقيت إلى سمانها، وصعدت في سوانها، مستسهلا وعر المرتقى، لسهل الملتقى، ومستعذبا مر المجتلى، لحلو المجتلى، فشافهت بدرها، وتبوات جبرها، وارتضعت درها، على حين أجفان الفضل كليله، وأقدام المجد معقولة، وأيدي النصر مغلوله)، وإن قعدت⁵ عن مناسك فرضها، [وتأخرت في مضمار قرضها]، فإني مغيرها ضميرا كما انبلج النهار، وشكرا كما أرج الثوار؛ وهل أنا إلا أحد أبنائها، وشهب سمانها، وشيعة علانها، (وحماة أرجانها)، وإن جذم ناي الدار، كف الخيار، ففي التبع اعتذار، وفي الجهد إعدار، وإن مع التجاور ليعلم⁶ العيان، ومع التحاور ليطمنن البرهان، ومع التزاور لتزول الأحوال⁷، ومع التقارب ليقع الإخلال، والقوى المخلوقات قريبة الانحلال، سريعة الانفعال، والتغيرات على وفور ضيائها، وظهور سناها وسنانها، فيما لا تقابل كليله، وعندما لا تسامت عليه، وفيما لا ثال ظنيلة⁸، [وما فنية ورثها، ونعمة طوقها، ورفعة ألبسها، بمكفورة آثارها، ولا مسودة أنوارها، ولا موائي إلى الدولة العلوية بطارقة، ولا شوافعي لديها بمستأنفة....⁹

[وقد علم مبتلي السرائر، وحافظ البواطن والظواهر، أنها بصيرتي التي أستشعر، وسريرتي التي أضمر، وحقيقتي التي أخفي وأظهر، وشريعتي التي بها أسير وأجهز، وأن مقالي كفيل فعالي في موالاة سيدنا - خلد الله ملكه - على طول المدى، وشط المنتأى، وبعد المرمى؛ ولما وقف الأمر على الحد الذي قنمته، والقصد الذي ذكرته، والرسم الذي أثبتته، لم استبد من إعلامه واستنماره، ولم أقعد عن استنذانه وإشعاره، ولم أنفذ إلا بعد استخباره]"¹⁰.

¹ - في ص 245: سيدنا الأجل

² - في ص 245: مؤيد حيث يمم بطشته. ويعددها في الذخيرة بتر عوض بعبارة : وفي فصل منها

³ - في ص 245: وفي فصل منها: وإنني وإن قعدت

⁴ - في المتن: ليعم

⁵ - في ص 245: مع التراوير لتزود

⁶ - في ص 245: فيما لا يقابل... لا يسامت... لا يبال ظليلة

⁷ - في الذخيرة بتر عوض بعبارة (وفي فصل منها)

⁸ - فقرة ناقصة في 246

38 - رسالة عن إقبال الدولة صاحب دانية إلى الخليفة

الفاطمي معذراً عن تأخر المواصله بين الطرفين¹ [452]²

"وقد علمت الحضرة - صلوات الله عليها- أنني مستمذُّ التعلُّق بحبلها من كُتُب، ووارث التحقُّق بفضلها عن كلاله أدب، على هذا المهاد نشأت، وبهذا القرار ثويت، ومن هذا الثمر اغتذيت، وبهذه البصيرة تتوجت وارتذيت؛ وقد كان للموفق أبي³ - مولى الحضرة - منزَع علق بسببه، وأربِّ وسيم أجملٍ وسَم به، أن يُثبت في ديوان مكاتبتها اسمَه، ويلحق في رسوم خدمتها رسمَه، ويحرزَ الخصلَ في ميدانه، ويبرز في أفقه وزمانه، ويحليَ مغربنا⁴ بما لم يكن حالياً به، ويُفضَّ عُذرةَ أمر لم يُهتَدَ لجانبه؛ فوافاه جماعه - أكرم الله نُزله- وهو في زمانه بمهَد أكناف نيته، ويُقيم شرفات بَيِّنته، فقضى ولم يُسعدَه القضاء، ومضى ولم يكن الأمضى؛ ثم دُفع مولى الحضرة - أنا- إلى فتن جذبه عن تلك الفرائض، وقبضته من تلك المعارض؛ ثم إن الله تعالى أيد مولى الحضرة فمهَّدت له هنيئاً من الظفر، ونتاجت له سنناً من الوطر، فلما فرغ لنتيته التي كانت أمام نكره، وملء صدره، أزمع الإيراد لآماله الحائثات، والستور عن هممه المتفتحات، والإنزال لعزائمه المرفرفات؛ فها نحن وارِدو تلك الحياض، وخارقو ذلك الوفاض، ومنبضون⁵ إلى تلك الأغراض، فلسنا في تلك القوافي إقواء⁶، ولا في ذلك المضمار بطاء، ولا سهماً غلاء⁷؛ ومولى الحضرة مملأ من كرمه، مؤيَّد بجنوده، من كتائب تملأ الفضاء، وتغشي الأمان، فتصدعها بجمال كالرياح، ورياح كالجبال، ثانية الأقدار، وثالثة الليل والنهار، تحمل من قد قامت من أسادٍ هي خدورها، وصوارم هي عُموذها، وسهام هي كنانتها، وأفندة هي جوانحها؛ فلو لقوا المنايا لصرعوها، أو ضربوا الجبال لصدعوها، أو رموا الأوهام لقرعوها، أو راموا النجوم لفرزعوها....⁸

ولم يكن ليقدِّم إليها غير الاستنمار، ولا ليقصد نحوها غير الإشعار، لتكون بضائعه خوالص الإضمار والإظهار، وطلانعه سوابق الإسناد والاستظهار، فهي أعزَّ جناباً، وأعظم مهابةً، من أن يقرع إليها باباً إلا باباحتها، ويصل منها حجاباً إلا بسماحتها؛ ولما جرد مولى الحضرة هذا المذهب من البأ بمكاتبتها، ولخص هذا الأرب من الشرف بمراسلتها، رأى من

¹ - الرسالة من إنشاء ابن أرقم عن إقبال الدولة علي بن محاهد الموفق (436- 468) إلى الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487)، وردت في الذخيرة 1/3 /398- 400

² - هذا التاريخ للرسالتين إلى الخليفة الفاطمي ووزيره وارد في الكلمة 3/ ص88: [لومن الملاحظ أنه في السنة قبل هذه أي في آخر سنة 451 عطل ابن عباد الدعاء للمزعوم هشام وتبعه في ذلك من كانوا يدعون له، فهل أصبح إقبال الدولة يبحث عن سند شرعي خاص به يمكن أن يتفوق به على غيره من ملوك الطوائف؟ بالنسبة لخلافة المستنصر الفاطمي أبي تميم معد فقد امتدت بين سنتي 427 و 487.

³ - أمر دانية السابق محاهد العامري (400- 436)

⁴ - يقصد الأندلس لكونها في أقصى الغرب الإسلامي

⁵ - في نسخة أخرى: ومتهضوب (هامش الذخيرة)

⁶ - أقوى: بزل في قواء أي قمر، بلد قاو أي خال من السكان

⁷ - الغلاء: المبالغة من الفعل: عالى

⁸ - في الذخيرة: (وفي فصل منها)؛ وهنا لا بدري العلة وفي تمجيد إقبال الدولة لقواء العسكرية.

توقيرها وتكبيرها تقليدًا من يكون كفيلاً بها أو طيقاً لتحملها، فندب لها من أبناء الوزراء، وصفوة الظهراء من له السابقة المذكورة، والعين المشهورة، والأحوال الخطيرة، والخلال المشكورة، ودمائة الجانب، وسكون الطائر، مضمناً مركباً من مراكبه¹ يدلّ به مدلّ الليل بالصباح، وينمّ عليه كما نمّت على الزهر الرياح، خلا أن من سكن المغرب الأقصى²، وجاور الثغر الأعلى، وجاذب اللسان الأجفى، وارتضع الجعجة الخشناء، والعجرفة الصماء، ثم حاول حرمة الخلافة العظمى، والحضرة العليا، وغشي مصر الإسلام، وخبّة الأنام، ومحفّل الجماهير العظام، فمعدّور أن تُعشّيه أنوارها، ويُعشّيه إكبارها، وتُحصّره مهابتها، وتُخرسه جلالتها؛ ومن فواضل الحضرة وسرّعان إنعامها، وبواكر إكرامها، إرقاؤه إلى البساط المعظم ليلائمه، وإدناؤه من الحرم المكرّم ليستلمه؛ ولو أن مولى الحضرة يستعير الروض نشره، والميسك عطّره، والبحر ذرّه، والسحاب قطره، والزمان عمره، وعطارده نظمه ونثره، فيسند بها الأفقين، ويملاً ما بين الخافقين، ليوصل معتقده، ويؤدّي تعظيمه وحمده، وينهي كنه ما عنده، لما استوفت عدّه، ولا سبرت عدّه...."

39 - رسالة عن إقبال الدولة إلى وزير الخليفة

المستنصر الفاطمي في موضوع سابقته³ [452]⁴

"أطال الله البقاء، وأدام العزّة والعلاء، والسعادة والنماء، ورخب الفناء، ونضارة الأرجاء، لحضرة سيّدنا الوزير الأجل صفّي أمير المؤمنين⁵، ولا برحت القلوب حوائم على شبرعه، كما زين نحرها بقلاند الخلافة، وحلّي جيدها بنظام الإمامة، والشمس محلّ السّد:

وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد

فما أظلم ليل كان سيّدنا صبحه، ولا أبهم معنى كان شرّحه، ولا أساء زمان كان حسنته، ولا بخل وقت كان موهبته، ولا أنّنب عصر كان غنّره، ولا ذوى روض كان زهره، ولا أوحش أمر كان أنسه، ولا أظلم أفق كان شمسه، ولا عطّل نحر كان حلّيه، ولا ضلّ ملك كان هدّيه.

وإني أطال الله بقاء حضرة سيّدنا، وإن لم أحلّ بمكاتبتّه تقليداً، ولم أخط بمداخلته مستفيداً، فيه أثمر غرسي، وله انتظم غدي وأمسي، وعليه تهذّل جنى نفسي؛ فمحاسنه التي ملأت الملوين⁶ تنثني فانثنت، وأنواره التي طبقت الخافقين هدنتي فاهتديت، فسرت

¹ - في هذه المدّة اضطرت الخلافة الفاطمية لطلب المؤونة من الأندلس حيث عرفت فترة قحط طويلة الأمد امتدت من سنة 446 إلى 454، ثم عاودت بين 459 و464 (حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة 1967، ج 4/180).

² - يقصد الأندلس لموقعها في أقصى الغرب الإسلامي.

³ - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما في الذخيرة ق/3م/1 395-397 موجهة إلى وزير الخليفة الفاطمي، كتبها عن أمير دانية إقبال الدولة كما يظهر من مضمونها عندما أشار إلى أنه سلك مسلك أبيه في الاتصال بالخلافة الفاطمية، وقد قدّم لها ابن بسام بما يلي: "وله من أخرى في مثل ذلك إلى الوزير هنالك".

⁴ - انظر هامشاً في الرسالة السابقة حول تاريخ الرسالة.

⁵ - قد يكون هو نفسه المشار إليه في الرسالة السابقة أي الحليفة المستنصر (427-487).

⁶ - الملوّان: الليل والنهار، مفردهما (ملاً).

إليه مسير السَّيْلِ إلى قراره، وانجذبتُ نحوه انجذاب النُّجم إلى مداره، وجريتُ على نهج أبي - رحمه الله - في خدمة الحضرة والمكاتبة لها والمهاجرة إليها¹، وما نَدِيَّ لي من ثراها، وتمهَّد لي من رضاها، وأحظاني من سَنِيَّ جوابها، وبهيَّ تحليتها، والإقبال عليَّ بقبولها، فذلك الفخرُ تاجٌ على مفرقي، وذلك الفضل طوقٌ في عنقي، فحقُّ أن تتأكد بصيرتي، وتستمرَّ مريرتي، وأطرَدَ على وتيرتي، فلا أزال مطالعاً وخادماً لها. وسبقت السَّيْرُ، واستمرت الممر، بأن يُطرف المولى سيِّده، ويُلفظ الوليُّ معتمده، وقلت الدنيا وصمئها، والأرض ووفرُّها، لمستمسك بحبل الحضرة، ولا جرم أنها خدمة تخبر عن همة، وسيرة تُنبئ عن سريرة، وقربة يُتَقَبَّلُ فيها الوتح² الحقيق، ويُتجاوز عن القصور والتقصير، علماً بأنها على الاختفاء لا على الاحتفال، وعن الإخبار عن الضمير لا على الأخطار؛ فهيَّ شبيعة سيِّدنا وصفوته، سمح الأوان، وعجالة الإمكان، على النوى القدوف، والمنتأى الغروف، أنداداً من الطاف حوزته، وأفراداً من خواص عمله، وأعداداً من تُحَف جهته، يشرف بعضها بحضرة الخلافة، وبعضها بحضرة الوزارة؛ وضمَّنها من بياض خاصته: حربيًّا³ حصين البنية، أمين الطوية، رائق البردة، وافر الغدَّة، تقلِّده الأستاذ أبو الحسن كوثر نعمته، وعهدة الحضرة⁴؛ فنفذ في حفظ الله وصحبته، وفي كفالة سعد أمير المؤمنين، وسلك البحر كأثمه في أديمه شامة، بل في سمانه غمامة؛ وحضرة الوزير - أعزَّه الله - تسدُّ في الجهتين الخلل، فتحمل وتُجمل، وتقبل وتتقبل، وتغفر خطئ ما نقول ونفعل، وتتأوله إن شاء الله أحسن التأول، وتكسوه المعرض الأجل، فهيَّ الهادية لضوالِّ الأمال، المُحلية لعواطل الأعمال..."

40 - رسالة أخرى من إقبال الدولة إلى وزير

المستنصر الفاطمي في نية أبيه الاتصال به⁵

[452 - ...]

"... فالحضرة العلية معني هو شرُّحها، وشمس هو صبحُها، وأذن وهو قرطها، وجيدٌ وهو عقدها، ومعصمٌ وهو سوارها، وعينٌ وهو نورها، ورأس وهو عينها، ومبسمٌ وهو ثغرُها، وكفٌ وهو بنائُها، ورمح وهو سينانها، وحسام وهو

¹ - إشارة إلى وجود علاقة بين أمير دابة السابق مجاهد العامري والخلافة الفاطمية بمصر. لكن الرسالة السابعة تشير إلى نية الموفق في ذلك، ولم يؤخِّله أجله للاتصال بالخلافة الفاطمية.

² - الوتح: القليل التافه

³ - أي زورق حربي يحمل الهدايا إلى الخليفة الفاطمي كما في الرسالة السابقة، وهذا ما يجعل الرسالتين في تاريخ واحد، إحداهما إلى الخليفة والأخرى إلى وزيره وذلك سنة 452، ومثل هذه الحالة تحدث عادة حين استبداد الوزير على حليفته.

⁴ - كداء، والمناسب: وعهده حضرته

⁵ - الرسالة من إنشاء أبي أرقم كما وردت في الذخيرة 1/3 - 400 - 402، وقد قدَّم لهل بهذه العبارة: وله من أخرى إلى الوزير هنالك.

غرارها، وسماء وهو بدرها، وروض وهو زهرها، وساق وهو قدمها، نل لها المستصعبات، وفتح لها المبهمات، وأوضح لها المشكلات، وأضاء لها الظلمات، وأن انتظامها به، وكمال بهجتها بخدمته، وتما سعادتها بولايته، وأرج نشرها بمظاهرتة، وبروز سبقها بمؤازرتة.

وكان للموفق أبي نهج بمداخلتها، ومفتتح لمراسلتها، لم يفارقه - روض الله مثواه -، إلى أن فارق دنياه، فكنت أبا عذرتها، وفائق أكمته، وفتاح مرتتجها، وسالك منهجها، فبرزت بين أبناء مغربي في مداخلتها، وعرض صاغيتي¹ وخدمتي عليها، وتوفيد² مكاتبتي ومراسلتي إليها، في مركبي الذي أعلمته خالا في صفحة البحر، وسويداء في مقلة العصر؛ ووصلت بمكاتبتني من هو لها كفؤ، ولي ظهير³ ونشء⁴، من أبناء أهل الخطر، وذوي الشرف والقدر، ومن له الشيم الهادية، والريح الساكنة، والمناصحة البالغة، فلان⁴، أحد أبناء الحضرة، وذوي السرو والقدرة؛ إلا أن أهل مغربنا مرتضعون العجمة، مترعون الحشمة⁵، بمصاقبة الثغور الخشنة، ومجادبة الألسن الثقيلة، وممازجة الأمزجة الكليية، فمن دفع منهم بعد إلى خدمة الخلافة العلية، وجاور الألسنة العظيمة، وشافه النفوس الرطبة، وداخل الأمزجة العذبة، وارتقى إلى سماء تلك العزة، فعذرته مقبول، وأمره على الاجتهاد الأصيل والاعتقاد النبيل محمول؛ وما الأقلام وإن مدحت، ولا الأقوال وإن جمحت، ولا الأوصاف وإن سمحت، بمعبرات عنده من حسن الصاغية، وخصوص الناحية، والممالأة الصافية، والمناصحة الزاكية، والخدمة الوافية؛ وإن بعد مثواه، فلم يبعد من كانت الضمائر وسائله، والرياح رسائله، ولا تكتتم الثيرات عن حقه، ولا تتحرف أفلاكها عن أفقه، ولا تتجافى مسالكها عن طرقه..."

41 - رسالة ود وإتحاف عن إقبال الدولة ابن مجاهد

أمير دانية إلى الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر⁶ [452-...]⁷

"... وبعد ما لزم الاستفتاح به وهي الإصباح شهية، فإن مولى الحضرة الطاهرة - صلوات الله عليها⁸ - اعتمد قضاء حقها، وإتيان وفقها، وعليه من حلل النعمة أضفاها، ومن

¹ - الصاغية : الميل إلى الشيء

² - أي إرسال الودع بالمكاتبة

³ - كتبت في الأصل: ونشأ؛ ويظهر أن الصواب ما أثبتناه حيث هي في حالة مصدر.

⁴ - ضاع هنا اسم المبعوث الأندلسي نحو مصر.

⁵ - في نسخة أخرى: الخشنة (هامش الذخيرة).

⁶ - الرسالة من إنشاء أبي الأصبع عبد العزيز بن محمد ابن أرقم الوادي أشفي كما وردت في الذخيرة في 3/ 1/ 393- 395 ، وفي كتاب دول الطوائف 198 فقرة من الرسالة (ترجمة الكاتب في الذخيرة 360/1/3: القلائد

367 وما بعدها؛ النكملة 87/3- 88 تج. الهراس: بفتح الطيب 3/ 498- 499).

⁷ - قد يكون تاريخ هذه الرسالة بعد تاريخ الرسالتين السابقتين.

⁸ - العادة عند الفاطميين أن يستعملوا التولية على أئمتهم (حلفائهم).

حلل السعادة أبيهاها، ومن جُنن السلامة أوقاها، ومن قَبَله من أولياء الحضرة وحذاها، وعبيد دولتها، وسهام كنانتها، وشُهَب سمانها، ورقيق مُلكها، وشيَع مُلكها، المستنجين بطائرها السانح¹، المتبركين بفضلها اللانح، في كنف الله وعصمته، وخفارة سعد أمير المؤمنين وذنمته، وما ولّاه الله من البلاد، وخوله من العتاد، وأولاه من نالده ومستفاد، على ما يُرضي أمير المؤمنين وفور عدي، وظهور يدي، وأنه سلف لمولى حضرته الطاهرة الاستمرار في تفيؤهِ لبرود ظلالها، والاستئذان في اتراعه لبرود أفضالها، وارتضاعه لحلمات قبولها وإقبالها، وقَدَم عقيلة نفسه ورائد قلبه، ووصف مبادي نزاعه وطلانح انجذابه، ودواعي مهاجرته، وجواري مفاتحته، وأعلم أنه ذخرها ليومه وغده، واعتدّها لنفسه ولولده، فإنها الشمس بعد جرمها، وكثر ضوءها، ونأى محلها، ودنا ظلها؛ فصدرت المراجعة الباهرة بما أضاء جوانحه²، وزجر سوانحه، وأمرغ³ مواطنه ومسارحه، وتبين السعد مُعانقه ومُصافحه، وصادف رائد قلبه مراداً خصبياً، وريحاً جنوباً، وتقبل المولى منها مراحاً مروحاً ومقيلاً، وتتوج رسم الخلافة المستنصرية إكليلاً⁴؛ وإن بعدت أقطاره، فعلى مقدار بُعد الهجرة إيثاره، وما تتأتى السبل، ومثون الرياح الحوامل والرسل، فإن لم تكن سليمانة النُصبة، فإنها علوية النسبة⁵؛ {فالآن استمر المرير، واستقر الضمير، واطرد الأمر على بصير، فتنسّم مولى الحضرة رِيّاها عطرا، وراد روضها زهراً، وشام برقها ممطراً، واستوضح هلالها مُبدراً، وارتشف ماءها خَصيراً، فما الشكر وإن جزل يرقى ثانياً ذلك الإفضال والإنعام، ولا اللسان وإن جعل يتعاطى ذلك الثناء ولا الأقلام، ولا الجهد يقدر قدر ذلك الإكبار والإعظام، ولا الوجد يفي بتلك العوارف الجسام، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام، وأي وسع يباري البحر وهو طام، وأي طرق يطبق ركني شمام؟ ولو كانت للمولى بالقدر يدان، وساعده إيمان، وساعفه زمان، لأم شخصه كعبة الآمال، واستقبل بقصده قبلة السعد والإقبال، واستلم بيده ركن الإنعام والإسبال⁶، فإذا لم ينسك محرماً، ولم يقرب مستلماً، ولم ينقل إليها قدماً، فحسبه النية التي هي أسّ البنية والطوية، على نائي الطية، وما تيسر من هذي يهديه، وعُمره عنه نُجزيه، وإن شط المحلّ.

وسلفت السير، واستمرت المرر، بإطراف الموالى سادتهم وإتحاف الأولياء ذانتهم، وإطاف الخدام قانتهم، على سمح الأوان، لا على خطر الشان، وعلى حكم التختم والاهتبال، لا على حكم الهمم والأحوال؛ فما النفوس: فكيف التفانس وحاملوها، ولا الدنيا وأهلوها، ولا الأرض وعامروها، بكفاء لبعض واجبات الحضرة، ولا بجزء من أجزاء فرضها، ولا لنبذة من

¹ - السابح: القادم من اليمن، والبارح القادم من السار، وكان العرب يتفاءلون بالأول ويتشاءمون بالتالي.

² - المقصود جواب الحليمة الفاطمي على رسالة أمير دانية السابقة فيما يبدو.

³ - أمرع المكاب: أخصب.

⁴ - كانت الدعوة للخلافة الفاطمية في هذا الوقت تصل عرباً إلى صقلية وإفريقية قبل انقطاعها في هذه الأخيرة منذ سنة 443 (حسب البهارات/280)، ألم يكن توجه العرب إلى إفريقية بسبب ما كانت تعانيه مصر من القحط، فمال العرب أنفسهم إلى معاداة المنطقة، فوافق ذلك تشجيع الخليفة الفاطمي لهم للتخلص منهم؟

⁵ - إشارة إلى سبب الفاطميين إلى فاطمة الرهراء وعلي بن أبي طالب كما يدعون. وابتداء من هنا تبدأ الفقرة التي نقها عنان في: عصر الطوائف 198، مع بعض الأخطاء فيه.

⁶ - هنا توقف المقطع الوارد في: دول الطوائف؛ والكلمتان الأخيرتان هما: الإنعام والإفضال.

جُمِلَ قرضها، ما عدا أنّ الله سبحانه قبل منّا اليسير، وصفح عن التّقصير، وتجاوز عن الحقير؛ فألف المولى اشتاتاً، ونظم أفراداً، وجمع أصنافاً، وهياً الطّافاً، من تُحَفِّ أفقه، وخواصّ أرضه، وغرائب مغربه، وطرائف ثغره، شرّح أنواعها، وأفراد جماعها ونثر نظامها، وفصل توائمها في ملطفٍ طيّ مكاتبته هذه، وأودع ما نوعه، وضمّن ما جمعه، حَرِيّاً¹ من أشدّ نمطه حصانة، وأوفره أمانة، وأكثره عُدّة وعُدّة، وأفضله جدّة² وجدّة، وأبهجه حليّة وبُرْدَة؛ وتفاعل المولى في اسمه ووسمه³، فخرق أديم البحر على اليمن والطائر السعد، والقال الصّدق، كأنه هلال سائر، أو عقاب كاسر، أو بازٍ مهابذ⁴، أو شهاب ثاقب أو سهم نافذ⁵؛ ولحضرته الطاهرة - صلوات الله عليها- تأكيد العارفة، وتأييد الصّنيعة، وتشفيغ الكرامة في حسن القبول، والتّجاوز عن خلل المعقول والمقول، وتأوّل أمر مولاها أحسن التّأويل ..."

42 - رسالة تقدير وإجلال من أمير دانية

إقبال الدولة إلى مقر الخلافة الفاطمية⁶ [452 - ...]

"... وإنّ مولى الحضرة العليّة لما حمل من تأميلها ما أضاء جوانحه، وارتسم من خدمتها ما أراه سوانحه، فتعرّف اليّمن بأكبره ورائحه، وتبيّن السعد مُعانيقه ومُصافحه، تقيّاً برودّ ظلالها، ليدّرع بُرود تشريفها وإفضالها، وارتضع حلّات جنابها، ليستدرّ أخلاف طلابها، واستأمر بخطابها، ليحظى بسنيّ جوابها؛ ووجه من صفوة نظرائه أبا مروان بن نجية⁷، معلماً باستنماره، مستظهِراً بإشعاره، بعد أن صفت لُطف سرائره، وتبلّجت أزاهر ضمائره، وثريّت أرض صاغيته، ونديّت روض طاعته، وكادت تورق صفاء طرّقه، وتُعشّب حصى أفقه، وتطلع من عزيمته الشّمس، وتثمر أماله قبل الغرس؛ وكاد الجسم يسبق النّفس، والنّاظر يقدم الحسّ، بصريمة تخلق خلاج المنتوى، وتحترّ داج النّوى، عودها تُضار لا عرار، وسرّها محض لا سَمار⁸..."

43 - رسالة تقدير إلى وزير الخليفة الفاطمي⁹

[452 - ...]

"حضره سيّدنا - أيّده الله- فلانذ يروق على نحر الخلافة نظامها، وتخفق على عاتق الثّريّا أعلامها، تبرئ الأسماع من صممها، وتُشفي الصدور من حرّها،

¹ - يظهر أنّ المقصود إرسال هدايا وتحف في سفينة حربية مجّهزة بغدّتها وعددها، قد تكون هي غير السفينة وحمولتها المرسلّة كما ذكرت في الرسالة قبل السابقة، وهذا التنوع في الهدايا استلزم مدرجاً مكتوباً بمصايلها.

² - الجدّة في السير : الإسراع

³ - يظهر أنه يقصد المركب

⁴ - أي مسرع في الطيران

⁵ - قد تكون السفينة الحربية من نوع الغريان. فهذا النوع عادة ما يكون للقتال.

⁶ - الرسالة من إنشاء ابن أرفم كما وردت في الذّخيرة 1/3/ 402- 403، قد يكون كتبها عن إقبال الدولة إلى مركز الخلافة الفاطمية، قدم لها ابن بسام بقوله : وله من أخرى في منله.

⁷ - كذا في الأصل، ولم نعرف على ترجمته ...

⁸ - السّمار: اللّبن الكثير الماء

⁹ - الرسالة من إنشاء ابن أرفم كما وردت في الذّخيرة 1/3/ 403، بعد أن قدم لها مؤلفها بقوله : "وفي فصل من أخرى...." وقد تكون موجّهة إلى الوزير المصري.

وتصحّ الجسوم من وصبها، وتريح النفوس من نصبها، كما تصكّ أسماع العدا، وتخلع قلوب من ناوا، وتُقَصّ جسم من عصى، وتقطع وريد من اعتدى؛ فهي حياة وردى، وشهب وقضب، ونجوم ورجوم، لا برحت تمطر الولي ربيعاً، والعدو ربيعاً، ولا زال سيّدنا حسام عاتق الملّك، وواسطة ذلك السلك¹، وخالصة ذلك السبك، فإنه سرى إليّ من مآثر حضرته ما أخجل المسك رياه، وكسف الشمس محياه..."

44 - صكّ لأمير مرسية أبي عبد الرحمن ابن طاهر

بتقديم قاض للأحكام في إحدى الجهات² [471 - 455]

"قلدتُ فلاناً³ - سلمه الله - النظر في أحكام فلانة (وجهاتها)⁴ وتخيّرته لها بعدما خبرته، واستخلفته عليها وقد عرفته، واثقاً بدينه، راجياً لتحسينه، لأنه إن احتاط سليم، وإن أضاع أثم؛ فليقيم الحق على أركانه، وليضع العدل في ميزانه، وليساو بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه، وليقف في الحكم عند اشتباهه، وليؤنّفه عند اتجاهاه، ولا يقل غير المرضي في شهادته، ولا يُتعرّف سوى الاستقامة من عادته، وليعلم أن الله مطلع على خفيّاته، وسائله يوم ملاقاته..."

45 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر إلى إقبال الدولة أمير

دانية مهناً يرجوع أحد المعافل⁵ إليه والظفر بالمنزري عليه [468 - 455]⁶

"جراحات الأيام - أيّك الله - هدر، وجناباتها قدر، وليس للمرء حيلة، وإما هي أطفاف جميلة، تستنزل الأعصم من هضابه، وتأخذ المغتر بأثوابه، أحمده عوداً وبدءاً على النعمة التي ألبسك سربالها، والفتنة التي أطفأ عنك اشتعالها، والرئاسة التي حمى فيها حماك، وردّ خاتمها إلى يمينك، وقد تناولته للباطل يدّ خشناء، فاستقالته يدك الحسنة⁷، فلم يكن عنده أهلاً لتلك البنانة، ولا رآه حلياً لخنصر الخيانة، والأعناق تقطعها المطامع، والنفاق تُستوعر فيه المطالع، فأقر الله عز وجلّ الحال في نصابها، وأبرزها في كمالها تتراءى بين أترابها،

¹ - من هذه العبارة برّح نوجه الرسالة إلى وزير الحليفة الفاطمي.
² - ورد هذا الصكّ في **الفلاند** 192 من إنشاء ابن طاهر نفسه؛ وقدّم له ابن خاقان هكذا: "وله صكّ بتقديم على الأحكام في إحدى جهاته..." دون أن يوضح هل في فترة إمارته أو في أثناء رئاسته المطالم - وقد تولّاها هو وأبوه قبله - انظر ترجمة ابن طاهر في **الفلاند** ص 170-173: **الحلة السبراء** 2/ 116 وما بعدها: **المغرب** 2/ 247-248: **أعمال الأعلام** 2/ 201-202: قبل إن له نائيفاً سماه "سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر"، وهو معهود.

³ - أسقط النسخ اسم القاضي المقدم للأحكام، كما أسقطوا اسم الجهة المقدم عليها.

⁴ - كذا في نسخة أخرى (انظر هامش الفلاند).

⁵ - هل يتعلق الأمر بخص شقورة في أقصى غرب الإمارة؟ وإذا صحّ هذا ألا يكون ابن عباد وراء هذا التدبير تمهيداً لدفع نفوذه في اتجاه الشرق كما سيحدث لاحقاً؟

⁶ - الرسالة في **فلاند العقيان** 177-178؛ وهي من إنشاء ابن طاهر (الابن) أمير مرسية (455-471)، يمكن أن نحدد تاريخها بين سنة 455 أي من بدء إمارة ابن طاهر على مرسية، وسنة 468 تاريخ نهاية إمارة إقبال الدولة في دانية.

⁷ - هل بعصد المحاولة الفاشلة من طرف الأمير حسن لاغبيل أخيه الأمير إقبال الدولة، راجع الرسالة رقم 31.

ووصعت الحرب أوزارها، وأخفت الأسود أخياسها وإزارها؛ ومن كانت مذاهبه كمذاهبك، وجوانبه للسلامة كجوانبك، أعطته القلوب أسرارها، وأعلقتة المعامل أسوارها، وانجلت عنه الظلماء، وأكرم قرضه والجزاء؛ فليهنك الإياب والغنيمة، وهما المنة العظيمة، وليكن لهما من نفسك مكان، ومن شكرك لله بالموهبة (إسرار)¹ إعلان.

وأما حظي منها فحظ المسلوب أمكنه سلبيه، وذي مشيب عاوده شبابه وطربه، ولما اقترنا لي، وكانا معظم آمالي، وعلمت أن بهما زوال الخلاف، وتوطئة الأكناف، وأن بالصدر تثلج الصدر، وبيتهج السرور، بادرت إلى توفية الحق لك، وتعرف الحال قبلك، مشيعاً بالدعاء في مزيدك، ضارعاً في الإدامة لتأييدك، فإن الوقت إساءة وأنت إحسانه، والخير عين وأنت إنسانه، فإن مننت بما سأله أفضلت وأحسن، إن شاء الله عز وجل".

46 - رسالة من ابن طاهر إلى ابن عباد

في تجديد الود بين الطرفين²

[461 - 471؟]³

"من وجد سلفه على مذهب من الخير بين، وسنن من الفضل متبين، سره أن يتحلى بتلك الخلق، ويتجلى من تلك الأفق، وأن الزمان اللذين الذي انقضى، وامحت صورته الحسنی، نظم بين ذي الوزارتين القاضي جدك⁴ وبين أبي مولاي⁵، كان - رحمه الله - عقد الصلة، وأبرم بينهما حبل الخلة، وشق بينهما المصافاة شق الأبلمة⁶، وأطلعهما نجمين في أكابر تلك الأمة، يفرقان عند الاستعمال، ويحملان يومئذ مضلع الأتقال، إلى أن امتزجت بهما الحال امتزاجاً، وكان كل واحد منهما لنفس صاحبه غذاء ومزاجاً، ولم ينع من ذلك الالتفاف، بواقعة الكفاف، حتى أتم صناعه، ورقم وشائعه، خلال ما ابتداه، ونهجه وهياه، فضمنا والرئيس الأجل أباك - معتمدی- كان رضي الله عنه في زمرة الطلبة، والأسرة منهم المنتجة، ورتنا في رياض الاصطحاب، واستدرينا من أدواحها بأمثال السحاب، نصيب من بردها ودرها، إلى أن أطلعت الأيام شجر مرها، برائع الفراق، ولم نشف الأشواق، وأقبلت الفتن والمحن تنساق⁷.

¹ - كذا في نسخة أخرى (انظر هامش الفلاند)

² - وردت الرسالة في الذخيرة 1/3/44-45

³ - يبدو أن تاريخ الرسالة يحضر بين سنة 461 التي هي بداية إمارة المعتمد كما هي مشار إليها في المتن، وسنة 471 التي كانت سنة توتر بين الطرفين باستيلاء حبش ابن عباد على إمارة ابن طاهر في مرسية.

⁴ - بظهر أنه القاضي محمد بن إسماعيل الذي تولى القضاء بإشبيلية زمن الخاضع المصور، واستبد بحكم إشبيلية على بني حمود بدء من سنة 414 إلى وفاته سنة 433 مؤسساً بذلك مملكة بني عباد.

⁵ - هو قاضي المظالم بمرسية أبو بكر بن طاهر الذي تحول إلى رجل سياسة بالاستقلال بمرسية سنة 429 عند موت أميرها زهير العامري، واستمر إلى وفاته سنة 455 أي أنه معاصر للقاضي أمير إشبيلية محمد بن إسماعيل بن عباد في أوائل عهده بها، ثم عاصر عهد ابنه المعتمد عباد.

⁶ - شق الأبلمة : أي مقتسمة بين الطرفين بالتساوي (انظر القاموس المحيط)

⁷ - بعيد هذا في كوب المعتمد بن عباد عاصر فترة من إمارة ابن طاهر إلى أن مات فخلفه ابنه المعتمد في فترة إمارة ابن طاهر بمرسية قبل أن يفقد إمارة على يد جيش المعتمد.

فلما اطمأنت بك قدم الرناسة¹، واستقرت منك في شخص السيادة والنفاسة، جعلت الهمة تتطلع، والإرادة مني تنقاد وتتبع، في الإمام بمدخلتك، والتسبب لمطالعتك، ليلتزم باعتلاقك ذلك الشعب، ويستريح من برحائه القلب، والأيام على شيمها وشومها، في عوارضها ولومها، إلا أني مع ذلك لم أخل مشاهدتي من الذكر لك، والفخر بك، حتى وافى رسولك الناحية فمددت يد المخاطبة لك، وأحببت فتحها معك لأعلق منك كفي، بماجد يكون ركني وكهفي²، واثقا بحسن المقابلة والقبول، عارضا وذي بمهبة الصبا والقبول؛ فإن مننت بالمراجعة فذلك البغية والمراد، وإلا فما أخطأ الاجتهاد، والله ييسر المرتجى منك، ويدفع محذور الثائبات عنك، بقدرته الباهرة ومشيتته العالية..."

47 - رسالة من ابن طاهر إلى ابن عبد العزيز صاحب

بلنسية بعد نجاح شفاعته في إطلاق سراحه³ [473]⁴

"كتابي وقد طفل العشي، ومال⁵ بنا إليك المطي، ولها من ذكراك⁶ حاد، ومن لقياك هاد، وسنوافيك المساء، فنغفر⁷ للزمان ما قد أساء، ونرد ساحة الأمن، ونشكر عظيم ذلك المن، فهذه النفس أنت مقيلها، وفي برء ظلك يكون مقيلها؛ فله مجئك وما تأتية، لا زلت للوفاء تحييه (وتحويه)⁸، فدانت لك الدنيا، ودامت بك العليا؛ إن شاء الله تعالى (بمنه)⁹."

¹ - أي بداية إمارة المعتمد سنة 461
² - كانت الفترة المشتركة لحكمهما معاً - ابن طاهر في مرسية وابن عباد في إشبيلية - بين سنتي 461 و 471
³ - الرسالة في قلائد العقيان 182-183: الذخيرة ق3/م3/33، كتبها ابن طاهر عندما وصل إلى جزيرة شقراً أول بلاد ابن عبد العزيز أمير بلنسية بعد تسريحه من معتقله.
⁴ - استخرجنا هذا التاريخ من عبارة أوردها ابن سمام ضمن ترجمة ابن طاهر هكذا: "وعند انجلاء تلك الظلماء [عنه] خاطب جماعة من الرؤساء وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، فمن ذلك رقعة خاطب بها..." (الذخيرة ق3/م3/34)
⁵ - في الذخيرة: وسال
⁶ - في الذخيرة: من ذكرك
⁷ - في الذخيرة: فنغفر
⁸ - ما بين هلالين إضافة من الذخيرة
⁹ - علق ابن خاقان على الرسالة بقوله: فلما وافقت رفعتة الوزير الأجل أباً بكر ركب إليه في حملته... وانزله في قصر مجاور. وأطلعه على سره وجهه، لم يفرد عنه بقصة ولا اختص دونه من الملك بحصة (القلائد ص182)

ب - ممالك الثغور (سرقسطة، طليطلة، بطليوس)

تقديم

كانت سنة 456 سنة شدة على الثغور الأندلسية، فبعد أن كان ابن عباد وسع نفوذه على حساب الإمارات الصغيرة المجاورة بما فيها إمارة بني حمود، واستمر في الصراع مع جاره الشمالي ملك طليطلة ابن ذي النون حول قرطبة خاصة بعد تنافس ولدي أميرها ابن جهور المتوفى سنة 457، إضافة إلى نزاع ابن عباد مع المظفر ملك بطليوس، انتعشت الحملات الصليبية على الثغور الشمالية شرقاً وغرباً، فبينما اهتم النورماند والفرنسيون ونصارى أركون وما قاربها بضرب الحصار على وشقة ثم حصار بربرشتر حتى انتهى بسقوطها سنة 456، كان فرناندو ملك قشتالة يتوسع في الثغور الشمالية الغربية لمملكة بطليوس حتى انتهى إلى الاستيلاء على قلمرية في نفس العام، كما وزع أبناءه الثلاثة نحو الشرق - ربما في منافسة مع الأركونيين - فحاصر أحدهم سرقسطة، والثاني وشقة، والثالث قلعة أيوب. ولم تتحرر بربرشتر في السنة اللاحقة (457) إلا باستنفار حصل في مملكتي سرقسطة وإشبيلية. ثم هدأت أحوال الثغور الشمالية الوسطى والغربية مؤقتاً بموت ملك قشتالة فرناندو الأول سنة 458/1066م، وتنازع أبنائه الثلاثة على عرش قشتالة وليون وجليقة، فلما تولى العرش ألفونسو السادس بن فرناندو واستقرت له الأحوال، استأنف حروب "الاسترداد" ضد المسلمين مبتدئاً بثغور جاره الشرقي ابن هود، بحيث استولى على جملة من ثغورها الغربية خاصة مدينة سريّة سنة 471، وأخذ يتهيأ لمشروعه الكبير وهو احتلال طليطلة لينطلق منها إلى الجهات الأخرى، وقد ساعده وجوده منفياً فيها أيام حكم أخيه سانشو الأول على التعرف على مكامن الضعف فيها، فرغم دفع ملكها الجزية له وإعلان تحالفه معه أو تبعيته، فإنه طالبه بتسليم طليطلة، ثم قام بحصارها إلى أن احتلها سنة 478، فظهر أنها بداية النهاية كما تجلت في بعض أشعارهم:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم = فما المقام بها إلا من الغلط

فالثوب ينسل من أطرافه وأرى = ثوب الجزيرة منسولا من الوسط¹

وهذا ما أخرج ملوك الطوائف من التردد فيما يتعلق بالطرف المرغوب في إعانته من خارج الأندلس، فاستقر الأمر على المرابطين.

¹ - صاحب هذا النّداء هو أبو محمد العسّال أحد زهاد طليطلة (المعرب 2/ 21)

وكانت مملكة بطليوس حتى أواسط القرن تعاني من النزاع بينها وبين المعتضد بن عباد بشأن محاولاته دفع نفوذه على حساب إمارات الغرب الصغيرة والثغور الجنوبية لمملكة بطليوس. أما في عهد المعتمد بن عباد الذي كان في نزاع شبه مستمر مع بني ذي النون ملوك طليطلة - كما كان أبوه المعتضد قبله - فقد مال إلى المهادنة مع ملوك بطليوس خصوصاً وأنه كان منشغلاً بجهات أخرى. وبعد سقوط جملة من حصون الثغور الشمالية الغربية المحاذية لجليقة وخاصة مدينة قلورية سنة 458، وبعد موت الملك القشتالي فرناندو الأول سنة 458، انشغلت قشتالة بمشاكلها الداخلية، فهذأت أحوال الثغور نسبياً، ولكن مملكة بطليوس انشغلت أيضاً بعد موت ملكها المأمون سنة 467 بالنزاع بين ولديه يحيى المنصور في بطليوس وعمر المتوكل أمير الثغور الغربية، وهو نزاع كان يحركه الجيران من قشتاليين وابن عباد وابن ذي النون، إلى أن توفي يحيى فتوحدت البلاد تحت سلطة المتوكل، ولكنها ابتليت بتحريك ملك قشتالة ألفونسو السادس في حرب "استرداد" جديدة أدت إلى سقوط أهم مركز شمال نهر تاجة وهو مدينة قورية سنة 471. وكان القادر بن ذي النون في حالة عداوة مع ملك بطليوس خاصة بعدما استدعاه أهل طليطلة لتسيير بلادهم إثر ثورتهم على ابن ذي النون، وهذا العداوة جعله يوجه حملاته على أراضي مملكة بطليوس كما يظهر من بعض رسائل ملكها إلى ابن عباد، وكذا إلى يوسف بن تاشفين عندما أرسل إليه يطلب دعمه ضد أعدائه.

48 - رسالة عن [المقتدر؟] ابن هود أمير سرقسطة إلى

المعتضد أمير إشبيلية قصد "تجديد العهد" بينهما¹ [438 - 461]²

"... كثررت - أيدك الله- محامدك فصارت زاد الرفاق، وأشرقت محاسنك فرمت بساطع نورها إلى الأفاق، ففي كل سبيل طليعة من ثنائك مرحل³، وفي كل أفق بريد من أنبائك يُعلل، ولفضانك الماثورة حملة يتباينون في القدر، ويتفاضلون في النشر، وكلهم موجز وإن حاول أن يُطنب، ومقتصد وإن حاول أن يُسهب، والله يصون ما البسك من المكرمات، ويزيد فيما خولك من الصالحات، بمنه.

وأنا لا أزال بفضل خلوصي إليك، وصدق انجذابي لك، وشدة اغتباطي بموهبة الله السنئية فيك، مُصيخاً إلى كل داع بشعارك، وحامل لآثارك، مستهدياً لطيب أحاديثك ومُبهِج أخبارك؛ فإذا ظفرتُ بمحدث عنك فقد نلتُ جذلي، وإذا وقفتُ على خبر من لدنك فذلك من أجلي.

وفلان لحقَّ بجهتي- طاعتك- وعنده أوفى بضاعة من رفيع ثنائك، وأحسن إشاعة بجميل أنبائك، وهو الناطق القوول، والصادق المقبول، فعرض تلك البضاعة الزكية في معرض نفاقها، وقصد بها أقوم أسواقها، وأهدى تلك العلق السنئي إلى مستهديه، وأداه إلى يد مقتنيه؛ ولما أن صدر عنها، بعد انقضاء وطره منها، وقد ضمَّخها بذكرك، وقام فيها بشكرك، ثقتُ إلى مواصلتك معه، وتجديد العهد الكريم على يده³، فأصحبته كتابي هذا مخبراً عن مقامه في بث مناقبك، وواصفاً لحاله في نشر محامدك، ومُحيلاً عليه في وصف وُدِّي، والإخبار عما عندي..."

49 - رسالة عن يوسف ابن هود [صاحب لاردة] إلى ابن

جهور حول غدر أخيه أحمد [المقتدر] صاحب سرقسطة⁴ [450~]⁵

¹ - الرسالة في الدخيرة ق2/1م/187-188 وهي من إنشاء أبي عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي، وقد كان جليل القدر عبد المقتدر بن هود ملك سرقسطة، وسبق لأبيه جعفر أن كتب لعدة من ملوك الطوائف كان آخرهم القادر يحيى بن إسماعيل بن دي النون (467-478). انظر ترجمة أبي عمر يوسف في الدخيرة ق2/1م/186-187؛ والفيلاند 300 وما بعدها؛ والمغرب 1/405.

² - اقترحنا البدء من سنة 438 لكونها بداية عهد المقتدر أحمد بن سليمان بن هود إن صح أنها صادرة عنه، فهي في الدخيرة صادرة عن: "ابن هود" بدون تحديد اسم خاص، وحددنا التاريخ الثاني بوفاة المعتضد بن عباد، فيكون تاريخ الرسالة محصوراً بين التاريخين المذكورين.

³ - يتضح من الرسالة حالة الوثام بين الطرفين، خاصة وأن بينهما مملكة طليطلة التي كانت غالباً في حالة نزاع مع جيرانها الشرقيين (مملكة سرقسطة) والجنوبيين (مملكة إشبيلية).

⁴ - الرسالة من إنشاء أبي عمر ابن القلاس كما وردت في الدخيرة ق3/1م/424-425، كتبها عن المطعّر يوسف بن هود صاحب لاردة إلى ابن جهور أمير قرطبة. قدم ابن سام للرسالة بقوله: ورد كتاب يوسف على ابن جهور بقرطبة من إنشاء أبي عمر يقول فيه بعد الصدر...؛ وفي نسخة أخرى في الهامش قال: وله من أخرى عنه إلى ابن جهور في خبر أحبه قال فيها، وبعد...؛ وكلمة (عنه) تحدث ارتباطاً هنا، فالرسالة وردت بعد ذكر حادثة الغدر.

⁵ - ورد في دول الطوائف ص262-263 الحديث عن غدر المقتدر بإخوته سنة 438 وما بعدها، وورد في كتاب المتن ص150-151: وفي الدخيرة (1/3 ص423) - نقلاً عن ابن حبان - أنَّ هذه الحادثة المشار إليها في الرسالة وصله حبرها إلى إشبيلية سنة 450، ويظهر أنها محاولة غدر أخرى غير التي حاولها أحمد المقتدر مع

"... وبعْدُ، باعدتْكَ الأسواءُ، فإنَّ حوادثَ الدَّهرِ وصروفه آياتٌ للمبصرين، وفي أحوالِ ذوي الشَّرَّةِ والفسوقِ عبرةٌ للمعتبرين، وإذا تصقَّحتْ منها القريبُ والبعيدُ، والمنقضي والجديدُ، لم أجد في جميعها حالاً توازي حالَ الخبِّ الخبيثِ، والغَدورِ التَّكوثِ، علَمَ دهره فجوراً وخترأ، ونسيجَ وحده نفاقاً وغدراً، القاطعُ مَنِّي بلُومِ أفعاله وشيمه، أسبابَ قرباه ورحميه، والمتقدِّمُ بذمِّمِ بغيه وتعديهِ، إلى صميمِ أسرته وأدانيه؛ وهذه صفة لا يخفى مكانُ الموصوفِ بها وأتاه صاحبُ سرْقِ سطة- قارضه الله بما هو أهله، وأبعدَ مثله، وأين؟ لا، أين مثله؟- وقد كانت الأيامُ أبدتْ منه أفاعيلَ مستشعنة شرَّقَ ذكْرُها وغَرَّبَ، كما أبدعَ وأغربَ، وكادت تكونُ سمرًا للسامرين، وقصصاً تُتلى في الغابرين، وحاولَ أموراً مستفظة، مَقَّته فيها الرِّشيدُ والغوي، وتبرأَ منه الدَّاني والقصي، لم تُفدْهُ إلا الخزي الذي لا يزالُ ناظرًا من بقائه، ولم تكسُهِ إلا العارَ الذي لا يراه مبايناً باحتفائه؛ وأبى على ذلك إلا تمادياً فيها وإحافاً، وأبت الأقدارُ عليه إلا إعراضاً وإخلاقاً، فكلما مدَّ بالبغي يداً أوْهنَّ الله بطشها وأيدها، وكلما نصب للمكر حباله هَوَّنَ الله ختلها وكيدها، فضلاً من الله ونعمة، وكفاية لمن توكَّلَ عليه وعصمة، وجزاءٌ للباغي بمكره، وقرضاً للمتصدِّي بغدره، والله لا يهدي كيد الخائنين، ولا يُصلحَ عملَ المفسدين.

وكنْتُ قد أبرمتُ معه بعد تلك الهنات التي جرت، والشَّدائد التي انقضت، عقدة السلم، فاعتزمتُ صاحبَ برشلونة¹ على حربِهِ، واستتهضني للدَّخولِ في حزبِهِ، ففللتُ بعد جهْدٍ مَنِّي حدَّ غَرْبه، واستمرتُ الحالُ على أعدلِ مناهجها، ولم يتعدَّرْ مَنِّي قطُّ عليه بُغية، ولا أبطأتُ معونة، ولم يزل يُقسم لي بأيمانه التي تُضِجُ إلى الله من فجوره فيها مشافهة ومكاتبية، بعدما أقسم من قبلُ به، وأشهدُ أعلامَ المسلمين عليها، بأنَّه لا يُضمِرُ لي بقيَّةَ الأيامِ غائلة، ولا يُدخلُ عليَّ داخلَةً؛ وطالت مصانعتُهُ لي بزبُرِج من نفاقه وخداعه، يرفأ على بهرج من أخلاقه وطباعه، وأنا على ذلك عالمٌ بدخانله وسرائره، مستعيذُ بالله من الانطواء على ضمائره.

فلما أراد الله أن يفضحه الفضيحة العظمى، ويقنعه بالخزية الكبرى، تقدَّمتُ بيننا مقدمات اقتضت لنا الاجتماع، فحرَّكني إلى طرفِ عمله²، وقد كنت أنست منه شرّاً بنى عليه مع بعض علوج البشاكنة³ في الفتك بي، فأوصيتُ إليه ألا يحضرنا أحد منهم، فقلق قلقاً صرَّح به، وأقام متردداً بالتغرُّبِ يَزْمَعُ تلك البغية، إلى أن التقينا، وكنْتُ قد استشعرت

إخوته في أواخر الثلاثينيات، وهذا التكرار في المحادعات مِشار إليه في الرسالة أعلاه. ويظهر أنَّ ابن جهور المقصود هو أبو الوليد محمد (435-457).

¹ - أمير برشلونة في هذا الوقت هو رامون برينجير الكبير مؤسس حكم أسرة برينجير (426/1035-467/1076).

² - أي إلى داخل حدوده.

³ - هم البشكنس أهل بلاد نبارا، ويظهر أنَّ المقصودين عبيد من الأسرى، جعلهم فرساناً له كما يظهر من العبارة اللاحقة.

من سوء الظن بمن هو كصرف الذهر لا أمان منه ولا اغترار به، فأوصيت إلى أصحابي باحتضار سيوفهم، وأطراح ما عداها من سلاحهم، ولبست أنا أيضاً تحت ثيابي درعاً حصينة، والتقينا، ثم تجارينا في فنون القول، فإذا بفارسين من عبيده قد جمعا رمحيهما في، وثالث قد سبق إليّ بسمسك عنان فرسي؛ إلا أنني رخصته، فخرج بعنقه، واستلّ أصحابي عند ذلك سيوفهم، وأدركتهم حفاظهم، فحملوا إليّ، وفرّ أولئك عني، واكتفني أصحابي، وبي طعنات قد واقعتني على الدراع لم يعظم بحمد الله كلمها، وانصرف الغادر قد أدحض الله سعيه، وأبطل بغيه، يعضّ بَنَانَهُ أسفاً، ويقرع سنّه ندماً، ولا صفقة كصففته الخاسرة، ولا سوء كفعلة الفاجرة؛ فلما وصل إلى بلده أراد ستر الحال بزعمه، وتوهمها على ما جرى في وهمه، فأشاع أنّ النصارى الذين كانوا معه أرادوا غدري وغدره، وخرق في ثيابه خرقاً زعم أنه أثر رمح أشرع إليه، فكان اعتذاره بهذا العذر زائداً في ذنبه، وإتيائه بهذا البُهت الظاهر مادةً لجرمه؛ وهيهات أن يخفى ما شهر، أو يجوز ما زُور، وما يوم حليلة بسرّاً، ولا على وجه النهار من ستر؛

فرايت مساهمة الأولياء والحلفاء بصفة الحال، وعرضها من المبدل إلى المال، فقَدِمْتُ منها نحوك ما اقتضاه تقدّم حالك في نفسي وخلي، لتعرض ما وصفته على حسن نظرك، وتعتبره بصدق تدبّرك، فتزّن مؤثر هذه الحال بوزنه، وتقدر محتقبة شرّها بقدره، والله قبل وبعد أعدل من قضى وحكم، وأحق من أثاب وانتقم، وهو تبارك اسمه المستعدي على من اعتدى وظلم..."

50 - رسالة عن [المقتدر] ابن هود إلى [المأمون] ابن ذي النون

شاكراً له على قبول شفاعته في سراح ابن غصن الحجاري² [438 - 454]

"كتابي - أيديك الله - كتاب أعريته من ذكر الوداد، وعدلت فيه عن وصف الاعتقاد، خرقاً لعادة المتوتدين، وصفحاً عن طريق المتصنّعين، على أتي - علم الله - في الصّدر المقّم ممّن يواليك، والرّاعيل الأوّل ممّن يتشيع فيك، وأفردته بشكر يدك البيضاء، وحמיד صنيعةك الغراء، التي طوّقت بها جيد الأدب، طوقاً يَبْقَى على الحقب، ووضعت على نار الذكاء، وقوداً يسطع بطيب اللّناء، مزاحماً بفضل همّتك لكلّ الزّمان، وقد أناخ على الفهم بجران، ومحافظاً

¹ - وقعة في الجاهلية قتل فيها المبدّر بن ماء السماء، وحليمة هي بنت الحرث بن أبي شمر وكان أبوها قد وجّه جيشاً إلى المنذر فأخرجت لهم طبيباً فطبّبهم، يضرب المثل لكل أمر معلوم مشهور .

² - ترجم ابن الأبار لأبي مروان عبد الملك بن غصن الحشني الحجاري فقال عنه: كان فقيهاً أديباً شاعراً، وقد سحبه المأمون ابن ذي النون في ويدة وبها ألف كتابه "السجى والمسحون والحزب والمحبزون"، وجعل ابن الأبار وفاته سنة 454 (التكملة 3/ ص 69-70 (نج. الهراس): إعتاب الكتاب 218-220، جامعة دمشق 1961؛ ذكره أيضاً مختصراً صاحب المعرب 33/2. وكان الذي تدخل لتسريحه من السجن هو ملك سرقسطة ابن هود كما يظهر من نص الرسالة أعلاه التي وردت في الدّخيرة 2/م/193-194. وذكره في ص30 تحت اسم ابن حصّ وقال إنه هجا المأمون فسجنه، فكذب ابن حصّ إلى ابن هود فرق له وسعى في تخليصه (المعرب 2/30)

على حرمة الكرم وقد أعرض عن ثقلها الثقلان، أنفة من أن يضيع حذاء نظرك حق أديب،
وتقطع بمرأى عينك نفس لبيب، وأنت عين الآداب، وعمدة ذوي الألباب، فيعود عليك من
أهلها ملام، ويقول قائلها: ضاع عند أوفى البرية نمام.

فله همتك التي أبنت إلا الحفاظ السليم، وشيمتك التي لم ترض إلا المقام الكريم، وبذلك
التي انتعشت بها الأديب أبا مروان بن غصن من هوة العثار، وفككته من قبضة الإسار،
فأحييته وهو مشفٍ على البوار، فأبها يد مسيح الكرام، ومبدعة حسنة الأيام؛ فلو كانت للمكارم
صورة لكانت هذه الصنبة كحل طرفها، أو كانت للجد روضة لكانت المستبد بطيب عرقها،
أو لو نطقت ألسن الآداب لفتتك، أو أرسلت نخبة الثناء لما تعدتك؛ وإن كثير الشكر ليقَلَّ في
جنب ما أسديت، وبالعَـة ليقصر عن الغاية التي لها تصديت، لأنك ضمنت حياة نفس، ونشرت
دفين رمس، فكأنك أحييت جميع الوري، ونشرت كل مستودع في الثرى؛ وأنى يقاوم هذا
الصنيع، ولو تظاهر على فرضه الجميع، وعند الله كفاء ما أوليت من جميل الفعل، وجزاء ما
أتيت في سبيل الفضل..."

51 - رسالة عن أهل بربرشتر من ثغور سرقسطة إلى

أمرأء الأندلس في الحث على تحريرها من يد النصارى¹ [456]²

"من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد،
المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام،
المتألفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة الرسول محمد نبي
الرحمة وشفيع الأمة، إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من
ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين؛ سلام عليكم.
فإنا نحمد الله إليكم حمد من أيقن به رباً، وجعله حسناً، ولي المؤمنين، وغياث
المستغيثين، مجري الفلك في البحر بأمره، (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا
بإذنه)³؛ ونصلي على المصطفى من أصفائه، محمد خاتم أنبيائه، المبتعث بأنواره
الساطعة، وحجابه القاطعة، على حين عفت رسوم الدين وخوت نجوم اليقين، فجلا الشك،
وأدحض الإفك، فعليه من السلام أفضل سلام، ما وحّد الرحمن، وثني الفرقان.

¹ - الرسالة من إنشاء ابن أرقم قدّم لها ابن بسّام بما يلي: وله (ابن أرقم) فصول اقنصبتها من رسالة فيها طول
كتبها على السنة أهل بربرشتر، عناوينها: من الثغور القاصية... (الذخيرة 3/ 173 - 179). انظر ترجمة ابن
أرقم في الذخيرة 1/ 360؛ والفلاذ 367؛ والتكملة 3/ 87 - 88؛ وفتح 3/ 498 - 499.

² - راجع عن سقوط هذه المدينة الذخيرة بعد نص الرسالة ص 179 وما بعدها؛ البياس المغرب 3/ 225 - 227؛
والروض المعطار ص 90 - 91 (مادة بربرشتر)، ويجعل سقوطها سنة 456 بعد حصار دام 40 يوماً، وبقاء
النصارى بها 9 أشهر، إلى أن أمكن تحريرها في 8 جمادى الأولى/ 457، والنصارى الذين استولوا عليها من
"أهل عالس والرومانيين" أي من الفرنسيين والنورمان إضافة إلى الإسبان.

³ - من الآية 63 من سورة الحج

أما بعد، - حرسكم الله بعينه التي لا تنام -، فأبنا خاطبناكم مستغفرين، وكاتبناكم مستغِيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حرى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شررُ الشرِّ، ومسنأ وأهلنا الضَّرَّ، أحسن ما كنا بالأيام ظناً، وملئنا ظاهرة، وفئتنا متناصرة، لا تُشَلُّ لنا يد، ولا يُقَلُّ لنا حد، حتى انقلبت العين، وبان الصبح لذي عينين...¹

وأيُّ أمان من زمان قلما يخضر منه جانب إلا جفَّ جانب، ولا يُبرق منه بارقة إلا أثبعتها صاعقة، إلا ما وقى الله؛ وننبئكم - معشر المسلمين - بعض ما نابنا في ثغورنا، عسى أن تكونوا سبباً لنصرتنا، فالمؤمنون إخوة، والمسلمون لحمة، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمه يلجأ اللّهفان، وإلى الصّوارم تفرع الأقران، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من عميت عيناه، وصمّت عن الموعظة أذناه، ونقصَ عليكم من نبأنا، وما انتهت إليه حال ملائنا، ما والله يوجع القلوب سماعه، كما قصم الظهور وأسخن العيون اطلاعه...²

فأحاطت بنا كإحاطة القلادة بالعنق، يسوموننا سوء العذاب، بضروب من الحرب والحراب، أناء ليلها ونهارها، تصبّ علينا صواعقها، وترمي إلينا بوائقها، فإنا لله وإنا إليه راجعون³، على ما رأت منا العيون، من انتهاك تلك النعم المدخرات، وهتك ستر الحُرَم المحجّبات، والبنات المخدرات، وما تكشّف من تلك العورات المسترات؛ فلو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأنخنئهم الجراح، وعبثت بهم زُرُق الرماح، وقد كثر الضجيج والعويل والنياح، ودمأهم على أقدامهم تسيل، سيل المطر بكلّ سبيل، ورؤوسهم قدأهم تطير، وقلوبهم في أجسادهم تستطير، ولا مغيث ولا مجير، وقد صمّت الأذان، بصراخ الصبيان، ونياح النسوان، وبكاء الولدان، وعلت الأصوات، وفشت المنكرات، وتمرد الشيطان، واشتهر الطغيان، وظهرت الصلّبان، وأفصحت التواقيس، وجلحت⁴ الأباليس، وسعرت طغاة الخنازير، وصارت الدور كالتنانير، دماء تُسْفَك، وستور تُهْثَك، وحرّم تُنتهك، ونعم تُستهلك، وأقفاء تُصفع، وأعضاء تقطع، وأعيان ترتكب، وأثاث يُنتهب، ومصاحف تُمزّق، ومساجد تُحرق، فلا الأخ يغني أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يُدني بنيه، (لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه)⁵، ولا المرضعة تلوي على رضيعها، ولا الضّبيعة ترثي لضّبيعتها، كأنهم في مثل اليوم الذي ذكره الجليل، في محكم التنزيل، «يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت، وتضع كلّ ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم

¹ - في الذخيرة (وفي فصل منها)

² - في الذخيرة (وفي فصل منها)

³ - من الآية 155 من سورة البقرة

⁴ - حُلج: أقدم إقداماً شديداً

⁵ - الآية 37 من سورة عبس



بسكاري¹؛ فما ظنكم - معشر المسلمين - وقد سيقّت النساء والولدان، ما بين عارية وغريان، قوذاً بالتواصي إلى كلّ مكان، طورا على المتون وطورا على البطون، ومشیخة الرجال، مقرّنين في الحبال، مصقّدين في السلاسل والأغلال، مقتادين بشعور السبّال، إن استرحموا لم يُرحموا، وإن استطعموا لم يُطعموا، وإن استسقوا لم يُسقوا، وقد طاشت أحلامهم، وذهلت أوهامهم، وسخت أعيانهم، وتغيّرت ألوانهم...²

وما ظنكم - معشر المسلمين - وقد رأيتكم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبّقة بالشترك والبهتان، مشحونة بالتواقيس والصلبان، عوضاً من شيعه الرحمان، والأئمة والمتديّنون والقومة والمؤدّنون بجرّهم الأعلاج كما تُجرّ الذبائح إلى الذابح، يُكبّون على وجوههم في المساجد صاغرين، ثم أضرمت عليهم نارا، حتّى صاروا رمادا، والكفر يضحك ويُنكي، والذين ينوح ويبيكي؛ فيا ويلاه! ويا ذلاه! ويا كرباه! ويا قرأناه! ويا محمّده! ألا ترى ما حلّ بحمّلة القرآن، وحفظة الإيمان، وصوأم شهر رمضان، وحجّاج بيت الله الحرام، والعاكفين على الصلاة والصيام، والعاملين بالحلال والحرام؟ فلو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جزعا، وتقطّعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرّزايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجفت أجنّاتكم رقادها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحملة الصّلبان...³

وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصّها الخطاب، ترغيباً وترهيباً، فوعد المطيعين جزيل ثوابه، والعاصين أليم عقابه؛ والرواية عنه عليه السلام في فضل الجهاد، وما يُجازي فيه ربّ العباد، أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصّر، فإلله الله في إجابة داعينا، وتلبية منادينا، قبل أن تُصدّع صفّاتنا كصدع الزّجاج، فهناك لا ينفع العلاج....⁴

ولا بدّ للحق من دولة، وللباطل من جولة، والحربُ سجال، والدّهر دول، و﴿لكلّ أمة أجل﴾⁵، ولو لا فرطُ التّوب، لما كان لريحهم علينا من هبوب، ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم، ولا ذلّ لنا حزب، ولا قلّ لنا غرب، ولا روع لنا سرب، ولا كثر لنا شرب، ولكنا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدّين؛ فالحترّ الحنر، فإله رأس النّظر، من بركان تطاير منه شرر ملهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلما يؤمن من هذا إحراق، ومن

¹ - من الآية 2 من سورة السّج

² - في الذخيرة (وفي فصل منها)

³ - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

⁴ - في الذخيرة (وفي فصل منها)

⁵ - من الآية 49 من سورة بؤس

ذلك إغراق¹؛ فتنّبهُوا قبل أن تُنّبهُوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم، ففينا مُنْعَطٌ لِمَنْ اتَّعَظَ، وعبرةٌ لِمَنْ اعتَبَرَ؛ فانظروا إلى ثغورنا كيف تُهْتَضَمُ، وإلى أطرافنا كيف تُخْتَرَمُ، وفينا كيف يُقْتَسَمُ، وأموالنا كيف تُصْطَلَمُ؛ ودمائنا مطلولةٌ، وحدودنا مقلولةٌ، وأنتم عنا لاهون، في غمرةٍ ساهون، وكأنا لسنا منكم، ولا نحن سيداد دونكم مضروبة، وجُذُنٌ نحوكم منصوبة...² وأنه إن استلّيت الأطراف، لم تتعتر الأنصاف، والبعض للبعض سبب، والرأس من الذئب، غير أنا دنونا وبُعْدْتُمْ، وشقينا وسَعِدْتُمْ، ورأينا وسمعتُمْ، وليس الخبر كالعيان، ولا الظن كالعرفان، ولقد أن أن يُبصر الأعمى وَيَنْشِطَ الكسلان، وَيَسْتَقِظَ الثَّوْمَان، وَيَشْجَعَ الجبان..."

52 - رسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الهوزني

في حث المعتضد على إنقاذ بريشت من يد النصارى³ [456]

"أعْبَادُ جَلِّ الرِّزْءِ والقَوْمِ هُجَّعٌ == على حالةٍ ما⁴ مثلها يُتَوَقَّعُ
فلقَ كتابي من فراغك ساعةً == وإن طال فالموصوف للطول موضعُ
إذا لم أبتِ الذَّاءَ رَبُّ دَوَانِهِ⁵ == أضعتُ وأهلٌ للسلام المضِيعُ
.....⁶ وكتابي عن حالةٍ يَشِيبُ لشهودها مَفْرَقُ الوليد، كما يُغْبِرُ لورودها وجهُ الصَّعِيدِ،
بذوِّها ينسف الطَّرِيفَ والثَّالِدَ، ويستأصل الوليدَ والوالِدَ، تذرُ النساءَ أَيْامِي، والأطفالَ
يَتَامِي، فلا أَيْمَةً إذا لم تبقْ أنثى، ولا يَتِيمَ والأطفالُ في قيد الأسرى، بل تَعَمُّ الجميعَ جَمًّا
جَمًّا فلا تخصُّ، وتزدلف إليهم قَدَمًا قَدَمًا فلا تنكصُ، طَمَتِ حتَّى خيفَ على عروة
الإيمان الانفضاض، وطَمَتِ حتَّى خُشِيَ على عمود الإسلام منها الانقضاض، وسمت
حتَّى تُوقَّعَ على جناح الدين الانهياض...⁷
كَأَنَّ الجميعَ في رَقْدَةٍ أهل الكهف، أو على وعدٍ صادق من الصَّرف والكشف؛ وأنى لمثلها
بالنِّقاغ عن الحريم، ولَمَّا نمثَلُ أدب العزيز الحكيم، في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

¹ - كذا، والتعبير المناسب: فلما يؤمّس من هذا إغراق، ومن ذلك إغراق

² - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

³ - الرسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الهوزني بمرسية خلال إمارة أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كما وردت في **الذخيرة** (ق/2 م1، ص83-89)، ضمن ترجمة الكاتب المذكور، اقتبس ابن سعيد ترجمته من الذخيرة في كتابه: **المعرب** 1/239-240 وسبب كتابتها أن النصارى استولوا سنة 456 على بريشت من أعمال سرقسطة، فكتب الهوزني من مرسية إلى المعتضد يحثه على الجهاد، ويستشيريه في المكان الذي يمكنه الاستقرار به، فأشار عليه بإشبيلية، فانقل إليها سنة 458، ثم قتل في ربيع الأول سنة 460. أورد ابن سنام رسالة الهوزني مبثورة الوسط فقال: "فصل من رقعة كان خاطب بها المعتضد من مرسية واستفتحها بهذه الأبيات" كما نرى أعلاه.

⁴ - في الأصل: من

⁵ - في المعرب: رب نجاحه؛ اكتفى ابن سعيد بذكر هذه الأبيات الثلاثة للهوزني (**المعرب** 1/240)

⁶ - عوض ابن سنام البير هنا بعبارة (وفي فصل منها)

⁷ - بئر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)

ببعض لفسدت الأرض¹، وقوله تعالى ﴿لَهْدَمْتُ صَوَامِعُ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾²، ومن أين لنا دفعهم بالكفاية أو كيف، ولم نمط إليهم الخوف، ونساجلهم السيف، بل لما يُرأى من صدوعهم ثلم، ولا ذووي من جراحهم كلم، ولا رُد في نحورهم سهم، إن حاربوا موضعاً أرسلناه، أو انتسفوا قطراً سوغناه، وإن هذا الأمر له ما بعده، إلا أن يستي الله على يدك دفعه وصدّه،

فكم مثلها جأواء نهئت فانتنت == وناظرها من شدة النفع أرمذ
فمرت تنادي الويل للقاح الصفا == لبعض القلوب الصخر أوهي أجلد
والقت ناء كالطائم نشره == تبيد الليالي وهو غض يجدد
...³ والحرب في اجتلائها حسناء عروس تطبي الأعمار بزئها، وفي بنائها شمطاء عبوس تختلي الأعمار غررتها، فالأقل للهيبها وارد، والأكثر عن شهبها حائد، فأخلق بمحيد عن مكانها، وعزلة في ميدانها، فوقودها شكة السلاح، وفرندها مساقط الأشباح، وقتارها متصاعد الأرواح؛ فإن عسعس ليلها مدة من الانصرام، أو انبجس وبها ساعة لانسجام، فيومها عسق يرد الطرف قليلا، وتبها صيب يزيد الجوف غليلا:
أعباد ضاق الثرغ واتسع الخرق == ولا غرب للذنيا إذا لم يكن شرق
ودونك قولا طال وهو مقصر == فلعين معنى لا يعبره النطق
إليك انتهت آمالنا فارم ما دهى == بعزمك يدمع هامة الباطل الحق
وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجى الدليل من ناط الأمور باربابها، ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج، ومحبوب في طي المكاره مدرج، فانتهاز فرصها فقد بان من غيرك العجز، وطبق مضاربها فكان قد أمكنك الحز؛ ولا غرو أن يستمطر الغمام في الجذب، ويستصحب الحسام في الحرب، فالسهم تطيش فتختلف، والرماح تلين وتنقص؛ فإن جعجعت أيها الساعي المخب في بغاء الفرج، وتحققت بالحث على جلاء تلك اللجج، ووجدت في فتح ذلك الباب المرئج:

فناد: أعباد ذا عائد == وقدك على حينها تنصرم
تجبك أسود على ضمير == معودة ما بغت أن يتم
كان المقادير حزب له == فيمضي على رأيه ما حكم
سقته الحمية جريالها == وصحت مناقبه في الكرم
فصاب لأعدائه مُمقر == وغيث لراجيه حلو السيم
كنوه بما مد من عمره == وكان نحور العدى يخترم
تقينا حر أفعاله == وكنيته تقتضي مارسم

¹ - من الآية 249 من سورة البقرة

² - من الآية 38 من سورة الحج وفيها "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع..."

³ - قال ابن سنام: (وفي فصل منها)

فمن ذين تفريغ أوصافه == وبالرمز نعني الذكي الفهم.¹
وما زلت أعتدك لمثل هذه الجولة وزراً، وأدخرك في ملمها ملجأ وعصراً، لدلائل أوضحت
فيك الغيب، وشواهد رفعت من أمرك الرّيب، فالتّهار من الصّباح، والثّور من المصباح، ولئن
كان ليل الفساد ممّا دهم قد أغذّف جلبابّه، وصباح الصّلاح بما ألمّ قد قدّ إهابه، فقد كان ظهر
قديماً من اختلال الأحوال ما أياس، وتبيّن من فساد التدبير ما أبلس، حتّى تدارك فتق ذلك
سلفك، فرتقه جميل نظرهم ورأته، وصرفه مشكور أثرهم وشعبه،

فعاد الشّمل منتظماً هنياً == وأض الصدغ ملتئماً سوياً
ثمّ تولّيت فكّيت، وخلفت فاربيت، وبزعت² فأوزيت، فالناس مذ بوائهم رحب جنابك في عطن
يُرّبي على لين الدّمقس³، وتحت من تعلو على منى النّفس، في زمان كالربيع اعتدل هواؤه،
وتشاكهت⁴ أرضه وسماؤه، واخضر بالنبت أديمها فكأثها الرّقيع، وتعمّم بالثّور جيمها فتقول
هو الثّرصيع، ففضلكم في الأعناق أطواق، ومجدكم للأفاق إشراق، وحيثما حلت الأرض
عراق، فانا أول من هو إلى تلك الحضرة مشتاق، فلا تحرمني وصلاً كنت جاهدًا في إنباطه،
ولا تصدني عن منهل كنت صدرا في فراطه، فأحقّ الوري بجزيل تلك الآلاء وأخلقهم بمنزل
تلك السّماء أنصّحهم له جيّبا، وأصّحهم فيه غيبا.

أعباد كلاً قد علوت فضائلا == تقاصر عنها كل أروع ماجد
فأولها جوّد أرانا أكفهم == جموداً ككف لم تؤيّد بساعد
وسعيّ لما تبغي بخیل سعيهم == تلاعب ولدان أطاقت بوالسد
ونصر لمن واليت يردي عدوه == ردى أهل جور⁵ في وقية خالد
منعت بني جالوت⁶ ما قد أباحهم == سواك بحرب قيّدت كل شارد
فمن شاء فليُنظر أسوداً بروضة == تراعي عصاراع وتغنو لرائد
عجائب مجد أعجزت من سواكم == ومن سرّها المشهور صدق المواعد
فإن راث أمري فاتركني برحلة == إلى مامن فالخوف أعجل طارد
وحُدّ مكاناً آتیه فريضاكم == هواي وإن أغشى كرية الموارد
فقد جدّ أمرٌ هذّ شرع محمد == وما مخبر عن حالة مثل شاهد
لكلّ يبين الرأي عند وفاته == وهل من دواء بعد نهش الأساود
أضاعوا وجوه الحزم يوماً فعزهم == على أمرهم من ليس عنده بهاجد

¹ - بتر عوض بعبارة (وفي فصل منها)

² - بزغ : صار ظريفاً كبساً (القاموس المحيط)

³ - الدّمقس: الدّياح

⁴ - تشاكّة : تشابه

⁵ - هي واقعة اليمامة التي حدثت أثناء حروب الردّة.

⁶ - يقصد عليه على أمراء الربر بالاندلس من سبي حمود وغيرهم.

....¹ فالثمرة من ساقها، والجياد على أعراقها، ولئن لذت تلك الثمرة لذائق، وشدخت غرّة تلك القرحة لرامق، لمّا بيّن كنه المجتنى قبل تفطّر أكمامه، ومّا يصحّ عتق الجنين قبل أوان فطامه، فلخوي الأبصار أدلة على العتق لائحة، ولأولي الألباب شواهد على الكرم واضحة، وبحقّ أدركت، فعلى السوابق سلكت، وبمشاعر المعالي نسكت فتنسكت؛ وما يك من خير أتوه فإنّما = توارثه آباء آبائهم قبل وهل يُنبِت الخطيُّ إلا وشيجه = وتغرّس إلا في منابتها النخل وقول رسول الله أعدل شاهد = فحكمته شرع ومنطقه فصل يقول: بنو الدّنيا معادن خيرها = إذا ما زكّوا من كان قنماً له الفضل وصلى الله على رسوله فقد نبّه بتصحيح، ودلّ دلالة نصيح، فإنّ المعادن لا تؤتي غير معهود فلزّها، كما لا تصحّ الدوائر إلا على نقطة مركزها، فمن طلب الثّبل في غير معادنه، واستثار الخير من غير مكامنه، أعجزه من مطلبه مرّاه، وطاشت في سُهْمته أقلامه، بل قد ضلّ قصد السّيل، واعتسف الفلاة بغير دليل، فسقط العشاء به على سرحان، وأفضى القضاء به إلى الطوفان، وإلما هو الفجر أو البحر".

53 - عن المعتضد ابن عباد حول تهجمات النصارى على

المسلمين وفشل مساعيه في توحيد العمل ضدّهم² [456]³

"... وردني كتابك الأثير المقابل بين النثر البليغ والنظم البديع، تصرفت فيهما تصرف من إذا حاك الكلام طرز، وإذا غشي ميدان البيان برز، وأخذ بأفاق العلوم، وأشرقت خواطره فيها كإشراق النجوم؛ وإنها لفضيلة بعدّ فيها شلوك، وفات جهد المجارين لك عفوك، فأما ما صدرته به من بالغ إطراء، وسابغ ثناء، فأمر أعلم أنه صدر عن عهد كريم، ومعتقد سليم، أنا معتقد عليهما بجميل القرض، والمجازاة الحسنة بهما في وكيد الفرض؛ واقتضيت ما تلا ذلك من وعظك المبرور، واحتسابك المشكور، في الحال التي أشرت إليها فأفنت،

¹ - قال ابن بسام (وفي فصل منها)

² - ملاحظة : وضعنا هذه الرسالة ورسائل أخرى ضمن مجموعة الرسائل المتعلقة بموضوع بريشتر بغض النظر عن الجهة الصادرة عنها.

وردت الرسالة أعلاه في الذخيرة 2/ م 118-119، وهي من إنشاء الأديب أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم، وصفه ابن بسام بكونه "أحد ورءاء المعتضد الكتاب الأعيان" ولم يذكر وفاته. وهي جواب على رسالة الفقيه أبي حفص عمر الهوزني من مرسية سنة 456 في شأن سقوط بريشتر والاستشارة في الموضوع الذي يستقر به (الرسالة قبل هذه)، فأجاب المعتضد برحب بإقامته لديه، ويذكر "ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم" (على بريشتر) وأنه بثّ رسله لجمع كلمة المسلمين وقمع المشركين "فصمت المسامع، وأتفتت في النفاق المنازع... وتحوّرت الجمجمة في ذلك إلى الإعلان..."

³ - افترحنا هذا التاريخ لكون الرسالة المجاب عنها صدرت عن أبي حفص عمر الهوزني من مرسية إلى المعتضد يحته على إنفاذ بريشتر من يد البصاري وقد سقطت بيدهم سنة 456 (انظر الرسالة السابقة؛ والذخيرة 1/2/ 83 وما بعدها)

ورمزتَ بها فأسمعتَ، بصحة دينك، وبرد يقينك، حتى نظرتَ إلى ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم؛ يجوسون البسيط من ديارهم، ويستبيحون المحوط من نمارهم، ليس إلى الانقياد عن أحكامهم دفاع، ولا سوى الانحياز من أمامهم امتناع، قد تبينَ لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر، وتواكلنا مظاهر مؤازر، فلا يعمون من يتخلى لهم عن بلد أو يعطيهم الجزية عن يد¹ ولو شاء (الله) لانتصر منهم، ولكن ليلو بعضهم ببعض².

ولقد شرحتَ من تلك الثَّصَب ما يُسهر التَّواظر، ويبلد الخواطر، ولا يدع ركنَ عزٍ إلا أرماه، ولا بناءَ جلدٍ إلا أَرَداه، ولا عِذَّ صبرٍ إلا أغاضه، ولا ثَمَدَ دمعٍ إلا أفاضه؛ وإنَّ الحذر أن تغشى التي لا شوى لها، وتغجأ التي لا لعا منها، فيُرام من ذلك استكفاف سيل من التلّف قد انحدر، ويُنظرُ في أعقاب نجم من التلافي قد انكدر، إلا أن يعود الله علينا برحمته، ويهيئ لنا أسباب عصمته.

وأما ما ندبتَ إليه وحضضتَ عليه من إطفاد⁴ السعي فيما يقيم المشركين - بدّهم الله - ويجمع عليه كلمة المسلمين، فيعلم الله أليّ قد ناجيتُ بذلك وناديت، وراوحتُ فيه وغاديت، وبتتُ رسلي إلى ذلك داعين، يصلون التذكرة، ويؤكّدون التّبصرة، ويتلون المواعظ ويستشيرون الحفائظ، فصمّت المسامع، وانفقت في التثاقل المنازع، وخلج بالخذلان، وُجُوزتَ الجمجمة في ذلك إلى الإعلان، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى....⁵

.. وأما إزماغك للتثقل، وأن أرسم لك مكانَ التحول؛ فأَيُّ مكان يكون ذلك سوى وطئك الذي تعرّفتَ فيه سابغ الأمن، وتلقّيتَ فيه طائر اليمّن، ولم تعدم المحلّ الرّقيق، والجانب المنيع، والسكون مئي إلى من لم يزل يعتمدك بإيثاره، ويشاركك في خاصّ أسرارهِ، ويرفع قدرك فوق أقدار الأكفاء، ويخطُ عن منزلتك منازل النظراء، وإن كان قد جرى قدرٌ بمفارقة فكانت سليمة لم يتبعها إلا حالٌ لك مَحَوطة محفوظة، وساقّة⁶ بعين الصيانة مكلوّة ملحوظة..."

¹ - هذه إشارة إلى أنّ سياسة دفع الجزية والنخلي عن الأرض للنصارى مقابل دعمهم ضد بعضهم البعض ظهرت باكراً ولبس فقط في عهد المعتمد بن عباد ومعاصريه، أي أنها ظهرت قبل الستينيات في عهد المعاصرين للمعتد، ويقصد بهم على الأرجح وعلى الخصوص ملوك سرقسطة (عهد المقنتر أحمد بن سليمان 438 - 474) وطليطلة (المأمون يحيى بن إسماعيل 435 - 467) المجاورين للنصارى والمتنافسين فيما بينهم، فقبل المذكورين لم يكن الأمراء قد وصلوا إلى حدّ التنارل عن القلاع والحصون ودفع الجزية - بالشكل الذي ظهر لاحقاً - لاضطراب أحوال النصارى.

² - من الآية 5 من سورة محمد "ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم..."

³ - في نسخة أخرى: بحر (هامش الدخيرة)

⁴ - في بعض النسخ: إجهاد، والحقد: الإسراع (العاموس المحيط)

⁵ - بتر في الذخيرة عوض بعاره: (وفي فصل منها)

⁶ - الساقّة تعني المؤخرة، وقد تكون هذه إشارة إلى من خلفهم الهوري وراءه من العيال حين ارتحل عن إشبيلية.

54 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر

في ذكر سقوط بريشتر بيد النصاري¹ [456]

"... ورد كتابك بالخطب الأبقع، والحادث الأشنع، الجاري على المسلمين - نصر الله مقانبيهم، وجمع على الائتلاف مذاهبهم-، في مدينة بريشتر؛ وكانت صدرأ في القلاع المنيفة، وعينأ من عيون المدائن الموصوفة، إلى ما سبق قبل في القلعة القلهرية² وغيرها من مهمات القلاع: الذروب والمعقل، وخطيرات الحصون والمنازل، فأطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وصرم الآمال والهمم، وأسلم من الذلة والقلة إلى ما قصم، وأتت رأيت الحال في معرض جلاها للتواظر عيانأ، ووصل بينها وبين الخواطر أسبابأ وأسطانأ، فما شئت من دمع مسفوح مراق، ونفس مترددة بين لهأة وتراق، وأسئ قد قرع خُصبيات القلوب فرضتها، وعدل عن المضاجع بالجُنب فأقضتها، ومأل تستك من سماعه الأسماع، وتضيق عن إيراد حقيقته الرقاع؛ فالله يدراً في نحر ما فدح من الخطوب الكبار ويدفع، وإليه تلجأ فيما أظ من عقيم الذواهي ونفزع، فمنه الغوث والانتصار، وعادة الإقالة إذا جد العثار..."

55 - رسالة من أبي عبد الرحمن محمد بن أبي طاهر إلى المعتصم

بن صمادح حول عيث النصاري في ثغور مملكة سرقسطة³ [456؟]⁴

"كتابي - أعزك الله - وقد ورد كتاب المنصور⁵ ملاذي المعتمد بك - أيده⁶ الله - أودعه ما أودع من حياة⁷، ولم يدع كلاماً⁸ لمسلاة، فإنه للقلوب مؤذ، وللعيون مقذ، وللظهور قاصم، ولعري الحزم فاصم؛ فلينذب الإسلام نادب، وليبك عليه شاهد وغائب، فقد⁹ طفي مصباحه، ووطئ سآحه، وهيض عضدته، وغيض ثمده؛ إلى الله

¹ - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في الذخيرة 3/ م/ 87
² - كان الحاجب المنصور افتتح قلعة قلهر Calahorra، وأصبحت ضمن ممتلكات ابن هود، غير أن النصاري استولوا عليها سنة 437 مستغلين المنازعات بينه وبين ابن ذي التون (أعمال الأعلام 178/2).
³ - نص الرسالة في كتاب العطاء الجليل في كشف عطاء الرسل لأبي القاسم البلوي ص 63 (مخطوط الخزانة الحسينية رقم 6148)؛ وفي القلائد 173-175؛ وفي الذخيرة 3/ 86 - 87 (مقطعان)، وفي هامشها: الرسالة إلى المعتصم بالله صاحب المرية أيام رئاسته؛ وعلق صاحب القلائد في تقديمه للرسالة قائلاً: فمن ذلك رفعة كتب بها إلى المعتصم بالله صاحب المرية أيام رئاسته يصف العدو العائث في جزيرة الأندلس: كتابي أعرك الله.... ولعل المقصود التحرك النورماني الصليبي الذي انتهى بسقوط بريشتر سنة 456 من مملكة سرقسطة، وما تبعه من الضغط العشتالي على مدن سرقسطة وقلعة أيوب ووشقة شرقاً إضافة إلى الصعوط في ثغور مملكة بطليوس التي أدت إلى سقوط فلمرية.
⁴ - كاب ابن طاهر تولى على مرسية سنة 455 وبعد ذلك أي خلال سنة 456 ورد ذكر حملة الملك فرابندو الأول بن سانشو العشتالي على ثغور سرقسطة وثغور بطليوس (أعمال الأعلام 2/ 184؛ دول الطوائف 214-215).
⁵ - هو عبد العزيز ابن أبي عامر أمير بلنسية
⁶ - كذا في العطاء؛ وفي الذخيرة والقلائد: أيدك الله
⁷ - في الذخيرة: كتابي بعد أن وقعت على كتاب فلان، الذي أودعه ما ودع من حيات [أو حياة]، ولم بدع...
⁸ - في الذخيرة والقلائد: مكاناً
⁹ - في العطاء: وليبك له شاهد وعائب، قد

نفرع، ولديه نضرع¹، في طارق الخطب ومُنْتَابِه، فلا حول ولا قوة إلا به، [هو] فارح² الكروب، وناصر المحروب³، {وعالم الغيوب، لا ربُّ سواه. وذلك أن فرزند⁴ - وقمه الله- نزل على قلعة أيوب⁵ محاصراً لمن فيها، ومغيراً على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء، وتتساقط لملاحظتها⁶ الأعضاء؛ وإنه قد بنى على قصد جهاتنا، ووطء جنباتنا، إلا أن يدرأ الله في نحره، ويحمي من شره⁷، وغرسية⁸ - دمره الله- بسرقسطة، كذلك رذمير⁹ - أهلكه الله- بوشقة¹⁰ وما والاها ينكي بما يُنكي¹¹، والمسلمون بينهم سوامٌ ترتع، وأموالهم نهْبٌ توزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع؛ فأطيل الفكرة في هذا الخرم الداخل¹²، والبلاء الشامل، {وأسيل العبرة، وأطيل العبرة¹³، والله المرجو لتلافي الأمة وكشف هذه الغمة لا ربَّ غيره¹⁴."}

56 - رسالة [ربما عن إقبال الدولة علي بن مجاهد]

في موضوع استرجاع بربشتر خاصة¹⁵ [457؟]

"إذا كانت نعم الله عند الحضرة الإسلامية مُشرقة المطالع، رحيبة الأرجاء والمراتع، وكان أنصارها وعبيدها وكثائبها المنصورة، وجنودها المرهوبة، في اجتماع من كلمتهم على طاعتها، واتفاق من أهوائهم في مناصحتها، وتظافر من جميعهم على خدمتها، فقد علت يدُ

¹ - في العطاء: إلى الله يُفرع، ولديه نضرع

² - الكلمة باقصة في العطاء؛ وفي الذخيرة: كاشف الكروب

³ - في العطاء: الحروب

⁴ - هو فرناندو الأول (1028/419 - 1065/458 م) بن سانشو الثالث (شاحبة المعروف الكبير) أمير جليقية وفشتالة وليون، مات بعد عامين من احتلاله مدينة قلمرية، وعلى هذا يكون تاريخ الرسالة قبل هذه الفترة؛ وقد كان لغرسية بن شاحبة بركته ثلاثة أولاد: غرسية وفرزند وورذمير، وقد قتل غرسية من طرف أخيه فرزند في حرب بينهما (البياه 4/ 50 - 52، ط بيروت 1967؛ راجع دول الطوائف 368 وما بعدها)

⁵ - الروض المعطار 469 (مادة قلعة أيوب)

⁶ - في العطاء: عند ملاحظتها

⁷ - في العطاء: إلا أن يدفع الله من شره، ويدراً في نحره

⁸ - هو ملك نفارا أخو فرناندو الأول القشتالي وكلاهما ابنا سانشو الثالث المعروف بالكبير ملك نغارا وقشتالة وليون، ونصب ابنه فرناندو ملكاً على قشتالة وليون. وورث ابنه الأكبر غرسية بلاد نفارا، ومنح قسماً هو بلاد أركون لابنه راميرو (راجع دول الطوائف ص 362 وما بعدها)

⁹ - كان ابن هود يتحالف مع بعض الأطراف النصرانية المجاورة، وعندما تحين الفرصة لأعدائه النصارى ينقمون منه قبل غيره؛ ويظهر أنَّ المقصود هنا راميرو ملك أركون المذكور في الهامش السابق. راجع عم أهميه وشقة الروض المعطار (مادة وشقة ص 612)

¹⁰ - في العطاء: وردمير أهلكه الله بوشقة...؛ وكان النصارى قبل حصارهم بربشتر سنة 456 حاصروا وشقة ثم أفلعوا عنها. انظر عن أهمية المدينة الروض المعطار، مادة وشقة ص 612.

¹¹ - ما بين قوسين {...} عوضه صاحب الذخيرة بكلام غير أصلي

¹² - في العطاء والذخيرة: وفي القلائد: الحزم الداخل

¹³ - العبارة ساقطة في العطاء؛ وعوضها صاحب الذخيرة بقوله: "وناصر المحروب؛ وفي فصل: واتصل بنا أنه أباد الديار، في جميع تلك الأمصار، والمسلمون سنهم سوام..."

¹⁴ - كذا في العطاء؛ وفي الذخيرة: والبلاء الشامل، والله المرجو لكشف الغمة، وتلافي الأمة. وفي القلائد: لتلافي أمته، وكشف غمته، بتمه

¹⁵ - الرسالة من إنشاء أبي أرفم، لم يذكر المكتوب عنه ولا المكتوب إليه، وردت بعد رسالتين عن علي بن مجاهد الأولى إلى المعمر صاحب إفريقية والثانية إلى مقاتل العامري (الذخيرة ق 1/3 - 362 - 363)

الإسلام، واحتُمي عزّه أن يُضام، وجانيه أن يُرام، وشملت نعمها الأقطار، وأمدّت أقاليمي الديار، وأبرت على نأي المزار، فهي جماغ الذين، وردّ المومنين، ومحفل المسلمين...¹ ومما وجب التعريف به ما عم أقطار ثغرنا، وغشي مجامع أفقتنا، من تمالؤ النصارى² وتضافرهم من كل أوب إلينا، بجمع لا عهد بمثله، ملأ الفضاء، وطبق الأرجاء، وشغلنا بالفتنة بيننا عن تخفيف وطأتهم، وتضعيف سورتهم، فطمسوا الآثار، وجاسوا خلال الديار، موفورين لا مانع منهم، ولا دافع لهم، إلا التفاتة الله تعالى لأهل دينه بأن أقل فاندتتهم، وخيب مرامهم، وأطاش سهامهم، والحمد لله على منحته ومحنته..."

57 - رسالة ودية عن المقتدر ابن هود إلى

أخيه صاحب لاردة [المظفر حسام الدولة]³ [قبل 472]

"وصلت الهدية التي أصدرتها ساحة الفضل، وتضمّنتها راحة الثبل، وزقها المجد زفاف الهديّ، ترُف في [الحل والحلي]⁴، وتقدّم سفير الأس، فأذاع ما حمل من طيب الأنفاس؛ وتلقّيته بما يُنلقى مثله من كرام الزوار⁵، إذ كان بحكم الإجماع سيّد الزهر والنوار، بدوام عهدته، وبقاء جدّته، وتمادي نضرته؛ وتناولت الطرف الظريف الواصل معه ففضت ختامه، وترشفت مستودعه، وتسوّغت منه شمولاً معقّة لذة عبقه، قد تناهت رقة وصفاء، ولم تُبق الأيام منها إلا هباءً ولألاء، فهي تمنع الكفّ، ما تبيح الطرف، وأرثها بالقذح الذي أجلت به معلى القذاح، قائماً على قدم الإعظام أهرّ عطف الارتياح، وتخيّلت أُنّي في ذلك المألّف العزيز حاصل، وفي ذلك المائس الجليل مائل؛ فنحن متلاقين بعيان الإمحاض والإخلاص، وإن تناءينا بالدّوات والأشخاص؛ ووصل مبكرُ البهار الجنيّ، متمعاً بمنظره البهيّ، وعرقه الذكيّ، قد شخصت أحداقه، وراقت أوراقه، يمدّ بنان لهب، ويرنو بحدق حُرّ تلتهب، كأنه إكليل تبرّ، مرصّع بيواقيت صفر، وهو شبيه الرّاح لوناً ومشماً، قد تكافأ بينهما الانتساب، يحكيه منها الجامد ويحكيها منه المذاب؛ وأسفرّ غضّ الإسفرج⁶ عما حُصّ به ذلك الأفق من الثراب

¹ - نر في الذخيرة عوّص بعبارة (وفي فصل منها)

² - يظهر أنّ الإشارة هنا إلى محاولة فتح وشقة في الثغر الأعلى ثم سقوط برشتر بيد الفرنسيين والنورماند ومن معهم من الإسبان سنة 456، واسترجاعها في العام اللاحق، إضافة إلى سقوط قلعية من ثغور بطليوس في يد القشتاليين سنة 456، وحملة ملك قشتالة فرناندو في السنة اللاحقة على بلنسية وبهب ما وجده في الطريق إليها، وانتصاره على أهل المدينة، واسحابه لما المر به من المرض الذي كان سبب وفاته في سنة 458 (راجع أعمال الأعلام 2/ 184؛ دول الطوائف 84).

³ - الرسالة من إنشاء ابن حسداي "عن المقتدر ابن هود إلى أخيه صاحب لاردة" كما وردت في الذخيرة 3/ 468-470. ترجمة ابن حسداي في نفس المصدر ص 457 وما بعدها.

⁴ - في الأصل: في الحلّي والجلل؛ وقد اقترحنا التعديل ليناسب السجع ظناً مما يوقع خطأ مطبعي.

⁵ - لا يظهر أنّ هذه المهاداة تعبر عن حسن نية، فقد تبين أنّ المقتدر دبر لأخيه أكثر من مرة مؤامرة لقتله عذراً، ممهداً بالتودّد إليه.

⁶ - شرحها محقق الذخيرة بالهليون الذي يسميه الأندلسيون الاسفارج Espargo

الذمِّ والِهواء السجسج فسقاها الله صوبَ السحاب، ولا زال مخضرُ الربى خضيلَ الجَناب؛ واقتضى حكمُ الأدب المتعارف في السَّلام والمباداة، ردُّ التَّحيَّة على سبيل المناولة والمعاطاة، لا على سبيل المعارضة والمباراة، وقد أنفَذتُ ربحاناً مشموماً، ورحيقاً مختوماً، ولكَ الفضل في تسوِّغ ما سقيتُ، وتنشِئ ما أهديتُ..."

58- رسالة عن المقتدر بالله (صاحب سرقسطة) إلى ابن عباد (صاحب

إشبيلية) عن سوء فعل أخيه صاحب لاردة ونفيه إلى منتشون¹ [472]²

"سيدي، وأعلى عُدي، وأقوى عُمدِي، وأزكى ذخري لأبدي، ونعمة الله المستطيلة بيدي، المناهضة بعصدي، ومن أطال الله بقاءه في عزٍّ رفيع المراتب، وحرز منيع الجوانب، إذ أحكام الفتن، وحوادث الزَّمن، لا تزال تحلُّ على كلِّ ما لا يقع بإيثار، ولا يجري على حكم واختيار؛ قربَ كريهة لا يلقي المرء عن اقتحامها معدلاً، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلاً، وقديماً جدَّ الجفاء العقوق، وأبطل التَّجني الحقوق، وقد يُحرَج الحليم، ويتغيَّس الحميم، وتُقطع الرَّحم، وتُنَبِّذُ الدَّم، لا سِيَّما عن مجاذبة ما يمنع الحسد، باتراً أواصر الإخاء والإجمال، وتحاسدُ القرابة داءً قديم، وخُلِق في النَّاس معلوم. وإني - أيدك الله - بليت من المظفر³ أخي بظالم لا يُؤمِّلُ منه إنصاف، ومتحمِّل لا تستنزله الطاف، وحاسدٍ لا يُرجى استرضاه، وموجبٍ لنفسه حقاً لا يوجب مضاهة، إذا سأله نَصَّة، أبداً منه أنفة، وإن سُمِّه عدلاً، مال إلى الجور ميلاً، وإن خفَضتُ له جناح الدَّل، أوطاني جهر الجفا، وإن أقبلتُ عليه بناظر الودِّ أول من صفحة الإبداء، وإن استندنيته شحط، وإن استرضيته سخط، وإن حكَّمته تشطط، وإن أغضيتُ له تسلط؛ وأنا في أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه، وألبسه على أخلاقه⁴، وأستمع منه بغير مستمع⁴، وأرفع منه بغير مرفع، وعقاربُ مضرته تُدبِّ، وعواصفُ معرفته تُهَبِّ، وأذاه قاصدٌ إليَّ في خاصَّتِي، ومفسد عليَّ بطانتي، لا يألُو في مساءتي سعيه⁵ اجتهداً، ولا ألو إلى مسرته تأثيماً وانقياداً، أخذاً

¹ - الرسالة من إنشاء الكاتب ابن إسحاق (لم نعرَف على ترجمته) كتبها عن المقتدر ابن هود، أورد نصّها محمد عنان في: **دول الطوائف** (431-432) نقلاً عن **مخطوط الإسكوريال رقم 488 / 118 ب-** (119). راجع أخبار

² - وضع ابن هود في **البيان** ص 221 وما بعدها. جعل المرحوم عنان المخاطب هو المعتمد ابن عباد (ص 271). ذكر هذا التاريخ محمد عنان في: **دول الطوائف** 271، وأشار إلى أنَّ بعض الروايات الإسبانية ذكرت اعتقال يوسف في حصن روضة وبقي به إلى وفاته سنة 475، والصحيح هو ما ورد في الرسالة إلا أن يكون تمَّ نقله أو انتقاله فيما بعد إلى حصن روضة.

³ - هو المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (438-474)، كان أبوه الأمير سليمان المستعين (431-438) وزَّع الإمارة بين أبنائه الخمسة منهم: أحمد المقتدر في سرقسطة ويوسف في لاردة، وبعد وفاة أبيهم نولى الأمر يوسف، غير أن أهل سرقسطة مالوا إلى أخيه أحمد، وتملَّك هذا طرطوشة. ونشبت الحروب بينه وبين النصارى خصوصاً حول مدينة بربشتر التي سقطت بيدهم سنة 456 إلى أن وقع استنصار المسلمين للجهاد فاسترجعوها في السنة اللاحقة (بتحالف أحمد المقتدر وابن عباد أمير إشبيلية)، وعَلَّق ابن عداري على وضعه فقال "لم يرل المقتدر بالله ابن هود يضعف والروم يتقوون عليه... إلى أن مات ... سنة 475 (**البيان** 229/3) راجع ما ورد عن ضبط الأركونيين (رذمير) على سرقسطة سنة 462 في **الذخيرة** 1/م/2 - 726 - 627.

⁴ - كذا عند عنان؛ وقد يكون صوابها: مسمع

بالحجة عليه، وتقدماً بالجميل إليه، وطمعت أن تكون نظرة تربيته مواقع ظلمه، وتعترفه جور حكمه، ولا يزداد إلا اغتراراً، ولا يُبدي إلا استكباراً، إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام، وحاول أحوالاً تمامها هادية...¹ ورام معالجتي بالتالي ليس فيها استبقاء، ولا بعدها بقاء، وسألني مع هذا الاجتماع² بي ليسوسني....³ الإذعان إلى مطالبه، والموافقة في مذاهبه، فأجيبته رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه، فأبى إلا....⁴ وانبساطاً؛ فلما رأيته عن سوء معتقده غير....⁵ وعن فساد رأيه غير راجع، وغرني جمامه، وأعوزني استصلاحه، ونقلني عن سجيّتي بكره، وكذّر صفوي من كلّ وجه، راجحت في أمره بين أن أرضي الله عز وجلّ في قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده، فما أطمع....⁶ وطأ نواحيها، وأمنع ممّن رامه، وأدفع عنه من أراد اهتضامه، وأن أبتهل....⁷ برحم عن نفسي، فرفع الله عن ذلك منزلتها، وبسط عليه قدرتها، فرأيت النظر في قطع مضرته أولى، والسعي في حسم علته ومعرفته أحمى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه، والزمته البقاء بقصبة منتشون⁸، وللنفس - يعلم الله - ممّا حملني عليه ارتماض وإشفاق، ولما يوثره الرّحم من ذلك إزعاج وإفلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلاً، ولا جعلني إلى سواه مخيلاً، وكان فيما يأتيه أعقّ، وبما جرّه القدر إليه بحكم اعتقاده أحقّ؛ وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً، ويركب حدّ السيف إذا لم يجد سواه مركباً؛ - والله يشهد - لقد طوى جوانحي ممّا ساقني إليه على لوااعج مزعجة، وخرق منضجة.

وكتّابي هذا من لاردة وقد استقرت بحمد الله على الدعة أسباب قريرها، وائصل بجميل عونه تدبيرها، وتقضي - أبقاك الله - وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال، وتعزفك المبدئي منها والمال، فأبئك الشريك في الحلو والمرّ، والقسيم في النّفع والضّر.

وفي خلال هذا - أعزّك الله - ما وردني ابن فلان خاصّتك - سلّمه الله - بكتابك الكريم، المشتمل على أحفل البرّ، والمقتضي لأجزل الشكر؛ ووقفت به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أُملي، وأكد جذلي، وعظمت نعم الله....⁹ وقد صدر - أبقاه الله - متحملاً من صحّة وُدّي، وثبات عهدي، وارتباط عقدي،....¹⁰ الأحوال عندي ما يطلعك من ذلك كله على الجملة الكافية والجليلة الشافية..."

59 - طلب عناية [من أمير سرقسطة]؟ إلى ابن

عمار صاحب مرسية بابن الحدّاد الوادي أشي⁴ [471 - 473]

¹ - كذا عند عنان وكذلك بالنسبة لنقط الفراغ اللاحقة

² - في رسالة سائفة ورد أنّ صاحب سرقسطة المفنّدر استدرج صاحب لاردة يوسف المطرّ للاجتماع به والفدر به وهذا بالنسبة لحادث سنة 450، والظاهر من الرسالة أعلاه قيام المقنّدر سنة 472 بحمله على لاردة وإخراج أخيه منها إلى حصن منتشوب منعياً، انظر عنان : دول الطوائف 271

³ - قلعة قريبة من لاردة (المنبي ص145)

⁴ - منذ سنة 471 استولى ابن عمار قائد جيش ابن عباد على مرسية وإمارتها، واعتقل أميرها السابق ابن أبي طاهر، ثم سرّح من المعتقل فاستقر لدى أمير بلنسية. والرسالة أعلاه من إنشاء أبي الفضل ابن حسداي كما ورد في الذخيرة 1/3/ 467- 468، قدّم ابن بسّام للرسالة بما يلي: "وله من أخرى إلى ذي الوراقين

"المحاسنُ التي تؤثرُ عنك بالسَّرو والسناء، والمحامد التي تتلاقى عليك بها السنةُ الثناء، تُميل إليك أحناء القلوب، وتقف عليك نخائل الصدور، وقد أصبحت بفضل الله حلية الزمان، ومفخر الأوان، ومسمى عيون الأفاضل والأعيان¹، بما نزعْتَ به من كرم الخلاق، وسموَّ الهمم السَّوابق؛ وما زلْتَ - أدام الله عزَّكَ - تجلُّو على المتوسِّلين إليك صفحات البشر، وتُنزلهم في ذراك عرصات الإجمال والبر، فتجني ثمرات المجد، وتنتشُّق نفحات الشكر والحمد.

ومن أولئك الأعيان الأكابر، بل المُبرِّ عليهم بخصائص المآثر، فلان²، فأبني ما أفوضك في وصف مناقبه، وأعلمك بكريم ضرائبه، واعتلانه في مراقي العلم وتسمُّيه، وشُفوفه بالبراعة في الإبداع وتقدُّميه، مفاوضة من يسمُّ لديك غُفلاً، وينبئه خاملاً، ويذكر ناسياً، فأئك أعلى مَلحظاً، وأزكى تيقظاً، من أن يغيب عليك مكانُ مثله، ولا يتقرَّر لديك سموُّ محله، في إحسانه وفضله؛ وحسبك به جملة تُغني عن التفصيل، مع عالي نظرك الجليل، أُنِّي ما عاشرت أكبر منه في البرِّ والصلة، ولا أقومُ بحقيقة الودِّ والخلة، ولا ناسمتُ أطيب منه نفساً، ولا أمتع أنساً، نفاسة خيم، صادرة عن شرف أروم، وأنت خليق بالاستكثار من جانبه، والإجمال في معونة مطالبه..."

60 - رسالة عن المقتدر ابن هود من أجل العناية

بالشيخ أبي الحسن بن عبد الغني الحصري³ [...]؟...]

"ما أثل الله من مجدك وعلائك، وأكمل من سرك وسنانك، وأصدرَ عنك من محاسن الشَّيم، وقصر عليك من معالي الهمم، يقود إليك الأهواء تنتحيك بصفو ودادها، وتعطفك بصدق ارتيادها؛ وما زال ذراك الرقيق سابغاً على نوي الأخطار ظلُّه، غامراً لنوي الآداب إفضاله باهراً فضله، وأحقُّهم بأجل البرِّ الأوفى من هاجر إليه على بُعد المدى، مهلاً بمحامده ومدائحه، مستشعراً لميامن قصده ومناجحه، وهو الشيخ الفاضل

أبي بكر بن عمَّار عناية بابن الحدَّاد؛ ويظهر من عباراتها أنَّ ابن حسداي كتبها عن أمير سرقسطة ابن هود، المعاصر لإمارة ابن عمَّار في مرسية (471-473) وسيد إمارة دانية منذ سنة 468 وهو المقتدر، ويحتمل أنه كتب الرسالة بين سنتي 471 و 473 أي تاريخ إمارة ابن عمَّار. انظر ترجمة ابن الحدَّاد الوادي أشبي محمد بن أحمد في الإحاطة 333/2-337؛ والمغرب 2/ 143 (ذكر قضاء معظم حياته عند المعتصم بن صمادح ثم فر عنه إلى ابن هود ثم رجع ، وربما كان رجوعه عبر مرسية حاملاً رسالة العناية به المذكورة أعلاه.

¹ - في الأصل: الأعيان

² - أي ابن الحدَّاد المنشار إليه في تقديم الرسالة

³ - الرسالة من إنشاء حسداي بن يوسف ابن حسداي الإسرايلي كما وردت في الدَّخيرة ق3/م/1، 485، (ترجمته بها في ص 457 وما بعدها، وفي المغرب 2/ 441)، كتب الرسالة عن المقتدر ابن هود إلى أمير بلد آخر لم يذكر من هو، يفترض أن يكون هو ابن عمَّاد حليف المقتدر، خاصة وأنه يخاطبه عن الحصري بكوبه "ألم يحهتي - جهنك -"؛ ومن شعر الحصري في المعتصم بعد خلافة أبيه المعتصم قوله:

مات عبَّادٌ ولكني === بقي الفرع الكريمُ
فكان المبت حي === غير أن الصاد ميم

فقد حدم المعتصم ثم المعتصم، وآلف لهذا كتاب "المسندحس من الأشعار" قدَّمه إليه عندما برز طبعه منفيًا إلى أغمات، فمن المحتمل أن الحصري انتقل بهذه الرسالة إلى المعتصم، وبقي ضمن أدبائه وشعرائه، أصل الحصري من القيروان، وتوفي بطنجة سنة 488 (نقح 4/ 246-247؛ دول الطوائف 410).

الكامل أبو الحسن بن عبد الغني، ألم بجهتي - جهتك - فوفد عليّ منه الوافد الأثير، والزائر الكريم، وأتس بذكاء مناسمته، وأمتع بجمال محاضرتيه، وهو البارِع المتقدّم في إحسانه، وتصرفيه في الإبداع واقتنائه؛ وربّما نقول كاشح، ونمّق كادح، وزور حاسد، وأوهم خبّ مُعاند، لأجل استقراره في ذلك الجانب، واشتماله بظلّ المُجانب، أنه انحرف بصفو وداد، أو حرّف بقول واعتقاد؛ والله تعالى قد شرف رتبك ونزّه منصبك عن الإصغاء إلى تميمق الوشاة، والإجازة لكيد العداة، والارتياح بعهد المخلصين الثقات كذا، وعصم التبيل التّبيه مثله، ممّن زكى الله دينه وعقله، من العدول عمّا دان به، واعتلق بسببه، من الاعتزاء إلى ولانك، والتّشيع في عليانك، والتّشرّع بمدحك وثنائك".

61 - رسالة عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى أبي بكر ابن عبد العزيز لنجاح وساطته في تسريح ابن طاهر من الاعتقال¹ [474]²

"وقد تتابع عنك - أعزّك الله - أحسن الحديث المذيع لخفايا سرك وسرائره، المُعرب عن سجايا سنائك ومآثره، منذ انتدبت بشرف منحاك لما يسره الله من حميد مسعاك، فانتضيت من عزمك باتراً يفلّ نصال التّوائب، وأيقظت من حزمك ساهراً ينم عيون الحوادث، وسهّل الله الوعد بصدق بصيرتك، ونلّ الصّعب بيمين نقيبتك، حتّى شردت المحنة، وعمّت المنحة، بتخلّص ذي الوزارتين الكاتب الأجلّ صاحب المظالم أبي عبد الرحمن³ سندي، والخطير من عددي - أبقاه الله - من تلك الغمرة، وانتضائه بالاستقلال من العثرة⁴، واستقرّت الحال - أيّدك الله - بدءاً وعوداً عمّا قصر عليك أوفر الحمد، ونشر عنك أنضرّ العهد، فجازاك الله أفضل ما جازى علماً من أعلام الوفاء، ووقاك أكرم ما وقى متقدّماً في أحوال الصّفاء، متوحّداً بجميل المقام وجليل الغناء؛ وخاطبتك معلماً بحقيقة اعتزازي بما يسرّ الله على يدك من هذه العائدة، وسناه بلطف توصّلك إلى هذه الفائدة، فلو خصصت بذلك من يشاركني بالنسبة وهو قسيمي في اللّحمة، لم يعدل عندي بما أوليت في جانب من أعزّه الله بإتمام النّعمة، فقد كان تألمي من إساءة الذّهر في هضمه، وتطاول خطوبه التّكر إلى ظلمه، بإزاء ما يقتضيه الاعتداد بفضله، والابتهاج بشرف محله؛ إذ كانت النفس تشفق من حادثة تصيب نبيها من الإخوان، فضلاً عن نائبة تحلّ بساحة جليل من الأعيان⁵؛ والله تعالى يصرف الثّوب عن فنانك، ويكفّ المحاذر دون أركانك، بمنّه".

¹ - الرسالة في الدّخيرة 39/1/3 - 40، قدّم لها ابن بسّام هكذا: "وحاطت جماعة من رؤساء الجزيرة يومئذ الوزير أبا بكر [بن] عبد العزيز شاكرين له على ما كان في ذلك من سعيه الحميد المشكور، منها رقعة للمؤتمن بن هود يقول فيها...." : كانت إمارة المؤتمن بين سنتي 474 و 478 ، وقيرة إمارة أبي بكر صاحب بلسية بين 457 و 478

² - هذه السنة هي الأولى من حكم المؤتمن، وكانت السنة التي قبلها سنة خروج ابن طاهر من المعتقل.

³ - بهذه الكنية ذكره ابن بسّام في الدّخيرة 24/1/3 ؛ وقد مارس هذه المهمة هو وأبوه من قبله.

⁴ - الإشارة إلى استيلاء ابن عمار قائد ابن عباد على إمارة مرسية واعتقال ابن طاهر ثم خروجه من المعتقل.

⁵ - يقصد مكانته الأدبية، وموقعه الاجتماعي.

62 - رسالة ودية عن المؤتمر

بسرقسطة إلى ابن طاهر¹

[474 - ...]

"... وردني كتابك ، أحسن ما أملاه خاطر ، واجتلاه ناظر ، من ألفاظ ومعان ، اطردت في سلك إبداع وبيان ، فحييت بالروضة الأئف ، وعادت بعذاب اللطف ، وهو المقال الصادر عن كرم الطبع ، الدال على شرف الأصل والفرع ، الذي تفتخر عن واضح الود مباسمه ، وتنشق عن ناضر العهد كمانمه ، وتتهل بواكف البر غمانمه ؛ وقد وعيت منه ما توفّر به الحظ ، وتسوغة السمع والخط ، وإن كانت لك مزية السبق بفضل البيان الذي يبدّ الجاهدين عقوه ، ويفوت المجتهدين شأوه ، فالكاف واقع بالتساوي ، والتوازي نازل بمحض التجازي ، اكتفاء بما تضرره القلوب ، وتستشفه الغيوب ، وهو اليقين الذي تجد النفوس برده ، وتقف المعارف عنده..."

63 - رسالة أخرى ودية عن المؤتمر

صاحب سرقسطة إلى ابن طاهر

[478 - 474]²

"مهلك - أعزك الله - في طي الجوانح ثابت وإن نزلت الدار³ ، وعيانك في أحناء الضلوع باد وإن شحط المزار⁴ ، فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن ثمتع من لقائك بظفر الخط ، فلا عائدة أسبغ برداً ، ولا موهبة أسوغ ورداً ، من تفضلك بالخوف (واصلاً مسعداً)⁵ ، إلى مانس يتم بمشاهدتك التنامة ، (شمل) يتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع⁶ من ذلك بأعظم الآمال ، (والإعداء على الأيام بقضاء دين مطول ، وإنجاز موعود لم أحل منه بغير تسويف وتعليل) ، وأنا - أعزك الله - على شرف سوددك حاكم ، وعلى مشرع سنائك حاتم ، [وحسبي ما تتحققه من نزاعي وتشوقي ، وتيقنه من تطلعي وتوقفي ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الانتزاح بارتقاب الصلة]⁷ ، وأنت - وصل الله سعدك - بسماحة شيمك ، [وبارع كرمك] ، (وسجاجة خلائقك وهمك) ، تنشي للموانسة عهداً⁸ ، وتوري بالمكارمة زندا ، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً ، [لا زلت مهناً بالسعود المقتبلة ، مسوغاً اجتلاء غرر الأمانى المتهللة ، بمنه ، إن شاء الله ..]"

¹ - الرسالة من إنشاء أبي العسل بن يوسف بن حسداى (هو مسلم من عائلة يهودية بسرقسطة) ، وردت في الذخيرة ق3/1م/465-466: انظر ترجمة ابن حسداى في هذا المصدر ص 457-459.

² - وردت الرسالة في فلاند العبيان 548 : وفي الذخيرة ، ق3/1م/464-465 : والسنان المحصورتان هما فترة إمارة المؤتمر ابن هود بن أحمد المعندر .

³ - في الذخيرة : داب وإن شط المزار

⁴ - في الذخيرة : وإن نزلت الديار

⁵ - ما بين هلالين (....) ناقص في القلائد

⁶ - في الذخيرة : في الإمتاع

⁷ - ما بين معقبي [...] ناقص في الذخيرة

⁸ - في الذخيرة : وعداً

64. فشل شفاعَة ابن رزين لدى قائد بلنسية

المرابطي لأجل استرجاع ابن طاهر لممتلكاته¹

[495]

"... أنت - أدام الله عزك - عالم بالزمان وانقلابه، عارف بإغاراته واستلابه، ومن عرفه حق معرفته لم تزده شدته إلا معتبراً²، وشكراً لله وتديراً؛ وما زلت - [أعزك الله]³ - ألقاك بالود على البعد، فأعلمك⁴ بتقدمك في الأعيان، وإن لم أرك بالعيان، واستخبر الأخبار فأسمع، ما يقرع صفاة الكبد ويصدع، بإنحاء الزمان عليك، وتكر ذلك لديك⁵، إلى أن ورد [عليّ] فلان [صادراً عن ذلك الأفق]، فاستفهمت عن حالك فذكر⁶، ما أزعج وكذر⁷، ارتماضاً لمثلك أن يُعوزَه مرام، أو يثبو به مقام، فجردتُ عن ساعد الشفاعة عند لقاء القائد الأعلى أبي عبد الله بن الحاج بن عائشة⁸، - أعزّه الله - في صرف ما يمكن من أملاكك، فوقع الاعتذار بأنه أمر محظور، تقدّم فيه (من أمير المسلمين)⁹ حدّ محذور¹⁰، وأشار بإجراء ما يُلَمّ بالاكْتفاء¹¹ ...

وأنا - أعزك الله - أعرض¹² عليك ما هو الأوفق لي، والأليق بي¹³، عن عزيمة مكينة، ورغبة وكيدة، من الانتقال¹⁴ إلى جهتي، والانبساط في دولتي¹⁵، [فأستوفي

¹ - وردت الرسالة في **قلائد العقباة** 165-166؛ وفي **الذخيرة** ق/3 م/113-114، (مع بعض الاختلاف، فأولها: "من عرف أعزك الله الأيام وصروفها...") وهي لحسام الدولة عبد الملك بن رزين أمير السهلة - شنتمرية الشرق (436-496) إلى أبي عبد الرحمن بن طاهر، وكان قد وقع في الأسر عند احتلال القائد القشتالي الكمبيوتر لبلنسية (**الذخيرة** 91/1/3)، وورد في **الذخيرة** أن ابن هود كان وراء دفع الكمبيوتر لاحتلال بلنسية ليضعه بينه وبين المرابطين (**الذخيرة** 94-95). ولما فكّ أسر ابن طاهر وجرّ المرابطون بلنسية سنة 495 رغب في ارتجاع ممتلكات؛ ورد في تقديم الرسالة في القلائد ما يلي: "وشفع له ذو الرناستين عبد القائد الأعلى أبي عبد الله محمد بن عائشة في أن يسوّعه من أملاكه ما يرضيه ارتجاعه.. فأعلمه أن أمير المسلمين حدّ له ألا يحولّه شيئاً...".

² - في **الذخيرة**: من عرف - أعزك الله - الأيام وصروفها، وخلفها وصوفها، وجرّها على مناقلها في وجوه تداولها، وحلّ محلّك من التميز، والسبق والتبرير، لم نزده شدتها إلا معتبراً..

³ - إضافة من **الذخيرة**

⁴ - في **الذخيرة**: فأراك

⁵ - في **الذخيرة**: الكد منك بإنحاء الزمان عليك وتكره لك

⁶ - في **الذخيرة**: فما قدمت على الاستمهام عن ذلك والاستعلام بحالك، فذكر

⁷ - كان ابن طاهر بعد دخول الكمبيوتر القشتالي بلنسية وقع في الأسر سنة 488، وفي منتصف صفر منها كتب رسالة يؤمل في الإفراج عنه بالافتداء (**الذخيرة** ق/3 م/91)

⁸ - في **الذخيرة**: الشفاعة عند فلان في صرف؛ والمذكور هو القائد المرابطي على بلنسية. وفي هامش القلائد أنه كان صاحب أعمال بلنسية، وهذا يعني الأعمال المالية، ويظهر أنّ في هذا خلطاً بين القائد ابن الحاج المذكور وابن عائشة الأديب بلنسي وصاحب الأعمال [الحسابات] بلنسية ثم المغرب والأندلس (**الذخيرة** 3/887؛ ونقل عنه **المغرب** 2/314-315).

⁹ - حملة ساقطة في القلائد

¹⁰ - في **الذخيرة**: أمر محذور

¹¹ - يظهر أنه يشير إلى اقتراح ابن الحاج عليه شعلاً بعوّضه عن فقد أملاكه. وبعد كلمة (الاكْتفاء) يوجد بتر في الرسالة أشار إليه صاحب **الذخيرة** بقوله (وفي فصل منها)، أما في القلائد فالكلام مستمر

¹² - في **الذخيرة**: وأما أعرض عليك - أعزك الله - ما هو

¹³ - في **الذخيرة**: والأحق بي

¹⁴ - في **الذخيرة**: من التنقل

¹⁵ - في **الذخيرة**: جهتي، والاختلاط بي وبلحمتي، فأستوفي..

الحظ من مؤانستك، وأستنفذ الوسع في تكرمك¹، وأقسامك خاصّ ضياعي، ومعلوم أملكي ورباعي؛ وإن شقّ عليك الكونُ بجهتي - [جهتك] - لبرد هوانها، وبُعد أنحائها، فها هي² شنتمرية أقف طاعتها عليك، وأصرف أمرها إليك، وعندي من العون على الارتحال³، وما يقتضيه لك رفيع الحال؛ ولك الفضل في مراجعتي، بما يستقرّ عليه رأيك، ويأتي به إيجابك، [مكرماً مواصلاً]، إن شاء الله⁴.

65 - نصّ تولية من المتوكل ابن الأفطس⁵ ملك

بطليوس على إشبونة بعد خضوعها لنفوذه⁶

[464 - 460]⁷

"لم يسوّغ أولياء النعم مثل الذي سوّغتموه من التزام الطاعة، والدخول في نهج الجماعة، ولذلك لا ألوكم ونفسي فيكم نصحاً فيمن أتخيره للتياية عني في تدبيركم، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم؛ وقد وليت عليكم من لم أوثر - والله - فيه نواعي التقريب، على بواعث التجريب، ولا مواتٍ التخصيص، على لوازم التّمحيص، وهو الوزير القائد أبو عبد الله بن خيرة ابني ثربة، وبعضني صحبة، ونشأتني شبكة وقربة⁸؛ وقد رسمت له من وجوه الذبّ والحماية، ومعالم الرّفق والرّعاية، ما التزم الاستيفاء لحده، والوقوف بجده عند جهده⁹، والمسؤول في عونه من لا عون إلا من عنده؛ ولن أعرفكم من حميد خصاله، وسديد فعّاله، إلا بما سيبدو للعيان، ويزكو مع الامتحان، ويفشو من قبلكم إن شاء الله على كلّ لسان؛ وقد حدّدت له أن يكون لناشئكم أباً، ولكهلكم أخاً، ولذي الثّقوي¹

¹ - ما بين معقّفين [...] إضافي من الذخيرة

² - في الذخيرة: فهد

³ - في الذخيرة: الارتحال

⁴ - حتم ابن بسام الرسالة بقوله: "فراجع ابن طاهر برقعة قد كتبناها في رسائله"، وهي وارده في الذخيرة ص 48-49. وفي القلاند 197: "كلّ المعالي - أدام الله تأييد الحاجب ذي الرئاستين - إليه ابتسامها وأما ما عرضه - أبده الله - من الانتقال إلى ذراه ... والحلول بجناحه وكيف وآتى به، وقد قيدني الهرم فما استطيع نهماً ولا أطيع بسطاً ولا قبضاً..." (القلاند 197: الذخيرة 48/1/3).

⁵ - اسمه أبو محمد عمر بن المطفّر بن المنصور .. بن مسلمة التجيبي ابن الأفطس (ترجمته في القلاند 120 وما بعدها: الذخيرة 2/640 وما بعدها: الحلة 2/96-107: المغرب 1/364-365 (ينقل من القلاند)

⁶ - كانت مدينة إشبونة وقعت في يد ابن عباد بين 421 و425 حسب الذخيرة 2/م1/ص22: وردت الرسالة في القلاند 143-144 بعد أن دّم لها بذكر ليلة أنس مع حواصّه " إذ ورد عليه كتاب بدخول إشبونة في طاعته وانتظامها في سلك جماعته... فقال له ابن خيرة .. لمن تولّيتها فقال: لك، فقال له: فاكذب لي الآن بذلك، فاستدبى الرّق والدّواة، وكتب وما جفّ له فلم... : لم يسوّغ أولياء النعم..."; وردت الرسالة عند ابن الخطيب ضمن ترجمة المتوكل ابن الأفطس في: الإحاطة 4/ص4546 (طبعة القاهرة 1977) ؛ وعن تاريخها لم نستطع تحديده ولكنه يرجع إلى عهد المتوكل الذي يبدأ من سنة 464، وورد في هامش الحلة السجاء أن عهده يبدأ من سنة 460 استنتاجاً من بعض العملات (الحلة 2/ص97)؛ وعن النزاع بين الأحوس وعمر ويحيى ابني الأفطس راجع الذخيرة 2/م2/650-651

⁷ - ربما حدث هذا بعد موت أبيه وانقسام المملكة بينه وبين أخيه يحيى (المنصور) صاحب بطليوس، فكان عمر المتوكل على يابرة وخضع له النعر العربي، وكانت إشبونة ضمن هذا النعر.

⁸ - كذا في القلاند: وفي الإحاطة: ونشأتني سكة وقربة.

⁹ - في الإحاطة: الاستيفاء بعهد، والوقوف بجده عند حده

التقويس¹ والكبرة ابناء، ما أعنتموه على المراد²، ولزوم الجواد، وركوب الانقياد؛ وأما من شق العصا، وبيان عن الطاعة (وظهر)³ منه المراد والهوى، فهو القصي منه ولو مت إليه بالرحم الدنيا؛ فكونوا [له]⁴ خير رعية بالسمع والطاعة في جميع الأحوال، يكن لكم بالبرّ والموالاة خير وال، إن شاء الله تعالى".

66 - المتوكل ابن الأفطس يعاتب ابنه والي يابرة

لاتصرف أحد رجاله عنه إلى المعتمد بن عباد⁵ [464 - ...]⁶

"... قبولي لتتصلك من ذنوبك، موجب لجزاءك عليها، وعودتك إليها، واتصل بي ما كان (من قبلك)⁷ خروج طلحة بن عبيد الله⁸ عنك، ولم تثبت في أمره، ولا تحققت صحيح خبره، حتى فرّ (بنفسه)⁹ عن أهله ووطنه، والعجلة من الشيطان، ولا يُحمد قبل النضج بحران¹⁰؛

وهو¹¹ الذي أوجبته إعجابك بأمرك، وانفرادك برأيك، ومتى لم ترجع إلى ما وعدت به من نفسك وصدرت به كتبك، فأنا والله أريح¹² نفسي من شغبك، وإن تكن الأخرى فهو لك الحظ الأوفى، فاختر لنفسك أي الأمرين ترى، (إن شاء الله)¹³".

67 - عزل المتوكل (ابن الأفطس) لوزيره

أبي الوليد ابن الحضرمي لسوء تصرفه¹⁴ [464 - ...]

¹ - في الأحاطة: ولدي التقويس؛ والقصد من ذوي التقويس: من تقوس طهره لشيوخه

² - في الإحاطة: على هذا المراد... والجواد، جمع جادة: أي الطريق المستقيم

³ - إضافة من الإحاطة

⁴ - ناقصة في الإحاطة

⁵ - ورد في تقديم الرسالة في الدخيرة (ق/2 م/2) 651 ما يلي: قال ابن بسام: ثم اسوسق الأمر للمتوكل بموت يحيى أخيه [منافسه]، وحصلت له جميع بلاد أبيه، واحتل [أي استقر] حاضرة بطلبوس، وجعل ابنه العباس في يابرة، وأتفق أن خرج طلحة بن عبيد الله مسوحشاً عنه لأمر بلغه عنه، ولحق ببلد المعتمد، فكتب العباس إلى أبيه معتذراً... "فكان جواب المتوكل الرسالة أعلاه. (وردت الرسالة أيضاً في القلائد 131-132: وكذا في المغرب 1/365 مع أخطاء). وعلى هذا لا يتأخر تاريخ الرسالة كثيراً عن بداية عهد المتوكل أي أواسط الستينيات، وفي هامش بالحلة السيرة أن المطر توفى سنة 456، ومنها ابتداء عهد ابنه المصور إلى سنة 460، فيكون عهد المتوكل بين 460 و487. نقل هذا عن استنتاج لعملة مسكوكة في عهد المصور تحمل تاريخ 456 (الحلة 2/ص97)

⁶ - هو أبو محمد عمر بن محمد رابع وآخر ملوك بني الأفطس أصحاب بطلبوس ملك سرقسطة من سنة 460 (حسب الحلة السيرة صمى ترجمة المتوكل ابن الأفطس 97/2) إلى أن دخل المرابطون عاصمته سنة 488

⁷ - كذا في الدخيرة؛ وفي القلائد: ما كان من خروج

⁸ - في القلائد: فلان

⁹ - إضافة من الدخيرة

¹⁰ - في القلائد: وليس يحمده... والبحران من معانيها: التعبير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة؛ البحرا

أيضاً : الخانع

¹¹ - في القلائد : وهذا

¹² - في الدخيرة: فأنا المريح والله نفسي

¹³ - إضافة من القلائد

¹⁴ - وردت الرسالة في القلائد (133-134)، وقد اعتبرناها الأصل؛ وفي الدخيرة (م/2 646-647)؛ وكان ابن الحضرمي "عامل الناس أسوأ معاملة.. وظهر للمتوكل قبح أفعاله... وأبعده عن خدمته، فكتب إليه يسعطفه، فراجعته المتوكل: "باسيدي وأكرم عددي، الشاكي ما جنته بده لا يدي..." (القلائد ص 133). والمتوكل هو

"ياسيدي، وأكرم عُددي، الشاكي ما جنته يده لا يدي، ومن أسأل الله له التوفيق في ذاته إذ حرمه في ذاتي؛ قرأت كتابك المتشكي فيه صُدودي ، وإعراضي عنك غاية مجهودي؛ ونعم، فأني¹ رأيت الأمر قد ضاع، والإدبار قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يُعقب² إن شاء الله بالخلف، وأقبلت أستدفع مواقع أنسي، وأشهد ما ضيعته بنفسي، فلم أر إلا لججا توسطتها، وغمرات قد تورطتها³، فشمّرت عن الساق للجتها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خُضت البحر الذي أدخلني رأيك، ووطئت السّاحل الذي كاد يُعديني عنه سعيك⁴؛ فنفستك لم، وبسوء صنيعةك لذّ واعتصم⁵، وإن متت بجميل اعتقاد، ومحض وداد، فأنا مقرّ بغيره، معترف بقله وكثره، ولكن⁶ كنت كالمثل [السانر]⁷ "شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد"⁸، وقد أطمعت في العدو، ولبست لأهل مصري الاستكبار والعنوّ⁹، واستهنت بجيرانك، وتوهّمت أن المروءة التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت¹⁰ النفوس عليّ وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع هذا¹¹ فليس لك عندي إلا حفظ الحاشية، وإكرام الغاشية..."

68 - رسالة من المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد

بعد لجوء وزيره ابن الدبّاغ إلى بطليوس معذراً عنه¹² [بعد 464]

"مَنْ تَخَيَّرَكَ - أَيْدِكَ الله - على سواك، وأرادك وترك وطنه¹ هجرة إلى ذراك، ، وأسرع تلبية إلى دواعي سرّوك وعلاك، فمجدك يقضي له - وإن

الذي دخل عليه المرابطون سنة 487 فقتلوه مع ابنه (الفلاند 36: الحلة 96/2: أعمال الأعلام 2/ 185: وورد

ذكر ابن الحضرمي في المغرب 1/ 265).

¹ - هنا يبدأ نص الرسالة في الذخيرة 2/ 2/ 646- 647 هكذا: ولمّا رأيت الأمر قد ضاع..

² - في الذخيرة: وذاع، اشفقت... ما يعقب..

³ - في الذخيرة: فلم أر إلا لججاً قد تورطتها وغمرات قد توسّطتها

⁴ - في الذخيرة: الذي كاد يحول بيني وبينه فَعَلَكَ

⁵ - في الذخيرة: وبسوء صنيعةها أَلِيم واعتصم

⁶ - في الذخيرة: مقرّ بذكره معترف بقله وكثره ولكنك

⁷ - إضافة من الذخيرة

⁸ - بصر المثل لمن يفسد صبيعه بالمرّ

⁹ - في الذخيرة: حتى أطمعت... لأهل حصرتي...

¹⁰ - كذا في الذخيرة : وفي الفلاند: أخرجت

¹¹ - في الذخيرة: ومع ذلك

¹² - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد ابن أيمن كما وردت في الذخيرة 2/ 664/ 2، (وترجمة

الكاتب قبلها في ص 652- 653)؛ وفي المغرب 2/ 366 (نقل بعض الفقرات مع بعض الحلاف). أما ابن الدبّاغ

فهو أبو المطرّف عبد الرحمن بن فاجر؛ وكان ببلده سرقسطة قد خشي على نفسه من أميرها فانتقل إلى

المعتمد، فكان حطياً عنده، وسفر عنه إلى المتوكل ابن الأفطس، ثم دبر الوزير ابن عمار في الكيد له فنعاه

المعتمد والتحق بالمتوكل أمير بطليوس، إلى أن طهرت نار الحسد من الكاتب ابن أيمن المقرب من المتوكل،

فارتحل ابن الدبّاغ إلى سرقسطة حيث قتل خارجها. بعد وصول ابن الدبّاغ إلى بطليوس كما ذكرنا بعث أميرها

رسالة إلى المعتمد يحبره بذلك وبناء المذكور عليه، مشيراً إلى أن إخراجة من إشبيلية كان بدبير متوليها

وبغض ابن عمار؛ وورد في المغرب ذكر سوء خلقه وكثرة ضجره ممّا يكره فيه من بلجاً إليه (المغرب 2/ 440 :

وانظر الذخيرة 2/ 652- 653: ق/ 3/ م/ 251- 253).

أز عجته عنك بحكم الاضطرار، صروف الأقدار - أن تستمرّ عليه النعمى، وتطرّد لديه العارفة الحسنى، وينتظم بدء الصنيعة فيه بالعقبى، فالفضل على علمك بتمامه، والطول باختتامه، والبر بمقتضاه، والمن بأخراه.

وهذه - أدام الله تأييدك - حال فلان²، فإنه هجر إليك الورى، وركب نحوك أعناق الأمل والهوى؛ وقد كان ظفر بالحظ من دنياه، واعتلق منها السبب الذي لا تُنقض ميرزّه ولا تنتكث قواه، إلا أن الزمان من بث العصم، وإحالة النعم، والقطع بذوي الآمال والهمم، جار في سننه الذميم، على القديم؛ وحين جدّ به الجدّ العائر - أسعد الله جدودك، وأدام تأييدك - في الانزعاج من جنابك، ومفارقة النعمة من ملازمة ركابك، وخدمة بابك، لحق بحضرتي - طاعتك - يعتقد - وحق ما اعتقده - أنه لم ينفصل عن جماعتك، ولا تحول إلا إلى أعمالك³، ولا انتقل من يمينك إلا إلى شمالك⁴؛ وعنده تذكّر لحسن معاهده لديك، وطيب مشاهده بين العزيزتين يدك، ما ليس مثله إلا عند معتقد أيام الصبّا، ومستعيد عشيات الحمى، وأما شكره لسوالم نعمك، ونشره لمطايي مناز عك الجميلة وهمك، وإشادته بسنانك، وإبداؤه وإعادته في حسن أثارك وأنبائك، فبحيث لو جاز أن تُنقلد مقاومه في ذلك لتعطلت الجلى، أو تُثورّد لشفت من الصدى، أو تُترشّف لأغنت عن برد اللّمي، أو تُقطف لكفت من يانع الجنى؛ ومن فارقك - أيّدك الله - وتحرّقه للبعد عنك تحرّقه، وتحفّقه بالتشيع لك تحفّقه، ففضلك الباهر يأبى أن تنقطع عنه عوارف الإجمال على النوى، ولا سيّما وقد وسّدت مع القرب جوازى آماله أبرديّ ظلاله، وأوردت على الدنوّ ظامنة ذمامه التّмир العذب من جمامه؛ وقد كان لحقه عند انزعاجه عن حضرتك - والله حراستها، ولك رناستها - ما الفضل له متألم، والمجد منه متذمّم، ممّا أعلم والله علّم اليقين أن سيادتك تأبى مسموعه، ولا ترضى وقوعه، وإلّا أتى ذلك التّعدي - لا محالة - من جهة المتولي⁵، لأنّ قدرك - رفعه الله - منزّه عن ارتجاع موهوب ولو عظم، ومعاملة خادم باستصفاء مكسوب وإن ظلم⁶؛ وعند الوزير الكاتب أبي طالب⁷ من بسط هذه النكتة ما أنت بمعاليك تقتضيه منه وتستوفيه، وتأتي متفضلاً من الإيجاب فيه، بما يليق بسؤددك الأثيل، وفعدّيك الجليل، ومعتقدك الحسن الجميل، واضعاً بذلك عندي يداً تُشَفّ على متقدّم أخواتها، وتهتف بالتعجيز عن معارضتها من جميع جهاتها...."

¹ - وطنه هو سرقسطة كما في ترجمته في الذخيرة.

² - احتزل السّاخ اسم الوزير ابن الدباغ في هذه الصيغة.

³ - أي جهات أرضك، وهذا شيء رمزي لأن بطليوس مستغله عن إسبيلية.

⁴ - خلال نزاعه مع أخيه يحيى صاحب بطليوس كان ابن عباد حليفاً له ضد أخيه المنوكل، وعبد تولّيه هذا الملك احتفظ بعلاقات ودية مع ابن عباد، والعبارة تؤكد هذا.

⁵ - يفصد ابن عمار وزير المعتمد.

⁶ - هذا تلميح إلى كون الوزير المتجدّد عنه كان قد تعرّض لمصادرة ممتلكاته في إمارة ابن عباد على يد أحد ولاته أو خدامه والمقصود ابن عمار.

⁷ - لعله حامل الرسالة إلى ابن عباد.

69 - رسالة شفاعة من المتوكل ابن

الأفطس إلى المعتمد ابن عباد¹

[464 - ...]

"... ما يسفر لي - أيدك الله - وجه مطالعتك، ويعن لي سبب مراسلتك، إلا وأجد الزمان قد أقبل بعد إعراضه، وأمد حبل انتقاضه، وأرى المنى تلقى إلي عنائها، وتُدني من يدي إحسانها؛ فإتاك العماد الذي اعتدّه جبلاً الود بحقوقه، ومنهلاً أكرع من صفوه، ومعظماً أعاطيه بقسطه، وأناجيه على شحطه؛ ولما كان فلان - أبقاه الله - قد سبقت به المعرفة القديمة، وسلفت معه الأئمة الكريمة، وأتاني ثناؤه بالغيب عليك أرسالا، كأنما هبّ صباً أو شملاً، لزماني أن أعلمك بمكانه من الانقطاع إلى جهتك، والتحيز إلى فنتك، وأن أشفع له عندك شفاعة حسنة، أدرك معها لذلك كرم الشفيع، ويحوز² بها منك شرف العارفة والصنيع، وهي مئة طوقته إياها، وأطلعته بروضها ورباها، ثم اعترض عليه فيها، وقد شهر ملّكه لها ولنواحيها؛ ويُعيد الله مجدك أن يكون ما وهبت مرتجعاً، أو ما أوليت مُنتزَعاً؛ وأنا أرتقب لها الإسعاف والقبول، كما يرتقب الظمانُ الورودَ والوصول، وإن مننت - أيدك الله - بالمراجعة الجميلة البديعة، وقرنتها بأحوالك المصونة الرقيقة، اقتضيت الشكر من شاكر، كنور زاهر، وغمام باكر، إن شاء الله تعالى..."

70 - رسالة عن المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد بن عباد في التواصل

بينهما والإخبار عن مهاجمة الأعداء لأراضيه من النصاري والمسلمين³ [471-474]⁴

"الفضل - لا زلت له أهلاً، وبه أولى - عن شرف حامله موضح، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح"،

وورد كتابك - لا زالت المسارَ تردك، والأقدار تُسعدك -، بوصول فلان إلى حضرتك - ضاعف الله جلالها، وبسط ظلالها -، وما كان من أخذه عند مثوله،

¹ - الرسالة من إنشاء المتوكل ابن الأفطس كما وردت في **قلائد العقباة** ص 141-142، قارب مع الرسالة السابقة عن الشفاعة في ابن الدّباع وما ورد في **الذخيرة** عن نعبه من إشبيلية (ق3/1م/252-253).

² - في **العلائد**: ويجوز؛ وهي غير مناسبة.

³ - الرسالة من إنشاء الكاتب ابن أيمن كما في **الذخيرة** ق2/2م/666-668؛ وترجمة أبي عبد الله محمد بن أيمن في نفس المصدر ص 652-653؛ **والمعرب** 1/366. ذكر صاحب **الذخيرة** أن المتوكل لما صرف عن خدمته ابن الحصرمي لم يعوّض بعده إلى وزير، غير أنّ ابن أيمن كان من ويرانه وصحبه.

⁴ - بدأ عصر المتوكل ابن الأفطس سنة 464 (إب لم يكن قبل هذا)، وربما كان الضغط البصريّ المشار إليه هو الحملة القشتالية التي انتهت بالاستيلاء على مدينته **قورية** في النهر الشمالي الشرقي لمملكة بطليوس شمال نهر التاجه وذلك سنة 473، أمّا الطرف الثاني المشتكى من نعدّه فلا يكون غير المقنّدر ابن ذي النون على الحدود الشرقية، ففي الواحة الحويّبة توجد مملكة ابن عباد المكتوب إليه، وذلك بعد أن استرجع ابن ذي النون بطليوس سنة 474 إثر ثورة أهلها عليه واستدعائهم لابن الأفطس، فلا يستبعد أن يكون ابن ذي النون هاجم نغور بطليوس انتقاماً لوصوله سابقاً إلى طليطلة وبهب حيرات قصره.

بكرم فرعه التابع لطبيب أصوله، في وصفي بما - والله- قطعني على البعد، وقنعني حياءً من المجد، فأبني ما رأيت مثله سواه، والله يغفر له ما أتاه، ذكر الجود والبحر شاهد، وأسهم في الفضل ورثه واحد، وإذا لا أستجيز موافقة جفائه، بالاعتراض على تقريضه وثنائه، فلا بد أن أعتذر مما استكثر، وأتذم مما استعظم، وأقول: إني ما عدوت في تلقيه ببعض حقوقه، استرسال الصديق مع صديقه، ولو ذهبت إلى معارضة فضله، وتوفية واجب مثله، لضعفت عن ذلك أسباب المقدرة، ووضحت بوقوع العجز وجوه المعذرة، وهو ولي البر والإجمال، فيما عرضه وحسنه من الحال؛ وهكذا من شرف الله محبته، وأطاب مشهده، ومن زكا عنصره، وكرم محضره.

ونكرت في الكتاب الكريم - عقب هذا الفصل، بل سابغ الفضل-، أن ما نقله فلان المذكور إليك، وأورد عني عليك، مما وافق مرادك، وطابق غرضك واعتقادك؛ ولا غرو فاتفق المذاهب والآراء، تبع لتمازج النفوس والأهواء، ونحن بحمد الله في الاتصال يد وساعد، وفي الانتظام جسمان والروح واحد؛ وتقدمت كتبني إليك بما كان من تطرق خيل العدو - بددها الله- جهاتي - طاعتك - حتى كادت تتركها خلاء، وتعيدها عفاء، وأنبأتك أن ذلك لا يثبت معه سلم¹، ولا يرقا عليه كلم، ولا يطيب معه معتقد، ولا يصبر عليه أحد.

والآن فقد ورد ما هو أشد، وطلع ما هو أشنع وأفطع، وذلك ضرب الخيل من قبل فلان على تلك الجهات²، وبلوغها في النكايات أقصى الغايات، فعل العدو المحارب، وعمل الضد المطالب، لا يمر بحصن إلا أناخ بحياله، وجد في قتاله، وهذه حال ليس وراءها إلا الاستئصال؛ فمذهب القوم في حيز الجلي الظاهر، وقد وضع الصبح لذي ناظر، وأهل تلك الجهات مظهرو القلق من اتصال هذا التطرق، معلنو الشكوى، بتجاوز هذه العدو؛ فكيف يسوغ لي وجهاتهم مباحة، وأحوالهم مجتاحة، طلبهم بما تعرفه، والاستعانة بهم على ما نكفهم، أليس ذلك في حد الامتناع، وجانب الأمر غير المستطاع ؟ ..."

¹ - يظهر الحديث هنا عن القشتاليين المجاورين لمملكة نبلوس من الشمال، وربما كانت العملية من أجل السيطرة على مدينة قوريه المشار إليها قبل.

² - يظهر أنه يقصد جيش ملك طليطلة اس دي النوب جاره الشرقي أما جاره الجنوبي فهو المعتمد على الله المكتوب إليه.

ج - مملكة بني عباد بإشبيلية

تقديم:

سبق الحديث عن مملكة بني عباد في المقدمة التي وضعناها لممالك الطوائف، ونشير هنا إلى كون هذه الإمارة كانت أكثر نجاحاً في توسعها على حساب غيرها من الإمارات، ويمكن أن نرجع ذلك إلى جملة من العوامل أهمها:

1- الجانب الإيديولوجي المتعلق بالارتباط بمؤسسة الخلافة المروانية، وتبني الدفاع عنها حتى يمكن مَد نفوذ الإمارة تحت ظلها، سواء كان الخليفة مروانياً حقيقة أو زعماً، ولم تنته هذه الوضعية إلا في آخر سنة 451 بعدما أصبحت إمارة بني عباد مملكة واسعة وقوية وفي غير حاجة لمؤسسة الخلافة المروانية.

2 - ضعف المنافسين الأساسيين في موضوع الخلافة وهم بنو حمّود الأدارسة لكونهم مدعومين من العنصر البربري المكروه في معظم الأندلس - حسب الروايات الأندلسية-، والمدعومين من إمارات صغيرة وضعيفة تبعية أو تحالفاً، وهذا ما مكن بني عباد من إقصائهم أولاً من قرطبة ثم من مركزهم الأخيرة في الجزيرة الخضراء سنة 450 - بعد استيلاء أمير غرناطة على مالقة في السنة السابقة -، وهذا بعد أن قضوا على سائر الإمارات الصغيرة في منطقة الغرب الأندلسي، ولم يستطع أمراء بطليوس منافستهم في هذه الجهة. وبهذا وصلت إمارة بني عباد في منتصف القرن إلى المحيط غرباً وإلى المضيق جنوباً، وستأتي المرحلة الشرقية لاحقاً.

3 - تدبير المؤامرات لمدّ النفوذ شرقاً، فكانت نتيجتها احتلال جيان سنة 466 (وهي ثغر من ثغور غرناطة كانت ألمرية تنازعها عليه) ثم قرطبة في السنة اللاحقة، وكانت هناك أيضاً محاولة فاشلة في دانية بتدبير محاولة انقلاب بواسطة أخي أميرها. وباحتلال جيان فتح ابن عباد الطريق لعمل عسكري ضد مرسية، وهو ما تمّ سنة 471 حيث نجح ابن عمار قائد جيشه في إقصاء أميرها ابن طاهر، فأصبحت مملكة إشبيلية تمتدّ من المحيط غرباً إلى المضيق جنوباً وإلى البحر المتوسط شرقاً، ويظهر أنّ حاكم شقورة أصبح متحالفاً مع ابن عباد أو تحت نفوذه بشكل ما بعد أن سقطت دانية في يد ابن هود سنة 468، فهو الذي قام بالقبض على ابن عمار وتسليمه إلى ابن عباد.

4 - ربّما كان أهمّ عامل لنجاح توسّعات ابن عباد هو بعده عن الممالك النصرانية على عكس ممالك الثغور التي كان الضغط عليها شديداً بالقوة العسكرية وبالمؤامرات داخلها.

5 - فشل محاولات ابن عباد في الامتداد في مملكتي غرناطة وألمرية لصعوبة تضاريس المنطقة ولتحالفهما في غالب الأحيان ضده، فرغم المحاولات الخفية لإثارة النزاعات بين غرناطة وألمرية فإنهما سرعان ما كانتا تعودان إلى المسالمة أو المحالفة بينهما، حتى ولو اقتضى الأمر في النهاية دفع الجزية لملك قشتالة مقابل دعمهما خصوصاً بعد التزام ابن عباد بدفعها وهو أهم ملوك الأندلس. وربّما كان تخوّف ابن عباد من ردود فعل قشتالية في غير صالحه سبباً في مسالمة ملك بطليوس، حيث إنّ هذا الأخير لم يحصل على أيّ دعم من جاره المسلم لردّ الزحف القشتالي على الثغور الشمالية وخاصة سقوط قلمرية وتهديد شنترين نفسها، على العكس من هذا سنرى ابن الأفطس يحاول جهده الدفاع عن طليطلة خلال حصارها من طرف القشتاليين.

5- فيما يتعلّق بالجوار الشمالي لابن عباد وهو ملك طليطلة فإنّ الصراع كان محتدماً معه في عهد المأمون بن ذي التّون أثناء فترة انشغال القشتاليين بمشاكلهم الداخلية خلال الستينيات خاصة، وهذا ما كان يدفع ابن عباد للتحالف مع ابن هود صاحب سرقسطة ضد ملك طليطلة. غير أنّ تولّي أمير ضعيف في طليطلة هو المقتدر ابن ذي التّون جعل مملكته تعيش في اضطراب، وتفتح الباب للتدخل المباشر للقشتاليين مع بداية السبعينيات لحمايته في انتظار الانقضاء عليه بعد اقتطاع أطراف من مملكته. وهذا الوضع جعل المعتمد ابن عباد يطرّوّر علاقاته مع ألفونسو السادس ملك قشتالة بدفع الجزية التي سبقه أبوه إلى دفعها، وإلى العمل معه سرّاً ضد مملكة طليطلة، فلا يمانع ابن عباد فيما يعمله القشتاليون شمال نهر تاجه (وطليطلة تدخل في هذا الإطار)، ولا يمانع ملك قشتالة في توسيع ابن عباد مملكته على حساب الجنوب الشرقي لمملكة طليطلة، وهذا ما جعله لا يحرك ساكناً خلال حصار القشتاليين لطليطلة سنة 478، بل كانوا يحصلون منه على المؤونة التي حُرّم منها أهل طليطلة، ولم يتحرك إلا عندما علم تصميم ملك قشتالة على القضاء على سائر ملوك الطوائف، فأخذ مع بعضهم في البحث عن قوى جديدة داعمة من خارج الأندلس.

71 - رسالة عن المعتضد بن عباد إلى أبي عمر ابن

عبد البر التمرى يستدعيه للاستفادة من علمه¹ [442-؟452]²

"... إن كنا لم نتعارف ثرائياً، ولم نتلاقَ ثنائياً، ففضلك في كل قطر كالمشاهد، وشخصك في كل نفس غير متباعد، فأنت واحدٌ عصرك وقريبُ دهرك علماً بيدك لواؤه، وفضلاً إليك اعتزائه، وكنت كذلك والناسُ موفورون، والشيوخ أحياء يُرزقون، فكيف وقد درس الأعلام والكُدَى³، وانتزع العلم بقبض العلماء فانقضى، والله يبارك في عمرك، ويعين كلاً على برِّك، وإلى⁴ ذلك من مشهور حالك، فبيننا من وكيد التمام السالف، وشديد اتصال الطارف، وأنت له جدُّ ذاك وبه حقٌ عارف، ورعاية مثل هذا منك تُقتبس، ولديك تُلتبس.

ولم تزل نفسي إليك جانحة، وعيني نحوك طامحة، انجذاباً إلى العلم ورغبة فيه، ومنافسة في قضاء حقوق حامليه، والناس عندنا إلى ما عندك ظمياء، ولدينا الذاء وأنت الشقاء؛ فاجعل بفضلك للغرب منك نصيب الشرق، فهو أولى بك وأحق، وعندى لك من الإظام والإكرام ما يضاهاى حالك، ويُسامي آمالك، وقد صار عندى جزء منك متحكماً فيه على المنصور - أيده الله - وعليك⁴؛ وإرادتي أن أجمع شملكما، وأصل حبلكما..."

72 - رسالة عن المنصور [إسماعيل ابن المعتضد]

إلى أهل قرطبة يخبرهم بقرب وصول إمداداته إليهم⁵ [449 - 450؟]⁶

"... إن كنتُ منكم بنبوة، وعنكم بنجوة، فأني شهيدكم بنفسى، وقسيمكم بحالى، أراكم بعين المشاهدة، وأكلأكم بعين الإحاطة، أعدّ كبيركم كالعَمِّ، وصغيركم كابن الأمِّ، فأنتم

¹ - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي عمر يوسف... ابن عبد البر (ابن المكتوب إليه) عن ابن عباد، كما وردت في **الذخيرة** 3/1/134-135؛ انظر ترجمة ابن عبد البر الكاتب في نفس المصدر ص 125-126؛ **والغلائد** 538-539؛ كتاب **الصلة** ص 279، ط. 1966 (ذكر وفاته سنة 458)؛ **بغية الملتمس** ص 307 و**جذوة المفتيس** ص 249 (مات قبل أبيه بعد 450 بدانية)؛ **الإعقاب** 220-222؛ **والمغرب** 2/402؛ **دول الطوائف** 414 (ذكر وفاته سنة 463)، وانظر ترجمته أبيه يوسف في **المغرب** 2/407-408.

² - كان أبو محمد ما زال بدانية في عهد إقبال الدولة، وكتب عنه عهد تولية بقضائها لاس حميس في شوال سنة اثنتين وأربعمائة³ [الصواب 442] (**الكلمة** 2/243).

³ - أي أعلام العلماء فمن دونهم.

⁴ - لعله يقصد ولده الكاتب لهذه الرسالة الذي هو لدى ابن عباد، والمصور المشار إليه بظهر أنه أمير بلنسية عبد العزيز حميد ابن أبي عامر حيث كان يقيم والد ابن عبد البر على الأرجح. وقد امتدت إمارة عبد العزيز بين 411 و 457 أي أنه معاصر للمعتضد بن عباد فيما بين سنتي 433 (وهي أولى سنوات حكم المعتضد) وسنة 452 (وهي آخر سنة لحكم الأمير عبد العزيز).

⁵ - الرسالة من إنشاء أبي عامر التآكزني كما وردت في **الذخيرة** 3/1/246-248؛ كتبها عن الأمير وليّ عهد المعتضد صاحب إشبيلية، وقد ورد في رسالة لاحقة أن لقبه المؤيد والمنصور. قد يكون لموضوع الرسالة أعلاه علاقة بما ورد في **الذخيرة** (نفس المجلد) ص 143-144.

⁶ - تعود الرسالة إلى ما قبل قتل الأمير إسماعيل بن المعتضد، المسمى بالمؤيد والمنصور، وكان أبوه كلفه بحماية قرطبة من تهديدات ابن ذي النوب صاحب طليطلة، وهو هنا يعد أهلها بالوصول إليهم بعد إنجار استعداداته؛ فهل كان انحرافه عن قرطبة وأنجاهه نحو الجزيرة الخضراء في محاولة للاستقلال عن أبيه في هذه الفترة، والذي كانت سبب بكتته؟

الأهل والجيران، والدخائر للزمان، في الدار التي منها خرجت، والبيضة التي فيها نشأت، أفضل دار تتكفني عيائها، وأول أرض مسّ جلدي ترابها؛ فلو أمكن أن تصير إليكم أمدادي مع الرياح، وتطير نحوكم أجنادي بألف جناح، ملياً لدعوتكم، ومسارعاً إلى نصرتكم، لما تأخر ذلك عنكم طرفة، ولا تلبث خطفة، لكن عوادي الفتن، وعوانق الزمن، منعت من العجلة قبل إحكامي لما حاولته من تأليف الكلمة؛ فربّ عجلة تهب ريثاً، ومن أعدّ للأمور عُدتها، وأخذ لها شيكها، كان قميناً أن يكون نظره نافعا، ودواؤه ناجعا؛ ولم أزل أحسم العلل، وأقطع بالفتنة دون الأمل، حتى لانت الأيام بالسماح، وسكنت بعد الجراح، وصار المسلمون إخوة، وفي جميل المعاشرة أسوة، وقبل الرمي تُراش السهام، ويحسنُ التناول بقرب المرام؛ ورأيتُ أنّ استئلاف القلوب المتنافرة، وتواصل الأهواء المتدابرة، أقوى أسباب النجاح، وأشدّ الأعوان على الفلاح، فتأخّرت عنكم متقماً إليكم، وتبقيت دونكم وافداً عليكم؛ ولم أقنع من الأمور بغير التحقيق، ولم أرض من المركب بالتعليق، وقد نقذتُ ثقتي إلى الجهات لتخير الأجناد، وانتخال الأنجاد، ليكون جميعهم صفوة، ولا يشوبهم أحد من الحشوة، وشرطتُ أن يتوجّه من قبلي إليكم ويفد منهم عليكم من له المزية والظهور، والغناء المشهور، أولو الباس والتجدة، والثبات والشدة، والقلوب الأبية، والأنوف الحمية، يسمحون عنكم ببذل النفوس، ويقوم الواحد منهم مقام الخميس، تمتلئ العيون منهم فرة، والنفوس مسرة؛

وفي الثالث من يوم كتابي هذا ينفذ إليكم من الوزراء من تكون حركة الخيل معهم في زمان معروف، واجتماعها في مكان موصوف، إن شاء الله، ليصحّ عند العدو - قصمه الله - أن الأيدي قد ارتبطت عليهم، وأنّ الأعتة قد صُرّفت إليهم، وأنّ الوقت قد أزف، والغطاء قد كشف؛ فإليت شعري أين المفر، أم يقولون نحن جميع صبر، «سيهزم الجمع ويولون الدبر»².

73 - جواب [إقبال الدولة؟] على رسالة للمعتضد

ملك إشبيلية عن محاولة انتزاع ابنه عليه³ [449 - 450]

¹ - الريث: إبطاء، وهذا من المثل العربي: ربّ عجله أعقب ريثاً

² - الآية 45 من سورة السّجدة

³ - وردت الرسالة في الذخيرة 3/ 148-149؛ ولم يذكر ابن سّام الجهة المكتوب عنها، عندما قدّم للرسالة بهذه العبارة: "وكان خاطب المعتضد يومئذ جماعة من حلفائه وقص عليهم ساء مع ابنه، فمن ذلك جواب بعضهم له في فصل قال فيه [أي ابن عبد البر الكاتب]: "تقديم الوصف - أيّدك الله -..." والظاهر أن الرسالة مكتوبة عن إقبال الدولة ابن مجاهد حيث كتب عنه في هذه الفترة رسائل إلى مصر وجهات أخرى. وقد يتعلّق موضوع الرسالة بحبر محاولة الاستبداد بالحبرية الخضراء من طرف ابن المعتضد، فهناك عبارة "الابراع" وعبارة "أعزه الله"، بحيث لا تظهر التهنية بسلامة المعتضد ولا إشارة لمقتل الابن على عكس ما حدث بعد المحاولة النابية التي كان القصد منها قتل المعتضد، فوقع قتل الابن حزاء على مؤامراته، مما يرجّح أن فترة الرسالة أعلاه هي من المحاولة الأولى والمحاولة الثانية. ونورد هذه الرسالة هنا مع رسائل أخرى واردة على ابن عباد لوحدة موضوعها.

"تقديم الوصف - أيدك الله - للوداد والاعتقاد، من المتعارف المعتاد، فيُستفتح به أولُ المكتوب، كما يُستفتح الشعر بالنسيب، لكلي - أيدك الله - أربأ بجلبها عن شاهدٍ غير الضمير، وواصفٍ غير ما في الصدور، وبرهانٍ غير الناظر المشهور، وأرمي شاكلة الغرض، وأصف ما أباتني ليالي على قضض ومضض، ثم ما ردّ باقي الأنس، وشفى لاعيَج النفس، فإنّ الأنباء وردتني عن المنصور أبي الوليد ابنك - ابني أعزّه الله - بانزعاجه أولاً، وأبطأت الجلّية كملاً فأشفقتُ على يقيني أنّ الدّاخلّة تصدّه، والحقيقة تردّه، وأنّ شهامته جمحت به، وصرامته صرمت منه، وأنه حسام ذلق من غمده، وسهم نفذ وراء غرضه وحده، وأنّ ريح الصّبا عصفت عليه وهو لئنُ المعطف، وغرّة الشّباب اهتبلته وهو سلسُ المِقود، لئنُ المصرف، والمرء للخطل والزّلل، وكلُّ مخلوق ففيه النقص والخلل..."

74 - رسالة عن المعتضد ملك إشبيلية إلى أمراء الأندلس

عن إفشال مؤامرتين ضده من طرف ابنه إسماعيل¹ [450]²

"... (3) إذا تُقوضي - أيدك الله - حقّ المشاركة وتُعوطي حقّ المساهمة بين إخوان الصفاء، في صغار الأبناء، فأخلق بتقاضيه في العجائب العقم، وتعاطيه عند الثواب الدّهم؛ وطرات عليّ - يا سيدي وأغلى عُددي - من خطوب الأيّام طارئة ذهياء دهماء، وفاجأتني من ضروب الأقدار فاجئة عمياء صماء، ثارت إليّ من مكمني، وطلعت عليّ من مأمني، وشرعت نحوي من قبل الجنة التي كنت أعدّها لأشباهاها، وأديرها متفينا بها من تلقائها وتجاهها، إلا أنّ الله بصنعه الجميل الذي لا أنفك أشكره وأحمده كفاني أولاً ثم شفاني آخرأ، له الحمد دائماً، والشكر واصباً). وشرخ ذلك - أيدك الله - أنّ الغوي⁴ العاق، اللعين المشاق⁵، إسماعيل ابني بالوداد، لا بالوداد، ونجلي بالمناسب⁶ لا بالمذاهب، كنت قد ملت بهوأي إليه، وقدمته على من هو أسنّ منه⁷، وحبك الشيء يُعمي ويصم، والهوى يطمس عين الراي أو يلمّ⁸، فأثرت به بأرفع الأسماء

¹ - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كتبها عن المعتضد بن عباد (433-461) كما وردت في الذّخيرة 3/ق/1/ 138-143، كتب الأصل منها إلى المنصور عبد العزيز ابن أبي عامر (الذخيرة 137)، ونقل ابن عداري منها ما وصل إلى ابن هود [أو معتطفات منها] فجعلنا ما في البيان بين هلالس (البيان المغرب 3/ 245-248)، وأورد عنان بعضاً من الرسالة في دول الطوائف ص 50-51. والمؤامرة المشار إليها من الابن أبي الوليد إسماعيل الملقب بالمنصور ضد أبيه هي النّاسبة ونواطؤ مع أحد الوزراء هو الكاتب أبو عبد الله البزلباني المذكور سابقاً (الذخيرة 146/1/3)

² - تفصيل الحادثة وسببها في كتاب المنس ص 141-142 وقد جعلها سبة 450؛ انظر أيضاً البيان 3/ 348-349
³ - قال ابن بسّام عن عبد الله ابن عبد البر: "وله رقعة أقتصبها تخفيفاً للتطويل شرح فيها [المعتمد] فنله لابنه إسماعيل...: "إذا تُقوضي - أيدك الله - ... قد يكون هي الرسالة التي وصفها ابن الأبار بالبدعة والتي كتبها ابن عبد البر بدون روية (اعتاب الكتاب، جامعة دمشق 1961، 220-221)، وهذا ما يطهر من كلام ابن بسّام ص 137 في تقديمه للرسالة أيضاً.

⁴ - في الذخيرة: (العبي) وهي غير مناسبة؛ ومن هنا ابتدأت الرسالة في البيان وكذا ما نقله عنان.

⁵ - في البيان: إن الغوي اللعين، العاق الشاق

⁶ - في البيان: بالمكاسب

⁷ - كان قد جعله حاجباً له (البيان 244)

⁸ - في البيان: عين الرائي إذا يلم

والأحوال، [وخصصته بما بيدي من القواعد والأعمال]¹، ووسّعت عليه في خطيرات الذخائر والأموال، وأخضعت له رقاب أكابر الجند ووجوه الرّجال، (ودربته في مباشرة الحروب، وأجرائه على مقارعة الخطوب؛ ولم يكن في ما أحسبه أنّي إنّما أشدّ على نفسي منه شفرة، وأوقد [منه] بالتدريب والتخريج تحت حضنى جمرة)²، وما كنت خصصته بالإيثار، واستعملته في المكافحة والغوار، إلا لجزالة كنت أتوسّمها فيه كانت عيني بها قريرة، وشهامة كنت أتوهّمها منه كانت نفسي بها مسرورة، فإذا الجزالة جهالة، والشهامة شيرة وكهامة، وقد يُفتن الآباء بالأبناء، وينطوي عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء، مع أنّ الآراء قد تنشأ وتحدث، والنفوس قد تطيب ثمّ تخبث، لقرين يصلح أو يُفسد، وخليط يُغوي أو يُرشد، (وكما أنّ داء العرّ³ قد يُعدي، كذلك قرين السوء قد يُردي)، ومن اتّخذ الغاوي خديناً، عاد غاويّاً ظنيّاً، «ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً»⁴؛ (وقد انطوى عن بعض الأنبياء عليهم السلام ما آل إليه أمر بعض بنيتهم، هذا والوحي يشافهم ويناجيهم، فكيف بنا وإلّا نقضي على نحو ما نسمع، ونقطع على حسب ما نرى ونطلع، وليس علينا ضمان العواقب، ولا إلينا علمُ حقائق المذاهب، وهي الخواطر، لا يعلمها إلا الفاطر، والبواطن، لا يحيط بها إلا الظاهر الباطن، وقد يخبث طعم الماء مع الصفاء، ويروق منظر الدّمنة الخضراء، ويذوي ثمرُ التّوحة الغناء، في التّربة الغضراء)....⁵

ولمّا وثب هذا اللعين (الغبين) من المهد، إلى سرير المجد، ودرج من الأذرع، إلى المحلّ الأرفع، (وراه) استغنى، (وأثرى من زينة الدنيا أشدّ ذلك وأبطره، وأطغاه وأكفره، وطلب الازدياد، وأحبّ الانفراد والاستبداد، وقبض له قرناً سوء أعنّوه وأردّوه، وأتيح له جلساء مكر أغروه وأغوّوه، وأشعروه الاستيحاش والنّفار، وزينوا له العقوق والفرار، (لينفرد) وينفردوا معه بالبلد، ولا تكون علي أيديهم فيه يد أحد⁶، فخرج ليلاً بأهله وولده خروجاً شنيعاً فتق فيه قصري، وخرق حجاب ستري، يؤمّ الجزيرة الخضراء⁷ وما يليها، ليتملكها⁸ ويعبث فيها؛ وكنت غائباً على مقربة فوردت، وطيرت في الحين إلى الجهة من يصدّه عنها، ويمنعه منها⁹، فسبقه الخبر، وفاته الوطر، وأوى إلى قلعة (ذي الوزارتين) القائد أبي أيّوب (ابن أبي حصّاد¹⁰ سيّدي، وأفضل عُندي - سلمه الله-) فوجّهت إلى اللعين أعرض عليه قبول عذره،

¹ - ما بين معقبين [...] ناقص في الذخيرة . وناقص هنا عند عنان

² - ما بين هلالين (....) ناقص في البيان المغرب

³ - هو داء الحرب (العاموس المحيط)

⁴ - من الآية 38 من سورة النساء هنا انتهى ما نقله عنان من هذه الرساله

⁵ - في الذخيرة: وفي فصل منها

⁶ - في البيان : ، ولا تكن عليهم يد أحد

⁷ - كانت الجزيرة الخضراء سقطت في هذه السنة في يد ابن عباد بعد أن كانت في يد أحد أبناء القاسم الحمودي.

⁸ - في البيان: ليتملك منها

⁹ - في البيان: فأرسلت في الحين إلى تلك الجهة من يصدّه عنها، ويمنعه عمّا أراد منها.

¹⁰ - في المتن: ابن أبي حصّاد... والنصوب من هامش الذخيرة وكتاب المنين 142: وفي التعليق عليه (ص 296 من المتن) أنه صاحب القلعة المنسوبية إليه وسط كورة شدونة، وهو أحد الرؤساء الذين اشتبهوا بعد انقضاء فترة الخلافة بالاندلس؛ وردت الإشارة إليه أيضاً في أعمال الأعلام 210/2.

وسرّبت الخيل مع ذلك للإحاطة به وحصره، حتّى ألجأه ذلك إلى التّصلّ والاعتذار، وأجاءه إلى الإقالة¹ والاستغفار، فأقلّته² وقبلته وعفوت عنه، وأغضيت على ما كان منه³، وصرفته إلى جميع حاله، [ورددت عليه جميع] ماله، ولم أوذّبه إلا بالإعراض والهجران، وإن كنت قد أنسئته مع ذلك بمزيد الإنعام والإحسان⁴؛ فإذا به كالحية لا تغني مُدارئها، والعقرب لا تُسالم شَبائِها، وكأنّه قد استصغر ما أتى، واحتقر ما جنى، فردّى وسدّى⁵، ما صارت به الصغرى التي كانت العظمى؛ فلم أشعر به إلا وقد ألف أوباشاً (من خساس صبيان العبيد الممتنّين في أنون وجوه التّصريف، إذ لم يطمع اللعين أن يساعده على هذه الفتكة من فيه أدنى رفق وأقلّ مسكة)، ثم سقاها الخمر (وسقى نفسه ليجترئ ويجريهم، ويحول بينهم وبين أدنى ميز لو كان فيهم، وسلّحهم بضروب من الأسلحة المتصرّفة في أماكن الضيق والسعة)⁶، وطرق القصر في بضع عشرة منهم، (وتعلّق معهم الأسوار والحيطان، وتسلم بهم السقوف والجدران، يروم فيّ القضية العظمى، والطامة الكبرى، التي قام دونها دفاع الله تعالى)، فشعرت بالحركة وخرجت، فلما وقعت (عينه وأعينهم) عليّ تساقطوا هاربين، وتطارحوا خانقين خانقين، [فالتقطتهم لقط حبّ السّمسم وقتلتهم، وعجل الله حينهم وحقهم]، وإنما كان رجاؤهم أن يجدوني في غمرة الكرى، أو على غفلة من أن أسمع وأرى، ففالت بحمد الله أراجيهم، وضلت أعمالهم ومساعيهم، وأعجلتهم⁷ عواقب كفرهم وتعديهم⁸.

(وخرق اللعين سور المدينة فازاً بنفسه، وأخرجت الخيل في أثره، فلحق غير بعيد، وسبق إليّ في حال الأسير المصفود، وكذلك سائر الجناة، وباقي العصاة، أظفر الله بهم، ومكّن منهم، وأعثر على جميعهم، فلم يُفلت منهم أحد، ولا فات منهم بشر؛ ولقد اتفق من صنع الله الجميل في من غدر وختر، أن فرّ اثنان منهم فتجاوزا وادي شوش من شرقيّ قرمونة⁹، وكنت قد أخرجتُ خيلاً للضرب على بلد باديس، فخرجا هنالك إلى أيدي تلك الخيل وهي منصرفة بما غنمت، ولا علم لهما بما وقع، فنفقوهما واستاقوهما؛ وحصل في قبضتي جميع الصّبيان من العبيد المذكورين، وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم، وأنفذتُ حكمه العدل فيهم، والحمد لله كثيراً.

فاعجب يا سيّدي لأبناء الزّمن، وأنباء الفتن، وانقلاب عين الابن المقرب الودود، إلى حال الوائر الحسود، والثائر الحقود¹⁰، واعتبر في ورود المساءة من موطن¹¹ المسرة،

¹ - في البيان: إلى الاستغاثه.

² - في الدخيرة: فأقبلته.

³ - في البيان: وأغفت عمّا كان منه.

⁴ - كان المدير لهبره عن أبيه الوير أبو عبد الله البرلياني المهاجر إليه عن وطنه مالقة، فحسن للولد عموق أبيه (كتاب المتين ص 142: الذخيرة 146/3).

⁵ - كذا في الدخيرة: وفي البيان: وأسحق ما ألمّ به واقتنى، فررى وسرى.

⁶ - في البيان: وسقاها الخمر ليستولي معهم بزعمه على الأمر، وطرق القصر.

⁷ - في البيان: وأعجبتهم.

⁸ - في البيان: وتعديهم، ومنها: واعتبر في ورود المساءة

⁹ - ذكر أبي سعيد أنه نهر كبير يمر على مدينة أستجة ويصب في نهر قرطبة (الوادي الكبير)، وعليه قرية مشهورة تعرف بقرية شوش (المعرب 123/2).

¹⁰ - الحملة غير واردة في البيان.

¹¹ - في البيان: طريق.

وطلوع المحنة من أفق المنحة، (وانعكاس بعض الهبات) خبالاً، والأعطيات وبالأل¹، (وقد أربت هذه الحال على كل من جرى له أو عليه من الآباء والبنين عقوق، من السلف المتقّمين، فلم يكن أكثر ما وجدناه من ذلك في الأخبار والآثار إلا استيحاءاً وشروداً، وتبؤاً وتُدوداً، إلا ما شدّ لأحد ملوك الفرس وآخر من ملوك بني العباس.

وجمع اللعين في إرادته ومحاولته بين الشاذّ النادر، والمنكر الدائر، وزاد إلى استباحة الدم، التعرّض لإباحة الحرم، وإلى ما رام من إتلاف المهجات، التسامح فيما كان يجري على العورات المصنونات، ولولا دفاع الله تعالى لامتدت أيدي السُّفّال فضلاً عن أعينهم، واتسع خرق لا قوّة على رتفه معهم، وقد قيل:

هو الشيء: مولى المرء قرن مابين == له وابنه فيه عدوّ مقاتل

وهو زمان فتنة، وشُمول إحنة وبمنة، والناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم، وأصدق من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنّ من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾².

وقد استجلبت من الغرب ابني محمداً - ملتزم شكرك، ومعظم قدرك - وققه الله، لأقعه مقعه، وأسدّ به مسده، (وارجو أن يكون أوطأ أكتاف) وجوانب، وأجمل آراء ومذاهب، واحمد أخلاقاً (وضرائب)، والله أسأل الخير³ (في ما أتى وأثر، وأقدم وأوخر.

نفثت يا سيدي نفثة مصدور، وأطلت في الشرح والتفسير، خروجاً إليك من هذا الخطب الخطير، والملمّ الكبير، وهو خبر فيه معتبر، وقلت: ما له ظهور وظفر، والله يُتمّ النعمى، ويُجمل العقبي، ويوزع الشكر على ما أولاه بمنه، وإياه أسأل أن يجعلك في حيز الكفاية، وجانب الوقاية، حتى لا تُساء بقریب مأمون، ولا بعيد مظنون، بمنه وطوله، إن شاء الله).

75 - رسالة أخرى عن ابن عباد في

نفس موضوع المؤامرة ضده⁴

[750]

"ما أبصرك - إيتك الله - بل أدكرك، وكيف يوقظ اليقظان، وينبّه التّبهان، وحاشا أن تعلّم الخمرة العوان⁵، إنّ الدنيا على الغير موضوعة، وعلى المكاره مطبوعة:

ألا إنّما الدنيا غضارُهُ أَيْكَةُ == إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبٌ

ونقل الطّباع لا يُستطاع، ولا تبديل لحكم الجليل، والدنيا مُنكرةٌ لمتعارفها، متسلّطةٌ بنوابها على بنيتها، المتهاككين فيها، لاسيّما الأحرار، فإنّها تطالبهم بثّار:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت == له عن عدوٍّ في ثياب صديق

¹ - في البياض : وبالأل، وقد استجلبت ابني محمداً...

² - من الآية 14 من سورة النّعاب

³ - في البياض: الخيرة، وهي آخر كلمة في الرسالة

⁴ - وردت الرسالة عند ابن بسام من إنشاء ابن عبد البر، وهو لم يذكر المکتوب إليه، فقد قدّم للرسالة بقوله: "فصل من رفعة لبعضهم يقول فيها: ما أبصرك..." (الدخيرة ق3/م3/154 - 161)

⁵ - من المثل العربي: العوان لا تعلّم الخمرة ؛ يضرب للمجرب العارف (القاموس المحيط)

....¹ وما ظنك بدنيا قلما تسمح بحبرة، إلا أتبعته بعبرة، ولا تجود بمنحة، إلا كدّرتها بمحنة، ولا تسقي شراباً، إلا شابته صاباً، ولا تهبّ نسيماً، إلا قلبته سُموماً، تكاد تسوء بالساعات، وقلما تُسرّ إلا في الفلّات، ثم تُغري بنا الآفات:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض == على الماء خائنه فروج الأصابع
.....² والأنام أغراض، لسهام الأعراض، قلما تتخطاها إن فوّقت، ولا تخطنها إن رُشِقت، وقد يميّتها من لا يثقها، ويتيامنها من لا يأمنها، وأي أمان من زمان، يديب ديبب العقربان، ويشب وثوب الأفعوان، ما أمكنها إمكان، وعن لها مكان، ويسعى بالتميمة، بين الفروع والأرومة، وهيهات أن تصفى حية رقصاء لئيم مسها، قاتل سمها، يهوي إليها الجاهل، ويحذر العاقل، وأي ناج من بأسائها، ولو كان في سويدائها، هي والله ما علمت وتعلم، قريبة العرس من المائم، هكذا عُرفت، وبهذا وُصفت:

ومكلف الأيّام ضدّ طباعها == متطلب في المساء جنوة نار
...³ وإني مُنيّت - أيّك الله- من زمني الخزون، بشقيقة المنون، وكادت تكون؛ فيا لها من حادثة عظمى، وصدمة صمّا، كثرت شيربي، وروّعت سيربي؛ واعجب لسهم رُمي به راميه، ونصل دُهي به منتضيه، أشدّ ما كان له استبصاراً، وبه انتصاراً، وعليه اقتصاراً، وليس يُنكر من الأزمان، عكس الأحوال وقلب الأعيان؛ وتفصيل هذا المُجمل، وإيضاح هذا المشكل، الذي رمزتُ بذكره، وعرضتُ بأمره، أن العاق المُشاق، الجلف السقي، المتمذهب بغير مذهب أبيه، ومن سلف من مُنسلية، ابني إسماعيل، الفاعل بي أسوا الأفاعيل، أحدث حدثاً أشنع، مثله يُستفزع، بما كان منه، واستدّاع عنه، من استهانة عقوقي، واطراحه حقوقي، وشذوذه عن أشكاله، وعدوّه عن سنن آله، وإن جمعه بي منسبه، فقد نفاه عني مذهبه، كالذي استهواه الشيطان، كأما اقتاده في أشطان، وإذا قضى القدر، عَشِيّ البصر؛ وما جرّاه على فُبح فعّاله، ومجانِبته المعهود من حاله، إلا قرناء سوء قَيضوا له، إذ جعلوا يضربون له أسداساً لأخماس، ويكيدونه بكيد الوسواس الخناس، حتّى إذا أوردوه أنشوطه، لم يكن مثلها أغلوطه، هوى به الهوى هُوي الذلو أسلمه الرُشاء؛ ولا غرو فقد تُعدي الصّحاح مباركُ الجُرب، وذلك أتي لما أَرْضَعته لِيان مِقْتي، وملكته عنان ثقتي، وأدنيّت زُلفته، وأبديت رفعتّه، وأقبلته عين القبول، وأحلّته مني محلّ الصلّة من الموصول، وقلدته أعنة السياسة، ووسمته بسمة الرياسة، وأوطأت عقبه الرّجال، وتجاوزت به حدود الآمال، نقلاً من حال إلى حال، حتّى مُدّت نحوه الأعناق، وسارت بذكره الأفذاذ والرفاق، ونيطت به الآمال، ولاذ به الآمال، وجعلت

¹ - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (ومنها)

² - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (ومنها)

³ - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (ومنها)

السيف والقلم من خدمه¹، ووضعتُ الوجوه تحت قدمه، يقول فيُسمع لمقاله، ويصول فيرتاع لمصاله، حتى لقد كادت الأقدام أن تستوي لولا فضل الأبوة، ونقصُ البنوة؛ فلما رأى الدولة قد أَلقت إليه بأزمتهَا، وأقادتَه بأعتتها، استأسد وتممر، واستشعر الأشتر والبطر، وحاول الشفوف، وربما كان فيه الخُتوف، ونزع إلى الاستبداد، منزع الغبي إلى العناد²، ورفض الحقوق، وأثر العقوق، وكفر بالنعمة ونام عن شكرها، فطويت عنه بأسرها، والشكر للنعمة نتاج، والكفر بها رتاج....³

فعلمتُ مرمى قوسه ومنزَع سهمه، كأثما كنتُ نجي سره، وولي أمره، وقد تبصر الظنونُ بغير عيون، فتنبتُ خبره، وقفوت أثره، بخيل كالسيل بالليل، تُعجز طالبها، وتُدرِك هاربها، فلم ينتبه إلا وقد أحيط به، ففزع إلى الاعتراف، وهو يذهب بالاعتتراف....⁴

ومُدارة الحية كيف تنفع، وهي إذا أمكنها اللسعُ تلسع، ولما أبى إلا الإباء، وأسر الشحاء، وحاول العظيمة، وتناول الجريمة، وكاد- وأيم الله - يهدم بنيان الله، لولا دفاغ الله، ألف أغمارا من العبدان كانوا عُكُوفاً عليه، ورُتُباً حواليه، وأطعمهم، في ما صر عهم، وأكثرُ المطامع، تنول إلى المصارع، ولو أنهم أيقنوا أن أنفسهم نَعَوَا، وإلى دمانهم بأقدامهم سَعَوَا، لتنبطوا، وما تورطوا، (لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)⁵، وإذا حان الحين، عميت العين، ورُب ساع بقمه، على دمه؛ فلما جن عليه الليل، والليل أخفى للويل، تساقوا بينهم المُدام، ليقدموا بها أشدَّ إقدام، ورُب إحجام أنجى من إقدام؛ فأخذوا الثبات، وعقدوا اللّيات، وتسوّروا الأسوار، وتخطّوا غير ما دار، وداعى الهوى يدعوهم، وحادي الردى يحوهم، وقد اعتقلوا الردينيات، وتآبطوا الهندوانيات⁶، وشمروا ذيل، واطرعوا ليلا، واقتحموا المهالك، في أضيق المسالك، وترقّوا الجدران، بأشدَّ تمرّد وعصيان، فسقط العشاء بهم على سرحان؛ فما تماكنت أن سمعتُ حسيهم، ولحظتُ شخوصهم، فملئوا فرقا، وتصيروا فرقا، أيدي سبا، يجتون هربا، ويرومون الخلاص، ولات حين مناص، ونفوسهم تودّع أجسادها، وتستحثّ أمادها:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم = إذا رأى غير شيء ظلّه رجلاً

ولم يمتروا أن قدرة القدير، تنقض التدبير، والله عاقبة الأمور؛ وما كان رجاء القوم إلا استغراقي في النوم، وأيقظني القنر، وما بي من حذر....⁷

¹ - ذكر في الرسالة السابقة على أنه قائد الجيوش

² - ربما يشير هنا إلى المحاولة الأولى للاستبداد بالحريرة الخضراء

³ - في الذخيرة (وفي فصل منها)

⁴ - في الذخيرة (ومنها)

⁵ - من الآية 42 من سورة الأنفال

⁶ - الردينيات: نوع من الرماح منسوبة أصلاً إلى امرأة اشبهت بتقويمها؛ والهندويات: نوع من السيوف منسوبة إلى الهند.

⁷ - في الذخيرة: (وفي فصل)

فلما رأى اللعين أن سهمه قد طاش، وقد راش منه ما راش، وأيقن أنه حريقُ ناره التي سقر، وغريقُ نياره الذي فجر، شردَ شيراذ الظليم، على حين لا حليف ولا حميم، وترامى من شرفات القصر، ترامي المذعور بالقصر، وهو ينشد:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى == فاكثُرْ ما بجني عليه اجتهدُهُ

فاعجلتُ إليه هنالك مَنْ عثر وشيكاً عليه، واستاقه استيقاق العاني، فبا وقفة المذنب الجاني، يشكو إلى من يصم عنه، ويتبرأ منه، وسيقت بطانته أسارى، من غير خمر سُكاري، فأقروا بما دبّروا، وبه نُبروا؛ فالحمد لله جاعل تدميرهم في تدبيرهم، وإبانتهم في إرادتهم، ومَنْ حفر لأخيه بنراً سقط فيها؛ واستحضرتُ مشيخة العلماء وجعلتُ الأمر بينهم شوري، إشارة للعدل في القضاء، واثبأعاً لأمر الله تعالى في الغضب والرّضى، فكلمهم حدّ إنفاذ الحدّ، وتلّوا قوله تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا﴾¹.

فكان ما كان ممّا لست أنكره == فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

فاعتبر يا سيدي من هذه الفتن، المضلة لأبناء الزّمن، وانظر كيف يستدرجهم الشيطان، في مدارج العصيان، حتّى إذا قحّمهم الغرر، أسلمهم القدر، وكلّ ذلك مسطور ومأثور، وفي عقوق هذا من البنين، آية للعالمين؛ وما كان هذا اللعين فيما جناه فاجتناه، وشبهه فآلهيه، وكاده فأباده، إلا كالبقرة تبحث على مُديتها بقرنيها، وكالنملة تطلب حتفاً بجناحيها؛ فتباً للأولاد، يتقرّبون بالولاد، ويتباعدون بالوداد، في مصارع الحُساد، إن هم إلا فهود، بأهْب الأسود، يتقلّبون بما صغروا، ويستأسدون إذا كبروا...²

ولعلّ قائلًا قد سلب المعقول، بصول يوماً فيقول، ويطعن ويغمز، حيث لا مطعن ولا مغمز، ويحتلني الفظاظَة والقسوة³، ويعتدّها وصمة عليّ وهفوة؛ ورُبّ سامع بخبري، لم يسمع عذري، ولستُ ببدع مَن ظلم فانتصر، وخولف فما اضطبر، ولا بنكير مَن أرضى باريه بإسقاط أهليه، إنّ لي في من سلف أسوة، وبالنبيّ عليه السلام قدوة؛ ولو نظر بعين الحقيقة، ولم يعدل عن سنن الطريفة، لكان من أنصاري، في إقامة أعداري: هذا خليل الرّحمن، وكان في الأنبياء مَن كان، لمّا تبيّن أنّ أباه عدوّ الله تبرأ منه، وقد تلّ أيضاً - عليه السلام - ابنه الذّبيح للجبين، ووضع في حلقه السّكين، وهو من أبرّ النبيّين، اثبأعاً لأمر الله حتّى فداه الرّبّ الكريم، بالدّبح العظيم، وصبر على ما لو حلّ بالصّخر لفلقه، أو بالحجر لفرقه؛ وهذا عمر بن الخطّاب، وكان مَن كان في الأصحاب، قد قسا قلبه على أبي شحمة، ولم تأخذه فيه رافة ولا رحمة، حين جلده حتّى فقده، وصبر غير مكتئب، صبر المحتسب، إرضاءً لباريه، وتقرباً إليه بما يرضيه؛ وكان لبعض بني العباس، وهم أنمة النّاس، في ابنه العاق ما قد درس خبره، وطمس أثره؛ ولولا أنّ الإطالة، تُفضي إلى الملالة، لأوردتُ من خبره

¹ - من الآية 35 من سورة المائدة

² - في الذخيرة (وفي فصل)

³ - يظهر أن المعنى اتهام الوالد بالقسوة والفصاضة مع ابنه باعتبارها سباً في عصيانه.

الأشنع، ما فيه مَقْنَع؛ وأحدثهم عهداً في هذه العصور، عبد الله الأمير وأبو عامر المنصور، فأما عبد الله فقد قُتِلَ ابنه محمداً، لما أحسن منه تمرّداً، وكان قرّة عينيه، فما عيب ذلك عليه، وأما المنصور، - وحسبك به جزالة وحزامة في الأمور -، فقد فعل بابنه عبد الله ما فعل لما عصى، وشقّ العصا؛ هذا وما بلغا هذا المبلغ، ولا ولغا في الدّم كما كاد هذا اللعين أن يُلغ؛ ولو اقتصصتُ فوق ما نصصتُ، لأطلتُ وأمللتُ، لكن اجتزيتُ بمن سميتُ؛ وأيّ عذر يقوم لمن مكّنه الله في بلاده، وحكمه في عبادته، ألا ينفذ حذّه الذي حذّه، ويؤثر فرضه الذي فرضه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾¹، ولولا عقابُ المسيء، لقلّ من لا يُسيء:

والظلم في خلق النفوس فإن تجد == ذا عفة فلعله لا يظلم

ولا غرو أن أسهبْتُ وأطنبتُ في خبر المغرور، فإنّها نفثة مصدر، وما أطقْتُ تجرُّع الغصص، في كتم هذه القصص، التي فيها عبرة لأولي الألباب، وما كان هذا الذي طرا، حديثاً يُفترى، ولا هذا الذي طرق، نبأ يُخلَق..."

76 - رسالة أخرى عن المعتضدا بن عباد

في نفس الموضوع إلى جهة مجهولة² [450]

"المحن على ضروب، والنوائب تجري بمعضلات الخطوب، فتفجأ بالرقم الرقماء³، وتطرق بالذاهية الذهياء، وتأتي بالغريبة الشنعاء، فلا وافي سواه، ولا مُجبر من بَغَنَاتِها حاشاه؛ وهبِ الحازم ارتقب الخطوب مُعداً لها من سننها، ولقي المكاره بسلاحتها وجننها، كيف له بعلم خفيات الضمان، وخبيئات البواطن والسرائر! إلا أن لطفه الخفي، وصنعه الكافي الحفي، يكلن من توكل عليه، ويعضدان من اعتضد به واستند إليه؛ وكنت قد اختصت من ولدي الحائن⁴ الجاني إسماعيل بضروب من الإنعام، والإحسان والمبرة والإكرام، وملكته زمام أعتة الجنود، وأظللته بظل خافقة البنود، وأرضعته ثدي الحرب، وجرّاته على مقارعة الطعن والضرب، وأنفذت أمره ونهيه، وأجزت فعله ورأيه، فقُصرت علي أقاصي المطامع، وأشير نحوه بالأصابع، ودُعي بالرنيس الأمير، ولقب بالمويد المنصور؛ إلا أن ظن المرء يخطئ ويصيب، والله أستاذ دون علم الغيوب، وليس على المرء ضمان العواقب، ولا كُلف سوى الاجتهاد في المطالب، فإنما هو بشر، يقضي بما ظهر، والله ما بطن واستتر:

فإن كان نبي أن أحسن مطلبني == أساء، ففي سوء القضاء لي العذر

¹ - من الآية 49 من سورة المائدة

² - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كما وردت في الأحياء 3/1/161 - 165 وقد قال ابن بسام في تقديمها: "ومن رقة أخرى أيضاً في ذلك محمولة [الغائل]"

³ - أي الذاهية الذهياء

⁴ - كذا في الهامش، وهو الأصوب: وفي المتن: الحائن

وكان ينبئ ظاهره من الاجتهاد منتهى الاستطاعة، ويُجري أمره إلى غاية اللازم من حدود الطاعة، إلى أن علق به مَنْ أغواه من شياطين الإنس فزَيْن له زخرف العُرور والفسوق، وقذف به في هوة الخذلان والعقوق، فأحال طينته إلى أخْبثِ الثُّرْب، وقد تُعْدي الصَّحاحُ مَبَارِكُ الجُرب، ونقله من الطبع الكريم، إلى الخُلُقِ النَّميم، وعَوَضه من طاعة الرِّبِّ والأب، آفة الكُبر والعُجْب؛ وحين لبس ثوب الغرّة والخِيلاء، وقاد الجيوشَ ملءَ الفضاء، واستضاف إليه مَنْ استضاف من شِرار القُرناء، طمع في بلد لا تكون عليه يد أحد، ليستعمل السُّفَه والجَهْل، ويُهْلِك الحرث والنَّسل، ويأبى دفاع الله من ذلك، فهو أَرَأف بخلقه من إسلامهم للمهالك؛ وطار النبأ إليّ، وسقط الخبر عليّ، فبلغ - عزّ وجلّ- من الكفاية غاية الأمل، وخاب سعيه، وقال رأيّه، ونديم ولات حين مندم؛ فتحرّكت مَنى الرِّحمة التي قطعها، وحثّت الرأفة التي نبذها وخلعها، فعفوت عنه، واعتلق بحبل الإنابة، وأسرع الدّخول في باب الإجابة، وهو منظور على شَرِّ ضمانره، ومُسِرٌّ لأخبث سرائره:

وأظلم أهل الأرض من بات حاسداً == لمن بات في نعمائه يتقلبُ

وقبِلْتُ توبته الظاهرة، وأقلت زلة قدمه العائرة، ولم أخْله فاضلاً اهتِبالي واعتناني، ولم امنعه غير قربي ولقائي، فأطغاه ذلك وأبطره، وأطمعه في نيل ما كان أضمره، فرام النّي لا شوى لها¹ ولا بقاء معها،

أريد حياته ويريد قتلي == عذيرك من خليلك من مُراد

.....

سبكانه ونحسبه لجيناً == فأبدى السِّبْكَ عن حُبِّ الحديد

ولعمري لئن أنجلته أباءُ سرو وصدق، لقد سرى فيه للخؤولة لئيم طبع وعرق، ولا غرو في هذه الحال، فقد يستحيل الزعاقُ من الزلال، وبنام عرق الأب ويسري عرقُ الخال:

وأولُّ حُبِّ الماء حُبُّ ترابه == وأولُّ حُبِّ المرء حُبُّ المناكح

فعاقد سقاطاً من خساس صبيان العبيد المتصرّفين في أحط المراتب عندي، المنحطّين عن الكون في جملة جندي، إذ لم يجد مساعداً على هذه القضية مَنْ فيه أقلُّ مُسكّةٍ وبقيّة، فاستهوى ضعف عقولهم، واستنفر قليل تحصيلهم، وسلّحهم بسلّاحي، وراشهم بفضّل جناحي، ودعاهم إلى عصيان ربّهم وأمري، والتعرّضَ لهتك سلطانهِ وسِتْري، وتسّموا مُنيّف الأسوار تسنّم الوُعول، بعد أن سقاها صِرف الشُّمول، التي تذهب بوافر العقول، يظنّونني نائماً ويحسبونني غافلاً، والله ليس بغافل ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾²؛ وكان عدد الفتيان الفجّار كعدد خَزنة أهل النار³، فأطلعني الله تعالى على حَسَمهم، وأسمعني خفيّ ركزهم، فثُرْتُ من الفراش، رابط الجاش، فولوا على الأعقاب حين رأوا شخصي، متساقطين على الأنقان إذ سمعوا

¹ - أي فتكه تصيب مقبلاً

² - من الآية 44 من سورة إبراهيم "وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ".

³ - ابتباس من الآية 30 من سورة المدثر

صوتي، وعاد الخائن الحائن إلى سور المدينة بعد أن خرق إليه، ورائد الموت يجول بين عينيه؛ فغير بعيد ما أسرته الخيل أسرا، وقيد إليّ عنوة وقهرا، وكذلك شيعته المارقة، وصحابته الجانية الفاسقة، فلم يفلت منهم بحمد الله أحد، ولا أجاره مكان ولا بلد، حتى أخذ الله تعالى بثاره منهم، وأقام حدوده فيهم؛ وأنا متأس في هذه الرزية، بكبار ملوك الإسلام والجاهلية، فقد تعدى عقوق الأبناء إلى كبار البشر والأنبياء حتى قال الله تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾¹؛ والرب تعالى يخرج الخبيث من الطيب، ويقضي ما شاء في علم الغيب، لكني على العلات، ورعاية الحرمات، أرضي طاعة الله تعالى في من عصاه، والتزم أمره في من خالف رضاه: وإن السيف في الباغي جزاء = أحق به من النسب القريب".

77 - جواب عن المعتضد إلى ابن هود²

في شأن [المتأمرين] ضده بقرطبة [449-450]³

"من اعتقدك - أعزك الله - عمادا له وظهيراً، ورأك عتادا وذخيراً، طالعك بحاله وأمره، وأطلعك على حلوه ومُرّه، وخرج إليك عن سرّه وجهه، ونجاك بمخترجات صدره ومعتلجات فكره، مستريحاً إلى التجوى، بالغاً عذر نفسه في الشكوى، واثقاً بقضائك الفصل فيما يورده، عالماً بحكمك العدل في ما يعتده، راضياً بإنصافك في ما يقدره لديك وبمهمّده، والله لا يُعْدمني الاستظهار برأيك أعشو إليه سراجاً، وسعيك أحتذي عليه منهاجاً؛ وقد علمت صورة حالي مع المدبرين لقرطبة وصبري لهم في الخطير والجليل، وانجراري معهم الزّمن الطويل، مُغضياً لهم على ما يوحش ويُرّيب، مغمضاً لهم على بوادر لا تزال تنوب وتنوب، على أنها جنابات قعدة، لا نكيات مرّدة، وأنّ وسعهم لا يتعدى هذا الحدّ، وطوقهم لا يتجاوز هذا الجدّ...."⁴

فلم تزل عقارب سعيهم إليّ تذبّ، وريح جنابات بغيهم عليّ تهبّ، وأنا في كلّ ذلك أقابل تخشينهم بالتليين، وأتلقى غليّ مراجلهم بالتسكين، أتغاضي عما يردني منهم مرّة، وأغالط نفسي في التأويل تارة، ولا أقارضهم عن شيء ممّا يطالبونني فيهم مساترة ومجاهرة، مع إمكان المقارضة سرّاً وعلانية، طاعة مني لعواطف النفس في الإبقاء على الجنس ما وجدت إلى الإبقاء سبيلاً، وعليه مُعينا؛ وكنت أرجو مع ذلك أن يثوب ثائب استبصار، ويخطر خاطر

¹ - من الآية 46 من سورة هود

² - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر النمري كما وردت في الذخيرة ق/1/3-135-136؛ ومن المحتمل أن ابن هود المقصود هنا هو المقتدر (438-474)؛ وعن الحادثة صد صاحب إشبيلية ربما هي المتعلقة بمحاولة ابنه ومعه ضده (المذكورة سابقاً)

³ - العنبر الأولى التي وقعت فيها محاولة انتراء الابن على أبيه توافق سنة 449 على الأرجح، ثمّ المحاولة الثانية لقتل أبيه وكانت خلال سنة 450.

⁴ - بعد هذا في الذخيرة: (وفي فصل منها)

إفلاق وإقصار، فلا والله ما يزدادون إلا تمادياً في الإضرار؛ والعجب كلّ العجب أنهم يمالئون عليّ أعداءهم المنابذين، وواتريهم المطالبين، الذين صيّرُوا ملاءمَ بَدَدًا، وعصاهم قَدَدًا، واستباحوا دماءهم وأموالهم، وغيّروا آثارهم وأحوالهم، وجاهدوهم جهاد الكفار، وساموهم سَوَمَ أهل الذلّة والصغار، فكفكتُ عنهم غريبهم، وشغلّتُ عنهم بنفسي حربهم، ولو أغمضتُ فيهم، ولينّتُ لواتريهم ومُطالبيهم، لما كانت صدور مجالسهم ومجامع أُنديتهم لأفراسهم إلا مرابط، ولا عاد أهل دارهم وعامرُ أفنيّتهم لخيْلهم إلا مسارحَ وبسانط؛ فما ظنك ببصائرٍ تقلّب - في طلب الثار ومناذرة العدى الفجار - الطبايع، وتغلب - في مهاجرة الخوارج المُراق الروافض الفساق - الشرائع، فاعجب لهذا الاعتزاء بالمخالفة، والانتهاز في المكاشفة...."

78 - جواب عبد العزيز ابن أبي عامر صاحب بننسية

على المعتضد في موضوع تأمر ابنه عليه وقتله¹ [450]

"الدنيا رَنقة المشارب، جَمّة الثوائب، تسلك بأهلها كلّ سبيل، وتُريهم من خطوبها كلّ معلوم ومجهول، تقطع ما تصل، وتمنع ما تبدل، وتسوء من حيث تُسرّ، وتخون من حيث تفي، لا تمتنع بحال، ولا تدوم على وصال، وهذا أصحّ دليل على هوانها وصغارها، وأوضح تمثيل في تفاهة شأنها ومقدارها، وإن كثر فيها الثنافر، وعظم فيها التقاطع والتدابير، فنسال الله ألا يصرفنا عن التوفيق، ولا يعدل بنا عن سواء الطريق.

[.....]² وإن كتابك ورد بما لم يقع في تقدير، ولا عن مثله في ضمير، من الذاهية الدهياء، والمعضلة الشنعاء، والحال الحادثة مع من رينَ على قلبه وعقله، وغبنَ في حظه ورشده، فزاغ عن نهاه، واتخذ إلهه هواه؛ ولقد وقفتُ بك - عمادي - على عبرة المعتبرين، وعظة المتدبرين المستبصرين، فإنّ الذي رمتك به الأيام لغريبة الغرائب، تؤذن بانقطاع الخير، وارتفاع البر، أفلا راعي أولاً ما أوجب الله تعالى - تقدّست أسماؤه - للأبناء على الأبناء؟ فإبته ذكرهم بذكره، وشكرهم بشكره، فقال ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾³، وقال ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾⁴، إلى ما جاء في العقوق، فقد قيل: إنّ العقوق هُلك، والمُروق شرك؛ وقيل: عقوق الوالدين يُعقب التكد، ويمحق العدد، ويُخرب البلد؛ ثمّ هلا راعي آخر ما سوّغته من النعم التي غُبط بها، وحُسد فيها، وما خصصته به من العزة التي بذ فيها الأنداد، وشأى فيها الأتراب والحُساد؛ ولكنّ شيطان الغرارة أغواه، وسلطان الجهالة أَرَداه، مع قرناء سوء فَيَضُوا له زِينوا له ضلاله، وأفسدوا عليه حاله، وبحقّ قيل:

¹ - وردت الرسالة في الذخيرة ق3/1/149-150، ولم يذكر ابن بسّام مشنئ الرسالة وإنما قدّم لها بقوله: ومن جواب ابن أبي عامر له: "الدنيا رَنقة المشارب...."

² - في الهامش إشارة إلى نسخة أخرى أفادت بوجود بتر عوّض فيها عبارة (وفي فصل منها: وفاني كتابك بما لم يقع...)

³ - من الآية 13 من سورة لقمان

⁴ - من الآية 23 من سورة الإسراء

الوحدة خير من الجليس السوء، و﴿من يهد الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾¹؛ وقد صنع الله لك صنعا جميلا، ودفع عنك جليلا، وأجراك على ما عودك من فضله، ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾².

فالحمد لله على نعمة خولها، وولاية أجملها، ومكيدة نقضها، وسعاية دحضها؛ وفي علمه احتراق نفسي لهذا الحادث الكارث، ومشاركتي في هذه الملمة المدهمة، التي لم أخلها من حالتي الإشفاق والجزع، وخطتي الارتماض والتفجع، وإن الأمر عندك وزئه عندي، وماخذك منك ماخذ مني...."

79 - جواب ابن مجاهد في موضوع المؤامرة

ضد المعتضد من طرف ابنه إسماعيل³

[450]

"وافتنني - أيدك الله- مساهمتك الكريمة، ومشاركتك السليمة، الصادرة عن الصدر السليم، المقضية للحمد والشكر العميم، وقد كان سبق كتاب قبل بما لزماني في الحادثة الأولى⁴، فقلت: حسام ذلق، وسان زلق، وشباب عصف، وجواد جمح فأسرف، وعثره تستقال، وغرارة يرفع بها ذلك الاختلال؛ ثم بعد نفوذه وردني النبأ على عقبها، بما صغر تلك على عظمها⁵، فتردنت شرقا، واضطربت قلعا، حتى استوضحت من قبلك الأمر، على آخره، وتلقيت منك الخطاب بموارده ومصادره، منسوقة مراتبه ومناقله، مشروحة أعجازه وأوانله؛ فما ساهمت إلا من تلقى ما أنهيته بنفسك، وشرب ما عاطيته بكأسك، وشاطرك الحال بنصفين، وكان هو وأنت في القضية سيئين، فتجرع ما تجرعت، واستفطع ما استفطعت، واستغرب ما استغربت، واعتبر بما اعتبرت، وفي الأيام والليالي معتبر، وإنها - لكما ذكرت ووصفت - عقيمة معجبة، وعقاء مغربة، وما شهدت لها أخت إلا من أحد الفرس وأخرى من بني العباس، كما ذكرت، وقديما استغوى الشيطان، وكان للمرء سلطان، والزمان بمثلها جواد، ولإطلاع الغرائب معتاد؛ وقد أوتي صاحب الخضر على علمك من أقرب الولد رجما، وأضعفهم نفسا وجسما، ومن سوق بني أمية وغيرهم الجماء الغفير، والعدد الكثير؛ وكثيرا ما شاهدنا وسمعنا بقاتل نفسه، وهي أكرم النفوس عليه، وأكل جسمه وهو أحب الجسوم إليه، وقد يفيض الذاء من التواء، ويشرق المرء بالماء، ويؤتى الحزير من مأمنه، ويجتنى القبيح من حسنه، والأدواء تنور في الولد، كما تنور في الجسد، وتتولد في القلب والكبد، وقرناء السوء يكدرون الأصفياء، كما يكدرون

¹ - من الآية 17 من سورة الكهف

² - من الآية 43 من سورة فاطر

³ - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما ورد في تقديمها في الدخيرة ق/3/150-152

⁴ - بقصد محاولة الابن إسماعيل الاستبداد بالجزيرة الخضراء قبل التحايل للقيص عليه وعفو أبيه عنه.

⁵ - هذا لأن المحاولة الأخيرة كانت تستهدف اعتيال المعتضد نفسه وليس فقط التمرد في بعض جهانه.

المَشْرَبَ العَذْبَ الذَّلَاء؛ وما ندري - يا سيدي - إلا أنك أردت إقالته والله قد عثره، واعتقدت استعاضته والله قد غيره، وأياسك منه بقبيح فعله، وأسلاك عنه بعظيم جرمه، وكنت معه والله مع غيره، وأردته وأراد الله سواه، ولا مانع لما أعطى، ولا مُعْطِي لما منع؛

وليس لأمر حاول الله جمعه == مُشِيتٌ ولا ما شئتَ الله جامعٌ
وقال الله تعالى لنوح عليه السلام بعد قوله: ﴿إنه ليس من أهلك، إنه عملٌ غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾¹، وقوله للخضر عليه السلام: ﴿فأرنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً﴾².

وكل مصيبات الزمان إذا أتت == فهن سوا ما لم يُصِبْن صميمي
وما زادت هذه على أن وقى الله صميمك، وصان حريمك...."

80 - رسالة عن المعتمد ابن عباد

حول غدر من عقد معه سلماً³

[.... -]

"... قل ما ينفع صلاح الظاهر إذا فسدت الدخلة، ولا يُغني اندمال الخارج ما كانت العلة؛ وكتابي هذا يوم كذا وفي ليلة طلع عليّ الخبر بما تستغربه من غدر أهل فلانة⁴ لي، وعقد السلم بيننا لم يجف مداده، وعهد التواثق لم يكد يفصل أشهادهُ؛ فانظر فعلهم ما أقبحه، وتأمله فما أفصحه، واعلم أنّ غائلتهم لا تُطفا أبداً نائرتها، ولا يؤمن على حال نائرتها..."

81 - رسالة عن المعتمد حول انتصار ابنه "الظافر"

على جيش عدوه [المأمون ابن ذي النون]⁵

[463]

"... ومن أحدث نعم الله الممنوحة عهداً، وأبعدها في التمام والوفور حداً، ما أتاحه الله في المغالط المعجب، القويّ المَجِيء والمذهب، فلان - ضاعف الله إذلاله وإخزاءه، ووقاه على ذميم السعي جزاءه-، فإنّ حاله جرت على ما أصفه: سلف من ضلالته في موالة التعريض للحضرة وسائر أعمالها ما أثاره الحسد المُدوي لصدوره، والقلقُ الغالب

¹ - من الآية 46 من سورة هود

² - الآية 80 من سورة الكهف

³ - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة عن المعتمد كما وردت في الذخيرة 266 / 1/2؛ وترجمة ابن القصيرة فيها في ص 239-240؛ وفي القلائد 305 وما بعدها؛ وفي إعتاب الكتاب ص 222؛ الذيل 227 / 6، (بيروت 1973)؛ الإحاطة 516 / 2.

⁴ - قد يكون المقصود مملكة غرناطة التي كانت في براع شبه دائم مع مملكة إشبيلية، وفي إحدى رسائل المعتمد في موضوع مقتل ابنه إشارة إلى عارة لقوانه على أرض مملكة غرناطة وعودتها بالعائم (الرسالة رقم 73).

⁵ - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الذخيرة 275 - 276؛ وذلك بمناسبة انتصار الظافر ابن المعتمد على جيش ابن ذي النون وإبعاده عن قرطبة، غير أنه قضى على حكم بني جهور بها وألحقها بمملكته جاعلاً ابنه الظافر نائباً عنه بها. ثم إن ابن عكاشة قائد ابن ذي النون تمكن من إلحاق الهزيمة بالظافر وقتله وإلحاق قرطبة بمملكة طليطلة.

على صبره، واتفق له من إمهال الله تعالى إياه، وتنكيب الحوادث عن ذراه، مدة عنه، اتفاق أجره رسته، وأسلگه في الغواية سنّه، حتّى ظنّ أنّ الحوادث لا تريبه، والنوائب لا تنوبه، وحسب أنّ الأيدي لا تمّد إلى مطالبته، والأمال لا تطمح إلى معارضته، وقديماً خان هذا المعتقد أهله، وأبان لمن سكن إليه جهله....¹

ولم يبعد أن خرج في شهر رمضان على عادته من الاستخفاف بعظيم حرمة، وترك المراقبة لأهل الإسلام وذمته، بعد أن تاهّب واستجد واستمدّ، والعجب قد أطغاه وأبطره، والشره قد غطى سمعه وبصره، والمطامع قد تشعبت عليه، وبسطت في انتهاز الفرصة يديه، فأخرجتُ ابني الظافر مستعيناً بالله معوّلاً عليه، متبرناً من الحول والقوة إليه؛ فلما دنا من المحلة الدميمة واصطقوا إزاءها، اقتحم سرّ عانُ رجالنا نهراً كان بينهم مبادرين غير هيّابين، ونشأت بين الفريقين حرب أجلت عن أعداد صرعى من أصحاب المخدول، ثمّ تلا ذلك عيون كافة العسكر، وصدقت الحملة على الخائنين كذا، فلم يلبثوا أن ولّوا مدبرين، وألقوا بأيديهم منهزمين، والأسنة تحفزهم، والجلاد يُزعجهم، فانحجزوا بالحصن وأسلموا محلّتهم، فحيزَ جميعها، وغنم من كراهم وسلاحهم وسائر أسلابهم جُمْل نفوت الحصر، وتُعجز الوصف؛ وبقي المخاذيل إلى آخر النهار، ثمّ خرجوا مع المغيب، وشعر بفعلهم، فاتبعتهم الخيل إلى النهر، فتهافتوا فيه تهافت الفُراش في النار، وفرّوا على عاجل البوار، وكان الشاذّ منهم من سلّم، والجَمّ الغفير من غرق وتلف، والله حسيب من أورطهم وأغراهم، والمنتم من قادهم إلى منايهم؛ وأمّا المخدول المعهود خورّه، والشديد تهوّرّه، فإنه سقط عن مركبه في تلك الصدمة سقوطاً أوّهه وكلمه، ولولا من كرّ عليه حتّى أقلّ واحتمل، لحصل في ربة الأسر، ولغلق رهله إلى آخر الدهر...."

82 - مقتل والي قرطبة ابن المعتمد ابن عباد إثر

سقوطها في يد ابن عكاشة قائد ابن ذي النون²

[467]

"... كتبت على أثر النازل الشنيع، والرزء الفظيع، الذي صدع كبدي وفتّ في عضدي، وأتكلني من كان القرّة لعيني، ما جرى على الفقيّد الشهيد عباد ابني مجلّك - كان - رحم الله مصرعه، وبرّد مضجعه، وقتل قاتليه، ووقر لي أجر المصاب فيه. وشرّح هذه الفاجعة، والقاصمة الهاجمة: تسببت من مثابة العدو المبين المفتون، جاري الدميم الجوار، القبيح الآثار، ومجاهرة الفاسق المعروف بابن عكاشة، دليله في سبيل التسلط والعدوان، وسهمه إلى أغراض التمرّد والطغيان، على السعي الخبيث الذي

¹ - بر في الدحية عوّض عبارة (وفي فصل منها).

² - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الذخيرة 2 / 1 / 266 - 268. قال ابن سّام في تقديمه لها وهو يذكر إنشاءات ابن القصيرة: "وله من أخرى إثر دخول ابن عكاشة [فائد المامون صاحب طليطلة] قرطبة وقبّله لابن عباد واليهما، وقد وجدت هذه الرقعة في بعض التعاليق منسوبة لابن الباحي: كتبته على أثر النازل الشنيع"

لا يُصرَّ على مثله إلا منحرف عن الملة، منسلخ عن الخير بالجملة، طلب الغرة في قرطبة حتى أصابها، وارتقب الفرصة حتى ولج بابها، ليلاً في زمرة من أخايث أصحابه، بعد أن هَيَّئَ له فتحه¹، ودخل المدينة وصادف السُّرب أمناً غريراً، والعدد قليلاً نثيراً، ويمم موضع المطهر بالشهادة، فنذر بهم وخرج مطالعاً للأمر، فلم يبعد أن غشيه المردة فنبت لها مدافعاً عن نفسه حتى أفيضت، رحم الله موقعه فريداً مُسَلِّماً، وأقره في جواره العزيز سعيداً مكرماً.

ثم عاث المذكور في البلد، واستثار أشباهه من السفلة الأراذل، في استباحة المنازل، فأجابوه وانضموا إليه، وصار جمعه منهم وبنوت أمره بهم، وأما سائر الأعلام والأسواط فبرءاء من هذه القصة، ناوون عن المشاركة في هذه الدنية، بغتهم من الحال ما لم يعلموا، ففوضوا وسلموا².

وبادرت إلى عرض ما وقع على فضل تأملك³، لترى جد هذا العدو المطالب، المُشاق المناصب، وإكبابه على التسلط والتمرّد، إلى أن انتهك الحرمة، ووتر في الولد، غير مبالٍ ببعيد ولا قريب، ولا ممسكٍ مخافة إنكار ولا تثريب، والرّب لبغيه بالمرصاد، والقاطع بأمله في الانبساط والازدياد...

83 - رسالة عن المعتمد ابن عبّاد باستعادة

قرطبة من بني ذي النون إلى نفوذ⁴

[467-468]

"... وأنفثته عندما عادت الحضرة إلى يدي وانتظمت ببلدي، على صورة من التيسير ضاعفت حسن مواقع العارفة بها، وبشّرت بلواحق النُصر المترادف بعقبها؛ وذلك أن أهلها الصادقة في محبتنا أهواؤهم، المثقفة على طاعتنا آراؤهم، لم يزلوا على مثل الجمر تقلباً ممّا جرى قبل على غير اختيارهم، وتوجّعاً لما كان انقضى علينا في جوارهم، نابين عمّن وليّ أمرهم بعدنا، مستقصرين لشانه عندنا، إلا النفر اليسير، والثّافة الحقير، من سفهاتهم الذين سبّبوا تلك الوهلة، وظاهروا على تلك الغفلة، ولم يكن لهم أولاً علم بما سئوه والحموه، ولا رضوا آخراً بما جنّوه وارتكبوه؛ فتحرّكت من وقتي، ولم أكد أطلّ على أفقهم إلا والإشارة علينا، بأثوابهم إلينا⁵. أن أقدموا وصمّوا، فاقتحمت من النّهر مخاضة، توازي الرّبض الشرقيّ منها، وثار أهلها معي داعين

¹ - الإشارة إلى من تعاوّن معه من حراس المدينة.

² - لعله يشير إلى قائد المدينة محمد بن مرزبان العافل عن الأحداث والمتهاون بابن عكاشة الذي كان قائداً لبعض حصون ابن ذي النون المجاورة (ذكره ابن الخطيب على أنه وزير الظافر أثناء تولّيه قرطبة، أعمال الأعلام 151/2، 158).

³ - لا تدري من يخاطب هنا، فقد يكون أحد حلفائه مثل ابن هود.

⁴ - الرسالة مي إنشاء ابن القصيرة كما في الدخيرة 272-273.

⁵ - أنشد حسان بن المصيصي قصيدة يمدح فيها المعتمد ويصف إشارة الناس إليه من سور المدينة في أحد أبيانها :

وليسوا يعرفون قد أشاروا لساحل == ولكنهم عرقوا أشاروا إلى بحر
(الدخيرة 1/2 ص 273)

بشعاري، معلنين بانتصاري، وكلمة ثاري، يكسرون بين يديّ كلّ غلق يعترضني، ويفتحون كلّ مُرتج ينتصب دوني؛ وأحسن ابن عكاشة ومن معه من الشيعة المفلولة بمكاني، ففروا بأرواحهم وألقوا ما كان معهم من سلاحهم، وقد كنت أحطت بنواحي الحضرة خيلاً ترصدهم، وتقطع من النجاة سببهم، فوقعوا فيها، وأتتني على آخرهم، وسبق إليّ رأس ابن عكاشة، وكان الحبيب إليّ أن يمثل بين يديّ فأبسط له من العذاب ما كان أشقى لنفسه وأثقل لصدره..."

84 - رسالة عن المعتمد بعد فتح

مرسية على يد قائده ابن عمّار¹

[471]

"... لم يغب عنك من مجرى الحال بمرسية وجّة أجلوه، ولا انطوى من فحواه أمرٌ أنشره وأبديه؛ وها أنا أعرض عليك من باطنها ما ربّما خفي، وأنهى إليك من نجواه ما لعله لم يَنم على وجهه ولا أنهى، وذلك أنّ الإفرنج أيام تلومهم على صاحبها، وإحداقهم بجانبها، أشخصوا إليّ من أعيانهم من قُرب عليّ وجّة مرامها²، فاستجبتُ لندائهم، ولم يكد يختلج ببالي شك في صدق أنبائهم، وإذا الأمر بخلاف ما ذكروه، وعلى غير ما سهّلوه، ووقع من المطاولة ما وقع، وآلت الحال معهم إلى ما قد فشا وسمع، فأعدتُ إليها الخيل مع فلان³ لإطالة حصرها، والإنابة بعقرها، وصاحبها⁴ مع ذلك عم عن رُشد، يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى في إعطاء صفقة يده، ليقضي الله تعالى قدره، ويُبلغ أمره؛ فلما رأى أهلها الممتحنون بسوء نظره، المصابون من خطر تدبّره، أنّ غمّاءهم لا تُقرَح⁵، وظلماءهم لا تتجلي ولا تليح⁶، أبناو إليه ما كانوا ينطوون له عليه، فتألّبو وثاروا⁷ وطبّروا بالخبر من كان فيها من الأولياء إلى فلان، وكان على مقربة منها، غير مترأخ عنها، فانصب إليها كالشؤبوب الماطر، وانقضّ عليها كالعقاب الكاسر، ووافاها وقد بولغ في حصاره، وانبسطت أيدي الّهيب في دياره، فكشفهم عن مكانه، ونفس عنه، فانتشى ربح أمانه⁸، ثم نقله وابن أخيه إلى أننى معقل إليهما وأمنيه عليهما⁹؛ وأخذ في ضبط الحصون، وما يغني به الحزم من وجوه الثّحصين؛ وأظهر أهل البلد من الاغتباط بمآلهم، والاستبشار بمفاتحة حالهم، ما يُظهر من خرج من ضيق إلى سعة، وانتقل من هرج إلى دعة..."

¹ - الرسالة من إنشاء ابن القصرة كما وردت في الدخيرة 273-275؛ وعن فتح مرسية انظر أعمال الأعلام 2/ 160، والمصعب في تلخيص أخبار المغرب 65 (القاهرة 1950)؛ ودول الطوائف 64 وما بعدها

² - يظهر أنه يشير إلى محاولة لتخالفه مع ملك برشلونة الصراي بعرض دعم ابن عمّاد بجملته من جيشه لحصار مرسية، وكان ضمان التحالف تبادل رهائن لدى الطرفين (راجع دول الطوائف ص 64 وما بعدها).

³ - يظهر أنه يقصد قائده ابن عمّار

⁴ - يقصد أبا عبد الرحمن بن طاهر.

⁵ - من الأفرح وهو الصبح لأنه باض في سواد (لسان العرب).

⁶ - لا تليح: لا تضيء

⁷ - حدث هذا بنحريص ابن رشيق الذي كان قائد مدينة بلش روبيو ونحالف مع ابن عمار لفتح مرسية، ويظهر أنه هو المشار إليه بفلان بعد هذا (دول الطوائف 65).

⁸ - الضمير هنا يشير إلى ابن طاهر أمير مرسية.

⁹ - الحص الذي اعتقل فيه ابن طاهر هو حصن أقوط

85 - رسالة عن المعتمد حول خضوع

بباسة له والقبض على ابن عمّار¹

[ربيع 2/477]²

"كتابي يوم كذا، وفي أمسه ورد كتاب المأمون أخيك³ من داخل حصن بباسة، وأن أهلها لما بلغهم تأهبي لمحاصرتهم، واحتفالي لمنازلتهم، وعلّموا أنّ تدبيرهم قد اضمحلّ في أيديهم، وأنّ صريخهم قد خرس عن إجابة داعيهم، وتيقنوا أنّي إذا نويت مضيّة، وإذا لججت حجبت، خامرهم الفرع، وضاق بهم المتسع، ومشى بعضهم إلى بعض يتشاورون كيف المصنّع، وأين المنزّع، فلم يروا لأنفسهم طريقاً أنجى، ولا مهرباً أجدى بالخلاص وأجى، من الثرامي عليّ، والاستسلام إليّ؛ فبادروا نحوي رجالاً وركباناً، وتسربوا قبلي زرافات ووحدانا، ولم أرْ حضرة قرطبة⁴ إلا وقد لحق بها منهم أفواج، وسالت بمن وراءهم أباطح وفجاج، كلّ يستعطف ويستنزل، ويسأل لمن وراءه عفواً يعمّ ويشمل؛ فأقبلت وقيلت، وعذرت واغتفرت، وبالغت في تأنيسهم، وتطبيب نفوسهم، والحمد لله على ما منّ وتطوّل، وأنعم وأفضل.

ووافي هذا الصنع الجميل، والفتح الجليل، آخر تقدّمه خطي، وكان له - ونعم ما كان - فرطاً، وذلك بقبض عماد الدولة أبي محمد بن سهيل⁵ على الغادر الملحد ابن عمّار، قطع الله به وبمن أوى إليه وآل بكلّ من سعى سعيه أو نزع منزهه ماله⁶، بحبائل نصبناها له هنالك حتّى علّقته، وغوائل أرصدناها حتّى أوْبَقْتُهُ⁷؛ وتلك عادة الله الحسنى عندنا، في من غمط نعمتنا ونكث عهدنا، فله الحمد دائماً، والشكر وأصبأ...

¹ - الرسالة في الذخيرة ق/2م/416-417، ضمن ترجمة ابن عمّار وخلال حديثه عن نمّره على المعتمد والقبض عليه، وقد قدّم لها ابن بسام بما يلي: "وأنفق أيضاً وقت القبض عليه يومئذ دخول المعتمد حصن بباسة وتطارح أهلها عليه وحصول تلك الجهة في يديه، ورأيت رقة صدرت عنه في ذلك إلى أحد بنه، وذكر الحائن ابن عمّار في فصل منها قال فيه: كتابي يوم كذا...." وكان ابن عمّار هو الذي استولى على مرسية من يد ابن طاهر بامر المعتمد، ثم ساءت علاقته به، وتعرّض له في أشعاره، فدبر المعتمد مع صاحب شقورة عماد الدولة في القبض عليه. راجع ترجمة ابن عمّار في الذخيرة 1/2 ص 368 وما بعدها؛ فقد تكون الرسالة من إنشائه.

² - قال ابن بسام: وكان القبض على ابن عمّار بشقورة يوم الجمعة ليست بغير من ربيع الآخر سنة سبع وسبعين (الذخيرة ق/2م/417).

³ - فبعد خضوع بباسة للمعتمد جعل عليها ابنه المأمون وهي غير بعيدة عن شقورة، والمأمون كان نائب أبيه على قرطبة، فامتد نفوذه شرقاً إلى بباسة.

⁴ - أي في حروجه من إشبيلية نحو بباسة.

⁵ - ذكر ابن الخطيب كيف احتال المذكور صاحب حصن شقورة على ابن عمّار فقبض عليه (أعمال الأعلام 2/160)، وورد بعد نهاية الرسالة ذكر ابن بسام "القبض على ابن عمّار في شقورة يوم الجمعة ليست بغير لربيع الآخر سنة سبع وسبعين"، ورفض المعتمد كلّ شعاعة فيه ومنها شعاعة صاحب شاطبة ابن محفور، فأجابه المعتمد بنص الرسالة اللاحقة.

⁶ - لعلّه يشير إلى ابن رزين صاحب السهلة الذي كان بينه وبين ابن عمّار "تمشُّ أَس" فاحتار هذا قرب بلده ولم يلقه فعتب عليه ابن رزين (الذخيرة 1/2/400).

⁷ - أعراه صاحب شقورة بأن يمكنه من حصنها لما تعلمه منه من حبّ الرئاسة، وتمّ هذا بتدبير ابن عباد، وكان صاحب سرقسطة شجعه على الاتحاح إليها تحلّصاً منه وخديعة له، انظر عن ذلك وعن أولية الحصومة مع المعتمد: الذخيرة 1/2/405.

86 - رفض المعتمد بن عباد شفاعة ابن

محذور صاحب شاطبة في ابن عمار¹

[477]

"... وقفت على الإشارة الموضوعة من قبلك على أخلص وجوه السلامة، المستنام فيها إلى شرف محتدك وصفاء معتقدك أكرم استقامة، في الشفاعة في من أساء لنفسه حظ الاختيار، وسبب لها سبب النكبة والعتار، بغمطه لعظيم النعمة، وقطعه لعلائق العصمة، وتخبطه في سنن غيّه واستهدافه، وتجاوزته في ارتكاب الجرائم وإسرافه، حتى لم يدع للصالح موضعاً، وخرق ستر الإبقاء بينه وبين مولى النعمة عنده فلم يترك فيه مرقعاً؛ وقد كان قبل استشرائه دانه، وكشفه لصفحة المعاندة وإبدائه، عذره في جميع جنائياته مقبول، وجانب الصّفتح له معرض مبدول، لكن غيّرته الغواية، عن طريق الهداية، فاستمرّ على ضلاله، وزاغ عن سنن اعتداله، وأظهر المناقضة، وتعرض بزعمه إلى المساورة والمعارضة، فلم يزل يُريغ الغوائل، وينصب الحبال، ويركب في العناد أصعب المراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب، حتى علقته تلك الأشرار التي نصبها، وتشبّنت به مساوئ المقدمات التي جرّها وسببها؛ فذاق وبال فعله، ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾²، ولم يحصل في الأنشطة التي تورطها، والمنحسة التي اشتملت عليه وتوسطها، إلا ووجه العفو له قد أظلم، وباب الشفاعة فيه قد أبهم؛ ومن تأمل أفعاله الذميمة، ومذاهبه اللثيمة، رأى أنّ الصّفتح عنه بعيد، والإبقاء عليه داء حاضر عتيد.

ومثلك في راحة ميزانه، ومعرفة بآبناء زمانه، لم يجهل بدءاً حاله من القل والضعة، وارتقاءه منها إلى الرفعة والسعة، وإنشائه من ذلّ الخمول، إلى العزّ العريض الطويل، وتسويغ عقال الأموال، وجلال الأحوال...³ ففوق لمناضلة الدولة نباله، وأعمل في مكابذتها جهده واحتياله؛ ثم لم يقتصر على ذلك بل تجاوزته إلى إطلاق لسانه بالذم الذي صدر عن لؤم نجاره، والطعن الشاهد بخبث طويته وإضماره، ومن جهل مقدار تلك النعمة التي كان سوّغها أولاً، أخلق به أن لا يعرف مقدار العفو عنه أخراً، ومن فسد هذا الفساد كيف يُرجى استصلاحه! ومن استبطن مثل غله كيف يؤمل فلاحه! ومن لك بسلامة الأديم النّعل، وصفاء القلب الدّغل! وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضت به من وجه الشّفاعة غير الجميل، ولا أتعذّي فيه حُسن التأويل، ولو وفدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذي سيق فيه السيف العدل، وأبطل غافل الأقدار فيه الألفاف والحيّل، لتُلقيت بالإجمال، وقولت ببالغ المبرة والاهتيال..."

¹ - ورد بص هذه الرسالة بعد نص سابقها في الدخيرة ق/2م/1 417-419 ، وهي من إنشاء أبي الوليد بن طريف كما ورد في تقديم ابن بسّام لها، وورد فيه أيضاً أنّ صاحب شاطبة هو ذو الوزارتين ابن محفور. وكان القيص على ابن عمار بشفورة يوم الجمعة 24 ربيع الثاني سنة 477. (وردت الإشارة إلى ابن طريف في الدخيرة 818/1)

² - من الآية 43 من سورة فاطر

³ - بتر في الدخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)

87 - رسالة عن ابن عباد حول تجدد القتال مع

مع غرناطة بسبب إخلالها بعقد السلم معه¹

[465 - 471]²

"... كنت قد هادنت أهل غرناطة - لا زالوا في أذيال مكرهم عاثرين، وفي أيدي غوائلهم مستأسرين -، مهادنة دعوني إليها فأجبت، واستدوني نحوها فدنوت، فلما أشرقت على الثمام، وأذنت بالانصرام، راسلوني في تماديها فساعدت، وأرادوني على ائصالها فانفعلت وانفدت، وانعقد بيننا عقد بولغ في تأكيد، وتوهمي في إحكام موثيقه وعقوده؛ ولم تكد صحيفته تطوى، ولا شهيدته يتولى، حتى غدروني في الحصن الفلاني³ باستنامة من كان فيه من قبلي إلى السلم، وإضاعته استشعار الحزم، فلم أعجل بالتكر، ولا سارعت بالتنمر، ورأيت الاستيناء، وأثرت الاستيقاء، رجاء أن يفكروا في العواقب، فيفنيوا إلى الواجب، ويعطفوا إلى الرأي الصائب، وأعدت إليهم من أمكنني إعادته من السقراء، فلقوا منهم بدهة وإباء، والتواء وانزواء؛ ولما رأيت ذاهب رشادهم لا يرجع، ودواء استصلاحهم لا ينجع، وثأي نصفتهم لا يرأب، وغائب فينتهم لا يرتقب، عملت على الإيثار، واستجمعت لذي الانتصار، وسقيتهم بمثل كأسهم، ورميتهم عن نظائر قياسهم؛ فلم يطل أمداً، ولا كثر من ماضي الأيام عدد، حتى حصل من وجوه قوادهم، ورؤوس أجنادهم، فلان وفلان إلى ستة وعشرين رجلاً أحيط بهم أسراً، وثقبض عليهم طراً، وجعلوا قراهم البث واللّهف، وأبا مثواهم الهون والخسف...."

88 - رسالة عن ابن عباد حول غدر أحد الرؤساء

[أمير غرناطة؟] خلال اتفاق صلح بينهما⁴

[461 - 477]⁵

"... وقد كانت نشأت بيننا وبين فلان، التطفف الوُدّ، السيّئ العهد، - جزاه الله جزاء من خاس بدمامه، ونثر عقد الوفاء بعد انتظامه -، مداخلته توسّطها رؤساء¹،

¹ - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الذخيرة ق2/م1/277-278

² - السنة الأولى تمثل بداية عهد عبد الله بن بلكين وظهر طمع ابن عباد في مملكته، والسنة الثانية هي تاريخ عياب ابن عمّار في مرسية بباية عن المعتمد (حيث استند بها)، وقد وضعه عبد الله بن بلكين أنه كان أسّ الفتنة بينه وبين ابن عباد، وأنّ العلاقات أصبحت ودية بعده (النبيان 96: دول الطوائف 143)

³ - ذكر أنّ أسّ عباد استولى على مدينته حسان من أراضي مملكة غرناطة سنة 466، ثمّ تمكّن جيشها من استرجاع حصص في الجنوب الغربي من حيان، فهل هو الحصن المشار إليه في الرسالة؟ راجع دول الطوائف ص 140-143.

⁴ - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الذخيرة ق2/م1/276-277؛ هل يتعلّق الأمر هنا بالزاع بين المعتضد ابن عباد (433-461) وابن ذي النون صاحب طليطلة أم مع المطقّر باديس بن حبّوس أمير غرناطة (428-465)؟ نرجّح هذا الأخير استنتاجاً من الرسالة اللاحقة؟

⁵ - السنة الأولى هي تاريخ بدء إمارة ابن عباد، والثانية تاريخ القبض على ابن عمّار الذي كان عنصر خصام بين ابن عباد وجيرانه، وسنة 478 سقطت فيها طليطلة فاشتعل الجميع بالعلاقة مع القشتاليين، ومن الممكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 465 و 477، أي بدء من عصر أمير غرناطة عبد الله بن بلكين.

وتقلدها وزراء، طالبت زمناً لا يُنتهَج فيها إلى السلم سبيل، ولا يبدو من الوفاق دليل، ولا يلوح للنجاح وجه مقبول، بما كان السفراء يلقونه من تشطط في غير كنهه، ومقابلتي بما كان يأتي من شبيهه، إلى أن تطاطأ من سموه، وتفاصّر من علوه، ونضاً² عنه ثوب الرّياء، وأبدى وجه حاجته إلى الانقياد والاستبقاء، فأنبت إنابة من يؤثر الهدنة على الفتنة، وتأتيت إرادة من يريد إدالة المودة من الإحنة؛ وأنا أعتقد أنه مصحح فيما أراه، صادق في الذي أعطاه، أقضي على الظاهر، ولا أتجاوز تصقح الحاضر؛ وإذا هو مصرّ غدره شوهاً، لو تهياً مرأه منها لأغصت بالريق، وللفت السوق بالسوق، ولكن الله بما عودنا من فضله نبّه على الغامض، وأبان عن برق الخُلب الوامض، فرأيت مكنون الضمير بعين التفكير، ونشرت مطويّ الجوانح بيد التدبير، فإذا كلّ ما عَقَد منحلّ، وما أبرم مضمحلّ، فرددت عندما خلع عقده إليه، وقلبت غير مُليم ظهر المجنّ إليه..."

89 - تبرير ابن عباد حملته البرية والبحرية على

مملكة [غرناطة؟] المتحالفة مع ملك طليطلة³ [465-471؟]

".... شرُّ الناس لنفسه من جهل مقداره، ولم يثم اختيارها، وقفا إذا شرّعت وعميت آثارها، وطار بجناح طمعها إلى نميم طبعها، واثبع رائد جشعها إلى وخيم مرتعها، وعاد إلى الصّالح من خلطائه فاستفسده، وإلى الصّفيّ فأحقّده، وإلى المستنيم فأوحشه وشرّده، ولا سيّما في حال تحضّ على استثناء البعداء، وتبعث على مصادقة الأعداء، ومع نصبة قد أنذرت بمآلها، وحذّرت من بغة اغتيالها، بل والله قد نفحت رجومها، ولفحت سمومها، وصرّح بالبأساء شومها. وليس يذهب عنك أتي - بما أشرت إليه ودرت حواليه - إلى صاحب طليطلة ناظر، وإلى قبح ما عاملني به شاهر؛ وذلك أنّه منذ زمن يتمرّس بجانيبي، ويقوم في وجه ما لا يريبه من مذهبني، فمن ذلك ما نعلمه من خوفه إلى بسطة اللقاء فلان⁴ - أخذ الله بما ألبسّه من حرمة فجردها، وأوليئّه من نعمة فغمطها وجدها-، وبقائه هنالك يشجّعه على غدري، ويشيعه من مخالفة أمري، وتوثق له أنّه إذا انصرم منّي، وانخزل ببعض عمله عليّ، كان له إن هممت به سنداً،

¹ - لا ندري من المقصود هنا

² - بضّ الثوب، بنصوه؛ ونضى الثوب، بيضيه؛ برعه

³ - الرسالة عن ابن عباد من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الذخيرة 278 / 1/2 - 282

⁴ - كانت بسطة سابقاً تابعة لأمير غرناطة ومعها حيان، ثم خصعت المنطقة لابن عباد، والمحاولة المشار إليها قد تكون من أجل إثارة المنطقة صده؛ وقد ورد عند عيان ذكر هجوم جيش غرناطة على أراضي ابن عباد سنة 472 بدعم من مرتزقة قشتاليين بطهر أنهم وصلوا عبر أراضي مملكة طليطلة (دول الطوائف ص72).

ووصل به إن وصلتُ يداً، فحينئذ صنع فلان ما صنع، وحاول أن يطير فوق، من تلك الجهة التي كانت انخرطت في سلك بلدي وعملي، واطردت في منابرها الخطبة لي، حتى انصابت¹ فيها فواقٌ بكيةٍ حكمه، وذكر على أعوادها اسمه، ولكن قليلاً ما بقاء التناوب ووسمه، إلى غير ذلك من قوارص القول والفعل، ستصل إليك على السنة الرّسل؛ وأنا في كلّ ذلك أحتمل الأذى، وأغضي على القذى، وأقبض يد الانتصار، طمعاً في الاقتصار والاستبصار، وذهاباً مع عادة الأناة والإنظار، وربما المَحْتُ في بعض الأحيان بعتاب، وتكلمت بكلمات غضاب، فظنّ أنّ ذلك قُصارى في إنكاره، ومنتهى وسعي واقتداره، فزاد الاعتداء والاستهداف، وعظم الازدراء والاستخفاف؛ ولو لا نظري من هذه الجزيرة - عصمها الله - إلى ما يُنظر إليه، وإشفاقي منها على ما لا يُشقق عليه، لأسكنتُ أولَ انبعاثه ذلك النّزوان، وردعتُ قبل احتفاله ذلك الاستئان...²

ثمّ ختم تلك الهنات، وتلا تلك السيّئات، بخبر صاحب فلانة، كنتُ أوطائه على عمك رقاب أهلها³، وجعلت إليه القبض والبسط فيها، ولم أشرك معه أحداً في معنى، فخان بما انثمن، وفرط في ما احتجّن، وخاف عاقبة ذلك فغلّ واضطّغّن، وأراد أن يفوز ببطنته وما جمع، وينجو ممّا حذر عليه وتوقع، فازمع على الانحراف والإنزواء، واستجمع للخلاف والانتراء، وداخل فلاناً يعرض عليه ما ذهب إليه، ليؤيده على قبوله بما في يديه، فنأى عنه بجانب النزيه الكريم، وأعرض إغراض الحرّ الصّميم، فانصرف إلى المذكور وهو لمُناها مستمطر متوكّف، وإلى مثلها مستوقف مستشرف، فما دعاه حتى لبّاه، ولا أومى إليه، حتى تهافت عليه، لا يتهيّب حالاً، ولا يتوقع مآلاً؛ وبلغني الخبر وكفى به مزعجاً، ولا كمثله مُبرماً مُخرجاً، فصبرتُ حتى أعذرت، وتأثّيتُ حتى أبليت، ثمّ اعتزمت على الانتصار، وتقدّمت لطلب الثّار، مستخيراً وعدّ الله لمن بُغيَ عليه، مقتضياً حكمه العدل فيمن تُسبّب إليه، فتقدّمت في معسكر ألفه يدُ الإعجال، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال، فأنخت به على بلده أياماً، قطعت فيها دونه كلّ الرّفاق⁴، ولم أبق حوله سقفاً على جدار ولا قائمة على ساق، ثمّ مررتُ إلى جهة فلانة⁵ أجوس خلالها، وأنقرّى بالنّهب والإحراق أعمالها، وأتسّم معاقلها، وأجعل أعاليها أسافلها، إلى أن وقفت بجانبها مُنازلاً، وزحفت إلى بابها مقاتلاً، وصاحبها

¹ - بمعنى: استقام

² - في الذخيرة : الاستئان (وفي فصل منها)

³ - هل الرسالة موجهة إلى أحد عماله في الجهة الشرقية من الإمارة (قرطبة مثلاً؟)

⁴ - هذه إشارة إلى الحصار.

⁵ - لعله يقصد غرباطة، وملكها في هذا الوقت هو عبد الله بن بلكين (465-483).

يرى الخوي¹ ملء عينيه، ويقلب على خسارة صفقته كفيه، ولا يعاين إلا نارا تضطرم عليها وتضطلم حوالها؛ فلو أصغينا لسمعنا قعقة أضراسه، واستشعرنا لوجدنا حرّ أنفاسه، وكلّ كميّ عنده - وكانوا عدداً لفيفاً، وجمعاً كثيفاً - قد نُسَخ جباناً، ومُسيخ هداناً، لا يكاد يُقبل حتى يُذبر، ولا يبرز حتى ينجر:

تلقى الحسام على جراءة حدّه == مثل الجبان بكفّ كلّ جبان

ثم انكفأت على غير الطريق الذي كنت أنشأت، عانداً بمثل ما بدأت، واطناً ما لم أكن قبل وطنت، فتخلّ سبيلي في وجهتي وقفولي، وتمثّل أثري، في وردي وصدري؛ وكنت قد وجّهت أسطولا² بلغ في ساحل بلده أقصى المبالغ من الإفساد والتدمير، والتغيير والتأثير، ثم انصرف بحمد الله كما انصرفت على غاية الوفور والظهور...

90 - رسالة عن ابن عباد في ذكر صدّ

هجوم أحد جيرانه على مملكته³

[... 465]؟

"وإن فلاناً جارنا - لا أجاره الله من ريب الزمان، ولا صرف عنه صروف الحدثان-، يأبى الله أن يراه حانداً عن فساد، وعانداً إلى رشاد، ومقلعاً عن قبيح، ومستمعاً من نصيح، فهو- والأيام قد وعظته لو اتعظ، والأحوال قد نبهته لو انتبه واستيقظ، وحجة علو السن⁴ قد قامت عليه، ووجوه غير الدهر قد سفرت إليه-، بمنزلة الغرّ العابث، في مسلاخ السفيه العائث، ولا يُقصر ولا يبصر، ولا يرعوي ولا يفكر.

واتفق الآن بمساعيه الخبيثة، ومحاولاته الذميمة، أن تسبّب إلى مداخلة الحصن الفلاني على يد خبيث من أهلها قد دبّر الحيلة حتى اتجهت في مثلها، وأنفذ إليه قائداً من وجوه عبيده؛ واتصل بي الخبر فطيرت من ناشبهم الحرب، فوهب الله لأوليائي الظهور، ووقى الله المحذور، من مضرة كان الجاهل المتطاول قرع بابها، وأحصد⁵ في ظلّه أسبابها؛ فتأمل كيف ذُوب هذا الموصوف بحقائق صفاته، المتابع لقبائح هناته، على إضرار نار الفتنة، باستثارة دواعي الإحن، وتعريض المسلمين - عصمهم الله - للحوادث والمحن، وكيف لا يزداد

¹ - من معاني الخواء والخوي: العناء بين شيئين أي العراع.

² - في هذا ترجيح إلى أن الجهة التي هاجمها ابن عباد هي بلاد غرناطة خصوصاً مع ذكر بسطة، إضافة إلى عيت أسطوله في سواحل مملكة غرناطة.

³ - الرسالة في الذخيرة 1/2 ص 282- 283 ، قد يكون ما فيها متعلّقاً بالمرية أو غرناطة

⁴ - هذه إشارة إلى ابن صمادح صاحب المرية الذي كان كبير السن، أو نادر بن حبوس قبل وفاته سنة 465، أو المأمون بن ذي النون ملك طليطلة قبل وفاته سنة 467.....

⁵ - في نسخة أخرى : وأحصل (هامش الذخيرة)

على الأيام إلا جماً في ميدانه، وانقياداً لشیطانه، واستكثاراً من سوء عمله، على قريب أجله؛ وليشكر الله حق شكره من لم يضعه هذه الضيعة الورهاء الشوهاء، ويُشعره هذه البصيرة العمياء الصمّاء، ومن طبع على قلبه بمجاهرة عصيان ربّه، فشرّه أبداً عتيد، وشیطانه مرید..."

91 - رسالة ودية عن المعتمد ابن

عباد إلى الأمير الزيري بإفريقية¹

[461-....]

"إني - أيّدك الله - على ما بيننا من لجج خضر، وفياف غبر، لمستكثر من إخوانك، مستظهر بوفائك، متوقر على إجمال ذكرك وثنائك، قياماً بما يتعين من مجدك وسنائك، ويعلم الله أنه ما أمني الأبعد، وعلمي الأحمد، إلا أن يؤم أفقك الطلق - صان الله بهاءه، وحسن أرجاءه - من الخواص النبلاء، والأعيان الفضلاء، من يبلغك كتابي، وينوب في إنهاء طاعتي إليك منابي.

وكان فلان قد ألمّ بي زائراً، وتلوم لديّ مجاوراً، فأقبلته وجه البشر والحفّة جناح البرّ بخلال رانعة، وخصال بارعة، لنفائس المحاسن جامعة، منها - وهي أحظى وسائله لديّ، وأدنى فضائله إليّ - إيمائه نشر نشر معاليك، وإعلائه بثّ أياذك، وكنت متى تشوّف لمعاودة وطنه، واستشرف لمطالعة سكنه، أقوم في وجه زماعه، وأغضّ من طرف نزاعه، استمناحاً بما يثيره من ميامنك، واستدامة لما يتلوه من آيات محاسنك، إلى أن جدّ به التوق، واستولى على مقادته الشوق، ولم يكن في صدّه عمل، ولا برّد قَبْلَ، فأصحبته كتابي هذا إليك مجدداً رسم الوداد، وعامراً سبيل حسن الاعتقاد، ومعلماً بما بلوت من صدق تشييعه لمجدك، وخفة لسانه بحمدك، ومشيراً إلى ما عنده من كُنه إجلال لك، وحقيقة استكثار منك، ثقة بأنّه يُحسن إنهاءه، ويوقّي أداءه، إن شاء الله..."

¹ - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في الدخيرة، ق 2/1م/283-284، قدّم لها ابن بسّام بقوله "وله [ابن القصيرة] عنه [أي المعتمد] من أخرى إلى صاحب المهدية..."; وصاحب المهدية المعاصر للمعتمد هو تميم بن المعز الريري (454-501).

د - العلاقة بين ملوك الطوائف والمرابطين بعد سقوط طليطلة

تقديم

بعدما استولى القشتاليون على طليطلة، أصبحوا لا يقبلون الجزية مالا من ملوك الطوائف، فقد أرسل ألفونسو إلى ابن عباد يطلبه منه تسليم "معقل كان الموت عنده أولى من إعطائها" كما ذكر عبد الله بن بلكين أمير غرناطة في مذكراته، وقال: "وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة وأخذَه لطليطلة وقلة رفقه، بعدما كان يقنع منا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد..."¹. أي أنّ مشروع التوسع العبادي الذي استمرّ حوالي نصف قرن لم يوقفه غير مشروع التوسع القشتالي، وهذا بدوره لم يوقفه غير تدخل المرابطين، حيث انتهى الأمر بوضع الأندلس تحت نفوذهم وانتقال الصراع في الأندلس إلى صراع مرابطي إسباني أو إسلامي مسيحي، لتجدّد نشاط العمل الصليبي في الشرق والغرب في هذه الفترة. وقد التزم المرابطون في جوازهم الأول تلبية لنداء الجهاد بما اتفق عليه مع ملوك الطوائف من عدم التدخل في شؤونهم الداخلية، واكتفى ابن تاشفين بترك حاميات على الثغور مع النصارى لردّ أيّ هجوم محتمل.

غير أنّ أسلوب ملوك الطوائف القديم في التنّازع الداخلي والتودّد إلى ملك قشتالة عادا من جديد، وتبيّن أنّ نتائج انتصار الزلافة لا أهميّة لها إذا استمرت هذه الحال، بل تشكّت الحاميات المرابطية في الثغور من إهمالها من طرف ملوك الطوائف فيما يتعلّق بالمؤونة. وتأكّد ابن تاشفين من تخاذلهم عندما استدعاهم سنة 481 لحصار حصن البيط (أو لبيط) في منطقة لورقة الذي كان ألفونسو استولى عليه بعد سقوط طليطلة في يده، وقام بعضهم بقطع المؤونة عن الجيش المرابطي المحاصر للحصن، بينما كانت قوات لابن عباد توسّع نفوذها في المنطقة انتظاراً لضمّ المناطق التي يدخلها المرابطون إلى مملكته. وعاد ابن تاشفين إلى المغرب وقد عزم على حلّ مشكلة الأندلس بإزالة العنصر الأساسي فيها وهو ملوك الطوائف، وانتظر توصّله بالتركية من علماء المغرب والأندلس والشرق والخلافة العباسية التي كان يدين بالولاء لها، فكان الإجماع على ضرورة إنهاء ملوك الطوائف من الأندلس حفاظاً على بقاء الإسلام بها.

كان البدء بأمير غرناطة عبد الله ابن بلكين (مؤلف كتاب التبيان) وأخيه أمير مالقة سنة 483، ثم مملكة إشبيلية 484، ثم بطليوس سنة 487... غير أنّ العقبة الأساسية في وجه المرابطين كانت في الشرق، حيث أصبح القشتاليون والأركونيون وحلفاؤهم من بني هود يحاولون عرقلة وصول المرابطين إلى المنطقة، حتى إن فتحهم لبلنسية لم يقع إلا سنة 495، وفتحت بعدها الإماراتان الجبليتان: البوننت والسهلة (مركزها شنتمرية

الشرق) وذلك بين 495 و497، ثم إمارة بني هود سنة 503، وكانت هذه قد تعهدت بحماية المنطقة ضد النصارى، فلما عجز أميرها عن ذلك وأصبحت سرقسطة على وشك السقوط بيد النصارى استدعى أهلها القوات المرابطية وفتحوا لها أبواب المدينة، فكانت آخر إمارة طوائفية تخضع للمرابطين، تبعثها الجزر الشرقية (إمارة ميورقة) سنة 509. وفيما يلي جملة من الرسائل تخص هذا الموضوع:

92 - استنجد المتوكل على الله ابن الأفطس

أمير بطليوس بيوسف بن تاشفين¹ [474 - 478]²

"لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلاً، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بآئك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما أعضل من الذاء³، وتستغاث لما⁴ أحاط بالجزيرة من البلاء؛ فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها (- أهلكهم الله-) عند إفراط⁶ تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها واستشرائها، ثلطف بالاحتياط، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل خيرة، وتسترضى بكل (نفسه) خطيرة.

ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف⁷ والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النقاد، وأيقنوا الآن بضعف المين، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأضرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسننهم وشفارهم، ومن أخطاه القتل منهم فأنما هم بأيديهم أسرى وسبايا⁸، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب.

فيا لله ويا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملة التصر⁹؛ ألا ناصر لهذا الذين المهتضم، ولا حامى

¹ - الرسالة من المتوكل على الله ابن الأفطس كما وردت في الذخيرة 2/ 2م/ 653-656، وفي الحلل الموشية 34-36، الدار البيضاء 1979، وهي من إنشاء كاتبه أبي عبد الله محمد بن أيمن وقدم لها بما يلي: "لما اشتد كلب الروم... استنصر ملوك الطوائف بأفقا [الأندلسي] أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين.. وقد أقوا بأيديهم، فكتب أبو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه..." انظر ترجمة ابن أيمن في الذخيرة قبل نص الرسالة. قدم صاحب الحلل الموشية للرسالة بقوله: "وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفد عليه [يوسف] جماعة من أهل الأندلس وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم، فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم وصرّفهم إلى أوطانهم، وكان ممن كتب إليه بذلك المتوكل على الله ابن الأفطس يستصرجه حين كلب العدو على بلاده، ومن بعض مخاطباته: لما كان نور الهدى..." وفي نص الرسالة إشارة إلى مراسلة سابقة بعدما استولى القشتاليون على قورية [473].

² - لا توجد إشارة إلى سقوط طليطلة مما يرجح التاريخ الوارد في الحلل الموشية حيث وضعت الرسالة هناك ضمن أحداث سنة 474.

³ - في الحلل: لما أعصل الداء

⁴ - في الحلل: فيما أحاط

⁵ - ما بين هلالين (...). ناقص في الحلل

⁶ - في الحلل: العدو تطيف بها عند إفراط

⁷ - في الحلل: حتى نفذ الطارف

⁸ - في الحلل: في أيديهم أسارى وسبايا

⁹ - في الحلل: ولا يكتنف هذه البلية إلا النصر

لما¹ استُبيح من حمى الحَرَم، وإِنَّا لله على ما لحق عبده من ثكل² وعزّة من ذلّ، فإنّها الرّزّة التي ليس فيها عزاء، والبليّة التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أيّدك الله³ - بالنّازلة في مدينة قورية⁴ - أعادها الله (للإسلام) - وأنها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومَن فيها من المسلمين بالجلّاء؛ ثمّ ما زال ذلك التّخاذل يتزايد، (والتدابير يتساند)، حتّى تخلّصت القضية، وتُعجّلت⁵ البليّة، وحصلت في يد العدو (- قصمه الله-) مدينة سرّية⁶، وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع، في الحصانة⁷ والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدّائرة، (وواسطة القلادة)، تدركها من جميع الجهات، دائرة بنواحيها⁸، ويستوي في الإضرار⁹ بها قاصيها ودانيها.

وما هو إلا نفس خافق¹⁰، ورمق زاهق، [استولى عليه عدوّ مشرك وطاغية منافق]¹¹، إن لم تُبادروا بجماعتكم عجالاً، وتداركوها¹² ركبناً ورجالاً، وتنفّروا نحوها خِفافاً وثقالاً؛ وما أحضنكم على الجهاد بما في كتاب الله (تعالى)¹³، فإنّكم له أتلى، ولا (أحرّضكم على التّسرّع إليه) بما في حديث رسوله عليه السلام¹⁴ فإنّكم إلى معرفته أهدى. وكتّابي هذا جملة الشّيخ الفقيه الواعظ يفصلها¹⁵، ومشتمل على نكتة هو يوضحها ويبينها¹⁶، فإنّه لمّا توجّه نحوكم احتساباً، وتكلّف المشقة إليكم طالباً ثواباً، عولت على بيانه، ووثقت (في عرض الحال عليكم) بفصاحة لسانه، (وأنت بفضلك تستوعب ما يؤدّيه استيعاب المستوفي، وتُصغي إلى ما ينهيه إصغاء الواعي، وتجد منه مضض المرتضى، وتتحرك له تحرك الممتضى)¹⁷ [والسلام]¹⁸.

1 - في الحلل: ألا ناصراً ... ألا حامياً
2 - كذا في الحلل: وفي الذخيرة: عرشه من تل
3 - في الحلل: أعرك الله
4 - مدينة قورية (Coria) تقع على أحد الروافد الشمالية لنهر ناجة (نهر طليطلة) تقابلها من الصفة الجنوبية للنهر مدينة قاصرش، كانت قورية في أقصى تغور مملكة بطليوس الشمالية الشرقية، سقطت في يد القشتاليين سنة 473.
5 - في الحلل: بخلطت القضية ونصاعفت
6 - في الذخيرة: سرّية، وهو خطأ. ومدينة سرّية (Soria) شمال منطقة وادي الحجارة على نهر دوبرة كانت ضمن مملكة سرقسطة في أقصى تغورها الغربية، وقد سقطت بيد القشتاليين سنة 471.
7 - في الحلل: في النخص
8 - كذا في الحلل: وفي الذخيرة: يدركها من جميع نواحيها ويستوي
9 - في الحلل: في، الأرض. راجع الصفحة 249 في هذا الجزء من الذخيرة عن سقوط قورية وسرية وطليلة.
10 - في الذخيرة: خافت
11 - ما بين معقبي [...] ناقص في الذخيرة
12 - في الحلل: إن لم تدركوها ... وتبادروا
13 - ما بين هلالين (...) ناقص في الحلل
14 - في الحلل: رسول الله صلى الله عليه وسلم
15 - في الحلل: وفي كتّابي هذا الذي يحمله إليكم الشّيخ الفقيه الواعظ مسائل مجملتها ويشرحها.
16 - في الحلل: نكت هو يبينها لكم ويوضحها
17 - في الحلل: بفصاحة لسانه والسلام
18 - ربما كان أهم شواغل ابن تاشفين عن تلبية استصراح ابن الأفطس مشكل حاجر إمارة سكّوب المرغواطي في جهتي سبتة وطنجة، إضافة إلى عدم الإجماع آنذاك بين ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين، مع العلم أن شمال المضيق كان جزءاً من مملكة إشبيلية الفاصلة بينه وبين مملكة بطليوس.

93 - رسالة جوابية عن المتوكل ابن الأفتس

على رسالة تهديد من ألفونسو ملك قشتالة¹ [478]

"... (وقد) وصل² إلينا من عظيم الرّوم كتاب مدّع في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يُرعد ويُبرق، ويجمع تارة ويفرق³، ويهدّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة؛ ولو علّم أنّ الله جنوداً أعزّ بهم (ملة) الإسلام، وأظهر بهم دين نبيّنا محمد عليه السّلام : ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون (لومة لانم)⁴، بالتقوى يُعزّون، وبالتوبة يتضرّعون ويُنصّرون، ولئن لمعت من خلف الرّوم بارقة فباذن الله ﴿وليعلّم المؤمنين﴾⁵ و﴿ليميز الله الخبيث من الطيّب﴾⁶، ﴿وليعلّم المنافقين﴾⁷.

(و) أمّا تعييرك للمسلمين فيما وهن⁸ من أحوالهم، (وظهر من اختلالهم)، فبالذنوب المركوبة، (والفرقة المكتوبة)، ولو اتّقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك لعلمت أيّ صابٍ أدقناك، كما كانت أبأوك (مع أبائنا) تتجرّعه، فلم تزل تذيّقها من الحماض وضروب الآلام شرّاً ما¹⁰ تراه وتسمعه، (وأداء المال تتوزّعه)؛ وبالأمس كانت قطيعة¹¹ المنصور على سلفك إهداءً ابنته إليه، مع الذخائر التي كانت تفد (في) كلّ عام عليه.

وأما نحن (و) إن قلّت أعدادنا، وعُدّم من المخلوقين استمدائنا، فما بيننا وبينك بحرٌ نخوضه، ولا صعبٌ نروضه، إلا سيوفاً¹² تشهد بحدّتها رقاب قومك، وجلاداً تبصره في ليالك ويومك، وبالله تعالى وملانكته المسوّمين تنقوى عليك ونستعين، (ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب)، وما ﴿تربصون بنا إلا إحدى الحسينين﴾¹³ : نصر عليكم، فيا لها من نعمة ومئة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض ممّا به هدّدت، وفرجٌ يبتّر ما¹⁴ مدّدت، ويقطع بك فيما أعددت..."

¹ - وردت الرسالة في **الحلل الموشية** 36-37، ونقارنها مع مخطوط **الحلة السيرة**، الأسكوريال رقم 488، فهرس الغريزي، لوحة 85 (نقلًا عن دول الطوائف 90).

² - ما بين هلالين (...). ناقص في **الحلة السيرة**

³ - في **الحلة**: ثم يفرق

⁴ - من الآية 56 من **سورة المائدة**

⁵ - من الآية 166 من **سورة آل عمران**

⁶ - من الآية 37 من **سورة الأنفال**

⁷ - من الآية 10 من **سورة العنكبوت**

⁸ - في **الحلة**: وهى

⁹ - انظر رسالة عن ملك قشتالة إلى ابن عباد في الملحق

¹⁰ - في **الحلة**: شؤماً

¹¹ - القطيعة إشارة إلى الحرية التي كان يدفعها النصارى للمسلمين أيام حجابة المنصور بن أبي عامر للخليفة هشام بن المستنصر، الذي اشتهر بغزوانه في بلاد النصارى.

¹² - في **الحلة**: إلا السيوف

¹³ - من الآية 52 من **سورة التوبة** "هل تربصون بنا إلا إحدى الحسينين"

¹⁴ - في **الحلة**: بغير نما

94 - رسالة عن المعتمد إلى الولاة والعمال بجمع مال السلم (الإتاوة)

من خدام الدولة لعجز الرعية عن ذلك بسبب القحط والجراد¹ [478؟]

"الحال مع العدو - قصمه الله - بيّنة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لا تفتقر إلى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقارنته ومخاشنته فليس إلا مداراته وملايفته؛ وكان - فلّ الله حذّه، وفَضّ جنده- قد اعتقد الخروج في هذا العام إلى بلادنا - عصمها الله - بأَكثَف من جموعه في العام الفارط وأحفل، وأبلغ في استعداده وأكمل، إلا أنّ الله تعالى يسر من إنباته إلى السلم ما يسر، ونظر لنا من حيث لا نستطيع أن ننظر، ووقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدّم إليه، ونستكفّ بها الشرّ المرهوب لديه؛ فكم حال كانت بخروجه تُثْلِف، ونعمة بأيدي طاغيته تُنْتَسَف، والرعية- حاطها الله - في هذا العام على ما يقتضيه ما عمّ البلاد من الفساد، وشملها من جائحة القحط والجراد، وتكليفها أداء شيء من المال الذي التزم مرتفع، وأخذها بالمعونة على ما ناب ممتنع، فلم يبق إلا أن نميل بهذه الكلفة على الخدمة ميل العموم، ونجربهم فيها على أحسن مجاري التحرير والتقويم، وهي حال تقتضي من كلّ من أحسن التأمّل المعونة فيها، والمبادرة بحسب طاقته إليها²؛ وقد أدرجت طي رقتي هذه قنذاق³ تُسمّى الخدمة قبلك فيه، ورُسّم على كلّ واحد منه ما توجبه حاله وتقتضيه فتقدّم فيما نصصته من الحال إليهم، وكلّمهم بما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم، ولتقبض ذلك كله في أعجل ما يمكن، فالحاجة إليه وكيدة، والضرورة حافزة شديدة".

95 - رقعة من المعتمد إلى رجال دولته بتحديد الحصّة المالية

الواجبة على كل منهم لتسديد مبلغ الهدنة مع القشتاليين⁴ [478]

"الحال مع العدو - قصمه الله - بيّنة لا تُخفى، ومُدارئه- ما لم تُمكن مضاهاته- أولى وأحرى، والتزم له في الصلح المتفق عليه جملة مال رُسّم عليك منه⁵ - بعد النظر لحالك،

¹ - الرسالة من إنشاء أبي بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة (ت508) كتبها عن المعتمد بن عباد كما وردت في الذخيرة 252/1/2 - 253 : انظر ترجمة ابن القصيرة في نفس المصدر ص239 وما بعدها؛ وقد ترجم له آخرون منهم؛ ابن الأبار: إغاث الكتاب 222؛ المراكشي: المعجب 164 ؛ ابن عبد الملك: الذيل والكملة 227/6، (بيروت 1973)؛ ابن الخطيب: الإحاطة 516/2 - 521.

² - وصف ابن بسّام حال ملوك الطوائف مع النصارى بما يلي: كانت طوائف الروم مدّة ملوك الطوائف بأفقا قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيا، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والعتاد، حتى استصفوا الطريف والبلاد، وأتى على الطاهر والباطن العناد، بما كابوا ضربوا على أنفسهم من الضربة، إلى ما ينبعها من هديّات وتغفات، وشيعر العصر شاهد بالأمر.. (الذخيرة ق2/1م/248) - القنذاق يظهر أنه نياح أو لائحة مدرجة ضمن الرسالة بأسماء خدام الدولة وما يجب على كلّ واحد أدائه، انظر الرسالة اللاحقة.

⁴ - وردت الرسالة في الذخيرة ق2/1م/252؛ وقد ذكر ابن بسّام من عواقب سقوط طليطلة فرع الأندلسيين رعايا وحكام، ورأى رقاعاً: "تكتب يومئذ ببيوت الإشراف (المالية) خطوب بها العمال في اسعجال قبض تلك الأموال منها رقعة عن المعتمد قيل فيها : الحال مع العدو..."

⁵ - قد يكون هذا ما سمّاه المعتمد في الرسالة السابقة بالقنذاق أي البيان الذي بعثت منه نسخة لكل واحد من رجال السلطة حدّد فيه مبلغ ما يجب عليه أدائه.

والتحاشي من الإجحاف بمالك-، كذا ؛ فعجل النظر فيه، وأبعثه بكتاب ثجاوب على ظهره بوصوله، وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك، وصدق ضميرك؛ فتدارك بالمشاركة في هذا الخطب الملم المهم الذي لا محيد عنه ولا بد منه".

96 - جواب من ابن عباد على رسالة إلى ملك قشتالة تحمل طلباً بتسليم بلاده لرجال دولته¹ [478]

"من الملك المنصور بفضل الله، المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله، أبي عمرو بن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش [بن فرذلند] بن شانجه²، الذي لقب نفسه بملك الملوك، وسمّاها بذي الملتين، قطع الله دعواه، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنه أول ما نبداً به من دعواه أنه "ذو الملتين"، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومجبي المملكة، لا تملكه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وإنما كان سنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة قلت في أثنائها: ليس؛ ولا تستحيي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك؛ وإنا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماء الفرسان وجيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار، وتنعاهم الهام في القفار، يديرون رحي المنون بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم³، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رثبه الاتفاق، وشفاراً جداداً شحذاً الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروة؛ نبيته من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد أمانها؛ ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة، أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره؛ والذي جراك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر، ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾⁴، ظنوا المعازل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا

¹ - وردت هذه الرسالة الجوابية في **الحلل الموشية** ص 39-41، وهي من إشاء ابن عباد نظماً ونثراً، بدأ نظمه هكذا:

الذلّ نأباه الكرام وديننا == لك ما ندين به من الباساء
سماك سلماً ما أردت وبعد ذا == بغروك في الإصاح والإمساء
والرسالة القشتالية المحابوب عنها واردة في الملحق تحت رقم 4.

² - في الأصل : أذفنش بن شانجه ؛ والصواب ما أنتناه.

³ - أي التمانم

⁴ - من الآية 14 من **سورة الحشر**

وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتينا في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم، وإسلامهم لأعاديهم؛ والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرتنا إليك، والله ينصر دينه الكريم ﴿ولو كره الكافرون﴾¹، والسلام على من علم الحق فآتبعه، واجتنب الباطل وحذّعه".

97 - استنجد ابن عباد بيوسف

بن تاشفين أمير المرابطين²

(1 جمادى 1/ 479)

"بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا

إلى حضرة الإمام أمير المسلمين³، وناصر الدين، محيي دعوة الخليفة الإمام أمير [المومنين]⁴ أبي يعقوب يوسف بن تاشفين؛ من القائم بعظيم إكبارها، الشاكر لإجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللانذ بحرما، المنقطع إلى سموّ مجدها، المستجير بالله وبطولها: محمد بن عباد؛ سلام الله الكريم يخصّ الحضرة العلية، المعظمة السامية، ورحمة الله وبركاته.

وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وإته - أيّد الله أمير المسلمين ونصر به الدين - أنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرّق جمعنا، وتغيّرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من معيننا⁵، فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلّ ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين إنفثش، وأناخ علينا بكلّكله، ووطننا بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون؛ ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرته جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا، إلا أنّ الهوان منعهم عن ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال.

¹ - من الآيات 32 من سورة التوبة، و 8 من سورة الصف، و 13 من سورة غافر

² - ذكر صاحب الحلل في التقديم لهذه الرسالة أن المعتمد رأى أن يبعث إلى المرابطين يستنجدهم فحوّفه منهم ابنه وليّ عهده الرشيد أبو الحسن عبيد الله، وكذا حاشيته: لكن المعتمد لم يكن له بدّ من ذلك حيث قال: "لا قدرة لنا [على المواجهة] فقد تلف مجباننا، وتبددت أجنادنا، وأبغضنا العامة والخاصة... حرز الجمال والله عندي خير من حرر الخنازير.." فأخذ في المكاتبات مع يوسف، من ذلك ما كتبه من إنشائه ومبها ما كتبه عنه كتابه، والرسالة أعلاه من إنشائه وحطه كما وردت في الحلل (45-46) تليها رسالة من إنباء الوزير الكاتب أبي القاسم بن الجذّ (الحلل ص 47-48)

³ - في هذا تأكيد على أنّ يوسف بن تاشفين تلقب بأمير المسلمين قبل الزلافة وليس بعدها، ويشهد على هذا أيضاً ما هو وارد في البيات المصّرف 4/ ص 27-28 (وذلك سنة 466)، كما تشهد على هذا أيضاً العملة المرابطية قبل الزلافة.

⁴ - في الأصل المعتمد: المسلمين، وهو لا يتفق مع الواقع ؛ فالقصد هنا إعادة الارتباط مع الخلافة العباسية الذي قام به المرابطون.

⁵ - يقصد توقّف توافد العنصر العربي من موطنه الأصلي.

وأنت - أيّك الله - ملك المغرب أبيضه وأسودّه، وسيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها¹، ونزعتُ بهمتي إليك، واستنصرتُ بالله ثم بك، واستغثتُ بحرّمك لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر وثحيوا شريعة الإسلام، وتذبّوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السّامية، ورحمة الله تعالى وبركاته².

98 - رسالة استنجد أخرى بالمرابطين من

إنشاء ابن الجّد وزير وكاتب المعتمد³

[479]

"إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدّين، وزعيم المرابطين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، نور الله به الآفاق، وجمع به الجيوش والرفاق؛ من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بن عبّاد؛ سلام على حضرة تجرّد إيمانها، واشتهر أمانها.

أما بعد؛ فإنّ الله سبحانه أيّد دينه بالاتفاق والانتلاف، وحرّم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف، وأنعم على عباده بأمير جديد، و(قوم أولي بأس شديد)⁴، وتطوّل علينا بعلوم جدك، ومشهور جدك، وقد جعلك رحمة يُحبي غيها ربوع الشريعة، وخلّقك سلماً إلى الخير وزيعة؛ وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كلّ همّ، وهمت اللّكبات بوقوعه وهمّ، وذلك عدوّ أطمعه في البلاد شتات وبيّن، واختلاف سببه لم تُطرف له في الدّعة عيّن، يقوّي ونضعف، ويتفق ونختلف، وننام مطمئنين من آفات الزّمان، وتناسخ الأمان، وقد جاءنا إبراقه وإرعاده، ووعدّه وإيعاده، لنسلم له المنابر والصّوامع، والمحارب والجوامع، ليقم بها الصّلبان، ويستنيب بها الرّهبان؛ وممّا يُطمعه استمالته إيانا بالدّعة، وإملاؤه في الرّحب والسّعة، استجاراً لما أبطنه، وإهجاماً علينا وطنّه.

وقد وطّد الله لك ملكاً شكر الله عليه جهادك، وقيامك بحقه واجتهادك، ولك من نصر الله خيرُ باعث يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدّنيا فقطوف دانية، وجنّات عالية، وعيون أنية، وإن أردت الآخرة فجهاد لا يفتر، وجلاد يحز الغلاصم ويبئر؛ هذه الجنة ادّخرها الله لظلال سيوفكم، وإجمال معروفكم، نستعين بالله

¹ - يريد ابن عباد التذكير بأن أصل بني عباد الأول من حمير اليمنية التي ينسب إليها المرابطون بدعوى أنّ صهاجة من حمير.

² - أصبح عبور المرابطين إلى الأندلس ممكناً بعد أن فتحوا سينه، بعد حصارها براً وبحراً تساعده أسطولهم قطعة بحرية لابن عباد، وكان الفتح في صفر 476 (حسب الدخيرة ق/2 م/662-664)، غير أنّ صاحب القرطاس ذكر وقوع الفتح في ربيع الأول سنة 477 (ص144).

³ - وردت الرسالة في الحلل ص47-48؛ انظر ترجمة الكاتب أبي الفاسم محمد بن عبد الله المعروف بابن الجّد في الدخيرة 2/285-322؛ المغرب 1/341-342؛ الدبل 6/326 (بيروت 1973).

⁴ - من الآية 16 من سورة العنكب

وملائكته وبكم على الكافرين، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين: ﴿قَاتِلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾¹. والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها، ونعمة الإسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها؛ والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته²."

99 - إخبار من ابن عباد على جناح الحمام لابنه الرشيد

في إشبيلية بالنصر في الزلاقة على القشتاليين³ [12 رجب 479]

"إلى ابني الرشيد وفقه الله، اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفنش اللعين، ففتح الله للمسلمين، وهزم على أيديهم المشركين، والحمد لله رب العالمين؛ فأعلم بذلك من قبلك من إخواننا المسلمين، والسلام."

100 - رسالة عن المعتمد حول

هزيمة القشتاليين في الزلاقة⁴ (13 رجب 479)

"[يابني، ومن أبقاه الله وسلمه، ووقاه الأسواء وعصمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه]⁵؛ كتبت⁶ (صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب)⁷، وقد أعزّ الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم (بفضله) على يدي مسعانا الفتح المبين، بما يسر الله في أمسه

¹ - من الآية 14 من سورة التوبة

² - كان اشتراط ملوك الطوائف على يوسف ألا يتدخل في شؤونهم الداخلية، وقد جاء في رساله عنهم إليه "أما بعد، فإنك إن عرضت عما نُسبت إلى كرم ولم تُنسب إلى عجز، وإن أجنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم تُنسب إلى وهن، وقد احتارنا لأنفسنا أجمل نسبينا فاحتار لنفسك أكرم نسبنا، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تُسبَق فيه إلى مكرمة، وإن في استيفانك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك ونوت، والسلام" (نفج 4/ 355). أورد الرسالة محمد البركة في "الدولة المرابطية، أطروحة مرفوعة بكلية الآداب، ظهر المهرار. فاس 2001-2002، الرسالة رقم 7). ولما علم ألفونسو باتصالات ملوك الطوائف بابن تاشفين تحرك بقواته مخترقا مملكة إشبيلية إلى بحر المضيق وأرسل رسالة استعزازية ليوسف بن تاشفين، انظرها في الملحق رقم 5. وأجاب يوسف بن تاشفين على طلب ابن عباد وبقية الملوك بوضع الجريرة الخضراء تحت تصرفه لينظم بنفسه عملية الجوار، فكان ما طلب، واستعد يوسف للجواز بقواته، وكانت المعركة الشهيرة بين المرابطين والأندلسيين من جهة والقشتاليين ومن معهم من جهة أخرى (من الإسبان والفرنسيين)، وكان النصر للمسلمين وذلك في رجب سنة 479، (انظر **الحلل** 50 وما بعدها، وضمها جواب يوسف بن تاشفين الذي طلب فيه تسليم الجزيرة الخضراء له)

³ - الرسالة في **الحلل** (63)؛ قارن مع الرسالة اللاحقة.

⁴ - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق/2/ 241-242 (وفيها أنها وصلت على الجناح إلى إشبيلية أي بواسطة الحمام الزاجل) ضمن الإنشاءات السلطانية لأبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة (المتوفى سنة 508)؛ كما وردت مع بعض الاختلاف في **الإحاطة** 2/ 114 (ضمن ترجمة المعتمد ابن عباد)؛ و**أعمال الأعلام** ق/3/ 245 (الدر البيضاء 1964). يوجد ترجمة الكاتب قبل نص الرسالة في **الذخيرة** ص 239-240؛ وفي **إعتاب الكتاب** 222-223؛ و**الذيل** 6/ 227؛ **المغرب** 1/ 350-351؛ وورد حديث الزلاقة معصلا في **البروض المعطار** 287-292 (مادة: الزلاقة)؛ و**نفج الطب** 4/ ص 354-372؛ و**دول الطوائف** 287 وما بعدها.

⁵ - إضافة من الإحاطة

⁶ - تبدأ من هنا الرسالة في **أعمال الأعلام**، وفيه بعض النقص والخلاف في الكلمات.

⁷ - ما بين هلالين (...) ناقص في الإحاطة

وسنائه، وقتره سبحانه وقضاه، من هزيمة إذفونش بن فرذلند¹ - أصلاه الله، إن كان طاح، الجحيم، ولا أعدمه، إن كان أمهل، العيش الذميم²، كما قنعه الخزّي العظيم - وإتيان³ القتل على أكابر رجاله وحّماته، وأخذ⁴ الذهب (في) سائر اليوم والليّلة المتصلة به (إلى) جميع محلاته، وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم ولم يُحتَرّ منها إلا ما قرب، وامتلاء الأيدي ممّا قبض ونهب⁵؛ (واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها؛ والتّنبّع بعد في آثارهم، وتمادي الطلب من وراء فرارهم)؛ والذي لا مريّة فيه أنّ النّاجي منهم قليل، والمفلت من (سيوف الهند ب) سيوف الجوع⁶ والبعد قتيل⁷؛

ولم يُصبني - بحمد الله⁸ - إلا جرح أشوي⁹، وعنت رغب حسن المال عندي وزكي¹⁰؛ فلا يشتغل (لك) بذلك بال، ولا تتوهّم (فيه) غير ما¹¹ أشرت إليه؛ [والإذفونش بن فرذلند إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمداً، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغداً، فإن برأسه طمرة ولجام؛

فإذا ورد كتابي هذا فمرّ بجمع الخاصّ والعام من أهل إشبيلية وجيرانها الأقربين، وأصفيانا المحبّين، في المسجد الجامع - أعزّهم الله - وليقرأ عليه فيه، ليأخذوا من المسرة بأنصبتهم، ويضيفوا شكرًا لله إلى صالح دعائهم]، والحمد لله على ما صنع حقّ حمده، وهو أهل المزيد الذي لا يُرجى إلا من عنده¹²، [والسلام]."

101 - رسالة أخرى من ابن عباد بارض الزلاقة إلى

ابنه بإشبيلية مخبراً بالانتصار على القشتاليين¹³ (20 رجب [479])

"كتابي هذا من المحلّة المنصورة يوم الجمعة الموقّي عشرين من رجب، وقد أعزّ الله الدّين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين، وهزم الكفرة والمشركين، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطب الجسيم؛ فالحمد لله على ما يسره وسنائه من هذه المسرة العظيمة، والنّعمة الجسيمة، في تشييت شمل الإذفونش والاحتواء على جميع

¹ - جلس على عرش قشتالة بعد وفاة أخيه سانشو في سنة 1072 / 465.

² - في الإحاطة: لعنه الله وأصله، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم.

³ - في الإحاطة: وأتى

⁴ - في الإحاطة: واتصل

⁵ - في الإحاطة: محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يديّ من مشهوري رجالهم ومدكوري أبطالهم، ولم يختار منهم إلا من شهر وقرب، وامتلاء الأيدي ممّا سلب ونهب.

⁶ - في الإحاطة: والمفلت من سيوف الجزع

⁷ - في الذخيرة: مقتول

⁸ - في الإحاطة: بفضل الله

⁹ - أشوي: أصاب الشوي أي الأطراف؛ وقد علق صاحب الذخيرة على كلمة "أشوي" بما يلي: "تواتر التنا أنه جرحته يده في ضحك ذلك المارق" (ص244)

¹⁰ - في الإحاطة: وحسن الحال عبدًا والله وزكي

¹¹ - في الإحاطة: عبر الحال التي

¹² - جملة خاطئة في الإحاطة.

¹³ - الرسالة من إنشاء ابن عباد بعسه كما وردت في **نصح الطبيب** 4 / 369، ووردت بتعاسر مغايرة في **الروض المعطار** 291 - 292 وقد اعتمدنا في المتن نص نصح الطبيب.

عساكره، أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم، بعد إتيان النّهب على محلاته، واستنصال القتل في جميع أبطاله وحماته، حتّى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذّنون عليها، فله الحمد على جميل صنعه؛ ولم يصبني والحمد الله إلا جراحات يسيرة آلمت، لكنّها فرجت بعد ذلك، فله الحمد والمئة، والسلام".

102 - رسالة عن المعتمد إلى ولاته

حول ظروف معركة الزلاقة¹

(رجب 479)

"لَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّانِي عَشَرَ لِرَجَبِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعَمِائَةٍ، سَلَّى اللَّهُ أَمْرًا يَسْرُ أَسْبَابَهُ، وَفَتَحَ لَنَا إِلَى الْفَرَجِ وَالْفَتْوحِ بَابَهُ، وَعُطِفَ عَلَيْنَا الْقَابِلُ لِلتَّوْبِ، الْغَافِرُ لِلذَّنْبِ، وَالتَّقِينَا مَعَ الطَّاعِيَةِ الْبَاغِيَةِ الَّذِي أَجَابَ الْمَوْتَ دَاعِيَهُ، وَأَخْزَى التَّوْفِيقُ مَسَاعِيَهُ، بَعْدَ غَدَرِ أَبْدَاهُ، وَجَرَى فِيهِ مَدَاهُ، وَكَانَ تَوَاعُدُنَا مَعَهُ لِنَلْتَقِيَ فِي سَوَاهُ، قَاتَى وَالتَّقْضُ يَجْرُرُ ذَيْلَ مَخْزَاهُ، وَالْغَيْبُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا أَرَادَهُ، وَالْغَدْرُ يُعْلِمُنَا أَنَّهُ طَعْمَةٌ مَن نَوَاهُ، فَاسْتَبَشَرْنَا أَنَّهُ ابْتَدَأَ بِالْغَدْرِ الَّذِي يَرِيدُهُ²، وَتَعَجَّلَ سُلُوكَ طَرِيقَ لَا تَهْدِيهِ، وَتَحَقَّقْنَا أَنَّهَا مَقْدَمَةٌ فَتَحَ سَبْقَتَ، وَنَوَاسِمُ سَعْدٍ عَبَقَتْ، وَالتَّصَرُّ لَا تَخْفَى دَلَائِلُهُ، وَالْيَمَنُ لَا تَسْتُرُهُ غَلَائِلُهُ، فَتَدَارَكَ إِخْوَانُنَا الْمُسْلِمِينَ بِالنِّصَافِ، وَتَصَافَحُوا بِالْإِعْتِرَافِ وَالْإِنْصَافِ، وَجَرَّتِ الْبَسَائِطُ ذِيُولَ الزَّرْدِ، وَشَكَرَتِ الشُّفَارُ فِعْلَ الصَّقِيلِ الْفَرَنْدِ؛ وَلَمَّا احْلَوْلَكَ لَيْلُ الْحَرْبِ وَأَغْطَشَ، وَغَارَ مَاءُ ثَبَجِهَا فَاعْطَشَ، طَلَعَ فَجَرُ السَّعَادَةِ فَأَنْجَحَ، وَنَادَى مِنْ كَتَبِ السَّلَامَةِ: أَصْبَحَ أَصْبَحَ، وَعَنْ قَرِيبٍ طَلَعَتْ شَمْسُهَا تُشْرِقُ، وَتُهْلِكُ الْكَافِرِينَ وَتُحْرِقُ، لَيْسَ دُونَهَا حِجَابُ يَسْتَرُ شِعَاعَهَا، وَيَحْجُبُ لِمَاعَهَا؛ وَلَمَّا تَسَامَتَتِ الرُّؤُوسُ، وَأَحْدَقَ الرَّئِيسُ بِالْمَرْؤُوسِ، ظَلَلْنَا نَرْتَبُ الْجَمَاجِمَ، وَكَأَنَّهُمَا مِنْ أَعْجَبِ أَحْلَامِ نَانَمٍ؛ وَلَمَّا صَعَدَ الْمُؤَذِّنُونَ أَكْوَامًا بَنَتْهَا أَيْدِي الْأَيْدِ مِنْ هَامَاتِهِمْ، وَحَصَدَتْهَا بَوَاتِرُ قَطْعَتِهَا بِلَامَاتِهِمْ³، أَعْلَنُوا بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فَوْقَ أَذَانِ وَعَتٍ، مَا كَانَتْ عَنْهُ صِمَتٌ، وَأَدْمَغَةُ أَنْزَلَهَا اللَّدْمُ عَلَى مَا كَانَتْ بِهِ هَمَّتْ؛ وَقَرَّتِ الْعَيُونَ، وَانْشَرَحَتِ الصُّدُورُ، وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِهَذَا النُّورِ؛ وَهَذَا - وَقَقَكُمْ اللَّهُ - فَتَحَ الْفَتْوحَ، أَنْذَرَ بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاهُ بِنَصْرِ يَعِيزُ عَنْهُ الْحَصْرُ. وَقَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ اللَّقَاءِ جَوْلَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ⁴، قَضَى اللَّهُ

¹ - الرسالة من إنشاء أبي محمد عبد الله بن عبد البرّ (الحلل 64-65)؛ انظر ترجمته في القلاند 538 : الذخيرة 3/ 125؛ سبق ذكر مصادر أخرى لترجمته.

² - بقصد هنا نقص الاتفاق على تأجيل يوم المعركة إلى الاثنين فابتدأها النصارى مع فجر الجمعة قبله.

³ - أي الدروع

⁴ - اعتراف بما حصل من ضغط شديد في البداية على معسكر ملوك الطوائف (مع فرقة من الجيش المراتبي) الذي كان في طليعة المعسكر الإسلامي الذي يرأسه يوسف بن تاشفين، وتسبب هذا الضغط في فرار ملوك الطوائف عدا ابن عباد.

بالشهادة فيها لمن اهتم بأمانيتها¹، ثم أنزل سكينته، فخطبت نصال المسلمين رقاب الكافرين، فأنكحتها أبكاراً صانتها حجال المغافر، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر، ولا مهر إلا ما نووه من كرم نفوس جادت متطوعة، ومشت إلى الخيرات مسرعة، فنفلهم الله أنفالهم، ووعدهم بالنصر فأوفى لهم. فتلقوا - رحمكم الله - هذه النعم بالشكر كما تلقينا، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم أصبحنا فيها وأمسينا؛ والله يصلها بالتأييد، ويتبعها بالتوفيق والتسديد، والسلام".

103 - التخطيط لاسترجاع قورية وتحرك القشتاليين

جنوباً إلى سهل الزلاقة حيث كانت هزيمتهم² (رجب 479)

"... وقد علم ما كنا قبل مع عدو الله إدفونش بن فرزند - قصمه الله - من تطاطونا واستعلائه، وتقامونا وانتخانه، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به فناءً، إلى أن سئى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين³ وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، معقلي الأحمى، - أيده الله - ما سئى، وأدنى من ناي دياره وشخط مزاره ما أدنى، فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب، وأستفتح إلى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب، إلى أن ارتفعت الموانع قبله، وانتهجت السبل القصية له⁴؛ ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يرش ويبري، وصار بعد فذماً يخلق ويفري، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري، وأنا أنجده بوسعي، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعي، إلى أن صرنا - معشر الحلفاء - ببطلانوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية - حرسها الله⁵ - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك، فصمد في

¹ - عللت رسالة يوسف بن تاشفين إلى أمير إفريقية هلاك المرابطين في طليعة الجيش لجهلهم بقتال التصاري واندفاعهم للشهادة، وهو بقصد خاصة من كانوا في الطليعة في معسكر ملوك الطوائف، (انظر الرسالة في الملحق).

² - الرسالة من إنشاء أبي بكر بن العصور عن المعتمد كما وردت في الأخرى 242/1 م - 244 ، وقد جعلها بعد الرسالة المرسل على الخناج ثاني يوم المعركة "كنت صبيحة يوم السبت..". قارن هذه الرسالة مع الرسالة الصادرة عن يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب عن أحوال المعركة (في الملحق)، وقد ورد فيها أن جيش المصاري بلغ 80 ألف فارس وأزيد من 200 ألف راجل، كما ورد فيها قرار ملوك الطوائف من المعركة ولم يثبت فيها غير المعتمد بجيشه إلى جانب الجيش المرابطي (روض القرطاس ، ط الرباط 1973، ص 150-151)؛ دول الطوائف 429-430، (نقل عيان نص الرسالة من طبعة أوبسالة). قارن الرسالة المذكورة أيضاً مع رساله يوسف إلى أمير إفريقية (الملحق).

³ - في هذا تأكيد على أن يوسف بن تاشفين كان يحمل لقب أمير المسلمين قبل الرلاقة.

⁴ - يظهر أنه بقصد أمرين: حصول إجماع أمراء الطوائف على الاستنجاد بالمرابطين، ودعم ملك إشبيلية للمرابطين بإحدى قطعه البحرية لعنه سبتة التي كانت بيد سكوت البرغواطيين ثم ابنه الغر، وما تبع ذلك من التنازل عن الجزيرة الخضراء لتكون مجالاً لعبور المرابطين.

⁵ - من مدد تغور مملكة بطليوس شمال نهر تاجه كان القشتاليون استولوا عليها، ويظهر أن الخطأ في بدايتها هي تحرير فورية والتوغل في أرض فشتالة، وهذا ما تؤكدته رسالة ابن تاشفين إلى المعز أمير

محتشده إليها في جيوش تملأ الفضاء، وتسدّ الهواء، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته دُكاء¹، قد تحصّنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم وإقدامهم، ولما أشرف على جنابها، ولسنا بها، ودنا من أعلامها، ولم يتّجه لنا بعدُ ما أردنا من إمامها، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحمله نفجّه وتهوّرّه على السلوك في مدرج سيولنا...²

فدنونا إليه بمحلاتنا - نصرها الله - ثم اضطربناها بإزائه، وأطللنا عليه برباياتنا حتى كدنا نركزها بفنائها، ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه، فاجمع مضطراً على اللقاء، وقدم بعض أخيبته دَهْشاً في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء، وقد تيقن أنه إن أخذ المسلمون مصاقهم، وربّوا في مواقعهم كواقعهم، اضطلم عن آخره جمّعه، واجتث أصله وفرعه، فاهتبل فيما قدر غيرة، وحمل ولم يكن - بحمد الله - ما استشعره مرّة، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة بالظهور والوفور، فتواقف قليلاً الجمعان، وتجاوز ملية الفريقان، وللسيوف حكمها، ومن الحتوف حدّها المفهوم ورسومها؛ ثم صدّق أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - الحملة، وصدّم في جمع لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداء الله أن ولّوا الأدبار، واستصرخوا الفرار، واتّبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله - بقتية اليوم واللييلة، تقتلهم في كلّ غور ونجد، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالى ونقد³، ولم يخلص منهم على أيدي المتبعين - أجرهم الله - إلا من سيلتهمه التّعد، ويأتي على حُشاشته الجُهد؛ وأما محلّتهم فانتهيت في أول وهلة، وشربت بأسرها في نهلة...⁴

... ولم يُصَبّ بحمد الله من المسلمين - وقرهم الله - على هول المقام وشدة الاقتحام كثير، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير⁵، فإن كان إذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بديداً، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً⁶، ونحمد الله على ما يسّره من هذا الفتح الجليل وسنّاه، ومنحه من هذا الصّنع الجميل وأولاه...."

المهذية (انظر الملحق)، وعبارة (حرسها الله) غير مناسبة لكون المدينة في يد النصارى، والعبارة المناسبة هي (أعادها الله).

¹ - الدُكاء هي الشمس ، وفي هذا تعبير عن كثرة جيوش القشتاليين.

² - بعد هذا بتر في الرسالة بالذخيرة عوض بعبارة : (وفي فصل منها)

³ - القصد هنا من الكالين : المؤجل، ومن السقد: المعجل

⁴ - بعد هذا بتر في الذخيرة وضع مكانه عبارة (وفي فصل منها)

⁵ - ذكرت رسالة يوسف بن تاشفين فقدان نحو العشرين من أكابر رجال المرابطين وأنّه هلاك العصر المرابطي في المعركة يرجع إلى الجهل بفنّال النصارى، والاندفاع للاستشهاد (دول الطوائف ص428)

⁶ - ذكر صاحب ابن سبّام استعلال الفوسو نزول الظلام للفرار ، ودخل طليطلة في شردمة من أتباعه قليلة (الذخيرة ق1/2/246)

104 - رسالة عن المعتمد إلى المعتمد ابن صمادح صاحب

المرية حول ضم لورقة إلى نفوذه وحصار لبيط¹ [481]

"... إنما أشاركك - أيديك الله - في النعمة بأسنوها، وأطالعك في الهمة بأبلغها، لما أعلمه علم اليقين، وأتوسمه توسم الصبح المبين، أنك بكريم عهدك وسليم وذك تأخذ من ذلك بالحظ الأوفى، وتضرب في الارتياح له بالقدح المعلى؛ وأنفذته من حصن لبيط² - سهل الله مرامه، وأعاد إلى يد المسلمين زمامه-، وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعان من الجند - نصرهم الله - عند إطلالي عليه تناوش أطمع فيهم، ودل بأنه قد سقط في أيديهم؛ ثم صوبوا يوم كذا بالحرب، وكوفحوا إلى آخره بالغرب، بالطعن والضرب، وانصرفوا ولاذوا بالانحجار، واحتجزوا بالجدران والأسوار، ولم يكن واحد منهم يثور إلا إلى حمام، ولا ييدي جراحة إلا إلى سهم رام؛ وفي خلال ذلك ما أمرت بشربهم فغورت منابعه، وقطعت مشارعه، وحصلوا منا ومن العطش تحت محاربين: ظاهر وباطن، وعرضة لمجاولين: مستتر وعالن.

وغير ذاهب على أحد ما تقتضيه هذه الحال المبهجة بما يخالفها على علو كعب الإسلام، وينصب على الشرك وأهله من سوء الانتقام، بعد البلوغ من الشكر لله تعالى إلى الغاية القصوى من اختصاص أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب حليفنا الأعز - أيده الله - بقسم من الشكر وافر، وحظ من الثناء والنثر كذا ظاهر؛ فإنه الذي نهج بنفسه الكريمة - سناها الله - هذه السبيل، وتجشم فيها المجاشم حتى أذل من المشركين العزيز وأعز من المسلمين الدليل، ثم لم يشغله - دام تأييده - عن صلة أيدينا بعد ذلك أمر³، ولا تناه عن النظر لنا غدر....⁴

.... وكان نفوذي إليها من لورقة بعد أن تملك قصابها، وتولجت على ما اقترحت أبوابها؛ وكان تخلي سعد الدولة أبي الأصبغ ابن لبون⁵ عنها على أفضل حال وأجمعها، بما شنت من إطفاف وإجمال: ياسر وتساهل، وتقاصر

¹ - الرسالة من إنشاء أبي بكر بن القصيرة عن المعتمد كما وردت في الدخيرة 2 / 1 / 262-264، وكانت لورقة تحت نفوذ ابن عباد منذ أن مد نفوذه إلى مرسية سنة 471 أو قبل ذلك، ثم استند عليه بمرسية ابن عمار ثم ابن رشيق، إلى أن تمكن من استرجاع لورقة سنة 481، وذلك بعد انصرافه من حصار لبيط قبل امتداد النفوذ المرابطي على المنطقة.

² - يرد اسم الحصن أحياناً على صيغة: البيط (Aledo)، وكان موقعه بين بسطة والمرية غرباً ومرسية شرقاً، ويبعد عن لورقة اثنتي عشرة ميلاً، ووجوده بيد النصارى في هذا الموقع يهدف الربط بين هذه الجهات الإسلامية (انظر الحلة السيرة 2 / 175).

³ - الإنشائه هنا إلى عبور يوسف لخوض معركة الزلاقة ثم العبور الثاني لحصار حصن لبيط
⁴ - يتر في الدخيرة عوض عبارة (وفي فصل منها)؛ لم يصرح المعتمد هنا بوجود يوسف بن تاشفين في الميدان إلا إذا كان ذلك في الجزء المبين، وهذا ما تؤكد الرسالة الجوابية الصادرة عن ابن صمادح اللاحقة.

⁵ - أو ابن لبون، كان أمير لورقة بعد أخيه أبي سعيد، ثم صارت للمعتمد (المغرب 2 / 275؛ الحلة السيرة 2 / 167)

حيث كان له أن يتطاول، رأياً أدرك منه على صغره، وقصّر ما قطعه من مسافة عمره، ما يعجز عنه الكهل المجرب، ويقصّر دونه الحول القلب¹، وتاملت ذلك منه - أبقاه الله - حق التأمل، ونظرت إليه بعين الملتفت المحصل، فوقيته الجزاء، وسرت معه حسبما سار معي إلى ما شاء، فحصل لي من الناحية ما لا يضاهي معقلاً وبسيطاً، وعاد الشمل محوطاً، والأمر مبسوطاً، والعاجز الكاسل حازماً نشيطاً، ورجع الضيق بها سعة، والهرج بحمد الله دعة..."

105 - جواب ابن صمادح صاحب المريّة على رسالة

المعتمد خلال أو بعد حصار حصن لبيط² [481]

"... إلى مخاطبتك - أيدك الله - تسكن النفس، وبمطالعتك يتمكّن الأنس، فما تزال - والله يُعلي كعبك، ويجعل الأيّام والليالي أنصارك وحزبك-، تُطلع من الاهتبال، في وفق الإجمال، ما يبدو ويتبين مع البكر والأصال، لا أعدمك الله معلوّة تُبديها، ومنقبة تُنافس همم الكرام فيها.

وورد كتابك مفتتحاً بما كان من صنعه تعالى الكفيل، وبلانه الجميل، ومنه المتتابع الموصول، في احتلاك بليبط - يسره الله، وأحلّ الهلاك بمن احتواه-، وما كان من ذلك التناوش الذي أبدى مخايل الاعتلاء، وأذن بالملك والاستيلاء؛ ولا شك أن من سعى لله وحده، ولم يرد الظفر والظهور إلا بما عنده، أن حزبه منصور، وآماله موصول بها التسهيل والتيسير؛ والحمد لله تعالى على ما منح متعين، وموضع الضراعة إليه في الازدياد ظاهراً بين، على ما أولى من نعم أظهرت الإسلام بعد خمول، والشكر له على قسّم أعزّت الدين وقد كان جدّ دليل.

وتوجّه على ما ذكرت شكر أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب حليفنا الأعزّ - أيده الله - على ما أجرى إليه بدءاً من الخوف بنفسه النفيسة³ - نساها الله - وما اعتمده عوداً من الاهتبال الذي توخّاه، فهو الذي نهج هذه السبيل، وبرّد اللوعة والغليل، وأعاد الحزب اللعين بعد عزّته الحقيق الدليل.

ورأيت - أراك الله مُناك - أن حركتك الميمونة كانت إلى هناك من لورقة بعد أن تملكّت قصابها، وتولّجت على اختيارك أبوابها، على الصورة التي

¹ - هل يلمح المعتمد هنا إلى أنه ينتظر من ابن صمادح أن يفعل نفس فعل صاحب لورقة بنارله له عن إمارته؟

² - الرسالة من إنشاء كاتبه ابن الوكيل كما ردت في الذخيرة بعد الرسالة السابعة ص 264 - 265 . توجد ترجمة ابن الوكيل في إعتاب الكتاب 224 إن كان هو أبا بكر عيسى بن الوكيل الباهري الذي اشتغل في ميدان الكتابة بقرنطة أيام المرابطيين (هامش الذخيرة)؛ قارن مع أبي بكر عيسى بن وكيل المنرجم له في المغرب 2/ 235 - 236

³ - يظهر أن الإشارة الصريحة بوجود يوسف بن تاشفين في مجال لبيط هي في العقدة المبثورة من رسالة المعتمد.

وصفتها، من متابعة أهلها، وانطباع من فيها، نعمة يعلم الله تعالى أن نصيب منها النصيب الأوفر، وتنبوي منها الذنوب الأكبر، وكل نعمة أناخت بجانبك، وحطت رجليها ببابك، فإني فيها الخليط المساهم، والمشارك المقاسم، على ما يقتضيه الإخاء، ويستدعيه الانتظام والصقاء..."

106 - رسالة عن عماد الدولة ابن هود إلى علي بن يوسف

المرابطي مذكراً بعهد المسالمة بين أبيهما¹ [503]

تقديم:

بعدما تبين للمرابطين عجز ملوك الطوائف عن حماية الأندلس وإمكانية فقدان ثمار معركة الزلاقة خاصة بعد أن أخذ بعضهم يتعاون من جديد مع النصاري ضد بعضهم البعض عجل يوسف بن تاشفين بخلعهم الواحد بعد الآخر كما سبق الذكر، وكان أهم الملوك الكبار المعجل بخلعهم عبد الله بن بلقين أمير غرناطة وأخوه صاحب مالقة سنة 483 ثم ابن عباد صاحب إشبيلية سنة 484، ثم المتوكل ابن الأفتس صاحب بطليوس سنة 488. وتأخرت بلنسية بسبب استيلاء القائد النصراني المدعو الكمبيطور عليها من سنة 488 إلى سنة 495² حيث تغلب عليه المرابطون. وفي هذه السنة دخلوا أيضاً إمارة البوننت الجبلية الواقعة غرب منطقة بلنسية، وكان آخر أمرانها هو رابعهم جناح الدولة عبد الله بن محمد (440 - 495)³. وفي سنة 497 سقطت بيد المرابطين إمارة السهلة (شنتمرية الشرق أو شنتمرية بني رزين) الجبلية الواقعة غرب إقليم طرطوشة في عهد ثالث أمراء بني رزين يحيى حسام الدولة (496 - 497)، وكان جدّه هذيل بن عبد الملك (403 - 436) وأبوه عبد الملك بن هذيل (436 - 496) من أشهر أمراء الطوائف وأطولهم حكماً. ولم يتقدم المرابطون آنذاك لفتح مملكة سرقسطة لكونها التزمت بحماية الثغور الشمالية الشرقية من جهتها، أي تأمين حدود المرابطين من هجمات الأركونيين والكطالانيين إضافة إلى حماية ثغور سرقسطة، وكان نفوذها يمتد من وادي الحجاره ومدينة سالم غرباً⁴ إلى البحر شرقاً، ويشمل الثغور الشمالية:

¹ - ذكر صاحب **الجلل** (ص 98-99) أن أهل دولة الأمير علي أشاروا عليه بطلب ملك بني هود لكونهم مسالمين للروم، فوجه إليه الأمير أبا بكر بن تغلوت بعسكر من المرابطين، فكتب ابن هود كتاباً بعثه إلى الأمير علي بمراكش من فصوله: "وقد كان المستعين بالله حاطب أباك..." وكان المكتوب عنه أحر بني هود وهو عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بالله الذي نولى الإمارة بعد أبيه المستعين (478-501)، وكان جواب الأمير علي إصدار الأمر لغائده بالكف عن ابن هود فأحانه بأن الرعية أدخلته مدينة سرقسطة (503). فكانت هذه آخر إمارة من إمارات الطوائف - قبل ميورقة - تدخل تحت نموذج المرابطين، غير أن سرقسطة سقطت بيد النصاري وشكل بهاني سنة 512 في الوقت الذي بدأ الضعف يدب إلى الجيش المرابطي.

² - انظر **الذخيرة** ق 3/1/92 وما بعدها.

³ - انظر **المعرب** 2/398-399

⁴ - كذا في **الجلل** الموشية ص 73-74، ويظهر أن المقصود عهد قوة المملكة، أما في هذه الفترة فقد فقدت كثيراً من الثغور العربية.

تطيلة، دروكة، وشقة، بربشتر، لاردة، إفراغة، إضافة على كبرى المدن سرقسطة... ومما خاطب به المستعين الثاني ابن هود أمير المرابطين يوسف بن تاشفين : "نحن بينكم وبين العدو سدّ لا يصل إليكم منه ضرر ومنا عين تطرف، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منا بها..."¹. غير أن وفاة أميرها المستعين سنة 501² أطمعت النصارى في إمارته، ولم يعد ابنه عماد الدولة قادراً على مواجهة ضغوطهم المتزايدة، وكانت الفترة حماسية في أوروبا بعد الاندفاع الصليبي الأول نحو المشرق، فاشتدّ الضغط على المسلمين أيضاً في الأندلس، وانهمز عماد الدولة أمامهم³، فاستدعى أهل سرقسطة الجيش المرابطي لدخول المدينة قبل أن تقع في يد النصارى، فدخلها في ذي القعدة من سنة 503. وكان أمير سرقسطة عماد الدولة بعث إلى الأمير علي بن يوسف برسالة يذكره فيها بما وقع بين أبييهما من التزام، فأمر الأمير عليّ قائده بفكّ الحصار عن سرقسطة، لكن قبل وصول هذا الأمر إليه كان أهل المدينة فتحوا أبوابها للجيش المرابطي، وبذلك انتهت آخر إمارة من إمارات الطوائف. وهذا نص رسالة عماد الدولة ابن هود إلى عليّ بن يوسف كما وردت ضمن أحداث سنة 503 في الحلل الموشية:

نص الرسالة⁴

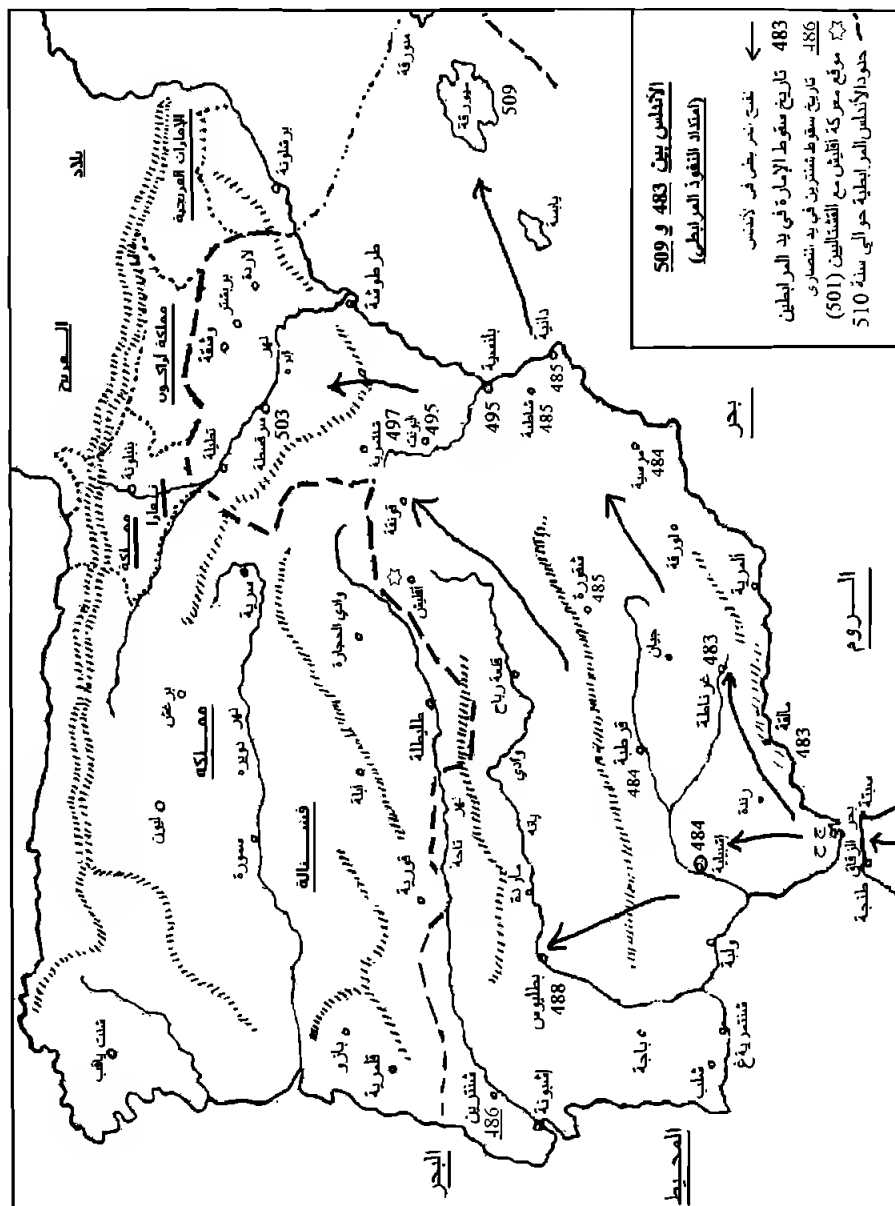
"... وقد كان المستعين بالله خاطب أباك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمة الله عليه يسأله الدّعة، ويرغب في الهدوء، والاستعانة على العدو، فأقام وأقمنا معه مُريحين، ومن تعب التّفاق فرحين، فنعمنا بنور الهداية السّاطع الإشراق، واغتنمنا الدّعة والأمن في هذه الآفاق؛ ثمّ دهمنا من جهتك داهم أبدي صفحته، ونسيم - بل عاصف - أهدى إلينا نفحته، ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا إليكم، فيتحكّم فينا الإذلال، ويتمكّن في محالنا الاستنفاص بالحقوق والاختلال، ولم تتقدّم منا إليكم إساءة جهرت عليكم بالقول، ولا أشارت ولا أخلّت بجنابكم ولا عدّت ولا أضرت، بل تُفيض عليكم استمالتنا، ونستعطفكم في كلّ حال بمقالتنا؛ وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أمير المسلمين إساءة حسنة، وآيّا كانت بيننا وبينه مستحسنة، فإن يكن الله أراد أمراً أنفذه في خلقه، فلا رادّ لمشيتته، ولا حائد عن بليّته، وسيعلم مُبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبّته، وعظيم هيئته في الفساد ورتبته؛ والله حسيبٌ منّ بغي، وابتدأ بالضرّيب بيننا وابتغى، وحسبنا الله وكفى، والسّلام".

¹ - الحلل الموشية 74 : ورد الخواب على هذه الرسالة في أعمال الأعلام 2/ 173 - 174.

² - أعمال الأعلام 2/ 174 (مات شهيداً في معركة مع النصارى انهزم فيها في أول رجب)

³ - يذكر ابن سعيد استعاقته بالنصارى لمواجهة ضغط المرابطين (المغرب 2/ 438)

⁴ - الحلل ص 98-99





اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِأمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

ملحق

(خصصنا الملحق للرسائل التي توصلَ بها ملوك الطوائف، ولبعض الرسائل
المتكاملة معها، مع مراعاة ترتيب الجميع ترتيباً زمنياً في إطار مواضيعها)

الصنف الأول

رسائل في الانتصارات والتهاني وما يتعلق بها

1 - رسالة عن بعض أمراء الثغور إلى قوم من النصارى في

تحذيرهم من نقض السلم، والتهديد بقرب الحركة إليهم¹ [.....]

"أيتها الشريعة الطاغية، إنكم لنا لغاظون، وإنكم لتفسدون في الأرض ولا تُصلحون، ناشدتمونا الله في عقد السلم أن تكفوا عن المسلمين عادية الأذى والاستطالة، فحملتموهم ضغنا على إبالة، وانتسفتكم النعم، وهتكتم الحرم، وبیتكم سكون الذمءاء، واستبیتكم الحرائر في ربى الإمام، وتوغلتم البسيطات، وتسئمت القلاع الممتنعات، ولم ترقبوا فينا إلا ولا ذمة، ولا رعيتكم لنا سلفا ولا حرمة، وليس إلا حكم الله بينا وبينكم، وهو بعزته يُحقيق دائرة السوء بكم، ويستأصل شأفتكم، ويصرف معرفتكم؛ وإنا لنرجو أنها علة قد نضجت، وكان بالكربة عنا تفرجت، فلتستشعروا حلول النعمة بكم، وإناختها عليكم، وتخطف المنايا لكم، وقطعها لدابركم؛ وإن الذي بينكم وبين الهلكة لأقصر من إيهام الحبارى²، في يوم تُروّن فيه سكارى وما أنتم بسكارى، ولكن عذاب الله الواقع، وسخطه الذي ما لكم عنه دافع، ولسنا نحاكمكم إلى غير المهتد، ولا نماطلكم ذلك إلى الغد³، فإن الله لكم بالمرصاد، ولن يتولى كبركم إلا أقل الأعداد، من أنجاد الأجناد، فتصبحوا كان لم تكونوا شيئا مذكورا، وتصيروا إلى جهنم وساءت مصيرا، والسلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى".

2 - تهنئة من إنشاء الفتح ابن

خاقان لأمير بما فتح عليه⁴

[... - 461؟]⁵

"أدام الله تعالى أيام الأمير للأرض يملكها، ويستدير بسعده فلكها، وقد استبشر المُلْك - أيدك الله - وحق له الاستبشار، فقد أوما إليه السعد وأشار، بما اتفق له من توليتك، وخفق عليه من ألويتك، فلقد حُبِي منك بملك أمضى من السهم المسد، طويل نجاد السيف رحب المقلد، يتقدّم حيث يتأخر الذابل، ويتكرّم إذا بخل الوابل،

¹ - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن أحمد [بدائية] من أدباء عصر الطوائف، كتب عن أحد أمراء الثغور [ربما الثغر الأعلى] إلى قوم من النصارى يحذّروهم من الغدر ويوعدهم بقرب الحركة إليهم، وردت في: الذخيرة (766/2 - 767)؛ انظر ترجمه الكاتب في ص 757-758 من هذا المصدر.

² - مثل عربي، ومثله: أقصر من إيهام فطاة ومى إيهام الصب (هامش الذخيرة)

³ - في المتن: وقد؛ والتعديل من الهامش

⁴ - الرسالة من إنشاء الفتح بن خاقان كما وردت في نفع الطبيب 1/ 679

⁵ - من المحتمل أن يكون الأمير المشار إليه هو المعتضد بن عباد، مهتأ بفتح، دون تحديد أي فتح بقصد، فقد فتح عدة جهات ومدن ...

ويحمي الحمى كربيعة بن مكّدم، ويسقي الطّبا نجيعاً كلون العندّم؛ فهنيئاً للأندلس فقد استردّت عهد خلفائها، واستجدّت رسوم تلك الإمامة بعد عفائها، فكان لم تمت أعاصرها، ولم يمت حَكْمُها ولا ناصرُها¹، اللذان عمّرا الرصافة والزهراء ونكحا عقائل الرّوم وما بذلا غير المشرفية مهراً؛ والله سبحانه أسأله إظهار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك، حتّى يكون عصرك أجمل من عصرهم، ونصرك أغرب من نصرهم، بمئه وكرمه ومُئنه".

3- تهنئة من إنشاء ابن حيّان إلى ابن

عبّاد بانتصاره على ابن ذي النّون²

[463]

"... لو أنّ فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر أو جلالة صنع، أو فرط انتقام مستأصل، أو تنزّل حكم من الرحمن فاصل، لكان فتحه هذا لك، على عدوّ أسود الكبد، مظاهر البغي على الحسد، طال والله ما استحييته لا من خجل، وتتكبته لا عن وهل، فأبى له رأي الفائل وجده الغائر، وحيثه المجلوب، وحزبه المكبوب، إلا اكتساب العار، وممانتة محصّد الأقدار، فجمع الجيش ذا الألوف، وتجنّم الشّقة العنوف، ثم لا يرزأ العدوّ الغاظ له إلا التسلّط على ضعفاء رعيته بإفساده لأقواتهم، ونيله من دماء المحاويج منهم، إلى التقاط سقاط سنبليهم؛ فكم نال فسّاقه الذين أرسلهم عليهم من دم أرملة غرثي، وبيتيمة كفرخ الحباري، إلى من أصيب فوقهم من عابر سبيل وضارب لمعيشة، مؤيّم نسوة، ومويّم صبية، أضحوا طعم ذناب...³

حتّى ابتعتك امتعاضك تحت صدق العزيمة ومهل الرويّة، وصواب التدبير، وتقّدّم الاستخارة، مستظهاً منهنّ بعدّة ضربت عليه بالأسداد، وباعدته عن السّداد؛ وابتعتك تعالى للسموّ إليه لما دنا منك قبل اكتمالك في الاحتشاد، وانتهاك في الإعداد، ويسرك لرميه بأهزاع الكنانة، ومظنة النجابة، وطليلة السّعادة، الحاجب سراج الدولة⁴ سيّد العرب أنعم الله به عليك في من حضرك من خاصّة الغلمان، لله درهم من حماة حقائق، ومدركي أوتار، ورخصّة عار، اهتدوا بقمرهم السّاري، وليثهم العادي، وحاميهم الواقي العبادي، مقتفياً أثرك في محمود موافقك، طرف الله عيون حسدك فيه، ومثّك بما منحك من يمن طائره وسعده اللّذين بهما انقضّ على عدوك انقضاض الكوكب السّاري، فخسف به وبجمعه، أحفل ما كان في عديده، وأوثق ما هو بجنوده؛

¹ - الإشارة إلى الخليفين عبد الرحمن الناصر (300-360) وإنه الحكم المستنصر (350-364).

² - وردت الرسالة في الذخيرة 1/ 578-580.

³ - نثر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها).

⁴ - هو عبّاد بن المعتمد الملقب بالظافر وسراج الدولة الذي ميع فرطبه من السقوط في يد جيش ابن ذي النّون سنة 463، وألحقها بإشبيلية بعد القضاء على بني جهور، ثم تمكن ابن عكاشة قائد جيش ابن ذي النّون من افتتاح قرطبة وقتل واليها سراج الدولة المطهر عبّاد والحق فرطبه بطلبطة حتى وفاة ابن ذي النّون سنة 467، فأعاد المعتمد قرطبة إلى نعوذه وجعل عليها ابنه المأمون.

فطواه طيَّ الرِّداء، وغلَّ أيدي كُلماته عن إعمال القنا وأرغى فوقهم سقبَ السَّماء، فافْتَسَمَتْهُمُ أيدي الحتوف بين حرِّ الحديد وبرِّ الماء، أولى لهم فأولى¹؛ قبل الله معذرة المستكرهين منهم، وقارض سواهم بطاعتهم لظلم فرَّ عنهم فرار الظليم، وأسلمَ بائياً بالعار قدماً تحاماه ذوو النهى، وراوا أنَّ الموت منه أحجى، ولم يقرنوا بمعذرة الحارث بن هشام ما الفرار منه أخرى...."

4 - رسالة من ملك قشتالة إلى ابن عباد

يدعوه لتسليم ما بيده من البلاد² [478]

"من الأنبيطور³ ذي الملتين، الملك المفضل، أذفنش [بن فردلند] بن شانجه⁴، إلى المعتمد بالله سدّد الله أراءه، وبصره مقاصد الرّشاد، سلام عليك، من مشيد مُلكٍ شرّفته القنى، ونبتت في ربّعه المنى، فاعتزّ اعتزاز⁵ الرّمح بعامله، والسيّف بساعد حامله. وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما صار بأهلها حين حصارها⁶، فأسلمتم إخوانكم⁷، وعطلتم بالدّعة زمانكم، والحزير من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحباله، ولولا عهدٌ سلف بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكنّ الإنذار، يقطع الأعذار⁸، ولا يعجل إلا من يخاف الفوت فيما يرومه، أو يخشى⁹ الغلبة على ما يسومه؛ وقد حملنا الرسالة إليكم [القومط]¹⁰ ألبر هانس¹¹، وعنده من التّسديد الذي يلقي به أمثالك¹²، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك، ممّا أوجب استنابته فيما يدقّ ويحلّ، وفيما يصلح لا فيما يخلّ؛ وأنت عندما تأتية من أرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك".

¹ - اقتباس من الآيتين 24- 35 من سورة الفياضة "أولى لك فأولى، ثمّ أولى لك فأولى".
² - ودّت الرسالة في الحلل الموسية، ط الدار البيضاء، 1979، ص 38- 39، ونقلها عنان من ط دوزي عن مخطوطات باريس ولبند وكابنكوس- مدريد (دول الطوائف 75- 76)؛ وقدّم مؤلف الحلل للرسالة هكذا "وكان الطاغية إذفنش في سنة 478 قد غلب على طليطلة وأعمالها... فطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها... وحاطب المعتمد على الله أبا القاسم^ك بن عباد بطلب منه تسليم أعماله إلى رسله وعماله، واشتطّ عليه في الطلب... فمما خاطبه به: "من الكنيطور...." والمخاطب هو محمد المعتمد بن عباد المعتمد ابن أبي القاسم محمد بن إسماعيل... ابن عباد، وأبو القاسم هذا هو حدّ المعتمد ومؤسس الإمارة.

³ - في ط. نوبس: من الكميطور

⁴ - في الأصل: إذفنش بن شانجه؛ والصواب ما أئنتاه.

⁵ - كذا في ط. البيضاء؛ وعند عنان: المبي باعترار.

⁶ - عند عنان: وقد أمرتم بطليطلة بزلا أقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها.

⁷ - جاء في جواب ابن عباد "وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجبّ القعود عن نصرتهم [أي المسلمين]"، فيكون ابن عباد بهذا يتحمل مسؤولية كبرى في سقوط طليطلة.

⁸ - عند عنان: لكن الأقدار تقطع بالأعذار

⁹ - عند عنان: خاف.... وخشي

¹⁰ - في الطبعة المعتمدة وعند عنان: الفرط؛ والصواب ما أئنتاه

¹¹ - Conde Alver Hans

¹² - عند عنان: الذي تلقى بأمثالك

5 - رسالة استفزاز من الفونسو

القشتالي إلى يوسف بن تاشفين¹ [478 - 479]

"من أمير الملتين أذفونش² بن فردلند، إلى الأمير يوسف بن تاشفين.
أما بعد³؛ فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير (المسلمين، بل)⁴ الملة المسلمة، كما أنا أمير
الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاضل والتواكل، وإهمال
الرعية، والإخلال إلى الراحة، وأنا أسومهم [سوء]⁵ الخسف، فأخرب⁶ الديار، وأهتك الأستار،
وأقتل الشبان، وأسر⁷ الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم⁸ إن أمكنتك قدرة⁹؛ هذا
وانتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا، إن تم خفف
عنكم فجعل على كل واحد منكم قتال اثنين منا، وإن قتلكم في الجنة وقتلنا في النار؛ ونحن
نعقد أن الله أظفونا¹⁰ بكم، وأعاننا عليكم، إذ لا تقدرُونَ دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً؛ وبلغنا
عنك أنك في الاحتفال، على نية الإقبال، فلا أدري أكان الجبن يبطي بك، أم التكذيب بما أنزل
إليك؛ فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز إليك، وأنجزك¹¹
في أحب البقاع (إليك)، فإن غلبتني فتلك غنيمة جاءت¹² إليك، ونعمة مثلت بين يديك، وإن
غلبتك كانت لي اليد العليا، واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة..."¹³

¹ - نص الرسالة في الإحاطة 4/ 351؛ ورد أيضاً في الحلل المونسيه 42-43، جاء فيه: وصل رسول أذفونش
ومعه اليهودي ابن شالب لقبص مال الجزية على عادتهم في كل سنة، ونزلوا خارج إشبيلية، فوجه إليهم
المعتمد المال المعلوم مع بعض أشياخ إشبيلية... فقال لهم اليهودي: والله لا أخذ منه هذا العيار، ولا أخذه إلا
مشحراً [أي حالاً]، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلا أجاب البلاد... وأساء الأدب، وبلغ المعتمد خبره، فدعا
بعبده وبعض جنوده وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب... فخرج إذفونش في جيش لا يحصى
كثرة... قاصداً حصي طريف ووقف على شاطئ بحر الرقاق وخطب الأمير يوسف بن تاشفين بما نصه: "من أمير
الملتين..." (الحلل ص 41-43)

² - في الحلل: إذفونش (بن شانجة) بن فرانده، وإضافة (ابن شانجة) غير مناسبة.
³ - أورد ابن الخطيب رسالة الفونسو مختصرة كما يلي: "من أمير النصرانية إذفونش بن فردلند إلى يوسف بن
تاشفين: أما بعد، فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم، وأهل الأندلس قد صغفوا عن مقاومتهم
ومقابلتهم، وقد أدلتهم بأحد الجزية منهم، وبالقتل والأسر، والدن والفقر، وأنا لا أقتع إلا بأحد البلاد؛ وقد وجب
عليك نصرهم لأنهم أهل ملك، وأما أن تجوز إلي، وأما أن ترسل إلي المراكب أجوز إليك، فإن غلبتني كان ملك
الأندلس والمغرب إليك، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم، فإن نفوسهم متعلقة بنصرك لهم"
(أعمال الأعلام، (ق3) المنشور تحت عنوان: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ط الدار البيضاء
1964، ص 239)

⁴ - ما بين هلالين (...). راند في الحلل
⁵ - ما بين معقفيين [...] ناقص في الحلل
⁶ - كذا في الحلل؛ وفي الإحاطة: وأصرب
⁷ - في الإحاطة: وأسبي
⁸ - في الإحاطة: نصرتهم
⁹ - في الحلل: فرصة
¹⁰ - في الإحاطة: أظفونا
¹¹ - في الحلل: وأقاتلك
¹² - في الحلل: جلبت
¹³ - أورد صاحب الحلل جواب يوسف بن تاشفين على ظهر رسالة الفونسو على صيغة: جوابك يا أذفونش ما نراه
لا ما تسمعه إن شاء الله، وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبّي:
ولا كتب إلا المشرقية والقنا = ولا رسل إلا الخميس العرمرم
قار، مع أعمال الأعلام 3/ 239.

6 - رسالة من أبي عبيد البكري إلى المعتمد

ابن عباد مهتناً بالانتصار في الزلافة¹

[479]

"أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي العُز، والنعم الزهُر، وهنأ ما مُنَحّه من فتح ونصر، واعتلاء وقهر؛ بطالع السعد يا مولاي أُنبت وبساتين اليمين عُدت، وبكنف الحرز عُدت، وفي سبيل الظفر سرت، وبقدم البرّ سَعيت، وبجَنّة العصمة أُنيت، وبسهم السداد رميت فأصميت؛ صدرّ عن أكرم المقاصد، وأشرف المشاهد، وعودَ بأجل ما ناله عائد، وأب به وارد، فتوح أضحت مبسم الذهر، وسفرت عن صفحة البشر، وردت ماضي العمر، وأكبت واري الكفر، وهزت أعطاف الأيام طرباً، وسقت أقذاح السرور نخباً، وثنت آمال الشوك كذباً، وطوت أحشاء الطاغية رهبا، فذكرها زائد الرّاكب، وراحة اللاعب، ومتعة الحاضر، ونقله المسافرين.

بها تُنفّض الأحلاس في كلّ منزل == وتُعدّ أطراف الحبال وتُطلق

شملت النعمة، وجبرت الأمة، وجلت الغمة، وشفّت الملة، وبردت الغلة، وكشفت العلة.

كان داء الإشرار سيفك واشتدّ == حنت شكاة الهدى وكان طبيباً

فغدا الذين جديداً، والإسلام سعيداً، والزمان حميداً، وعمود الدين قائماً، وكتاب الله حاكماً، ودعوة الإيمان منصوره، وعين الملك قريرة؛ فهنأ الله مولانا وهنأنا هذه المنح البهية مطالعها، الشهية واقعها، المشهورة آثارها، الماثورة أخبارها، ونصر الله أعلامه ففي البرّ نُخل وتُعدّ، وعُضد حسامه فبالقسط يُسلّ ويُغمد، وأيد مذاهبه فبالتحزم تُسدّى وتُلمح، وأمدّ كتابه ففي الله تُسرج وتُلمح؛ فكم فادح خطب كفاه، وظلام كُرب جلاه، وميت حقّ أحياء، وحيّ باطل أرداه، وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره، وناجم فتنة قلم أظفاره، ومغلول أسنة أرفف شفاره، ومستباح حرمة حمى ذماره.

فلله هذه المساعي الكريمة، والمنازع القويمة، المتبلجة عن ميمون النقية ومحمود العزيمة، فقد تمثّل بها العهد الأول والقرن الأفضل الذي أخرج للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي سطع هذا السراج، وانتهج هذا المنهاج؛ فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتصل لديه، إدالة من مُشاقبه، وإذالة لمحاربيه، وإياداة لمناوينه؛ وإنّ أجل هذه النعم في الصدور، وأحقّها بالشكر الموفور، ما من الله به من سلامة مولاي التي هي جامعة لعزّ الدين، وصلاح كافة المسلمين، بعد أن صلّي من الحرب نيرانها، فكان أثبت أركانها، وأصبر أقرانها:

وقفت وما في الموت شكّ لواقف == كائنك في جفن الردى وهو نانم

تمرّ بك الأبطال كلمي هزيمة == ووجهك وضاح وتغرّك باسم

¹ - الرسالة من إنشاء أبي عبيد البكري عن نفسه كما وردت في الذخيرة 237-235 / 1م/2 : ترجمته في ص 232 وما بعدها قبل نص الرسالة؛ و ترجم له أيضاً ابن الأبار في الحلة السيرة 2 / 180-187 (رقم 139)

فلله الحمد والإبداع والإلهام، وله المنة وعلينا متابعة الشكر والدوام، وفازت الكف الكليم، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم، وإنها لهي التالية للأصبع الدامية، في المنزلة العالية؛ بصُرَت بالراحة العليا فلم ترها == تُنالُ إلا على جسر من التعب"

7 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى

أهل المغرب عن انتصار الزلاقة¹

[رجب 479]

"... أما بعد حمد الله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإن العدو الطاغية - لعنه الله - لما قربنا من حماه، وتوافقنا بإزائه، بلغناه² الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الخامس عشر³ لرجب، وقال: الجمعة عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن؛ فافترقنا⁴ على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خُدع ونقض عهد؛ فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة الثاني عشر⁵ من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتتم فرصته في ذلك الحين؛ فاندببت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين، فتعشّته قبل أن يتعشّتها، وتغذّته قبل أن يتغذّاها، وانقضّت جيوش المسلمين على جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته.

وقصدنا براياتنا السعيدة المنصورة، في سائر المشاهد المشهورة، في جيوش لمتونة نحو ألفنش، فلما أبصر النصاري راياتنا المشتهرة، ونظروا إلى مراكبنا⁶ المنتظمة المظفرة، وغشيتهم بُروق الصّفاح، وأظلتهم سحائب الرّماح، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، التحم النصاري بطاغيتهم ألفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكّرة، فتلقاهم المرابطون بنّية صادقة خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب، ووكفت يَمُ السيوف والرّماح بالطعن والضّرب، وطاحت المّهج، وأقبل سيلُ النّماء في هَوَج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج؛ وولى ألفنش مطعوناً في أحد ركبتيه طعنة أفقدته أحد

¹ - وردت الرسالة في روض القرطاس، ط الرباط 1973 (ص 150-151) وفي طبعة أوبسالة (96-98)، وقد اعتمد عنان على هذه الأخيرة في نقل الرسالة في كتابه: دول الطوائف ص 429-430، وبين الطبعتين بعض الاختلاف نشير إليه في حينه، معتمدي على ما نقله عنان.

² - كذا في أوبسالة؛ وفي طبعة الرباط: لقناه

³ - في طبعة الرباط: الرابع عشر، على أن المعركة جرت يوم 11 رجب، والقرائن تنمق على كون الجمعة هو يوم 12 رجب، فاعتمدنا طبعة أوبسالة.

⁴ - في ط الرباط: ففترقنا

⁵ - في ط الرباط: الحادي عشر

⁶ - كذا في ط الرباط؛ وفي ط أوبسالة: مواكنا

سأقيه، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص - لعنه الله - إلى جبل هنالك، ونظر الذهب والثيران في محلته من كل جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً، ويحيد¹ عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعا² ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل؛ وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة، منصور الجهاد، مرفوع الأعداد، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤل والمراد، وقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتستلم ذخائرهما وأسبابها، وثريه رأي العين دمارها ونهايتها، وألفش ينظر إليها نظر المغشي عليه، وبعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه.

وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار، عاد رؤساء الأندلس المنهزمون نحو بطليوس والغار³، وتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد ابن عباد، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عناء وجراح، فهأه بالفتح الجميل، والصنع الجليل؛ وتسلى ألفش تحت الظلام، فاراً لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس؛ والحمد لله على ذلك كثيراً. وكانت هذه النعمة العظيمة، والمئة الجسيمة، يوم الجمعة الثاني عشر⁴ لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمي".

8 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى تميم بن المعز

أمير المهديّة عن انتصار المسلمين في الزلاقة⁵ [579]

"... الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام، وفضلنا بمحمد عليه السلام، أحمدته حمداً يوجب المزيد من آلائه، والسبوغ من سرّ الله ونعمائه. كان من قضائه جلّ شأوه وتقدّست⁶ أسماؤه لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب⁷، سبّب لنا إليهم المطلب، فقفونا آثارهم، وأخلىنا منهم

¹ - في ط الرباط: لم يجد

² - كذا في ط أوبسالة؛ وفي ط الرباط: شزراً، لم يجد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفاعاً..

³ - هل هو نفسه موضع الكرمات الوارد في الرسالة السابقة ؟

⁴ - كذا في ط أوبسالة؛ وفي ط الرباط: الحادي عشر

⁵ - وردت الرسالة في مخطوط الأسكوريال رقم 488 (فهرس الغزيري) الورقة 49-53 ب (بقلاً عن عيان في: دول الطوائف ص 424-428، ولم يذكر منشئ الرسالة؛ ويمكن مقارنتها بالرسالة السابقة عن يوسف إلى أهل المغرب (رقم 7 ملحق)

⁶ - عبد عنان: ونقدت أسماؤه؛ وهي غير مناسبة.

⁷ - يقصد ممالك الطوائف التي ورعت - مع برعواطة- بلاد المغرب من بفس إلى تلمسان، وبالقضاء عليها أعاد ابن تاشفين وحدة البلاد حتى نهر شلف أي إلى حدود بلاد صنهاجة شرقاً.

ديارهم، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين، فقوّمنا الذين، ومهدّنا [بلاد]¹ المسلمين، فصفت لنا ضمانتهم، وخلّصت إلى الله تعالى نياهم وسرائرهم، حتّى وصلنا طنجة الرّكاب، وأدقنا برغواطة² سوم العذاب، ففتح الله لنا وبها وهو خير الفاتحين، وأسرع الحاسبين، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين.

ولمّا بلغنا من استحواذ النّصارى - دمرهم الله - على بلاد الأندلس ومعاقليها، وإلزام الجزية لرؤسائهم، واستئصال أقالمها³، وإيطائهم البلاد داراً داراً، لا يتخوّفون عسكرياً يخرج إليهم، فيبدّد جمعهم، ويقلّ حدّهم، وهم مع ذلك كله يقتلون الشّيب والشّبان، ويأسرون النّساء والصّبيان؛ فخطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرّة بعد المرّة، والرّثنا الأعذار إلى وقت الأقدار، ولم نجد للجواز باباً، ولا لدخول البحر أسباباً⁴، فانضمّ لنا منهم الرّئيس الأجلّ المعتمد على الله، المولّى بنصر الله - أحسن الله في كلّ الأمور عونه، وأقرّ بكلّ صالحة عينه -، فعزمنا على الغزو، وجوّزنا للعدوّ أسوداً ضارية، وسباعاً عادية، شيباً وشباناً، بسواعد قويّة، وقلوب في سبيل الله نقيّة، قد عرفوا الحرب وجربوها، فهي [أمهم]⁴ وهم بنوها، يتلمظون تلمظ الفهود، ويزعرون إليها زار الأسود؛ فشحنّا بهم القوارب، وأوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره - وفقه الله -، ففرغ الناس من كلّ أفق إليهم، ووفدوا من كلّ قطر إليهم، متعجّبين من هيأتهم، محتقرين لزيّهم ونغماتهم، لا يروعه منهم حاشا الخيل والدرق، وهم مع ذلك لا يُنالون إلا بعد جفّ الرّيق ومسح العرق، وقدّروا أنّهم طعم للسيوف، وغرض للحتوف، وسعد للأرماع، ونهب للسّلاح، فكلّ استصغروهم، والجميع منهم احتقرهم، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم، وتنتهي إلينا أفعالهم⁵؛ ثمّ اتبعناهم جيشاً بعد جيش بخيول كالفحول، عليها الكهول، وعدد من كلّ أمرد، على أجرد، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحين والقضاء؛ ومع هذا كله إنّ أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا، وإزاحة غمّتهم بسببنا، وعساكرنا تتزيّد، وجوازنا يتأكّد، وكان آخر من جاز منا ومعنا قطعة من صنهاجة بني عمي، فعسرّ البحر حينئذٍ للجواز، واضطربت فيه الأمواج، فاستصرخنا البارّي تعالى جدّه، وعظم اسمه، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهّل علينا، فما استكملت من كلامي حتّى سهّل الله المركب، وقرب المطلب، فخرجنا

¹ - عند عنان: ومهدّنا بها المسلمين؛ وهي صيغة غير مناسبة.

² - يقصد إنهاء إمارة سبتة وطنجة التي كانت في يد سكوت البرغواطي ثم ابنه العز.

³ - الإشارة إلى سيطرة سكوت البرغواطي على سبتة وطنجة، وبعد فتح طنجة قام الأسطول المرابطي مع قطعة لاس عباد بحصار سبتة من البحر والجيش المرابطي الرئيسي من البر فتمكن فتحها، وبذلك فتح باب العبور إلى الأندلس.

⁴ - عند عنان: المهم؛ ويظهر أنّ الصواب ما أنبتاه.

⁵ - ربما كان الاحتقار من نظرة الأندلسي لكل من هو مغربي، ولكون المعاربة لا يملكون عناداً للقتال في مستوى عناد النصارى.

من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة، والتأم شعبتنا مع مَنْ جاز من عسكرنا، فعملنا على السير؛ وكان قد تقدّم إلينا بالعدوة من قِبَل الأَنْفُونش أمير النصارى رسالة يَخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه وفرقنا منه، نعطوه المراكب، ونسلموا¹ إليه الشواني والقوارب، ليرد علينا ويقاثلنا في مأمنا²، فلم نلتفت إليه ولا عرّجنا عليه.

ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجلّ المعتمد على الله المؤيّد بنصر الله، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق، وبنينا معه على اللّحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك كله إما نُقل إلينا وورد علينا من رؤساء الأندلس مستبطنين سريرة المخبّتين، لابسين قلنسوة³ الصالحين، وقلوبنا شتى، حتّى لحقنا إشبيلية حضرته. عمّرت ببقائه. وقد تجمّع له من جنوده أعداد، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد، فصرنا إلى مدينة بطليوس، وأقمنا بها أيّاماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس، فأخبرنا وصحّ عندنا أنّ كلّ واحد منشغل مع قطعة كثيرة من النصارى قد تغلبوهم على حصونهم، وأذلّوهم في بلادهم، وأضعفّوهم، وشجّعوهم على مرادهم⁴؛ فحمدنا الله تعالى ودعونا بتيسير المراد، واستنقاذ العباد، فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين - صرفها الله⁵ - فسمع بنا، وقصد قصّدتنا، وورد وروّذنا، واحتلّ بفنائها منتظراً لنا، فبعثنا إليه نحضّه على الإسلام، ودخوله في ملة محمد عليه السلام، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبين لنا في كتابه من إعطاء الجزية ﴿عن يد وهم صاغرون﴾⁶، فأبى وتمرد، وكفر ونخر، وعمل على الإقبال علينا وحثّ في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ.

فلما كان بعد ذلك برزنا عليه أيّاماً، فلم يُجِبنا⁷، فبقينا وبفؤا ونحن نُخرج الطلائع إليه ونتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، فلما كان يوم الجمعة ثانيه ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق⁸، وتقلّبت تقلّب الحتوف للأحداق، قد [استلأوا]⁹ الدروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، ويطونهم ملأى من الخمر، يقرّون أنّ الدائرة علينا تدور، ونحن في

¹ - وردت الرسالة في الحلل الموشية 42- 43

² - عند عنان: فسوة

³ - كذا عند عنان؛ ويظهر أنّ صوابها: ومنعوهم من مرادهم

⁴ - كذا، والقصد أن يصرّفها إلى المسلمين كما كانت قبل، وهو دعاء غير معتاد

⁵ - من الآية 29 من سورة التوبة

⁶ - يظهر أنّ تأخّر الفونسو في الردّ سريعاً على هذه المناوشات هو محاولة معرفة طريقة قتال المعاربة الذين لم يصطدم معهم قبل هذا.

⁷ - ورد عند المقرئ أن الفونسو قسم جيشه قسمين "برز بالمختار من جنوده... وترك بقية جموعه خلفه" (يفح 363/4)، ولا ندري ما إذا كانت مؤخرته مختفية عن أنظار المسلمين أو مرتية، كما هو حال جيش المسلمين، حيث اختفى القسم الرئيسي عن أنظار النصارى، لكن لم يقل الحواسيس خبر هذه الخطة لدى الطرفين؟

⁸ - عند عنان: قد استلأوا

أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كلُّ منا ساء، وجميعنا لاه¹؛ فقصدهم أشدُّهم شوكة، وأصلبهم عوداً، وأنجدهم عديداً، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، - وقفه الله - عماد رؤساء الأندلس وقطبهم لا يفترون عسكرياً إلا عسكره، ولا رجالاً إلا رجاله، ولا عديداً إلا عديده²، وداود من أصحابنا منا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيافاً واحداً كهبوط السيل، بسوابق الخيل؛ فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات الذين كانوا يدخرون قبيله الأموال والضياع، استكت أذانهم، واضطربت أضلاعهم، ودهشت أيديهم، وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فرّوا يطلبون معقلاً يعصمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هارب³ منه إلا إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرمات، لما عاينوا من الأمور المعضلات، وأسلموه - أيده الله - وحده في طرف الأخبية مع عدد كثير من الرّجاله والرّماة، قد استسلموا للقضاء⁴، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس، يعظّمون الكنائس، فحبسهم حيناً وحده مع من إليه ممّن ذكرناه، وبسطوا منه الأرض، ولم يبق من الكلّ إلا البعض، ولجأ في الأخبية، بعد أن عاين المنية، وتخلّصه الله بنيتّه في المسلمين وبلغه [الأمنية]⁵، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يردّ عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهمز، ولا يهابهم فيسام؛ ثم قصدت كتيبته⁶ سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم عسكر داود وأخبيته، فجالوا فيها جولاناً، وقتلوا من الخلق الواناً، واستشهد الكلّ بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله⁷.

ونحن في ذلك كله غافلون⁸ حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من وراء الشّعب، كقطع الذهب، بجميع من معنا، على الخيل المسوّمة العراب، يتسابقن الطعن والضرب؛ فلما رأونا ووقعت أعينهم علينا، ظنّوا أنّ الدائرة فينا ولدينا، وأنا طعم أسيافهم، ولقاء رماحهم، فكبرنا وكبر الكلّ معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذي لا بدّ منه، ولا محيص لأحد عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا،

¹ - اعتراف بإهمال الحذر من مباغطة النصارى، وإذا كان هذا من طرف المعارضة الذين لم يعرفوا جدد قتال النصارى فكيف يعلل هذا بالنسبة للأندلسيين؟ ما ورد في **الروض المعطار** أن حواسيس المعتمد ليلة المعركة أخبروه بعزم النصارى على القتال فأرسل كاتبه أبا بكر بن القصيرة لإخبار يوسف بن تاشفين بالأمير (ص 290).

² - هذا تأكيد على صحة الرواية التي تذكر احتفاء معسكر يوسف بن تاشفين عن أنظار العدو.

³ - عند عنان: ولا هارباً

⁴ - هذا يعني كشف جناحه المكوّن من الأندلسيين، ولم يبق إلا الجناح المكوّن من المرابطين وبهذا كشف قلب معسكر ابن عباد.

⁵ - عند عنان: أمنيته؛ وهي غير مناسبة للسجع

⁶ - الصمير يعود على الأدفوش

⁷ - علّلت الرسالة هذا باندفاع المرابطين للشهادة وجهلهم بحرب النصارى.

⁸ - هل هذا ينعي ما توردته بعض الروايات من كون المعسكر الإسلامي كان على نقطة واستعداد للقتال، أم هو تبرير لإبطاء يوسف في التحرك لإنقاذ معسكر ابن عباد؛ هل كان يوسف ينتظر مقتل ابن عباد مما قد يجعل إمارته تدخل تحت طاعته طواعية بعد المعركة؟ يظهر أنه لم تكن هناك ثقة بين الطرفين، فقد ذكر أمير عرناطه أن المعتمد كان غرضه ضرب النصارى بالمرابطين وضرب المرابطين بالنصارى؛ وكان تدخل يوسف في الوقت المناسب لكسب المعركة.

فلنموتوا^{كنا} شهداء؛ فحملوا علينا كالسّهام، فثّبت الله أقدامنا، وقوى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى وليّ النصر لنا، فولوا هاربين، وفرّوا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه، ولا ضربة تتخذه، وأضعف الرّعب أيديهم، فطعنّاهم بالسّمهرية دون الوخز بالإبر، و﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾¹، حتّى إنّ هاربهم لا يرى غير شيء إلا ظنّه رجلاً، وفتكت فيهم السيّوف، على رغم الأنوف، فوالله لقد كانت تقع على الدّروع فتفريها، وعلى البيضات فتفريها، وزرقوا² الرّجالة ممّا على خيلهم الرّماح، فشكّوهم بها³ فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكلّ يجرّ عنانه، كأنّه مُعقل بعقاله؛ ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربيّ المصون، السّابق اللاحق، المُعدّ للحقائق، وما ممّا إلا من له جرنّاز فيه سيفان وبيدنا الثّالث، عسى أن يحدث من حادث؛ فصاروا في الأرض مجتّلين، موتى معقرين؛ وقد تراجع النّاس بعد الفرار⁴، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلون[ها] بإزاء المحلات، حتّى علت كالجبال الرّاسيات، عدد لا يقتر، ومدد لا يحزر، والتّجريد فيهم، والأيدي متعاودة^{كنا} لبطونهم؛ واستأصلنا أكابرهم، وحلّلنا دون أماطيهم وأمانهم، وما ربك بغافل عمّا يعمل الظّالمون⁵؛ وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقلّ - والإذفونش فيهم على ما أخبرنا - قد أنخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم، يرتاد الظّلام للهروب في المقام؛ ووالله لقد كان الفرسان والرّجالة يدخلون محلاتهم ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم، وهم ينظرون شزراً نظراً الثّيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جنّ اللّيل وأرخی سدوله، ولّوا هاربين، وأسلموا رحائلهم صاغرين، فكم من دلاص⁶ على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة؛ ولقد ارتبط كلّ فارس ممّا الخمسة الأفراس أو أزيد، وأمّا البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأمّا الثّياب والمتاع فناهيك، والأسرة بأوطية الحرير، والثّياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكون في الانتقال، ولا يسأمون من تشريط الأموال؛ ولحقوا قوريةً ومنها حيث ألقت رحلها أمّ قشعم⁷؛ فصحّحنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نيّاتنا وسرائرنا، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين، لم يستشهد ممّا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك⁸، وقدرنا أنّ الكلّ

¹ - من الآية 119 من سورة التّوبة: وعند عات " وضاقت الأرض بهم " ، والتصحيح من المصحف الشريف.

² - أي ضربوهم بالمراريق وهي رماح قصيرة.

³ - أي ضربوهم بها

⁴ - يقصد من فروا نحو بطليوس من الأندلسيين.

⁵ - افساس من الآية 44 من سورة إبراهيم " ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظّالمون "

⁶ - الدلاص: الدرع الملساء

⁷ - أمّ قشعم: الحرب

⁸ - هي فرقة داود بن عاشة التي كانت في المقدمة مع الأندلسيين.

منهم هلك لقلة معرفتهم وجهاتهم بقتال النصاري، وتراهم للشهادة، قدس الله أرواحهم، وكرم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنة مياعداً بينهم وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شهدت نجدة في المغرب، وانقلب خير منقلب، ولحقنا إشبيلية حضرته - عمرت ببقائه - وأقمنا عنده أياماً ورفعنا عنه مودعين لا توديع قاطع، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع، ولحقنا الجزيرة الخضراء¹، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها²، وأن يسهل المراد، ويوفقنا للسداد؛ ومتى تنفس منهم متنفس، أو رجع إلى أحدهم نفس، يذكرون ما لقوا، ويتذكرون ما بقوا، و«سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى له إن كيدي متين»³، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حي، ولا يحس منهم إنسي، والحمد لله رب العالمين على ما قضى، وخول وأعطى، وهذا كله منا منه علينا لا منا عليه، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين، إلى جنات الله النعيم، وآله الطيبين، وسلم تسليمًا، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

9 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي عبد الملك

ابن عبد العزيز عن دخول المرابطين بلنسية⁴ (15 رمضان 495)

"كتبت منتصف الشهر المبارك، وقد وافى بدخول بلنسية- جبرها الله- الفتح، بعدما خامرها القبح، فأضرم أكثرها ناراً، وتركها آية للسائلين واعتباراً، وتغشاها سواداً، كما لبست عليه حدادا، فهي تنظر من طرف خفي، وتتنفس عن قلب يقلب على جمر ذكي، غير أنه بقي لها جسمها الأنعم، وثربها الأكرم، الذي هو المسك الأنفر، والذهب الأحمر، وحدائقها الغلب، ونهرها العذب؛ وبسعد أمير المسلمين وناصر الدين، وإقباله عليها ينجلي عنها ظلامها، ويعود عليها حلها ونظامها، وتروح في الحل، وتبرز كالشمس في بيت الحمل؛ فالحمد لله مالك الملك، مطهرها من الشرك، وفي عودتها إلى الإسلام عز وعزاء، عما نفذ به قدر وقضاء".

¹ - يظهر أنه بعث هذه الرسالة من الجزيرة الخضراء.

² - هل هي بنة يوسف تجاه ملوك الطوائف لإقصائهم؟ لاحظ الآية الكريمة لاحقاً "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون..."

³ - من الآية 182 من سورة الأعراف "والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون"

⁴ - وردت الرسالة في الذخيرة ق3/101-103، بعد تفصيل الحادث الذي طرأ على بلنسية باستيلاء الكمبيطور عليها من ص92 - 101؛ ويبدو أن المکتوب إليه هو أخو رئيس بلنسية السابق عبد الملك بن عبد العزيز.

10 - رسالة للكاتب أبي الفضل جعفر بن محمد ابن

شرف في فتح بلنسية من طرف المرابطين¹ [495]

"مَنْ ذَكَرَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - عَهْدَكَ الْكَرِيمَ وَالتَّزَامَهُ، وَأَبْصَرَ مَجْدَكَ الْعَمِيمَ وَانْتِظَامَهُ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ حَيْثُ وَضَعَهَا مَاضِي الدِّمَامِ، وَأَنْزَلَهَا مِنْكَ حَيْثُ أَنْزَلْتَهَا تِلْكَ الْأَيَّامَ الْكَرَامَ، وَعَلِمَ أَنَّ رِبْطَكَ مَبْرَمَ الشَّدَّةِ، وَضَبْطَكَ مُحْكَمُ الْعَقْدِ، وَإِنْ وَاثَاكَ أَكْبَرُ مِنْ رِضْوَى² جَسَدًا، وَأَكْثَرُ مِنْ حُزْوَى عَدَا، تَخْطِي بِقَدَمِ الْعَهْدِ، وَتَحْطِي بِقَدَمِ الْوَدِّ، حَتَّى زَارَ الصَّفَانِحَ بِالصَّحَائِفِ، وَبَاشَرَ الْكَتَائِبَ بِالْكَتَبِ اللَّطَائِفِ، وَحَيَّاكَ بِلِسَانِ الْأَقْلَامِ، تَحْتَ لِسَانِ الْأَعْلَامِ، حِينَ أَشْرَقَ وَجْهُ الدِّينِ فَاسْفَرَ، وَزَهَقَ حَزْبُ الْمَلْحِدِينَ فَنَفَرَ، وَأَقْبَلَ الْفَتْحَ فِي لَمَّةِ التَّائِيدِ، يَرْفُلُ فِي ثَوْبِ النَّصْرِ الْجَدِيدِ، وَجَاءَ الْوَعْدُ النَّاجِزُ، بِبِلَنَسِيَّةٍ تَجْذِبُهَا أَعْنَةُ الْأَقْدَارِ، وَتَسَوِّقُهَا أَحْكَامُ الْجَبَّارِ، فَالْآنَ قَدْ نُشِرَ الْمَيْتُ مِنْ لَحْدِهِ، وَعَادَ الْحَسَامُ إِلَى غِمْدِهِ؛ فَسَبَّحَانَ مَنْ سَبَّبَ مَا سَبَّبَ، وَأَدَّبَ بِالْمَوْعِظَةِ مَنْ أَتَّبَ، مَخَّصَ الذَّلَّةَ فَازَالَهَا، وَقَتَرَ الْعَثْرَةَ فَأَقَالَهَا، وَأَعَادَ نِعْمَةً كَانَ قَدْ أَذْهَبَ خَضْرَاءُهَا وَأَبَادَ غُضْرَاءُهَا، وَفَتَحَ بَابًا سَدَّ رِجَاهُ، وَصَدَّ مِنْهَا جَهْ، حَتَّى خَرَّ شَامُخُهُ، وَذَلَّ بِأَذْخُهُ، ثُمَّ نُشِرَ مَيْتُهُ، وَنَجَّدَ بَيْتُهُ، فَهَبَّتْ رِيحُ النَّصْرِ، وَمَذَّ بِحَرِّ الظَّفَرِ بَعْدَ الْحَسْرِ؛ فَقُلْ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - فِي فَتْحِ عَمِّ اللَّهِ بِبَهْجَتِهِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَصَّ بِالْفَضْلِ فِيهِ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ، وَوَفَّى بِهِ ضَمَانَهُ، وَأَرْجَحَ بِفَخْرِهِ وَأَجْرَهُ مِيزَانَهُ، حَتَّى اقْتَدَحَ بِحَسَامِهِ، وَوَسَمَ بِأَعْلَامِهِ، وَوَرَّخَ بِسَعِيدِ أَيْامِهِ، دَعَا مَانِعَهُ فَأَجَابَ، وَجَلَّى عَاتِمَتَهُ فَانْجَابَ، فَتَحَّ سَالَتْ تَلَاغُهُ بِمَاءِ النُّعْمَةِ، وَجَالَتْ سَوَامُهُ فِي ضَمَانِ الْعِصْمَةِ...³

وَمِنْ زَكَاةِ الْجَاهِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْفُرُوضِ، وَأَدَاءِ الْمَفْرُوضِ، مِشَارَكَةُ مُوَصِّلِهِ جَارِنَا الْقَدِيمِ، وَصَدِيقِنَا الْحَمِيمِ، لَهُ هُنَاكَ أَطْلَالٌ رَسْمُهَا دَائِرٌ، وَجُدُّهَا عَائِرٌ، يَرْجُو تَجْدِيدَ خَرَابِهَا، وَتَعْمِيرَ يَبَابِهَا، وَإِلَيْكَ إِسْنَادُهُ، وَعَلَيْكَ اعْتِمَادُهُ، وَمَنْ كَانَ مِنْكَ بَعِينٌ فَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ، وَاعْتَصَمَ بِحِصْنٍ، فَلَكَ الْفَضْلُ فِي تَصَدِيقِ أَرَاغِيهِ، وَإِظْهَارِ جَمِيلِ الرَّايِ فِيهِ..."

¹ - الرسالة من إنشاء الأديب الكاتب أبي الفضل جعفر بن محمد ابن شرف كما وردت في الذخيرة 3/2م/868 - 869. انظر عن ترجمة ابن شرف في الذخيرة قبل الرسالة أعلاه: وفي القلائد 252؛ وبيعة الملتمس رقم 610: والمغرب 2/230.

² - جبل ضخيم من حبال تهامة؛ وحزوى: موضع في ديار بني تميم (الروض المعطار 269-270: 195 على التوالي).

³ - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

الصف الثاني؛

رسائل لابن عبد البر النمري وابن طاهر أمير مرسية (سابقاً)
عن علاقاتهما بابن أبي عامر أمير بلنسية والسلطة المرابطية

11 - تهنئة من الكاتب ابن عبد البر النمري

إلى أمير بلنسية بتعيين ابنه ولياً للعهد¹

[.....]

"أحوال الدنيا - أعزك الله - مبنية على التداول والتعاقب، ومساءاتها ومسراتها جارية مجرى التبادل والتقارب، فمن عبرة تفضي إلى عبرة، ومن مساءة تُعقب بمسرة، ومن محنة تفتّر عن منحة، ومن ثُرحة تُقلع عن فرحة، والله تعالى في جميع الأحوال المختلفة والأقدار المتصرفة حقوق من الصبر على السراء والضراء، وعلى الأولياء المختصين فروض من المشاركة والمظاهرة في كل ما ناب من حزن، وثاب من حسن، قد جرت بها العوائد، واستوى فيها الغائب والشاهد، فتلك تُرعى بالدعاء والتهنئة، وهذه تُتلقى بالإطراء والتعزية؛ والله يجعل أيام مسراتك الأكثر إسعاداً، وأوقات تهناتك الأوفر أعداداً.

وأُنهي إلي من تقليدك العهد وإمضائك العقد للناصر² سيدي وأسنى عددي- أبقاه الله- على بلنسية - عمّرها الله- عمّرها الله بدوام عزك، وحماها باتصال نصرك- مكان المعتصم³ - رحمه الله-، فقلت: مُلكٌ تردّد في عنصر، وخاتمٌ تنقل من خنصر إلى خنصر؛ وقد سددت - أيدك الله - ثلماً، وشقيتَ كلماً، وسُمتَ الخطوب رغماً، وأوسعتها همّاً..."

12 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب لاردة المظفر

[ابن هود يوسف حسام الدولة أخي المقتدر]⁴ [473]

"... إن الله تعالى يصرف الأمور كيف يشاء، له النعماء والبأساء، فإن عافى واصل المنن، وإن امتحن أحسن، لأنه يمنح الأجر الذي هو أسنى، ويعود بعوانده

¹ - الرسالة في الذخيرة 3/ م/ 216-217

² - هل هو عبد الله الذي نركه أبوه بانياً على المربة بعد مقتل زهير العامري سنة 429، وسماه الناصر، ثم توفّي وحلّ محله معن بن صمادح؟ (النظر البياض 293-294)

³ - هل كان المعتصم ابناً لعبد العزيز وولياً لعهد قبل موته ثم عيّن مكانه أخوه عبيد الله المذكور في الهامش السابق؟

⁴ - الرسالة من إنشاء ابن طاهر إلى المظفر صاحب لاردة كما وردت في الذخيرة 3/ م/ 36-37؛ وقد لاحظ محقق الذخيرة زيادة في الأصل لكلمة (أخاه)، وعلل حذفه لها لكون المظفر صاحب لاردة هو حسام الدولة يوسف أخو المقتدر وليس أبا عماد الدولة، فاعتمدنا رأيه. توجد ترجمة ابن طاهر في نفس المصدر ص 24 وما بعدها.

الحسنى، وما المرء إلا كالنصل، يُشحذ بالصقل، تنفذ عليه الأقدار، ليقع الاختبار والاعتبار، ويبدو له الزمان وأهله، وحيث منبت الفضل وأصله. وكان لك - أيدك الله - من التهمم بجاني، والارتماض لنواني، ما أطاب ذكرك، وأبان قدرك، وأخبر أن الجميل من سجايك، وأن محاسن الذهر بعض حلاك؛ ولما تخلصت من تلك الأشرار، وأذن الله منها - وله الحمد - بالانفكاك، أسرعت إلى قضاء حقك وإله لأعز الحقوق، وتوفية الشكر لك بباهر مجدك السابق غير المسبوق، والثناء على أنعم الله تعالى قبل كل شيء وبعده التي جلت عن الإحصاء، وجلت من الغمأ؛ وقد أوليت ما أثبت لك في الرقاب رقاً، وما تخب به الركائب غرباً وشرقاً، وإن المستقل بي والجانب بضبني لمحبي ميث الوفاء، ومحرز جزل الثناء، قسيمي في المهمة، وظهيري على الملم، الوزير الأجل أبو بكر، فإني تبوات في ذراه محلاً وداراً، ورأيت الخطوب تعتذر اعتذاراً...

13 - رسالة من ابن طاهر إلى الحاجب

عماد الدولة [عبد الملك بن هود]² [473]

"كتبت - أيدك الله - عند وصولي بلنسية، متخلصاً من يد المحنة، متلبساً لله فيها أعظم المنحة، أن تدارك في غمراتها، وجلّى المسود من هفواتها، فله الحمد كثير، والشكر نضيراً؛ وإنني بلوت من إجمالك في حالتني شدتي ونجاتي ما عقل اللسان، وقبض البنان، وأخل الحوادث حتى كفت من اعتدائها، وألوت تعثر في استحيائها؛ فإن أثبت فمقصّر عنك الثناء، وإن دعوت فإلى الله يرفع الدعاء. وتلقاني بطريقي كتابك الرقيق فتملكني برّه، وحياني بشره، وعظم عندي قدره؛ فله ما تبديه من فضل وما تُسرّه، والله در الوزير الأجل أبي بكر، جوزي بوفائه، وفسح الله له في ظله وبقائه، فإنه ما اكتحل في كربتي بنوم، ولا تمثع بمسرة في يوم، ولقد كنت قذى عينه، حتى حلني من وثاقها بيديه³..."

14 - رسالة من ابن طاهر إلى [المقتدر]

ابن هود ربما في موضوع سابقتيها⁴ [473]؟

¹ - هو أمير بلنسية (457-478).

² - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في الذخيرة ق/3/م/1/35-36، ربما بعد تسريحه من معتقل ابن عباد في حصن أفوط سنة 473 بعد شفاعه أمير بلنسية له لدى ابن عماد، فشكر جملة من الرؤساء فعل أبي بكر صاحب بلنسية (الذخيرة ق/3/م/1/34). وربما كان سبب تسمية عماد الدولة بالحاجب لكونه ولي عهد أبيه، فمصطلح الحاجب أصبح منذ عصر المصور ابن أبي عامر يطلق غالباً على الشخص الثاني في الدولة أو الإمارة، ومن ذلك ولي العهد.

³ - وهذه إشارة إلى أن رئيس بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز هو الذي تدخل لافتكاكه من معتقل ابن عماد. ⁴ - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في الذخيرة ق/3/م/1/34-35، كتبها ابن طاهر إلى ابن هود ربما في موضوع سابقتها، وابن هود المعاصر لأزمة أبي عبد الرحمن بن طاهر أي سلب مرسية من يده واعتقاله هو المقتدر سليمان (438-474).

"... إِنَّ الْآيَاتِ - أَيْدِكَ اللَّهُ - تَلَوْنُ أَلْوَانِهَا، وَلِلْمَسَاءَةِ إِحْسَانُهَا، مَا تَذَرُ شَيْعِبًا إِلَّا تَصَدَّعَهُ، وَلَا وَصْلًا إِلَّا تَقْطَعَهُ، إِنْ أَمَرْتَ عَهْدًا نَقَضْتَهُ، أَوْ بَنَيْتَ بَنِيَانًا قَوَّضْتَهُ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَعُودُ، وَيَكُونُ لَهَا الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ، وَرَمْتَنِي - أَيْدِكَ اللَّهُ - بِسَهَامِهَا، وَجَرَّعْتَنِي غُصَصَ حِمَاحِهَا، [وَعَلَى قَرَبٍ مِنْ مَرَامِهَا]¹، فَكَانَ اللَّهُ سِتْرًا وَقَى، وَصَنَعَ أَبْقَى، مَكَنَ النَّفْسَ مِنْ رَجَائِهِ، وَوَطَّنَ الصَّبْرَ عَلَى قَضَائِهِ، طَمَعًا فِي الْحِظِّ مِنْ ثَوَابِهِ، وَتَبَلَّجَ الْفَرْجَ مِنْ أَبْوَابِهِ، إِلَى أَنْ تَبْدَى فَجْرُهُ، وَتَأْتِيَ أَمْرُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِحَقِّهِ، مَنْقُذِي مِنَ الْخَطْبِ وَرَبِّقِهِ، هُوَ الْمَبْلُوءُ بِعَوَاطِفِهِ، الْمَدْعُوعُ بِعَوَارِفِهِ؛ وَفِي كُلِّ حَالٍ - أَيْدِكَ اللَّهُ - أَخْطَرْتَنِي بِبَالِكَ، وَمَدَدْتَ عَلَيَّ مِنْ ظِلَالِكَ، وَوَصَلْتَ مِنْ سَبَبِي، وَنَقَسْتَ مِنْ كُرْبِي، وَأَوْجَدْتَنِي مِنْ ذِرَاكِ مَفْزَعَا، وَأَوْرَدْتَنِي مِنْ نَعْمِكَ مَشْرَعَا، لَا زَالَ بَرُّكَ شَامِلًا، وَلَا انْفِكَ سَعْدُكَ كَامِلًا، فَإِنَّكَ مُحْيِي الْهَمَّةَ وَمُقِيمُهَا، وَمُولِي النِّعْمَةِ وَمُديمُهَا، وَكَمْ أَحْيَيْتَ مِنْ هَمٍّ، وَأَوَّلَيْتَ مِنْ نَعْمٍ؛ فَكَأَفَا اللَّهُ الْوَلِيَّ السَّنِيَّ وَاحِدِي الْوَزِيرَ الْأَجَلَ أَبَا بَكْرٍ مَكَافَاةَ مَا جَدَّ جَدَّ فِي سَعْيِهِ، وَجَرَّدَ مِنْ رَأْيِهِ، لِدَرْءِ مَهْمَتِي وَكَشْفِهِ، حَتَّى انْتَضَانِي فِي كَفِّهِ، فَخَلَطَنِي بِالْعَلِيَّةِ نَفْسَهُ، وَمَهَّدَ لِي فِي جَنَابِهِ وَأَنَسَهُ، أَيْدَهُ اللَّهُ عَلَى شُكْرِهِ، وَفَسَحَ فِي عَمْرِهِ..."

15 - رسالة من ابن طاهر إلى القادر

ابن ذي النون في نفس سابقاتها²

[473]

"حُكْمُ الزَّمَانِ - أَيْدِكَ اللَّهُ - تُعْتَرُ الْإِنْسَانُ، وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ لَهَوْتُ قَدَمُهُ، وَاسْتَوَى عَمَلُهُ، لَا يَبَالِي حَيْثُ انْتَحَتِ نَوَائِئُهُ، وَلَا مِنْ أَزْوَرِّ جَانِبِهِ، يُلْفِي الذَّهْرَ عَابِسًا، وَلِثُوبَ الْعِزِّ لَابِسًا. وَكَتَابِي مِنْ بِلَنْسِيَّةٍ وَقَدْ وَافَيْتُهَا مَوَافَاةَ الْأَمْنِ بِقَرَارِهِ، خَارِجًا مِنْ لَيْلِ الْحَوَادِثِ وَاعْتِكَارِهِ، مُسْتَشْفِرًا بِنَهَارِهِ، مُسْتَشْفِيًا مِنْ أَثَارِهِ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِمَا أَوْلَاهُ، حَمْدًا يَبْلُغُ رِضَاهُ؛ وَمَا أَنَا - أَيْدِكَ اللَّهُ - فِي أَمْرِي، وَمَا يَسْرَهُ اللَّهُ مِنْ انْجِلَاءِ ضُرِّي، بِأَجْدَلِ مَنِّي، لِقَوْفِ الْآيَاتِ عَنْ مَكَانِكَ، وَقَدْ أَوْضَعْتَ فِي بَنِيَانِكَ، تَظَنُّ أَنْ مَا تُتْلَفُهُ، لَا تَصْرِفُهُ، وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ، وَكَرَمٍ حَفِيٍّ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ بِأَحَبِّ أَسْمَانِهِ، أَنْ يَعِيدَ عَزَّكَ إِلَى بَهَانَةٍ³؛ وَإِنْ مَنْ تَلَقَّى رَايَةَ الْمَجْدِ ابْتِدَارًا، وَأَخَذَنِي مِنْ أَيْدِي الْخُطُوبِ اقْتِسَارًا، لَعَلَّمُ الْوَفَاءَ الَّذِي إِلَيْهِ يُشَارُ، وَشَخْصُ السِّيَادَةِ الَّذِي بِهِ يُسْتَنَارُ، وَاحِدِي الْوَزِيرَ الْأَجَلَ أَبَا بَكْرٍ، أَدَامَ اللَّهُ عَزَّهُ، وَأَحْسَنَ جَزَاءَهُ، وَوَصَلَ اعْتِلَاءَهُ..."

¹ - إضافة من نسخة أخرى مقولة من الهامش لمحقق الذخيرة.

² - الرسالة من ابن طاهر كما وردت في الذخيرة 37-38. وكانت مرة حكم يحيى القادر المكتوب إليه بين سنتي 467 و 478.

³ - كان أهل طليطلة ناروا على القادر فمروا المدينة إلى نعوهر الشرقية، وطلب دعم ملك قشتالة لإدخاله إلى طليطلة.

16 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب

المرية عن اهتمام صاحب بلنسية به

[جمادى 2/ 473]¹

"... ولما تخلت مني - أيديك الله - يد الزمان ونوائبه، وتجلت عني غمراهه وغياهبه، ابتدرت مطالعتك ابتدار الفرض، وهصرت من مجاذبتك بالغصن الغض، فاتقاً لكمامة الفضل، وعامراً لشريعة الوصل، وحمدُ الله تعالى مقدّم في السرّ والجهر، على ما درأ من الحوادث النكر:

وإذا جرى الله امرأ حسناً == فجزى أخاً لي ماجداً سمحا

ناديته في كربتي فكأنما == ناديت عن ليلٍ به صُبْحاً

ذلك الوزير الأجل أبو بكر² مثبتٌ رسم الوفاء، وباني مجده على قمة الجوزاء، نبة لي كرم مسعاه، دائباً ووالاه، لم يكتحل سوى الأرق، حتى استتقذني من لجة الغرق، ووافى بي على المنى، وأحلني من برّه المحلّ الأسنى؛ فأنام الله عنه عيون الأيام، ولا أنساني له شكر ذلك المقام..."

17 - رسالة من ابن طاهر إلى الأمير يوسف بن

تاشفين معذراً عن صعوبة الانتقال إليه³

[479 - 495]

"كتبت - أيدي الله أمير المسلمين - وقد وافى الخبر المبهج بأن الجزيرة المهتزمة - حماها الله - حلها إمامها العادل، وسيفه العامل، وليئها الخادر، وقرمها المبار، فكان عندي كالماء للظمان، والنجم للحيران، فقلت: خبر - والله - جلى الشك من اليقين، وشفى صدور قوم مومنين، فالحمد لله رب العالمين، إذ يقيم الله به للحق مناره، ويحمي من الإسلام نماره؛ فأنف الكبر أجدع راغم، ووجه الظلم أسفع قاتم؛ ووددت أن أسعد بلقائه، وأستظل بلوانه، وألم بجوانبه، وأسير في كتابه، فأنال حظاً جسيماً، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً⁴؛ ولولا أن العدو - قصمه الله - بهذه الأقطار، يجوس خلال الديار، فلا تمكن المسالك، ولا تتورد المهالك، لكنك أول وارد مع الوراد، ولقضيته فرض الجهاد، وملأت عيني ممن ملأ البسيطة عدلاً، وزاد الفضيلة فضلاً، وإن العين لتفيض من الدمع، لما جدت بي الأيام في القطع، وعسى الله أن يفسح المهل، ويرفع الوجل، ويبرئ العلل، ويبلغ الأمل..."

¹ - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في الذخيرة ق/3/ م/1/ 34، وقد فذم لها ابن بسام بقوله: وعند انحلاء تلك الظلماء [انظر الهامش لاحق] خاطب جماعة من الرؤساء وذلك في حمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين [وأربعمئة]، فمن ذلك رقعة خاطب بها صاحب المرية قال فيها: "ولما تخلت..." انظر ترجمه أبي بكر عبد العزيز في الذخيرة ق/3/ م/1/ ص 40-44.

² - هو صاحب بلنسية أبو بكر (457-478) ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن الحاجب المصور بن أبي عامر، وهو الذي توسط لدى ابن عباد لإطلاق سراح ابن أبي طاهر من معتقله بحص أقوط إثر استيلاء ابن عمار قائد ابن عباد على إمارته بمرسية سنة 471، فانتقل ابن طاهر إلى بلنسية معزراً مكرماً عند صاحبها أبي بكر.

³ - وردت الرسالة في الذخيرة ق/3/ م/1/ 88-89: ويظهر أنها كتبت قبل تحرير المرانطين لبلنسية وجهانها من يد الكمبيوتر سنة 495، وقد كان ابن طاهر مقيماً في الجهة الشمالية الشرقية من الأندلس.

⁴ - من الآية 72 من سورة المساء

الصف الثالث؛ في مواضيع الودّ والتعازي والحوادث

18 - رسالة من الكاتب ابن طاهر إلى حسام الدولة أبي مروان

ابن رزين صاحب السهلة جواباً على رسالة ودية منه¹ [495 - ...]

"كلّ المعالي - أدام الله تأييد الحاجب ذي الرئاستين - إليه ابتسامها، وفي يديه انتظامها، وعليه إصفاها، ولديه إشراقها؛ وإنّ كتابه الرقيق وافاني فكان كالزهر الجنيّ، والبشرى أتت بعد النجى، سرى إلى نفسي فأحيّاها، وسلى عني خطوب الكروب وجلاها، فلتأتيتني مني بالثناء الرّكائب، تحمله أعجازها والغوارب؛ وأمّا ما وصف به - أيده الله - الأيام من ذميم أوصافها، وتقلّبا واعتسافها، فما جهلته، ولقد بلوئها خبراً، ولقد رددتها على أعقابها ثكراً، فلم أخضع لجفوتها، ولم أتضعع لنبوتها، وعلمت أنّها الدنيا قليل بقاؤها، وشيك فناؤها، وفي ذلك أنشدوا:

تفاني الرّجال على حبّها = وما يحصلون على طائل

ومع ذلك ما عدمت من الله سترأ كثيفاً، ولا صنعا لطيفاً، له الحمد ما ذرّ شارق، وأومض بارق.

ورأيت ما انتدب إليه - أيده الله - بسنانه، من الشفاعة عند القائد الأعلى² - أعزّه الله - والصدق مؤاعده، وقد كان بداني بالإجمال لو عاد عانده، وبید الله تعالى الأمور يقضيها، عليه التوكل فيها، وفهمت ما أومى إليه من التنقل إلى ذراه، والورود على نداه³، وأنى لي بذلك وقد قيدتني الهموم فما أستطيع نهضاً ولا أتقدم، ولو أطق ذلك لأعدت العمر غصناً جديداً، ولقيت الكمال شخصاً وحيداً، عند من تُقرّ بسوابقه العجم والعرب، وتوكل خلائقه بالضمير وتُشرب⁴...

19 - رسالة تعزية من إنشاء ابن عبد البرّ

النمري ربما في وفاة هذيل ابن رزين⁵ [436]؟

لقد طرقت نائبة من الموت وفاجعة من الكرب في قطب الآمال ومدارها، وسناء الهمم ومنارها، وتاج الرئاسة وسوارها، الحاجب حسام الدولة¹، كان، رضي الله عنه

¹ - وردت الرسالة ضمن ترجمة ابن طاهر في الذخيرة ق/3 م/48-49؛ كانت فترة إمارة يحيى حسام الدولة بين 496 و 497، وهو الذي أخذ المرابطون من يده إمارة السهلة.

² - كان ابن رزين نوسط لابن طاهر عند القائد المرابطي أبي عبد الله محمد بن الحاج ابن عائشة ليردّ عليه أملاكه، فأعلمه بكون أمير المسلمين مع ذلك (انظر الغلاند ص165؛ والرسالة رقم63 سابقاً).

³ - نلميح إلى عدم الاستجابة لشجاعته.

⁴ - في هامش الذخيرة أنّ كلمة (بالضمين) لم ترد في بعض النسخ؛ وعلّق ابن بسّام على الرسالة بقوله: "وكان ذو الرئاستين قد رأى لو انتقل ابن طاهر إلى ذراه، أن يستفيد برأيه ونهاه، وهيئات! أبو عبد الرحمن كان أصون لفضله، وأظنّ بالزمان وأهله، من أن يخدع بمقتل طله...."

⁵ - وردت الرسالة في الذخيرة ق/3 م/1 ص 222-223؛ وهي من إنشاء ابن عبد البر وترجمته قبل نص الرسالة في ص 125 وما بعدها؛ وفي العمر 4/342.

وأرضاه، وجعل الجنة مأواه؛ فوا لهفا عليه مردداً، ويا أسفا له مؤبداً، ماذا خطفت يدُ الحمام، وأصنمت به سهام الأيتام، أي سماء للعلی فطرت، وأي نجم للمنى كذرت، وأي بحر من الأسى سجرت، وأي عين للبكاء فجرت، ما يقاس به مثيل، ولا يُضاف إليه عدیل؛ وقد كان لي أن أصرف المقال، وأضرب الأمثال، وأجتلب من التعازي ما جاءت به الآثار، ووردت به الأخبار، غير أنه - أيده الله² - أعلى في الفضل يداً، وأثبت في العلم قدماً، وأرجح حلماً إذا طاشت العقول، وأشد كظماً إذا اضطرمت في الصدور النيران، من أن أورد عليه ما لم يُحط به علماً، ولم يتوصل إليه فهماً..."

20 - تعزية من إنشاء ابن عبد البر إلى المظفر

محمد ابن الأفطس في وفاة أبيه المنصور³ [437]

"وصل كتابه⁴ - أيده الله - بما شرد غمضي، ونعى بعضي إلى بعضي، وأطبق سمانی على أرضي، وأقضى مضجعي، وأسأل مدمعي، وعظم ثكلي وجزعي، من فطيع الخطب الوارد، وشنيع الرزء الوافد، بوفاة المنصور سيدي ومولتي، كان، - أوسع الله جنته ورضوانه، ولفاه رحمته وغفرانه-؛ فيا لها مصيبة قصمت ظهري، وذهلت فكري، وفللت حذي، وأرغمت خذي، ودفعنتي إلى الجزع وحدي:

فلو كنت في الباكين حولك كنت قد == تأسيت فاستشفيت والعين تدمع
ولكني أبكي فريداً واشتكي == ويبدأ فما ينفك علي السروع
هو الرزء أفضى بي إلى كل غاية == من البت لا أسلو ولا أتورع
لئن حسن السلوان والصبر بامرئ == فأحسن حالاتي سلو ممنع
(....)⁵ ومثل مولاي الرئيس الأجل تلقى هذا الخطب الذي يهذ الجبال، ويقطع الآمال، ويخلع الفؤاد، ويصدع الأكباد، بما حض الله تعالى عليه من الصبر، وندب إليه من استجزال الدخر، فهو القائل تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾⁶؛ وأنت في نافذ فهمك وثاقب علمك لا تُبصر، بل تُنكر، وكان من الحق الأوجب والفرض الألزم أن أقيم قدمي مقام

¹ - عبد ابن خلدون أن حسام الدولة هو عبد الملك وجعل وفاته سنة 450 (العبر 4/ 342)؛ وفي البيان المغرب أنه ببيع سنة 403 وبوفاة سنة 436، وحلفه ابنه عبد الملك (حلفه ابن خلدون أخاه)، وتلقب بجزر الدولة، وكان في أيام أبيه يسمى حسام الدولة، وتوفي سنة 496، فحلفه ابنه حسام الدولة يحيى بن عبد الملك، وحلفه المرابطون في 8 رجب 497 (البيان 3/ ملحق ص 309-310). أما الكاتب ابن عبد البر فقد توفي سنة 474 (الذخيرة 1/ 126)، فيكون المتوفى المعزى فيه على الأرجح هو هذيل بن رزى، ولهذا افترضنا للرسالة تاريخ 436.

² - يظهر أنه الأمير الحديد في السهولة ابن المتوفى وهو ذو الرناستين عبد الملك بن هذيل (436-496).
³ - كانت فترة إمارة عبد الله بن محمد بن مسلمة الملقب بالمنصور لمملكة بطليوس بين سنتي 413 و 437، فحلفه ابنه محمد الملقب بالمظفر. وردت رسالة التعزية في وفاة والده المنصور في الذخيرة 3/ ق 3/ 223-224.

⁴ - في نسخة أخرى: كتاب مولاي (هامش الذخيرة)

⁵ - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

⁶ - من الآية 11 من سورة الزمر

قلمي، وأكتفي بالركاب عن الكتاب، وقلّ ذلك منّي في هذه النّائبة الهادمة، والنّازلة القاصمة، إلا أنّي على علمك عن الإرادة مردود، وفي عقالات الآلام والأعراض مصفود؛ جعل الله هذا المصاب الخطير آخر ما يقرّع لك باباً، ويخرق إليك عن كره حجاباً..."

21 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي بكر عبد

الملك بن عبد العزيز عند الحادث في قونكة¹ [487-495 ؟]

"كتبْتُ - أعزّك الله - والحدّ قليل، والذهن قليل، بما حدث من عظيم الخرق على جميع الخلق، فلننقّم على الدّين نوابه، فقد جبّ سنامُه وغاربه، ولنقضّ عليه مدامُه وعبرائه، فقد غشيّه جمامُه وغمرائه، وكان منيع الثّرى، بعيداً عن أن يلحظ أو يرى، تحميه المناصل البتر، والثّوابل السّمر، والمسومة الجرد، ومشخة كأنهم من طول ما التّثموا مُردّ²؛ فأبى القدر إلا أن يفجّع بأشمخ مدانته ومعاقله، ولا يترك له سوى سواحله³؛ وكانت لطيطلة أختاً⁴، فاستلبها فجأة وبغتا؛ وقبل ما سلب الجزيرة وسطى عقدها: بلنسية - جبرها الله - وأرجو أن يتلافى جميعها من نظر أمير المسلمين - أيّده الله⁵ - ما يُعيدها، فيملأها خيلاً ورجالاً، وينفر بهم خفافاً وثقالاً، عليهم من قواده شبيهاً وشبانها، وفيهم من أجناده زنجهاً وغربائها⁶.

من كلّ أبلغ واضح ذي سورة = يمشي إلى الهيجاء مشي عضنفر
يلقى الرّماح بوجهه وينحره = ويُقيم هامته مقام المِغفر
حتى يُستقلّ جدّها العاثر، ويحیی رسمها الدّائر، فتبتهج الأرض بعد غيبتها، ويكتسي الدّهر بزهرتها؛ وما قصر القائد الأعلى⁷ في الجدّ والتّشمير، والاحتفال بالأبطال المغاوير، حتّى بلغ بنفسه أبلغ المجهود، "والجود بالنّفس أقصى غاية الجود"⁸، ولكن نفذ حكم من له الحكم، ورمى قضاؤه فما أخطأ السّهم؛ والله لا يُضيع له مقامه في العالم السّالف، وما أورد المشركين فيه من المتالف، فما انقضى فتح حتّى أعقبه فتح، كالفجر يتبعه صبح؛ مدّ الله بسطته، وثبت وطأته، ولا زال هذا الصّنيع الجميل عن هذا الدّين مُرامياً، وله حامياً، بعزّته".

¹ - ربّما كتبها ابن طاهر في الفترة بين سقوط بلنسية في يد القائد القشتالي الكمبيطور سنة 487 وتاريخ تحريرها من طرف المرابطين سنة 495. (نص الرسالة في القلائد 194)؛ هل حدث هذا بعد سقوط مملكة ابن عباد في يد المرابطين، فاستولى العوسو على قونكة وما جاورها لتيسير التحرك نحو إمارة بلنسية لقطع الطريق على المرابطين نحوها ؟ (قارن مع ما ورد في دول الطوائف 335)

² - لعلّه يشير إلى المرابطين الملتجئين
³ - يظهر أنّ في هذا إشارة إلى نجاة السواحل الشرقية إلى هذا الوقت من تسلط الأعداء، والقشتاليين وهم الدّ الأعداء وأقواهم بعيدون عن السواحل خاصة الشرقية

⁴ - كان سقوطها بيد القشتاليين سنة 478 (راجع الروص المعطار 393).
⁵ - الإشارة هنا إلى يوسف بن تاشفين

⁶ - يشير الرسالة هنا إلى تنوع الجيش المرابطي بين العنصر السوداني الذي كان يمثّل الجيش البطامي، والعنصر الصّنهاجي الصّحراوي باعتبار أنّ صنهاجة من أصل عربي حميري كما كان شائعاً، ومن جهة أخرى تشير إلى شدة قتال الجيش المرابطي سواء من كان منهم في سن الشباب أو من تجاوزها، وهم جبل ربنه الصّحراء.

⁷ - لعلّه يقصد ابن الحاج ابن عائشة المذكور سابقاً.

⁸ - عجز بيت أوله : بجود بالنّفس إن صيّ البخيل بها == (من هامش القلائد)

الصفحة الرابع؛ منوعات

22 - رسالة عن المأمون بن ذي النون إلى قائده

ابن عكاشة لاختياره كاتباً غير مناسب¹ [.....]

... قد عهدناك منتقياً لأُمورك، نقاداً لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب البليه الجلف، وأسندت إليه الكُتُبَ عنك دون أن تطلع عليه، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه، ورائد عقله خطابه؛ وما أدري من أي شيء يتعجب منه، هل من تعليقه "إن شاء الله تعالى" بالماضي، أم من حسن تفسيره للقرآن الكريم ووضع مواضعه؟ أم من تورّعه عن تأويله إلا بتوقيف من سماع عن إمام؟ أم من تهويله لما طرأ على من يخاطبه؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهوله شيئاً؟ ولو أن حقيراً يخفى عن علم الله تعالى لخفي عنه هذا الحصن، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام، خارج عن سلك النظام، لا يعبره إلا لصّ فاجر، أو قاطع طريق غير متظاهر، حُرّاسه لا يتجاوزون الخمسين، ولا يرون خبز البُرّ عندهم إلا في بعض السنين، باعه أحدهم بعشرين ديناراً؛ ولعمري إنه لم يُغن في بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه، وأراح من الشين بنسبته والنظر في خداعه²؛ فليت شعري ما الذي عظمه في عين هذا الجاهل، حتى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب وائل³.

23 - تقديم النصّ لأحد الأمراء⁴

"... أفاز الله يا سيدي الأعلى قُدحك، وجعل لمرضاته كُدحك، وسدّد إلى أغراض الصواب سهامك، وأوردَ على حياض السحاب أعلامك، وفتح المبهمة بعزمك، وأوضّح المظلمات بنجمك، وأبقى المحاسن ببقيّك، وسقى مواطن العلياء بسقيّك.

¹ - كان للقائد ابن عكاشة كاتب اسمه عبد الحميد بن لاطون أمره أن يكتب إلى المأمون في شأن حصن دخله النصارى فكتب "... وقد بلغني أن الحصن القلاني دخله النصارى إِنْ شاء الله، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان، فإننا لله على هذه المصيبة التي هدّت فواعد المسلمين وأبقت في قلوبهم حسرة إلى يوم الدين". فلما وصل الكتاب إلى المأمون كتب إلى ابن عكاشة الرسالة أعلاه

² - هذا يتعلّق باسم الحصن الذي رُمِر له فقط بالحصي القلاني (الهامش السابق)
³ - كان جواب ابن عكاشة بما يلي: "... وإن المذكور ممن له حرمة قديمة تغنيه عن أن يمتّ بسواها، وخدمة محمود أولها وآخرها؛ وليس مما اتسعت مملكته، وعظمت حصرت، فنحن إلى انتقاء الكتاب، والنحفظ في الخطاب، وإنما نحن أخلص نغور، وكتاب كنان لا سطور؛ وإن كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يليقه على القلم، فإنه يحسن كيف يصنع في مواطن الكرم، وله الوفاء الذي يحدث به فلان وفلان، بل سارت بشائنه في أقصى البلاد الركبان، وليس ذلك يفدح عندي فيه، بل زاده لكونه دالاً على صفة الناطق والسدّاحه في الإكرام والتبويه".

⁴ - وردت الرسالة في الدخيرة 1/ م 635-637، وهي من إنشاء البزلياني ربما عن الأمير حبوس إلى أمير آخر قد يكون عبد العزيز صاحب بلنسية أو من يحاورونه من أمراء النغر الأعلى (لاردة، سرقسطة..); وموضوعها يوحى بتقديم النصّ له للتألف مع بقية الأمراء المجاورين له والبعد عن المقاتل فيما بينهم، بحيث يمكن أن تكامل مع الرسائل السابقة عن الأمير حبوس في هذا الموضوع.

كتابي يا سيدي، وأجلُّ عُددي،- كتب الله لك السلامة، ووهب لك الكرامة،- ولو تقمّني في الاعتراف بمأثرك مُطنب، أو أفحمني في أوصاف مفاخرك مُسهب، ما شقَّ غباري في وداك مُجار، ولا تعلقُ بآثاري في اعتقادك مُبار؛ وكيف وقد حُزّت الغايتين من تفضيلك وإعزازك، وأحرزتُ الفضيلتين من تجيلك وإحرازك، وما انفردتُ من زمانِي بفائدة تُوازيك، ولا استبددتُ من إخواني بفائدة تُساويك؛ وبحسب ذلك ضئي بك وشُحّي، ومحبتّي لك ونصحي، وما أذكرك ما لا تُذكر، ولا أبصرك ما لا تبصر؛ فأَيُّ علم إلا سلكتُ شعبه، وأَيُّ حلم إلا ملكتُ رقبته؛ وإن كنتُ لا أورد عليك إلا ما يؤثّر عنك، ولا أوفد إليك إلا ما يظهر منك، فللساعي مرأته، وللداعي اعتقاده، وللمجتهد أجره، وللمقصد عُذره، فما أستصبح إلا من قمرك، ولا أستوضح إلا بغُرك، ولا أعشو إلا لنارك، ولا أمشي إلا بأنوارك، والله يبيّنيك للأفضلين أسوة، ويُخَيِّيك للأكرمين قُدوة.

واتصل بي يا سيدي ما وسوس به الشيطان من الأمر حتّى عمد؟ له البيان في الفتق لأثر مسحوب وقدر مكتوب، وأنت الذي نجّنته التجارب، وشحذته التوائب، وارتضع أخلاف الحروب، وامتضع أصناف الخطوب، وعجم قناة الزمن، واقتحم غمرات المحن، بقلب غير منخوب ولا وهل، وعقل غير مسلوب ولا وكل، ونكاء تنكشف له نكاء¹، وآراء ينكشف لها الغطاء، وعلم بما تأتي وتذر، وفهم بما تورد وتصدر، ومذهبٌ مثلها لك التحقيق، ومطالبٌ شرحها التوفيق؛ فهي بعصمة الله محفوفة، وبنعمته مكفوفة، وعلى إرادته متوقفة، وفي طاعته متصرّفة؛ فكم لك في المشركين من البلاء الجميل²، وعلى المسلمين من الغناء الجزيل، فكم علم خلّدت، وحزم أيّدت، وكم فضل أبدت وأعدت، وكم طول بنيت وشيّدت، وكم راية للذين رفعت، وغيابة عن المسلمين قشعت؛ أفلا يُدعى للهوادة، ويُسعى لغير العادة، حين أمّلت للزيادة، واكتهلّت في السيادة، وأرجّ بفخر كلّ نادٍ، ولهجّ بذكرك كلّ حادٍ، عديم أتراب وأقران، ونديم آداب وقرآن، لم تفتك من الفعال فضيلة، ولا شانك إلى الكمال وسيلة، ولا أعرفك من المعالي ما لا تعرف، ولا أصفك من المفاخر بما لا توصف؛ الألسنة عن واجبك حسيرة، والأمكنة بمناقبك معمورة؛ والله تعالى يزيّنك علواً ومجداً، ويقيدك سموّاً وجدّاً، وأنت لا تألو المسلمين نصحاً، ولا يُعدهم سعيك نجاحاً، ولا يُفقد هم هديك صفحاً؛ فعيّاذاً بالله أن يُسفك بك دم، ويُهتك بسببك محرّم، أو يهلك بطلبك مسلم، وأنت العالم بأمر الله، والقائم بسنة رسوله، والحاكم بما يرضاه، والعاصم بتنزيله، والمقتدي بسبيله، والمهتدي بدليله؛ فلا اتلو عليك من آدابه إلا ما أحكمت تأويله، ولا أجلو لك من نبيانه إلا ما قدّمت تحصيله، فما مثلك من أهل الفضل يذكر بقول الله عزّ وجلّ ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾³.

¹ - ذكاء: من أسماء الشّمس

² - هذا ما يرجح وجود المكتوب إليه في منطقة النعور مع المصاري أو قريباً منها

³ - من الآية 72 من سورة التوبة.

24 - فصل من عقد أمان ربما عن

المعتصم بن صمادح أمير ألمرية¹

[484 - 443]

"... أما بعد، فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك، ولكنا - بما وهب الله تعالى لنا من الإشراف على سرائر الرئاسة، والحفظ لشرائع السياسة-، تأملنا من ساس جهتك قبلنا فوجدنا يد سياسته خرقاء، وعين حزامته عوراء، وقدم مداراته شلاء، لأنه مال عن ترغيبك فلم ترجه، وعن ترهيبك فلم تخشه، فأدّتك حاجتك إلى طلاب الطعم الدنية، وقلة مهابتك إلى التهالك على المعاصي الوبيّة؛ وقد رأينا أن يظهر فضل سيرتنا فيك، ونعتبر بالظفر في أمرك، فمهدنا لك الترغيب لتأنس إليه، وظللنا لك الترهيب لتفرّق منه، فإن سوت الحالين طبعك، وداوى الثقاف والنار عودك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حسن السياسة فيك، وأمان الله لك مبسوطاً منا، وموائفه بالوفاء لك معقودة علينا، وأنت إلى جهتك مصروف²، وبغفونا والعافية منا مكنوف، إلا أن تطيش الصنعية عندك، فتخلع الرّيقة وتُمرّق من الطاعة، فلسنا بأول من بُغي عليه، ولست بأول من بدت لنا مقاتله من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبواب استنصاله من أمثالك إن طُلبت..."

25 - عقد أمان آخر ربما عن ابن صمادح أيضاً³

[.....]

"... أمّا بعد، فإنكم سألتم الأمان أو أنّ تلمّظت السيوف إليكم، وحامت المنايا⁴ عليكم، وهمت حظائر الخذلان أن تُفرج لنا عنكم، وأيدي العصيان أن تُتحفنا بكم؛ ولو كلنا لكم بصاعكم، ولم نرع فيكم ذمة اصطناعكم، لضاق عنكم⁵ ملبس الغفران، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان، ولكنا علمنا أنّ كهولكم الخُلف عنكم، وذوي أسنانكم المُعاصين⁶ لكم، ممّن يهاب وسَم الخلعان، ويخاف (سطو)⁷ السلطان، وأنهم لا

¹ - العقد من إنشاء أبي حفص بن برد الأصغر أحمد بن محمد بن أبي حفص أحمد بن برد الأكبر كما ورد في الذخيرة ق1/ 1م / 499؛ أورده ابن بسّام ضمن نماذج (فصول) في التّحميد والتّصلية والشكر... قد يكون العقد مكتوباً عن أمير ألمرية الذي استنوزه أميرها كما ذكر ابن سعيد (المغرب 1/ 91)، راجع عن الورير ابن برد كاتب الرسالة: الذخيرة 1/ 486؛ المغرب 1/ 86-88، 91؛ جذوة المغنيس 107. وقد يكون تاريخ العقد في أوائل عهد المعتصم لفقوله "تأملنا من ساس جهتك قبلنا..."، أي أنّه يحاول أن يستميل رجال دولته لا أن ينفرهم منه وهو في أول عهده.

² - يقصد إعادته إلى تسيير شؤون الجهة التي كان بها، محدّراً إياه من العصيان.

³ - كاتب هذا العقد هو كاتب سابقه ابن برد الأصغر؛ كما ورد في الذخيرة 1/ 500-501، ونقارن به فيما يلي مع المغرب 1/ 88

⁴ - في المغرب: الخنوف

⁵ - في المغرب: عليكم

⁶ - في المغرب: وذوي الأساس العاصي لكم

⁷ - ما بين هلالين (...). كلمة نافضة في المغرب

يراسلونكم في ميدان معصية، ولا يزاحمونكم [في] ¹ منهل حيرة، ولا يُماشونكم إلى موقف وداع (نعمة)؛ ولولا تحرُّجنا أن نقطع أعضادهم بكم، ورجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديباً لكم، لشربت دماءكم سباع الكمأة، وأكلت لحومكم ضباغ الفلاة؛ وقد أعطيناكم بتأميننا إيتاكم عهد الله تعالى وذمته، ونحن لا نخفرهما أيام حياتنا إلا أن تكون لكم كربة، ولغذرتكم ضرة، فيومئذ لا إغذار لكم ²، ولا إقصار عنكم، حتى تحصيكم ظبأ السيف، وتقتضي ديون أنفسكم غرماء الحتوف ³..."

26 - نموذج من نصبيعة قد تخلص عزالدولة

عبد الله بن المعتصم بن صمادح صاحب المرية ⁴ [484]؟

"بايع الإمام عبد الله ⁵ فلان بانسراح صدر وطيب نفس، ونصاحة جيب، وسلامة غيب، ببيعة رضى واختيار، لا ببيعة إكراه وإجبار، على السمع والطاعة، والمواظرة والنصرة، والوفاء والتصحية، في السر والعلانية، والجهر واللتية، والعمل على موالاته من والاه، ومعاداة من عاداه، من بعيد وقريب، وغريب ونسيب، ويُقسم على الوفاء به، والقيام بشروط بيعته، بالله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، والقائم على كل نفس بما كسبت؛ ويعطيه على ذلك كله ذمة الله وذمة محمد رسوله، وذمة الأنبياء والمرسلين، والملائكة والمقربين، وعباد الله الصالحين. ومتى خلعت ربة بخر أو غدر، أو طويت كشحاً على نكت أو حنث، فعليك المشي إلى بيت الله الحرام ببطحاء مكة من مستقرك ثلاثين حجة، نذراً واجباً لا يقبل الله تعالى إلا الوفاء به، وكل زوجة لك مهيبة، أو تنكحها إلى ثلاثين سنة فطالق تحتك طلاق الحرج ثلاثاً، وكل أمة أو غرة أو عبد لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم؛ وكل مال لك من صامت أو ناطق ⁶ أو تملكه إلى ثلاثين سنة غير عشرة دنائير أو قدرها فصدقة على الفقراء والمساكين، وقد برئ الله تعالى منك ورسوله وملانكتك؛ والله بجميع ما انعقد عليك في هذه البيعة شهيد، وكفى به شهيداً، وعلى الأعمال والنيات مئيباً".

¹ - ما بين معقفين [...] كلمة مصافة من المغرب

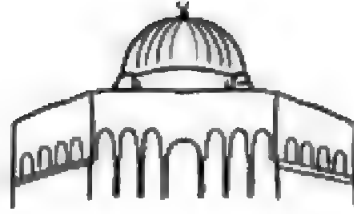
² - في المغرب : إليكم

³ - في المغرب: ونقصي ديون أنفسكم عرة الحتوف

⁴ - من إنشاء أبي حفص ابن برد الأصغر أحمد بن محمد بن أبي حفص بن برد الأكبر كما وردت في الذخيرة 498/1-499؛ أوردها ابن بسام كنموذج للبيعة ضمن فصول أخرى في التخميد والتصلية والشكر...

⁵ - ذكر أن المعتصم بن صمادح أخذ البيعة لانه عز الدولة أبي محمد عبد الله، وأوصاه أن يرحل إلى بجاية إن سقطت إشبيلية بيد المرابطين، وكانت وفاة المعتصم سنة 484، ويظهر أن أصل الرسالة أعلاه هيبيعة بالإمارة وليس بولاية العهد، فتكون بذلك في نفس السنة 484. غير أن الأمير المذكور لم يلبث أن ترك المرية إلى بجاية، راجع عنه وعن الوزير ابن برد كاتب الرسالة: الذخيرة 486/2/1 : المغرب 1/86-88، 91: 2/201 - 202: جدوة المعنيس 107 : نفع الطيب 367/3-368. وفي هذه المصادر سمي خليفة المعتصم بأبي محمد عبد الله ولقبه عز الدولة.

⁶ - المال الصامت هو غير المنقول (عقارات..)، والناطق هو الذهب والفضة.



اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

الببليوغرافيا

- القرآن الكريم..... ؛ المصحف المطبوع بالقاهرة 1964 على طريقة ورش
ابن الأبار البلنسي.....؛ إعتاب الكتاب ، جامعة دمشق 1961
ابن الأبار ؛ التكملة لكتاب الصلة، تح. الهراس، (دون تاريخ)
ابن الأبار..... ؛ الحلة السّراء ، حسين مؤنس، القاهرة 1985
ابن أبي زرع ؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ المغرب
ومدينة فاس، الرباط 1973
ابن بسّام الشنتريني..... ؛ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس،
دار الثقافة بيروت، ق1، 2، 3/ 1997، ق4/ 1979
ابن بشكوال ؛ كتاب الصلة ، القاهرة 1966
ابن خاقان، الفتح.....؛ فلاند العقيان في محاسن الأعيان، الزرقاء الأردن، 1989
ابن خاقان؛ من نصوص كتاب: كتاب المتين، لابن خاقان. مدريد 1997
ابن الخطيب ل الدين.....؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، 2/ القاهرة 1973- 1974
ابن الخطيب ؛ أعمال الأعلام ، ق 2، ن. بروفنصال ، بيروت 1956
ابن الخطيب ؛ أعمال الأعلام..... القسم الثالث. المنشور تحت عنوان :
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تح. الكتاني
وغيره؛ الدار البيضاء 1964
ابن خلدون ع الرحمن... ؛ كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر..... ج4. بيروت 1968
ابن منظور ؛ لسان العرب
ابن عبد الملك..... ؛ الذيل والتكملة، ج6، تح. إحسان عباس. بيروت 1973
ابن عذاري المراكشي.. ؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،
ج 1، نشر كولان وبروفنصال، دار الثقافة، بيروت، (د. ت)
ج 2 ، نشر بروفنصال، دار الثقافة، بيروت (د. ت)
ابن سعيد الغرناطي..... ؛ المغرب في حلّي المغرب، تح. شوقي ضيف، القاهرة 1978
البلوي، أبو القاسم.....؛ العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل،
مخطوط الخزانة الحسنية رقم 6148
الحميدي ؛ جذوة المقتبس . مكتبة الخانجي، القاهرة
الحميري ؛ الروض المعطار، تح. إحسان عباس، بيروت 1980
مجهول ؛ الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، الدار البيضاء 1979.
المراكشي..... ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1950

- المقري ؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب؛ ج1، 3، 4 / بيروت 1968
النباهي، أبو الحسن .. ؛ كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،
(منشور تحت عنوان: تاريخ قضاة الأندلس)، بيروت 1983
الضبي ؛ بغية الملتمس. بيروت 1997
عبد الله بن بلكين.....؛ كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة، أو مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك
بني زيري بغرناطة، نشر بروفنصال، القاهرة 1955
الفيروز أبادي ؛ القاموس المحيط
القلقشندي..... ؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت 1987

المراجع

- بيرميخو، خواكيس فالفي؛ سكوت البرغواطي ملك سبتة، (ترجمة
عبد اللطيف الخطيب). مجلة "تطوان" ع11/ 1971
حسن إبراهيم حسن.... ؛ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.
الجزء الرابع. القاهرة 1967.
عنان، محمد عبد الله... ؛ نول الطوائف. القاهرة 1960.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية¹

سورة البقرة.....	18، 51، 52
سورة آل عمران	19، 93
سورة النساء	18، 74
سورة المائدة	21، 75، 93
سورة الأنفال.....	19، 75، 93.
سورة التوبة	5، 93، 96، 98، م8، م23
سورة يونس	51
سورة هود.....	5، 34، 76، 79
سورة إبراهيم.....	76، م8
سورة الإسراء	78
سورة الكهف	34، 78، 79
سورة الحج	34، 51، 52
سورة النور	21
سورة العنكبوت	93
سورة لقمان	78
سورة فاطر	32، 78، 86
سورة الزمر	م20
سورة غافر	96
سورة الصف	96
سورة محمد	53
سورة الفتح	20، 98
سورة القمر	72
سورة الحشر	96
سورة الجن	34
سورة المدثر	34، 76

¹ - الأرقام الواردة هنا هي أرقام الرسائل، وإضافة حرف (م) إليها في هذا الفهرس إشارة إلى رقمها في الملحق.

الأعلام البشرية¹

- ابن، أبو**
- ابن أبي حصّاد، القائد أبو أيوب 74
- ابن أبي عامر، أبو المطرف عبد الرحمن (الحاجب) .. 1
- ابن أبي عامر، المنصور (حاجب الخليفة هشام) 93، 1
- ابن أبي عامر، عبد الملك المظفر، الحاجب 1
- ابن أبي عامر، عبد العزيز انظر عبد العزيز
- ابن الأفطس، الموفق 30
- ابن الأفطس، المظفر [33، 30]
- ابن الأفطس، المتوكل [93، 92، 70، 69، 68، 67، 66، 65]
- ابن باديس، تميم بن المعز، أمير إفريقية [8]
- ابن باديس، المعز (أمير إفريقية) [37]
- ابن الحدّاد [59]
- ابن خيرة، أبو عبد الله، الوزير 63
- ابن الدبّاغ (وزير المعتمد) [68]
- ابن ذي النّون، المأمون، الظافر، ملك بطليوس [84، 79، 50]
- ابن رزين، عبد الملك بن هذيل [34]
- ابن رزين، هذيل [6]
- ابن طاهر (أبو عبد الرحمن) [9، 1، 16، 17، 19، 23، 44، 45، 46، 47، 54، 61، 63]
- ابن مجاهد انظر إقبال الدولة
- ابن محفور (صاحب شاطبة) [86]
- ابن صمّادح، المعتمد، (أمير المرية) [105، 104، 55، 35]
- ابن عائشة، القائد الأعلى ابن الحاج 64، 20، 18
- ابن عباد (الرشيد بن المعتمد) 97
- ابن عباد (الظافر، إسماعيل بن المعتمد) [72، 73، 76، 79، 81]
- ابن عباد (محمد المعتمد بن المعتضد) [48، 70، 82، 83، 86، 87]
- [88، 89، 90، 96، 97، 99، 101]
- ابن عباد، المأمون بن المعتمد 85
- ابن عباد (عباد المعتمد بن القاضي) [29، 48، 52، 53، 71، 74، 75، 76، 77، 78، 79]
- ابن عباد (القاضي محمد بن إسماعيل) 15
- ابن عباس، أبو جعفر، وزير بالمرية [20، 21]
- ابن عبد البرّ النّمري، أبو عمرو (عالم) [71]
- ابن عكاشة، حكّم (أو حريز) 83، 82
- ابن عمار (قائد ابن عباد) [84، 85، 86]
- ابن النّاصر ؟ 18

¹ - تشير الأرقام في الفهارس إلى رقم الرسالة المتضمّنة للعلم؛ والرقم الموضوع بين معنيين يشير إلى ورود الاسم في العنوان دون نص الرسالة، وقد لحأنا إلى هذا بسبب البتر الحاصل في الرسائل والذي كان سبباً في صياغ كثير من الأعلام، هذا إضافة إلى استعمال رموز مثل (فلان) عوض الاسم الحقيقي في كثير من الأحيان، وسيأتي بعد هذا فهرس الملحق.

- ابن غصن الحجارى، عبد الملك 50
 ابن هود، المقتدر، أحمد (ملك سرقسطة) [59، 49، 57، 60، 58]
 ابن هود، المستعين [106]
 ابن هود عماد الدولة، [106]
 ابن هود، يوسف، حسام الدولة (صاحب لاردة) 49

أبو

- أبو الإصبع بن ليون انظر: سعد الدولة
 أبو بكر عبد الملك بن عبد العزيز [23]
 أبو بكر بن طاهر انظر: ابن طاهر
 أبو بكر بن عبد العزيز (أمير بلنسية) 61، 60، [78]
 أبو الجيش انظر الموفق، مجاهد العامري
 أبو الحسن (مبعوث من إقبال الدولة إلى مصر) 39
 أبو الحسن، عضد الدولة ؟ 17
 أبو الحسن بن عبد الغنى الحصري 24
 أبو حفص عمر الهوزنى 52
 أبو مروان بن نجبة (مبعوث عن دانية) 42
 أبو مروان بن غصن (أديب) 50
 أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور (الحاجب) 1
 أبو طالب (وزير) 66
 أبو المنذر 17
 أبو عامر، التاكرتني (وزير بلنسية) [20]، 21
 أبو عبد الملك بن عبد العزيز (الوزير) [9]، [23]
 أبو شحمة بن عمر 75
 أبو هريرة 1
 أبو الوليد الحضرمي (وزير ابن الأفطس) [67]
 أبو الوليد بن المعتضد بن عباد 73

إ

- إدريس بن يحيى بن علي بن حمود، (العالى) 22، 23
 إدريس بن يحيى، (المتأيد بالله) [15]
 إنفش بن شانجه، الأنبيطور، الطاغية (الفونسو السادس) 96، 97، 99، 102
 أمير المومنين، (هشام المرواني) 1
 أمير المومنين عثمان بن عفان 3
 إقبال الدولة (ابن مجاهد، أمير دانية) [من رقم 30 إلى 42، 45، 56، 73، 79]

ب، ج، ح، خ، ر، ط

- باديس (بن حبوس) 72
 البكري (أبو عبيد) 6
 الجذامي، محمد بن الحسن 22، 23
 حبوس (بن ماكسن الزيري) [14، 16، 17، 18، 19].

- حسن بن الموفق (أخو إقبال الدولة) 32
 خليل الرحمن، (إبراهيم عليه السلام) 75
 الخضر (عليه السلام) 79
 رذمير (بن شانجه) 55
 الطالب انظر: علي بن حمود
 طلحة بن عبيد الله (من رجال ابن الأفطس) 66

ك، م

- كُرسيه (بن شانجه) 55
 الكميت (الشاعر) 14
 المتأيد انظر إدريس بن علي بن حمود
 محمد بن المستعين 2
 محمد بن عبد الله، البرزالي (أمير قرمونة) 14
 محمد، الأمير الأموي 75
 مرسية [59، 44]، 84
 مروان بن الحكم 3
 المطهر، عبد الرحمن (ابن المنصور ابن أبي عامر، الحاجب) 1
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) [58]
 المعيطي، (عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المرواني) 7
 معاوية بن أبي سفيان 3
 مقاتل، العامري (صاحب طرطوشة) [36]
 المستعين بالله، المرواني، خليفة قرطبة [2]، 3، 4، 5، [6، 7، 8]
 المستنصر الفاطمي، الحضرة العلوية [39، 38]، 40، 41، 42، 43
 الموفق، مجاهد العامري، أبو الجيش [7]، 17، 18، 24، 25، 26،
 27، [29]، 30، 32
 المؤتمن (ملك سرقسطة) [61]، 62، 63
 المؤتمن والمعتصم، أمير بلنسية انظر المنصور عبد العزيز

ن، ص، ع

- نافع بن الأزرق 14
 نوح (النبي) 77
 صاحب برشلونة (رامون برينجير) 49
 صاحباً شاطبة (لييب ومجاهد العامريان؟) [19، 16]
 العالي انظر: إدريس بن يحيى الحمودي
 عبد ربه ؟ 14
 عبد الرحمن بن مطروح (مبعوث المنصور) 28
 عبد الرحمن، أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور 1
 عبد الله الأمير الأموي 75
 عبد الله بن المنصور (الحاجب) 75
 عبد الله بن عمرو بن العاص 1
 عبد الملك بن عبد العزيز [46، 23]
 عبد العزيز، المنصور، المؤتمن (حفيد الحاجب المنصور) 17، [24]، 25، [27]، 31، [32]، 73

- عتاد الدولة (أبو محمد بن سهيل، صاحب شقورة) ... 85
 عثمان بن عفان 3
 علي بن حمود، الطالبي، الناصر 7، [10، 9]، 11، [13، 12].
 علي بن يوسف (بن تاشفين) [106]
 عمر بن الخطاب 75
 عميد الدولة ؟ 17
 عضد الدولة، أبو الحسن ؟ 17

ف، س، ش، و، ي

- فرزند (بن شانجه)، ملك قشتالة وليون وجليقية .. 55
 القحطاني 1
 الناصر، علي بن حمود انظر: علي بن حمود
 سراج الدولة انظر: ابن عباد
 سطيح (كاهن جاهلي) 15
 سلمة (من جند إشبيلية) 32
 سعد الدولة (ابن ليون) 104
 شقّ (كاهن جاهلي) 15
 هشام المزعوم 14، 15، 28
 هشام، المؤيد 1، 15
 وائل 23
 وادي شوش (شرقي قرمونة) 72
 يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين [92]، 95، 98، 103، 104، 105، 106

فهرس الجماعات والقبائل

- آل خالد (من الموالي بالأندلس) 2
 الإفرنج (الفرنسيون) 20، 83
 أهل قرطبة 8، 13، [71، 14]
 بنو أبي عبدة (من الموالي بالأندلس) 2
 بنو أمية 2، 78
 بنو بسيل (من الموالي بالأندلس) 2
 بنو حدير (من الموالي بالندلس) 2
 بنو ذي اللون [82]
 بنو العباس 73، 74، 78
 بنو شهيد (من الموالي بالأندلس) 2
 البرابرة 13
 البشاكنة (من البشكنس، أهل نبارا) 48
 جديس 14
 حمير 96
 الخلفاء الراشدون 1
 الروم (الأسبان عامّة) 20، 92

طسم	14
النصارى (المرتزقة)	48
الفرس	73
قريش	2، 1

الأعلام الجغرافية

أ، ب

المرية	104، [21، 15]
الأندلس، الجزيرة	3، 8، 17، 18، 23، [51، 74]، 89، 92، 97
إفريقية	[37، 91]
إشبونة	73
إشبيلية	32، [48، 58، 73، 74]، 97، 100، [101]
بريشتر	[51، 52، 54، 56]
برشلونة	49
بطلوس، الكرّمات،	103، [63، 68، 92]
بلنسية	[20، 21، 24، 25، 30، 35، 47، 78]
بسطة	79
بياسة	85

ج، د، و، ز

الجزيرة الخضراء	74
جيان	12، [23]
دانية	[24، 25، 29، 34، 37، 38، 41، 42، 45]
الرصافة	1
الزلاقة	[99، 100، 101، 102، 103]
الزهراء	1

ط، ل، م

طليطلة	89
لاردة	[12، 57، 58]
لورقة	104، 105
ليبّط (حصن)	104، 105
مالقة	22، 23
مصر	38، [41]
المغرب	97
المغرب الأقصى (الأندلس)	38
منتشون (قصبّة)	58

ع، غ، ق

العدوة، (المغرب الوسط وإفريقية). 14

الغرب (الأندلسي)	74
غرناطة	[14، 16، 19، 35]، 87، [89، 88]
قرطبة	[8، 3]، 9، [72، 15]، 77، 82، [83]، 84
قرمونة	[14]
قلعة (القائد أبي أيوب)	74
القلعة القلهرية	54
قورية	92، 103
س، ش، وا	

سرقسطة	[8، 9، 17، 18، 19، 48]، 49، [51]، 55، [58، 59، 61، 62، 63]
سرية	92
السهلة (إمارة بني رزين)	[5، 20، 34]
شاطبة	[16، 19، 86]
شلب	29
وشقة	55

فهرس أعلام الملحق

الأعلام الفردية والجماعية

أبن، أب

أبن الأفطس، المنصور،	
عبد الله بن محمد بن مسلمة	20
أبن حيان	[3]
أبن ذي النون (المأمون)	[3]
أبن رزين، عبد الملك بن هذيل	[18]
أبن طاهر (أبو عبد الرحمن)	[9، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 21]
أبن صمادح، المعتصم، (أمير المرية)	[24، 25، 26]
أبن عباد (محمد المعتمد بن المعتضد)	4، 6، 7
أبن عباد، سراج الدولة، الظافر، عباد بن المعتمد ...	3
أبن عبد البر التمرى، أبو عمرو (عالم)	[11، 19]
أبن عكاشة (حريز)	[22]
أبن شرف، أبو الفضل بن جعفر	[10]
أبن هود، المقتدر، أحمد (ملك سرقسطة)	[12، 14]
أبن هود، عماد الدولة، عبد الملك	13
أبن هود، يوسف، حسام الدولة (صاحب لاردة) ..	[12]
أبو بكر عبد الملك بن عبد العزيز (أمير بلنسية) ..	12، 13، 14، 15، 16، 21
أبو عبد الملك بن عبد العزيز	9

ا، ب، ت، ح، د، ر

- أذفش بن شانجه، الأنبيطور، الطاغية (الفونسو السادس).. 4، 6، 7
 البير هانس (مبعوث قشتالي) 4
 البكري، أبو عبيد 6
 تميم بن المعز (أمير إفريقية) 8
 الحارث بن هشام 3
 حسام الدولة - الحاجب 19
 داود، القائد المرابطي [ابن عائشة] 8
 ربيعة بن مكرم 2

م، ع، ف، ي

- المأمون بن ذي النون [22]
 المعتمد بن عباد، العبادي 3، 4، [6]، 7، 8
 المعتصم (بن عبد العزيز؟) 11
 عبد الله [عز الدولة، بن المعتصم بن صمادح] ... 26
 الفتح، بن خاقان 2
 هذيل بن رزين [19]، انظر: حسام الدولة
 يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين [5]، 7، 8، 9، 10، [17-21]
 زناتة 8
 صنهاجة 8
 لمتونة 7

الأعلام الجغرافية

- إشبيلية 8
 بطليوس، الكرّمات، الغار 7، 8
 بلنسية 9، [10]، 11، 13، 15، [16]، 21
 الجزيرة الخضراء 8
 رضوى (جبل) 10
 الزلاقة [6]، 7، 8
 طليطلة 4، 7
 طنجة 8
 مرسية [11]
 المغرب، العدو، المغرب الأقصى [7]، 8
 المهديّة 8
 القسطنطينية 22
 قورية 8
 قونكة [21]

فهرس المواضيع والرسائل

العناوين ص

تقديم 3
مقدمة المؤلف 5

القسم الأول : نهاية فترة الخلافة المروانية
وتجربة الخلافة الحمودية

قراءة تاريخية مختصرة للقرن الخامس

أولاً؛ مرحلة احتضار الخلافة في قرطبة 9
ثانياً؛ عصر ملوك الطوائف 11
* خريطة للأندلس من الخلافة إلى عصر الطوائف (399- 430) 33

القسم الثاني ؛ نصوص الرسائل

أولاً - رسائل عن خلفاء قرطبة المروانيين والحموديين
(مطلع القرن الخامس)

- 1 - محاولة نقل الخلافة من البيت الأموي.
(عقد ولاية العهد للحاجب ابن أبي عامر) 37
- 2 - تنصيب المستعين بالله ابنه ولياً للعهد 39
- 3 - محاولة خليفة قرطبة المستعين بالله
استمالة جماعة الموالي (الصفالبة) 40
- 4 - ردّ الخليفة المستعين على امتنان الموالي
(العامريين) بفضله على الدولة الأموية 41
- 5 - رسالة عن المستعين إلى هذيل ابن
رزين أمير السهلة يحثه على طاعته 42
- 6 - رسالة أخرى عن الخليفة المستعين إلى
[ابن رزين؟] ربما في موضوع سابقته 43
- 7 - رسالة عن المستعين إلى ابن [رزين] حول
قيام مجاهد العامري وعلي بن حمود ضده 44
- 8 - رسالة عن المستعين خليفة قرطبة إلى منذر بن يحيى
صاحب سرقسطة مشيراً إلى اختلاف أهواء الرعية 45
- 9 - إقرار خليفة قرطبة (الناصر) علي بن حمود للمنذر
بن يحيى علي ما في يده من ثغور منطقة سرقسطة 45
- 10 - رسالة عن [علي بن حمود؟] في عتاب من تخلى عن بيعته 46
- 11 - رسالة عن [ابن حمود؟] إلى ابن صمادح حول ناكث خاب مسعاه 47
- 12 - رسالة عن علي بن حمود إلى والي جيان

- 47 في جمع الواجبات الزراعية نقداً لا عيناً
13- رسالة عن أحد الخلفاء [الحموديين]؟
48 حول انحراف من كان موضع ثقة
49 * جدول نسب أواخر الخلفاء من بني أمية في قرطبة
49 * جدول نسب بني حمود خلفاء قرطبة
50 * جدول نسب بني حمود ملوك مالقة والجزيرة
51 * لائحة بأسماء ممالك وملوك الطوائف

ثانياً: رسائل عن ملوك الطوائف

أ - إمارات الجنوب الشرقي والشرق

- 54 * تقديم
14- رسالة عن حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله أمير قرمونة
56 في الدعوة إلى لزوم أمر الجماعة
15 - دعوة صاحب ألمرية زهير الفتى [العامري] أهل قرطبة للتخلي عن بيعه هشام [المزعوم] إلى طاعة المتأيد إدريس الحمودي
57 16- رسالة ودية عن أمير غرناطة حبوس إلى صاحبي شاطبة
59 17- تنبيه من الأمير حبوس إلى [المظفر] ابن منذر [صاحب سرقسطة] لاستعانتة مع غيره من الأمراء بالنصارى
59 18- رسالة [عن حبوس]؟ إلى "ابن الناصر" منبهاً إلى خطر الاستعانة بالنصارى ضد المظفر [صاحب سرقسطة]
60 19 - حبوس أمير غرناطة في محاولة صلح بين صاحبي شاطبة والمظفر [أمير سرقسطة التجيبي] منبهاً إلى خطر الاستعانة بالنصارى
62 20 - جواب من وزير بلنسية التاكرتي إلى وزير ألمرية ابن عباس [حول موضوع التعاون أو التهديد بالتعاون مع البرشلونيين]
64 21 - جواب ابن عباس وزير ألمرية على رسالة التاكرتي وزير بلنسية بشأن [موضوع الاستعانة بالنصارى]
66 22 - تقديم عن إدريس العالي بالله الحمودي لأبي عبد الله محمد بن الحسن الجذامي على قضاء مالقة
68 23 - ظهير عن بلكين بن باديس (ولي العهد) حاكم مالقة وجيان بتثبيت وزير وقاضي أبيه أبي عبد الله الجذامي في منصبه
69 24 - [عتاب] عن المنصور أمير بلنسية إلى الموفق مجاهد العامري أمير دانية
69 25 - دعوة من سليمان ابن هود إلى الموفق صاحب دانية لتجاوز النزاع بينه وبين المنصور أمير بلنسية
70 26 - رسالة أخرى عن ابن هود إلى الموفق [في نجاح مسعى الصلح المذكور قبل]
70 27 - رسالة أخرى في نفس الموضوع وذكر عودة [سفير الصلح] بعد نجاح مسعاه
71 28 - رسالة عن المنصور صاحب بلنسية إلى "الخليفة هشام" [المزعوم] عن حدوث صلح بينه وبين الموفق صاحب دانية
72 29 - تهنئة من مجاهد العامري إلى صهره

- 74 المعتضد ابن عباد بمناسبة دخوله شلب
- 30 - جواب عن تعزية في وفاة الموفق مجاهد أمير بلنسية
- 75 من ابنه علي إقبال الدولة إلى المظفر ابن الأفطس
- 31 - رسالة ودية عن [إقبال الدولة] ابن مجاهد
- 75 إلى [عبد العزيز] المنصور ابن أبي عامر
- 32 - رسالة عن إقبال الدولة ابن مجاهد إلى
- 76 المنصور ابن أبي عامر عن غدر أخيه له
- 33 - رسالة ودية عن إقبال الدولة ابن مجاهد إلى المظفر ابن الأفطس
- 77 رسالة عن أمير دانية ابن مجاهد إلى ابن رزين حول نزاع
- 77 الأخوين [إبني هود] والنية في الهجوم على إمارته (السهلة)
- 35 - رسالة ودية عن إقبال الدولة علي ابن مجاهد أمير
- 78 بلنسية إلى المعتصم [ابن صمادح أمير غرناطة]
- 36 - رسالة عن علي إقبال الدولة ابن مجاهد إلى مقاتل
- 80 العامري صاحب طرطوشة يوصيه بخلفه من الأبناء
- 37 - رسالة عن إقبال الدولة علي بن مجاهد أمير
- 81 دانية إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية
- 38 - رسالة عن إقبال الدولة صاحب دانية إلى الخليفة
- 83 الفاطمي معذراً عن تأخر المواصله بين الطرفين
- 39 - رسالة عن إقبال الدولة إلى وزير الخليفة
- 84 المستنصر الفاطمي في موضوع سابقتها
- 40 - رسالة أخرى من إقبال الدولة إلى وزير المستنصر
- 85 الفاطمي مخبراً أنه كان في نية أبيه الاتصال به
- 41 - رسالة ود وإتحاف عن إقبال الدولة ابن مجاهد
- 86 أمير دانية إلى الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر
- 42 - رسالة تقدير وإجلال من أمير دانية إقبال
- 88 الدولة إلى مقر الخلافة الفاطمية
- 43 - رسالة تقدير إلى وزير الخليفة الفاطمي
- 88 صكاً لأمير مرسية ابن طاهر بتقديم قاض
- 44 - إلى الأحكام (أي القضاء) في إحدى الجهات
- 89 رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر إلى إقبال الدولة أمير
- 89 دانية مهتماً برجوع أحد المعامل إليه والظفر بالمنتزعي عليه
- 46 - رسالة من ابن طاهر إلى ابن عباد في تجديد الود بينهما
- 90 رسالة من ابن طاهر إلى ابن عبد العزيز صاحب
- 47 بلنسية بعد نجاح شفاعته في إطلاق سراحه
- 91 بلنسية بعد نجاح شفاعته في إطلاق سراحه

ب - ممالك الثغور (سرقسطة، طليطلة، بطليوس)

- 92 * تقديم
- 94 * خريطة للأندلس بين سنتي 433 و 478
- 48 - رسالة عن [المفتدر؟] ابن هود أمير سرقسطة إلى
- 95 المعتضد أمير إشبيلية قصد "تجديد العهد" بينهما
- 49 - رسالة عن يوسف بن هود [صاحب لاردة] إلى ابن جهور

- 95..... حول غدر أخيه أحمد [المقتدر] صاحب سرقسطة
- 50 - رسالة عن المقتدر ابن هود إلى المأمون بن ذي النون شاكرًا .
- 97..... على قبول شفاعته في سراح ابن غصن الحجاري.
- 51 - رسالة عن أهل بربرشتر إلى رؤساء الأندلس
- 98..... في الحث على تحريرها من يد النصارى
- 52 - رسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الهوزني
- 101..... في حث المعتضد على إنقاذ بربرشتر من يد النصارى
- 53 - عن المعتضد ابن عباد حول تهجمات النصارى على المسلمين وفشل مساعيه في توحيد العمل ضدهم.
- 104.....
- 54 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر في ذكر سقوط بربرشتر بيد النصارى
- 106.....
- 55 - رسالة من أبي عبد الرحمن محمد بن أبي طاهر إلى المعتصم بن صمادح حول عيث النصارى في ثغور سرقسطة.
- 106.....
- 56 - رسالة [ربما عن إقبال الدولة علي بن مجاهد في موضوع استرجاع بربرشتر خاصة]
- 107.....
- 57 - رسالة وذية عن المقتدر ابن هود إلى أخيه صاحب لاردة [المظفر حسام الدولة؟]
- 108.....
- 58 - رسالة عن المقتدر بالله (صاحب سرقسطة) إلى ابن عباد (صاحب إشبيلية عن سوء فعل أخيه صاحب لاردة ونفيه إلى منتيشون.
- 109.....
- 59 - طلب عناية [من أمير سرقسطة؟] إلى ابن عمار صاحب مرسية بان الحداد الوادي أشي
- 110.....
- 60 - رسالة عن المقتدر ابن هود من أجل العناية بالشيخ أبي الحسن بن عبد الغني الحصري
- 111.....
- 61 - رسالة عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى أبي بكر ابن عبد العزيز لنجاح سعيه في إنقاذ ابن طاهر من الاعتقال
- 112.....
- 62 - رسالة وذية عن المؤتمن بسرقسطة إلى ابن طاهر
- 113.....
- 63 - رسالة أخرى وذية عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى ابن طاهر
- 113.....
- 64 - فشل شفاعته ابن رزين لدى قائد بلنسية
- 114.....
- 65 - نصّ تولية من المتوكل ابن الأفطس المرابطي لاسترجاع ابن طاهر لممتلكاته
- 115.....
- 66 - المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس يعاتب ابنه والي يابرة لانصراف أحد رجاله عنه إلى المعتمد بن عباد
- 116.....
- 67 - عزل المتوكل (ابن الأفطس) لوزيره أبي الوليد ابن الحضرمي لسوء تصرفه.
- 116.....
- 68 - رسالة من المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد بعد لجوء وزيره ابن الذباج إلى بطليوس معتذراً عنه
- 117.....
- 69 - رسالة شفاعته من المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد
- 119.....
- 70 - رسالة عن المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد بن عباد في التواصل بينهما
- 119.....
- والإخبار عن مهاجمة الأعداء لأراضيه من النصارى والمسلمين

ج - مملكة بني عباد بإشبيلية

- * تقديم 121
- 71 - رسالة عن المعتضد بن عباد إلى أبي عمر ابن عبد البر النمري يستدعيه للاستفادة من علمه 123
- 72 - رسالة عن المنصور [إسماعيل ابن المعتضد] إلى أهل قرطبة يعدم بقرب وصول إمداداته إليهم 123
- 73 - جواب [عن إقبال الدولة؟] على رسالة للمعتضد ملك إشبيلية عن محاولة انتزاع ابنه عليه 124
- 74 - رسالة عن المعتضد ملك إشبيلية إلى أمراء الأندلس عن إفشال مؤامرتين ضده من طرف ابنه إسماعيل 125
- 75 - رسالة أخرى عن ابن عباد في نفس موضوع المؤامرة ضده 128
- 76 - رسالة أخرى عن المعتضد ابن عباد في نفس الموضوع إلى جهة مجهولة 132
- 77 - جواب عن المعتضد إلى ابن هود في شأن [المتأمرين] ضده بقرطبة 134
- 78 - جواب عبد العزيز ابن أبي عامر صاحب بلنسية على المعتضد في موضوع تأمر ابنه عليه وقتله 135
- 79 - جواب ابن مجاهد في موضوع المؤامرة ضد المعتضد من طرف ابنه إسماعيل 136
- 80 - رسالة عن المعتمد ابن عباد حول غدر من عقد معه سلماً 137
- 81 - رسالة عن المعتمد حول انتصار ابنه "الظافر" على جيش عدوه [المأمون ابن ذي النون] 137
- 82 - مقتل والي قرطبة ابن المعتمد ابن عباد إثر سقوطها في يد ابن عكاشة قائد ابن ذي النون 138
- 83 - رسالة عن المعتمد ابن عباد باستعادة قرطبة من بني ذي النون إلى نفوذه 139
- 84 - رسالة عن المعتمد بعد فتح مرسية على يد قائده ابن عمار 140
- 85 - رسالة عن المعتمد حول خضوع بياسة له والقبض على ابن عمار 141
- 86 - رفض المعتمد بن عباد شفاعة ابن محفور صاحب شاطبة في ابن عمار 142
- 87 - رسالة عن ابن عباد حول تجدد القتال مع غرناطة بسبب إخلالها بعقد السلم معه 143
- 88 - رسالة عن ابن عباد حول غدر أحد الرؤساء [أمير غرناطة؟] خلال اتفاق صلح بينهما 143
- 89 - تبرير ابن عباد حملته البرية والبحرية على مملكة [غرناطة؟] المتحالفة مع ملك طليطلة 144
- 90 - رسالة عن ابن عباد في ذكر صد هجوم أحد جيرانه على مملكته 146
- 91 - رسالة وذية عن المعتمد ابن عباد إلى الأمير الزيري بافريقية 147
- * خريطة الأندلس بين سنتي 478 و 483 148

- 95..... حول غدر أخيه أحمد [المقتدر] صاحب سرقسطة
- 50 - رسالة عن المقتدر ابن هود إلى المأمون بن ذي النون شاكرًا .
- 97..... على قبول شفاعته في سراح ابن غصن الحجاري
- 51 - رسالة عن أهل بربشتر إلى رؤساء الأندلس
- 98..... في الحث على تحريرها من يد النصاري
- 52 - رسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الهوزني
- 101..... في حث المعتضد على إنقاذ بربشتر من يد النصاري
- 53 - عن المعتضد ابن عباد حول تهجمات النصاري على المسلمين وفشل مساعيه في توحيد العمل ضدهم
- 104.....
- 54 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر في ذكر سقوط بربشتر بيد النصاري
- 106.....
- 55 - رسالة من أبي عبد الرحمن محمد بن أبي طاهر إلى المعتصم بن صمادح حول عيث النصاري في ثغور سرقسطة
- 106.....
- 56 - رسالة [ربما عن إقبال الدولة علي بن مجاهد في موضوع استرجاع بربشتر خاصة]
- 107.....
- 57 - رسالة ودية عن المقتدر ابن هود إلى أخيه صاحب لاردة [المظفر حسام الدولة؟]
- 108.....
- 58 - رسالة عن المقتدر بالله (صاحب سرقسطة) إلى ابن عباد (صاحب إشبيلية عن سوء فعل أخيه صاحب لاردة ونفيه إلى منتيشون
- 109.....
- 59 - طلب عناية [من أمير سرقسطة؟] إلى ابن عمار صاحب مرسية بان الحداد الوادي أشي
- 110.....
- 60 - رسالة عن المقتدر ابن هود من أجل العناية بالشيخ أبي الحسن بن عبد الغني الحصري
- 111.....
- 61 - رسالة عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى أبي بكر ابن عبد العزيز لنجاح سعيه في إنقاذ ابن طاهر من الاعتقال
- 112.....
- 62 - رسالة ودية عن المؤتمن بسرقسطة إلى ابن طاهر
- 113.....
- 63 - رسالة أخرى ودية عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى ابن طاهر
- 113.....
- 64 - فشل شفاعته ابن رزين لدى قائد بلنسية
- 114.....
- 65 - نصّ تولية من المتوكل ابن الأفطس المرابطي لاسترجاع ابن طاهر لممتلكاته
- 115.....
- 66 - المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس يعاتب ابنه والي يابرة لانصراف أحد رجاله عنه إلى المعتمد بن عباد
- 116.....
- 67 - عزل المتوكل (ابن الأفطس) لوزيره أبي الوليد ابن الحضرمي لسوء تصرفه
- 116.....
- 68 - رسالة من المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد بعد لجوء وزيره ابن الذبائح إلى بطليوس معتذراً عنه
- 117.....
- 69 - رسالة شفاعته من المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد
- 119.....
- 70 - رسالة عن المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد بن عباد في التواصل بينهما
- 119..... والإخبار عن مهاجمة الأعداء لأراضيه من النصاري والمسلمين

ج - مملكة بني عباد بإشبيلية

- * تقديم 121
- 71 - رسالة عن المعتضد بن عباد إلى أبي عمر ابن عبد البر التّمرى يستدعيه للاستفادة من علمه 123
- 72 - رسالة عن المنصور [إسماعيل ابن المعتضد] إلى أهل قرطبة بعدهم بقرب وصول إمداداته إليهم 123
- 73 - جواب [عن إقبال الدولة؟] على رسالة للمعتضد ملك إشبيلية عن محاولة انتزاع ابنه عليه 124
- 74 - رسالة عن المعتضد ملك إشبيلية إلى أمراء الأندلس عن إفشال مؤامرتين ضده من طرف ابنه إسماعيل 125
- 75 - رسالة أخرى عن ابن عباد في نفس موضوع المؤامرة ضده 128
- 76 - رسالة أخرى عن المعتضد ابن عباد في نفس الموضوع إلى جهة مجهولة 132
- 77 - جواب عن المعتضد إلى ابن هود في شأن [المتآمرين] ضده بقرطبة 134
- 78 - جواب عبد العزيز ابن أبي عامر صاحب بلنسية على المعتضد في موضوع تأمر ابنه عليه وقتله 135
- 79 - جواب ابن مجاهد في موضوع المؤامرة ضد المعتضد من طرف ابنه إسماعيل 136
- 80 - رسالة عن المعتمد ابن عباد حول غدر من عقد معه سلماً 137
- 81 - رسالة عن المعتمد حول انتصار ابنه "الظافر" على جيش عدوه [المأمون ابن ذي النون] 137
- 82 - مقتل والي قرطبة ابن المعتمد ابن عباد إثر سقوطها في يد ابن عكاشة قائد ابن ذي النون 138
- 83 - رسالة عن المعتمد ابن عباد باستعادة قرطبة من بني ذي النون إلى نفوذه 139
- 84 - رسالة عن المعتمد بعد فتح مرسية على يد قائده ابن عمار 140
- 85 - رسالة عن المعتمد حول خضوع بياضة له والقبض على ابن عمار 141
- 86 - رفض المعتمد بن عباد شفاعة ابن محفور صاحب شاطبة في ابن عمار 142
- 87 - رسالة عن ابن عباد حول تجدد القتال مع غرناطة بسبب إخلالها بعقد السلم معه 143
- 88 - رسالة عن ابن عباد حول غدر أحد الرؤساء [أمير غرناطة؟] خلال اتفاق صلح بينهما 143
- 89 - تبرير ابن عباد حملته البرية والبحرية على مملكة [غرناطة؟] المتحالفة مع ملك طليطلة 144
- 90 - رسالة عن ابن عباد في ذكر صد هجوم أحد جيرانه على مملكته 146
- 91 - رسالة وذية عن المعتمد ابن عباد إلى الأمير الزيري بإفريقية 147
- * خريطة الأندلس بين سنتي 478 و 483 148

د - العلاقة بين ملوك الطوائف والمرابطين بعد سقوط طليطلة

- * تقديم 149
- 92 - استنجد المتوكل على الله ابن الألفطس
أمير بطليوس بيوسف بن تاشفين 150
- 93 - رسالة جوابية عن المتوكل ابن الألفطس
على رسالة تهديد من ألفونسو ملك قشتالة 152
- 94 - رسالة عن المعتمد إلى الولاة والعمال بجمع مال السلم (الإتاوة)
من خدام الدولة لعجز الرعية عن ذلك بسبب القحط والجراد 153
- 95 - رقعة من المعتمد إلى رجال دولته بتحديد الحصص المالية
الواجبة على كل منهم لتسديد مبلغ الهدنة مع القشتاليين 153
- 96 - جواب من ابن عباد على رسالة إلى ملك
قشتالة تحمل طلباً بتسليم بلاده لرجال دولته 154
- 97 - استنجد ابن عباد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين 155
- 98 - رسالة استنجد أخرى بالمرابطين من
إنشاء ابن الجذّ وزير وكاتب المعتمد 156
- 99 - إخبار من ابن عباد على جناح الحمام لابنه الرشيد
في إشبيلية بالنصر في الزلافة على القشتاليين 157
- 100 - رسالة عن المعتمد حول هزيمة القشتاليين في الزلافة 157
- 101 - رسالة أخرى من ابن عباد بأرض الزلافة إلى ابنه بإشبيلية
مخبراً بالانتصار على القشتاليين 158
- 102 - رسالة عن المعتمد إلى ولاته حول ظروف معركة الزلافة 159
- 103 - التخطيط لاسترجاع قورية وتحرك القشتاليين
جنوباً إلى سهل الزلافة حيث كانت هزيمتهم 160
- 104 - رسالة عن المعتمد إلى المعتصم ابن صمادح صاحب
المرية حول ضم لورقة إلى نفوذه وحصار لبيط 162
- 105 - جواب ابن صمادح صاحب المرية على رسالة
المعتمد خلال أو بعد حصار حصن لبيط 163
- 106 - رسالة عن عماد الدولة ابن هود إلى علي بن يوسف
المرابطي مذكراً بعهد المسالمة بين أبيهما 164
- * خريطة للأندلس بين سنتي 483 و 509 166

رسائل الملحق

الصنف الأول؛

رسائل الانتصارات والتهاني وما يتعلق بها

- 1 - رسالة عن بعض أمراء الثغور إلى قوم من النصاري في
تحذيرهم من نقض السلم، والتهديد بقرب الحركة إليهم 168
- 2 - تهنئة من إنشاء الفتح ابن خاقان لأمرير بما فتح عليه 168

- 3 - تهنئة من إنشاء ابن حيان إلى ابن
عباد بانتصاره على ابن ذي النون..... 169
- 4 - رسالة من ملك قشتالة إلى ابن عباد
يدعوه لتسليم ما بيده من البلاد..... 170
- 5 - رسالة استفزاز من الفونسو
القشتالي إلى يوسف بن تاشفين..... 171
- 6 - رسالة من أبي عبيد البكري إلى المعتمد
ابن عباد مهتفاً بالانتصار في الزلاقة..... 172
- 7 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى
أهل المغرب عن انتصار الزلاقة..... 173
- 8 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى تميم بن المعز
أمير المهدية عن انتصار المسلمين في الزلاقة..... 174
- 9 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي عبد الملك
ابن عبد العزيز عن دخول المرابطين بلنسية..... 179
- 10 - رسالة للكاتب أبي فضل جعفر بن محمد ابن
شرف في فتح بلنسية من طرف المرابطين..... 180

الصنف الثاني؛

رسائل لابن عبد البر النمري وابن طاهر أمير مرسية (سابقاً)
عن علاقتهما بابن أبي عامر أمير بلنسية والسلطة المرابطية

- 11 - تهنئة من الكاتب ابن عبد البر النمري
إلى أمير بلنسية بتعيين ابنه ولياً للعهد..... 181
- 12 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب لاردة المظفر
[ابن هود يوسف حسام الدولة أخي المقتدر]..... 181
- 13 - رسالة من ابن طاهر إلى الحاجب
عماد الدولة [عبد الملك بن هود]..... 182
- 14 - رسالة من ابن طاهر إلى [المقتدر]
ابن هود ربما في موضوع سابقتيها..... 182
- 15 - رسالة من ابن طاهر إلى القادر
ابن ذي النون في نفس سابقاتها..... 183
- 16 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب
المرية عن اهتمام صاحب بلنسية به..... 184
- 17 - رسالة من ابن طاهر إلى الأمير يوسف بن
تاشفين معترفاً عن صعوبة الانتقال إليه..... 184

الصنف الثالث؛ في مواضيع الود والتعازي والحوادث

- 18 رسالة من ابن طاهر إلى حسام الدولة أبي مروان ابن رزين
صاحب السهلة جواباً على رسالة وتية منه..... 185
- 19 - رسالة تعزية من إنشاء ابن عبد البر النمري
ربما في وفاة هذيل ابن رزين..... 185

- 20- تعزية من إنشاء ابن عبد البرّ إلى المظفر
 محمد ابن الأقطس في وفاة أبيه المنصور.....186
 21 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي بكر عبد الملك
 بن عبد العزيز عند الحادث في قونكة.....187

الصنف الرابع؛ منوعات

- 22 - رسالة عن المأمون بن ذي النون إلى قائده
 ابن عكاشة لاختياره كاتباً غير مناسب.....188
 23 - تقديم النصّح لأحد الأمراء188
 24 - فصل من عقد أمان ربما عن المعتصم بن صمّاح أمير المرية.....190
 25 - عقد أمان آخر ربما عن ابن صمّاح أيضاً190
 26 - نموذج من نصّبيعة قد تخصّ عزّ الدولة
 عبد الله بن المعتصم بن صمّاح صاحب المرية.....191

الببليوغرافيا والفهارس

- الببليوغرافيا193
 الفهارس195

مساهمات المؤلف في الكتب والدوريات

أولاً؛ المساهمة في المؤلفات

- 1 - المساهمة في كتابة ثلاثة فصول عن المرابطين والموحدين والمرينيين (بتنسيق مع الأستاذ محمد كنيبي) في:
(La Grande Encyclopédie du Maroc (Histoire). 1988
- 2 - المساهمة في تأليف الموسوعة الحضارية المغربية "مطمة المغرب"...
سلا 1989-2010 (أكثر من 70 مادة، انظر عناوينها في آخر كتابنا:
نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي)
- 3 - المساهمة في تأليف كتاب "البحر في تاريخ المغرب"،
(إصدار كلية الآداب - المحمدية)..... 1996
- 4 - المساهمة في تأليف كتاب "الأرشيف وكتابة تاريخ المغرب"
(إصدار بلدية مدينة صفرو) 1999
- 5 - المساهمة في تأليف كتاب:
Le Maghreb Al Andalus et La Méditerranée Occidentale (VIII^e -
XIII^e Siècle). TOULOUSE . 2007
- 6 - المساهمة في تأليف كتاب : "السلطة المركزية والزعامات المحلية
بالجنوب المغربي" ، (إنجاز كلية الآداب بالرباط والجمعية المغربية
للبحث التاريخي..... سنة 2010)
- 7 - المساهمة في إنجاز : "المغرب في عهد الوطاسيين- من خلال وصف
إفريقيا للحسن الوزان.(منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية)
القسم الأول من "سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية"..... الرباط 2011

ثانياً ؛ مقالات منشورة في الدوريات

- * في مجلة كلية الآداب - عين الشق
- 1 - حول مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية" في:
"حوليات كلية الآداب" ع / 3
 - * في مجلة كلية "الآداب والعلوم الإنسانية" بالقيظرة
 - 2 - علاقات السلم والتجارة بين الغرب الإسلامي وأوروبا المتوسطية
من خلال رسائل نيوانية" ع1/ 1999
 - 3 - محتويات مصادر تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط ع2/ 2000
 - 4 - حول تحقيق رسائل الغرب الإسلامي (ق6-8)..... ع3/ 2002
 - 5- ملحق برسائل الغرب الإسلامي (الفترة الموحدية الأخيرة)..... ع4/ 2004
 - 6 - الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الانقسام؛

- (1) مساهمة أتباع العباسيين في إضعاف نفوذ الدولة الموحدية ع 6 / 2006
7 - الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الانقسام،
(2) محاولات "الترميم" الموحدية ع 8 / 2008
8 - ذيل على رسائل موحدية - في تعازي رجال السلطة ع 9 / 2009

*** في مجلة المناهل**

- 9 - مصادر جديدة للرسائل الموحدية العدد 53 / سنة 1996
10 - ذيل على رسائل موحدية: في موضوع الشكاوى ع 55 / سنة 1997
11 - الجهاد المريني في الأندلس (أو مشيخة الغزاة المرينيين) ع 85 / 2009

*** في مجلة أمل**

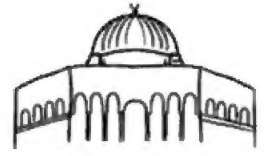
- 12 - المغرب بين الصمود والتراجع، قراءة وثائقية
(القرون 6، 7، 8هـ) ع 21 سنة 2000
13 - الغرب الإسلامي من خلال رسائله
[تعريف بأطروحة] ع 22/ - 23 / 2001

*** في مجلة دعوة الحق**

- 14 - ذيل على رسائل موحدية؛ رسائل شاطبية ع / 350، مارس 2000
15 - من نوادر المكتبة المنونية ع 370 / 2002
16 - الإشارات الدينية في الرسائل الموحدية ع 377 / 2004

*** في مجلة فكر (المغربية)**

- 17 - العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي (العصر الوسيط)
أولاً؛ بين الغرب الإسلامي والغرب المسيحي ع 7 / 2008



اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِأمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها





اللهم نج المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بأمة نبيك
محمد ﷺ وارحمها وفرج كربها

المؤلف

أستاذ جامعي، كلية الآداب- القنيطرة. المملكة المغربية

صدر له من الكتب:

- 1- رسائل موحدة- مجموعة جديدة، في جزئين.....(1995- 2001)
- 2- سائل ديوانية موحدة.....(2006)
- 3- الغرب الإسلامي خلال القرنين 7، 8 هـ ، دراسة وتحليل لرسائله، (في أربعة أجزاء)..... (2006- 2007)
- 4- مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي (جزآن) ط- 1، 2، 3..... (2007- 2012)
- 5- نصوص محللة في تاريخ الغرب الإسلامي (2008)
- 6- الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن: دراسة تاريخية لديوانيات ربحانة الكتاب لابن الخطيب.(2008)
- 7- المغرب والأندلس خلال القرن السابع/13م من خلال ديوانيات فصل الخطاب..... (2008)
- 8- رسائل ابن عميرة الديوانية (دراسة وتحقيق) (2008)
- 9- الشرفاء الأدارسة أولاد سيدي عبد الله بن عزة (2008)
- 10- قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمريني (2010)
- 11- نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي:
(عصور الموحدين، المرينيين، الحفصيين، النصرين).....(2011)
- 12- رجال الإدارة والأعيان في العصر المريني (من خلال رسائل شخصية لابن الخطيب).....(2011)
- 13- العلاقات المغربية الأندلسية في القرن الرابع (2011)
- 14- العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط
(القرون 6-9هـ)، الأجزاء 1، 2، 3 (2011)
- 15- رحلات لابن الخطيب بالأندلس والمغرب (ثلاثة نصوص مع قراءة تاريخية).....(2012)



تركز اهتمام الباحثين في عصر الطوائف بالأندلس على الجانب الأدبي خاصة، إذا استثنينا بعض الأبحاث المحدودة في مواضيع أخرى، ونظراً لاهتمامنا بمادة المراسلات الديوانية منذ إنجازنا في أواخر القرن الماضي للبحث المتعلق بالرسائل الموحدة والفترة اللاحقة، فقد ظهرت لنا فكرة تجميع المراسلات الديوانية الخاصة بعصر الطوائف وتحقيقها ودراستها دراسة أولية من أجل التعرف على الأوضاع السياسية والعلاقات بين ملوك الطوائف داخلياً ومع الإسيان وجهات إسلامية خارجية، ونأمل أن نكون قد قدمنا